دعوة
من جامع الأحكام
من تفسير الإمام القرطبي
رسالة دكتوراه بامتياز

الشيخ الدكتور
محمد بن حامد حَوَارِيّ

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأعراف (٧)

تبدأ السورة بمخاطبة الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بأن الله تعالى قد أنزل عليه القرآن، وأن عليه تبليغه للناس كافة، ويدعوهم ليتبعوه بالإيمان به والعمل بكل أمر ونهي فيه ولا يتبعوا غيره هو والسنة التي تكمله وتبينه، وأن لا يحزن لعدم استجابتهم لذلك، وله في الأمم السابقة التي أعرضت عن كتب الله فأصابها ما تستحقه من العقوبة خير عزاء، وتعلمه بأنه تعالى محاسبهم جميعاً عن ذلك يوم القيامة جنباً إلى جنب مع رسلهم المكلفين بتبليغهم والذين يشهدون عليهم بالتبليغ بشهادة الله ثم المسلمين على ذلك، ويومها يكون ميزان الأعمال بمنتهى الدقة والحق، فمن رجحت حسناته فقد أفلح ومن خفت فقد خسر وظلم نفسه.

لقد يسّر لهم المولى سبحانه أسباب المعيشة على الأرض فجحد أكثرهم النعم، وخلقهم على أفضل صورة من صور الخلق وأحسن تقويم كنسل من أبيهم آدم الذي أكرمه الله بأمره للملائكة بالسجود له فأطاعوا إلا زعيم الشياطين إبليس الذي استكبر عن السجود بحجة أنه خير من آدم لأنه خلق من نار بينما آدم خلق من الطين، فطرد من السماء طرد الأذلاء الصاغرين وإن منحه الله تعالى البقاء إلى يوم البعث والحساب بناء على ضراعته، ولكنه عاد والله عالم به لاستكباره بقدرته على الغواية فطرد من الجنة لتنتظره جهنم هو وأتباعه الخارجين على طاعة الله.

وهنا تقف السورة مع أول محاولات إبليس الناجحة في الغواية، مع آدم وزوجته عليهما السلام، بعد أن أنعم الله عليهما بالسكنى في الجنة والأكل من كل ثمراتها باستثناء شجرة واحدة، ولكنهما استجابا لوسوسة الشيطان التي أدت لانكشاف عورة كل منهما، والتي تركزت على تأويل أمر الله تعالى لهما بشكل يجعل الاستجابة إليه هي الحق ولا سيما أنه بدهائه لجأ إلى الحلف على ذلك، وقد كانا يستبعدان أن يلجأ أي مخلوق إليه كذباً، وذلك عندما أكد لهما أن القصد من ذلك هو كراهة أن يكونا ملكين أو خالدين، وكأنه يقول: إن ذلك من المستحيل على من خلق من الطين مثلهما.

فغرر بهما وأكلا ولو بمجرد الذوق القليل من الشجرة فوقعا في مخالفة أمر الله فانكشفت سوءتاهما وأخذا يبحثان عن ورق من أشجار الجنة يغطيانهما به، ولكن الحساب جاءهما من ربهما عندما سئلا عن سبب مخالفة أمر النهي عن هذا الأكل، وعن الاستجابة لعدوهما الشيطان وغوايته، وأنهما أقرا بظلم نفسيهما بالعصيان، وطلبا المغفرة والرحمة، فاستجيب لهما ولكن استجابة جزئية إذ طردا من الجنة وأهبطا الأرض ليعيشا فيها هما ومن يخلفان من الذرية بقدر أجل كل منهم المحتوم مع بقاء العداوة

الأبدية بينهما وذريتهما من جهة وإبليس وشياطينه من جهة أخرى، والفائز من استجاب لربه ورفض طاعة إبليس وشياطينه من الإنس والجن طيلة حياته على الأرض حتى يوافيه انتهاء الأجل ويدفن في قبره ليخرج منه للحساب على أعماله يوم القيامة.

وتلتفت السورة بعدها لربط قصة الأبوين بأبنائهما إلى يوم القيامة فتخاطبهم بما منّ الله عليهم، مذكرة لهم بأن الدنيا موفورة اللباس لتغطية السوءات، وإنما هو الجهد المبذول ليصلوا إليه كما يصلوا إلى كل ضرورات الحياة، ولكن ليذكر كل واحد منهم أن لباس الطاعة لله هو الأفضل في الدنيا والآخرة لكل منهم ولا يعادله أي لباس آخر مهما غلا ثمنه من الألبسة الموفورة، والمهم أن لا يقع أحدهم في براثن فتنة الشيطان فيحرم من الجنة إذا لم تحسن أوبته إلى ربه قبل الموت.

وليعلموا بأن الشياطين يترصدونهم كل مرصد دون أن يروهم، وأن الكفار فقط هم الذين يتبعونهم ويستجيبون لهم، وهم يزعمون أن الإقدام على أي منكر أو فاحشة ما هو إلا اتباع لآبائهم واستجابة لأمر الله بها، مما يجرؤون به على الكذب على الله الذي لا يأمر بفحشاء، ولكنها القحة في الافتراء والكذب ممن عدموا النزاهة والحق في القول والفعل!

ولذلك أمرت الآية التالية المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بأن يخبرهم تفنيداً لمزاعمهم بأن الله لا يأمر إلا بالعدل وإقامة الصلاة والدعاء الخالص له تعالى قبل أن ينتهوا إلى الموت والعودة إلى الطين الذي هو بدايتهم، وأن يعلموا أن من يتبع أمر الله ونهيه فهو المهتدي ومن يعرض عن ذلك فهو الضال الذي استجاب للشيطان وظن أنه مع الرحمن، ولكن أنى له ذلك!!

وأن عليهم كأبناء آدم أن يحذروا هذا الشيطان ويتزينوا بألبستهم الكاملة الطيبة عند الصلاة في المسجد الحرام وغيره ولا يكونوا عراة مطلقاً، وأن يأكلوا ويشربوا مما أحله الله من الطعام والشراب ولا يتعدوه إلى الحرام، وأن لا يحرموا ما أحل لهم من الملابس والرزق الطيب من الطعام والشراب لأنها كلها من نعم الله عليهم في الدنيا ويخص بها المؤمنين في الآخرة، وأن يتجنبوا ما حرم عليهم ربهم من الفواحش ومن الأعمال القبيحة سواء الظاهرة منها للعين أو الخفية، ويتجنبوا الإثم من شرب الخمر، والبغي كظلم الآخرين، والشرك، وليعلموا أن لكل أمة منهم كما لكل فرد وقت معلوم ينتهي فيه إلى الموت.

وإياكم عندما يرسل الله الرسل باصطفائه تعالى لهم من بينكم ليبلغوكم آياته أن

تكذبوهم وتستكبروا على طاعتهم ولكن عليكم الاستجابة لهم بطاعة الله التي يأمرونكم بها، لأن من يخش الله ويصلح في الاستجابة لرسله فهو الآمن عند الله وأما المكذب المستكبر فهو الخائف عند الله وله الخلود في النار.

وتواصل السورة منذرة ومحذرة كفار قريش والعرب ومن على شاكلتهم في الأرض، منذ نزول الإسلام حتى يرث الله الأرض ومن عليها من أن ينضموا إلى أمم سبقتهم من الجن والإنس للدخول في النار بحيث يلعن بعضهم بعضاً إذا قلدوهم واتبعوهم فنالوا مصيرهم، وبحيث تقول آخر أمة لأولها متى التقوا جميعاً في النار بأن هذه هي الأمة التي أضلتنا وأنها لهذا تستحق العذاب المضاعف في النار، فيرد عليهم المحاسب العادل بأن لكل منكم ضعف العذاب، وأن أحداً منكم يا أهل الدنيا لا يعلم مقدار ما تكونون عليه من العذاب، واسمعوا لأولاهم وهي ترد الهجوم على أخراهم بأنه لم يكن لهم عليهم من فضل إذ كفروا مثلهم دون أن يكرهوهم على ذلك وفعلوا مثلهم فعذابهم مثل عذابهم.

واسمعوا القرار الرباني لهم ولكم أنتم أيها الأحياء قبل أن تنضموا إلى عالم الأموات بأن من يكذبوا بآيات الله ويستكبروا عنها فإنهم لن يجدوا طريقهم كالمؤمنين الصالحين إلى السماء ولن يدخلوا الجنة مطلقاً كمجرمين متمردين على طاعة الله ورسوله، وسيكون جزاؤهم دخول جهنم حيث يجدون لهم فرش النار من تحتهم وأغطية النار من فوقهم، وأن ذلك هو جزاء من ظلم نفسه بالشرك والتمرد على طاعة الله.

أما من آمن وعمل صالحاً فإن الله تعالى لن يكلفه من الطاعات والبر من الأعمال إلا بقدر طاقته، وأنه سيكون من أصحاب الجنة حيث لن يستشعر الحقد والحسد نحو غيره من أهل الجنة بل الكل يتمتعون بنعم كثيرة منها تلك المياه الجارية من تحت مساكنهم، ولا يسمع منهم إلا الثناء والشكر للمنعم المتفضل الذي كافأهم على اتباعهم الهدى ورفضهم الضلال عندما اتبعوا ما أمرهم به رسل الله من الحق ورفضوا ما حاول الشيطان غوايتهم به من الباطل فدعوا إلى الجنة يرثونها بطيب وصالح أعمالهم وفضل الله ورحمته بهم.

وتنقلنا السورة إلى هذا الحوار الآخذ بمجامع القلوب بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ومن بينهم من أصحاب الأعراف، فنجده يبدأ بسؤال أهل الجنة لأهل النار فيما إذا وجدوا ما وعدهم ربهم حقاً كما وجدوا هم، فيبادرون للإقرار بأنهم قد وجدوا ذلك فعلاً وصدقاً، فيسمعون جميعاً الحكم الفصل من بينهم بأن لعنة الله على

الظالمين الكافرين الذين يصدون الناس عن الإسلام ويعرضون عن سبيل الله ويكفرون بالآخرة.

ثم تذكر السورة ذلك الحجاب الذي يفصل بينهم وهو الأعراف الذي يجلس عليه رجال يعرفون أهل الجنة وأهل النار بالعلامات المميزة لكل منهم، فينادون أصحاب الجنة بإلقاء السلام عليهم والقول بأنهم لم يدخلوها مع علم سابق لهم بذلك، لأن أحداً لا يعرف من يستحق فضل الله ورحمته ليدخل الجنة. ثم تتجه أبصارهم إلى أصحاب النار وهول ما هم عليه، فيدعون الله ألا يجعلهم مع هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم فاستحقوا النار بشركهم، ثم ينادون رجالاً منهم يعرفونهم بعلامات أهل النار فيسألونهم عما نفعهم به تجمعهم وقوتهم واستكبارهم عن الإيمان وعن أولئك المؤمنين الفقراء كبلال وسلمان وخباب الذين كانوا يقسمون أنهم لن يحصلوا في الآخرة على أي نصيب من رحمة الله، ويدعونهم موبخين لهم لينظروا إليهم وهم يدعون لدخول الجنة دون خوف ولا حزن.

وهنا يأتي دور أهل النار فينادون أهل الجنة ويطلبون منهم أن يفيضوا عليهم من الماء أو غيره من رزق الله، فيردون عليهم بأن ذلك كله محرم على الكافرين الذين كانوا يسخرون من الدين، ويركضون وراء متعهم وشهواتهم في الدنيا، وأن جزاءهم في الآخرة الترك في النار كما تركوا العمل للآخرة وجحدوا آيات ربهم في الدنيا وقد جاءتهم بالقرآن الواضح المفصل لكل عاقل متدبر طالب للهدى ومبتغٍ لرحمة الله.

ثم تسألهم مقرعة مستنكرة بأنهم ماذا ينتظرون غير ما وعدوا به في القرآن من العقاب، وأنهم متى لاح لهم ذلك يقرون بأن ما بُلغوا به من الرسل هو الحق، وأنهم يتمنون أن يشفع لهم شافع عند الله أو يردوا إلى الدنيا ليغيروا مسارهم من الباطل إلى الحق، وكأنهم لا يعلمون بأنهم قد خسروا أنفسهم بشركهم وإعراضهم عن الحق وافترائهم على الله فضاع وبطل ما كانوا يفترونه من الشرك مع الله سبحانه.

وتعود بنا السورة للإشارة إلى جوانب من قدرة الله تعالى وأنه سبحانه ﴿...ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ بعد أن لم تكن إذ قال (كن) فكانت ولكن في تلك المهلة مع أنه سبحانه قادر على أن يخلقها بكلمة (كن) دون أي مهلة، وأنه تعالى بعد الخلق ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي تولى سلطة التدبير لما خلق بأن جعل الليل يأتي على نور النهار فيزيله بحركة الأرض و دورانها حول نفسها بسرعة تبدو معها حركة الشمس كأنها ثابتة ولذلك قال سبحانه ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾.

كما جعل تعالى كجانب من تدبيره لخلقه الشمس والقمر والنجوم تحت أمره

بسيرها وفق نظام كوني دقيق، فكان سبحانه ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ وليس الخلق فقط بل التدبير أيضاً، فهو سبحانه الذي لا تحصى نعمه وبالتالي لا يحصي أحد من خلقه الثناء عليه، وأن ما عليهم إلا الدعاء إليه بكل الإخلاص والخشوع والخفية ودون الصياح في الدعاء وطلب المحال والمحرم، وأن لا يقترف أحد الفساد في الأرض بل يحرص على الإصلاح فيها والدعاء إلى الله أثناء الإصلاح من باب الخوف من عذابه والطمع في جنته ورحمته، وبذلك يتحقق الإحسان فينال فاعله رحمة ربه.

وتعود السورة لتذكّر بجوانب أخرى من قدرته سبحانه بأنه تعالى هو الذي وضع الكون على نظام تتحرك وفقاً له موجوداته بشكل دقيق لا يتخلف بحيث تتحرك الرياح لتبشر بما قضاه وقدره من الأمطار والأرزاق فيلقيها السحاب على هذا البلد الذي أجدب لانقطاع المطر عنه فتنبعث الحياة فيه وتخرج الثمرات بأنواعها وألوانها المختلفة، وإن في ذلك لصورة عن إحياء الموتى يوم القيامة لمن كان له عقل متذكر متدبر، وأما ذاك البلد الذي خبث أهله مما جعلهم موضع عقاب فلا رياح تبشر ولا سحاب يثقل ولا مطر يهطل، وبتفكير بهذا وذاك يشكر الشاكر ويجحد الكافر.

وتأتي السورة بعد هذا البيان لقدرته تعالى إلى ذكر قصص الأمم السابقة وما فيها من تحذير للكفار، فتقول لهم: اذكروا ماذا حصل لقوم نوح عندما أرسله الله إليهم، ودعاهم لعبادة الله الذي لا معبود بحق غيره، وخوفهم من ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ سواء كان الطوفان أو الآخرة، ولكن أشرافهم تصدوا له ولدعوته ورأوه في ضلال ! مما دعاه للقول لهم بأنه ليس به ضلال عن الحق، وأنه رسول من الله يبلغهم رسالة ربه وينصح لهم باتباع الحق، ويدعوهم لعدم التعجب من إرسال رجل منهم إليهم لينذرهم من عذاب الله ويخوّفهم منه، ولكنهم أصروا على كفرهم وتكذيبهم له فماذا كانت النتيجة؟ أن أنجاه الله تعالى ومن حمل معه في الفلك وأغرق المكذبين بآياته المنكرين لرسالته.

ثم تقول لهم: اذكروا ماذا حصل لقوم عاد عندما قال لهم أخوهم هود بأن يعبدوا الله وحده، فتصدى له أشراف قومه الكفار واتهموه بالسفاهة والكذب فنفى ذلك وأكد لهم أنه رسول أرسل الله إليه رسالة ليبلغها لهم دون حاجة منهم للتعجب من أن يكون الرسول إليهم رجلاً منهم، وأن عليهم أن يتذكروا أن الله تعالى قد خلفهم لقوم نوح وزادهم طولاً وضخامة في الجسم مما يفرض عليهم الاعتراف بنعم الله عليهم.

ولكنهم بدلاً من ذلك استنكروا عليه أن يطلب منهم عبادة الله وحده دون أصنامهم التي ورثوها عن آبائهم، وأظهروا الاستخفاف بما يتوعدهم من عذاب، فأفهمهم بأنه قد

وجب عليهم العذاب جزاء لكفرهم واستخفافهم وما عليهم إلا أن يتوقعوا نزوله بهم بأي وقت، فحل بهم، فلم ينج منهم إلا هود ومن آمن معه.

ثم تقول لهم اذكروا ماذا حصل بقوم ثمود عندما أرسل الله إليهم أخاهم صالحاً، فدعاهم أيضاً لعبادة الله وحده، وأثبت لهم صدق دعوته بمعجزة الناقة التي أمروا بتركها تأكل مما في الأرض دون كلفة منهم، وألا يوقعوا بها أي سوء وإلا حل بهم العذاب الأليم، وذكّرهم بما منَّ الله عليهم أن جعلهم خلفاء لقوم عاد ومكّنهم من الأرض ينشئون فيها البيوت والقصور مما يجب عليهم الإقرار بنعم الله وتجنب الفساد في الأرض، فما كان من أشرافهم إلا أن استكبروا على ضعفائهم الذين آمنوا ورفضوا مشاركتهم هذا الإيمان، فعمدوا إلى الناقة فعقروها متمردين على طاعة ربهم ومستخفّين بما يتهددهم به من العذاب، فحلت بهم الرجفة والصيحة الشديدة فأتت على آخرهم باستثناء المؤمنين القلائل منهم.

ثم تقول لهم اذكروا ماذا حصل لقوم لوط عندما نهاهم عن إتيان الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من الناس، فاحشة إتيان الذكور من دون الإناث مما يجعلهم مسرفين، فماذا كان جواب قومه؟ لقد قرروا طرد لوط ومن آمن معه من قريتهم لأنهم يتطهرون عن إتيان الفاحشة معهم، فجاءهم العذاب المناسب من جعل قراهم عاليها سافلها وأمطرت بحجارة من سجيل ولم ينج منهم إلا لوط وأهله ما عدا زوجه التي نالها ما نالهم.

ثم تقول لهم اذكروا ماذا حصل بمدين عندما أرسل إليهم أخوهم شعيب ليدعوهم لعبادة الله وحده، ويأمرهم بعدم بخس الكيل والميزان وغيرهما من حقوق الناس وأن لا يفسدوا في الأرض وأن لا يقعدوا بالطرق يصدون عن طاعة الله، وليتذكروا أنهم كثروا بعد قلة، وتوعد من لم يؤمن منهم بحكم الله فيهم الذي يعرفون عدله في حق المفسدين، فماذا كان جواب المستكبرين عن طاعة الله من قومه؟ هددوه بالطرد من بلدتهم هو ومن آمن معه إن لم يعودوا إلى ملتهم الكافرة، فرد عليهم بالرفض، وأنهم لو أجبروهم على ذلك فإنهم سيقعون في الافتراء والكذب على الله بعد أن أنقذهم من ملتهم الكافرة، وأنهم لا يمكن أن يفعلوا ذلك بعد أن أمرهم الله بالإيمان بعد الكفر، وهل يعقل أن يأمرهم بالكفر بعد الإيمان؟! فهو سبحانه عالم بهم وبكل أعمالهم وأنه عليه وحده يعتمدون، وبه على قومهم الكافرين يستعينون،فسواء أهل مدين أو أصحاب الأيكة المجاورين الذين بعث إليهم أيضاً فإنهم قد آيسوه من الاستجابة فدعا إلى الله أن يفصل بينه وبينهم فاستجاب الله له وأهلكهم بالرجفة وأصبحوا كأن لم يكونوا من قبل، فما كان منه إلا أن عبّر عن عدم حزنه عليهم بعد أن أصروا على الكفر ونالوا جزاءهم.

ثم تقول لهم اذكروا بأن الله تعالى لم يرسل نبياً إلى قوم إلا أوقع العذاب المناسب عليهم جزاء تكذيبهم وكفرهم بأن أصابتهم البأساء والضراء ليرعووا، وأبدلهم بالجدب خصباً ليتدبروا، وأعطاهم فرصة تكثير الأموال والأولاد ليشكروا، ولكنهم ما أن أعرضوا عن الاستجابة للمرسل إليهم ورفضوا الإيمان واستكبروا عن طاعة الرحمن حتى نزل بهم العذاب القاسم فجأة، مع أنهم لو آمنوا وأطاعوا الله لوجدوا من أرزاقه من السماء بمطرها ومن الأرض بنباتاتها وخيراتها الكثيرة الشيء الوفير، أما وأنهم قد كذبوا فقد أخذهم العذاب بجزاء أعمالهم.

ثم توجه السورة الخطاب إلى مشركي مكة مباشرة مما قد يحيق بهم إذا لم يعتبروا بغيرهم فتقول لهم متسائلة، مستنكرة إصرارهم على الكفر والتكذيب لرسالة الإسلام فيما إذا كانوا قد اطمأنوا إلى أن عذاب الله لن يحل بهم في الليل وهم نائمون أو في النهار وهم يكدون ويلهون، فهل أمنوا عذاب الله وجزاءه على مكرهم واستدراجه لهم بما ينعم عليهم من الصحة والنعم؟! وهل لم يظهر لهم بان الله قادر على إيقاع الجزاء فوراً عليهم بسبب ذنوبهم وقد أقفلوا عقولهم عن الإيمان وآذانهم عن سماع البيان؟! فليذكروا أن الله تعالى إذ يخبر رسوله المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بقصص أولئك الأقوام، وما حل بهم بسبب عنادهم على الكفر والباطل والفسق والفجور.. فإنه تحذير وإنذار لهم.

ثم ليذكروا أن الله قد بعث بعدها موسى بالتوراة إلى فرعون وحاشيته، وأنهم كفروا بها فحل بهم ما حل من أصناف العذاب إذ قال موسى لفرعون بأنه رسول الله رب العالمين، وأن ذلك هو الحق كل الحق، وأنه قد جاءه بمعجزة العصا ومعجزة اليد ليتأكد من صحة دعواه ويخلي بينه وبين قومه بني إسرائيل المرسل إليهم، فماذا كان جواب فرعون وحاشيته؟

لقد اتهموا موسى بأنه ساحر عليم يستهدف من سحره أن يسيطر على أرض مصر ويطرد أهلها منها ليحل هو وقومه بدلاً منهم فيها، وطلبوا أن يجتمع إليهم كل السحرة من أنحاء مصر ليتحدوه ويكشفوا أمره أمام الناس، وأن السحرة قد تجمعوا بالفعل ليؤدوا مهمتهم مقابل الأجر المناسب إذا انتصروا، وأن فرعون قد وعدهم بذلك بأن يجعلهم من المقربين عنده، وأن موسى قد دعاهم ليبدءوا هم بإلقاء حبالهم وعصيهم المسحورة، مما أثروا به بالفعل على أعين المشاهدين فرأوها كالأفاعي والحيات الضخمة، ومما أثار الرهبة والرعب بسحرهم العظيم في النفوس، وأن موسى قد أوحى الله إليه أن يلقي بعصاه في تلك اللحظة لتتحول إلى حية ضخمة فتبتلع كل حياتهم

فيدركوا الحق ويشعروا بالهزيمة والصغار أمام عظمة المعجزة فيخروا ساجدين معلنين إيمانهم برب العالمين ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾، فيستولي الغضب على فرعون فيتهددهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف مع الصلب، ولكنهم يرفضون الاستجابة له مصرين على تحمل كل ما يريد إيقاعه بهم من الهلاك لأن في ذلك عودة إلى الله الذي آمنوا به وبآياته عندما رأوها، وأنهم يرجون منه تعالى أن يمدهم بالصبر على كل عذاب ينزله فرعون بهم وأن يتوفوا على التسليم والخضوع لله رب العالمين.

فاذكروا يا مشركي مكة ومن على شاكلتكم إلى يوم الدين كيف أقبل أشراف قوم فرعون على التزلف له بأن دعوه للبطش بموسى وقومه بحجة أنهم سيفرقونهم ويشتتون شملهم ويسفهون عبادتهم، مما جعله يستجيب لهم ويقرر قتل أبناء بني إسرائيل وترك النساء أحياء ويمارس القهر والتعذيب عليهم، الأمر الذي جعل موسى يدعو قومه للاستعانة بالله على ذلك والصبر، وأن يطمئنوا أن الغلبة ستكون لهم لأن العاقبة للمتقين والأرض للصالحين، وأن يتذكروا بأنهم اشتكوا لموسى مما كان يقع عليهم من الأذى قبل مجيئه إليهم بما كانوا يسخرونهم به من أعمال العبودية، وبعد مجيئه بالقتل والقهر الأمر الذي جعله يواسيهم بالتطمين بأن الله سيهلك عدوهم ويستخلفهم على الأرض تبعاً لإيمانهم وصدق أعمالهم.

وأن يتذكروا كيف أخذ عذاب الله بأصنافه يحل بقوم فرعون بدءاً من الجدب ونقص الثمار، ولكنهم لم يرعووا فكانوا إذا أنعم الله عليهم بالخصب نسبوه لأنفسهم وإذا حل بهم جدب نسبوه لموسى وصحبه، وأصروا على عدم الاستجابة لأي معجزة يأتي بها، ونسبوها للسحر فأرسل الله عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ولكنهم واصلوا الإصرار على الاستكبار، إلى أن حل وباء الطاعون بهم فطلبوا من موسى أن يكشف عنهم ذلك بدعائه، وتعهدوا بالإيمان مقابله والسماح لبني إسرائيل بالذهاب معه، ولكنهم عادوا ونكثوا العهد فكانت القاصمة بالغرق في البحر ونجاة موسى ومن معه، ليرثوا أرض مصر والشام. ولكن بني إسرائيل ما أن رأوا بعد اجتياز البحر من يعبد الأصنام حتى حنّوا إليها وطلبوا من موسى أن يصنع لهم مثلها فوبخهم على ذلك الجهل وطلب الباطل وقد فضلهم الله بإيمانهم على عالمي زمانهم وأنقذهم من آل فرعون وعذابهم لهم بقتل أبنائهم وترك نسائهم.

فاذكروا يا مشركون ذلك وتذكروا أنه ما أن استقر ببني إسرائيل المسير باتجاه بيت المقدس حتى ترك موسى قومه في عهدة أخيه هارون وذهب ليغيب عنهم أربعين ليلة تلبية لأمر ربه، وعند المكان المحدد كلمه ربه فطلب منه تعالى أن يمكّنه من أن يراه فدعاه

تعالى بدلاً من ذلك إلى أن ينظر إلى الجبل بحيث إذا مكث مكانه فإنه سيرى ربه، ولكن الجبل اندك بقدرة الله فوقع موسى مغشياً عليه وأعلن ندمه وتوبته لله عندما أفاق وأنه أول المؤمنين، فكلمه ربه مخبراً له بأنه اختاره لتبليغ أمره للناس، وأن عليه أن يلتزم ذلك ويعمل به بكل قوة ويشكر الله على اختياره. وقد اشتملت الألواح المتضمنة لرسالة الله وهي التوراة على مواعظ وبيان لكل ما أمروا به من أحكام، وأن ما عليه إلا أن يدعو لها بكل صلابة، ويأمر قومه بالعمل بما فيها من أوامر، وترك ما فيها من نواه، وتدبر ما فيها من مواعظ، من مثل ما يرونه في سفرهم من منازل الأمم الفاسقة التي هلكت قبلهم ليعتبروا بذلك.

وقبل أن تواصل السورة سرد قصة موسى وقومه على مشركي مكة وأمثالهم والبشرية جمعاء تنبه إلى أن الله تعالى قد أكد أن أحداً من الناس أفراداً وجماعات لن يعتبر ويؤمن بما يرى أو يسمع من أخبار السابقين إذا كان ممن يتكبر ويتعالى عن استماع الحق ولا يحرص عليه لأنه بذلك يستمر في رفض طريق الرشاد والسير في طريق الغي والضلال، وذلك بسبب تكذيبه لآيات الله وغفلته عن الاعتبار، ناهيك عن أن تكذيبه ذاك وإنكاره للحساب يوم القيامة يحبط عمله ويحمله أشد العذاب على ذلك.

وبعدها ترجع السورة لعرض ما حصل مع قوم موسى وقد تركهم في رعاية أخيه هارون: فقد صنع لهم السامري عجلاً من الحلي التي أتوا بها من القبط ليعبدوه، فظنوا أنه أهل لذلك وقد سمعوا خواره، ولكنهم ـ ويالغفلة عقولهم ـ كانوا يرون أنه لا يكلمهم ولا يدعوهم لأي هدى، مما أوقعهم في الشرك والظلم.

وما أن عاد موسى إليهم من الميقات حتى شعروا بالندم الشديد بعد عاصفة من الغضب لله التي حاسبهم وأخيه بها على كفرهم، إذ ألقى الألواح إلى الأرض وجر أخاه من لحيته ثم تركه بعد أن فهم منه الحقيقة وأنهم أكرهوه على السكوت أو القتل، فدعا موسى ربه أن يغفر له ولأخيه ويرحمهما وأن لا يوقع بهما أي عقوبة مع أولئك المرتدين للشرك، والذين ما أن أدركوا ما وقعوا فيه من ضلال حتى أخذوا في الدعاء إلى الله أن يرحمهم ويغفر لهم ولا يهلكهم كما أهلك من قبلهم، ولكن ردتهم ما كانت لتمر دون عقاب في الدنيا وإن كان من يرتكب السيئة ثم يتوب بعدها توبة نصوحاً، ويصدق في إيمانه، فإن الله يغفر له خطيئته ويشمله برحمته.

وعاد الهدوء إلى موسى بعدها وذهب الغضب فتناول الألواح من على الأرض وفيها الهدى والرحمة للمؤمنين المتقين، واختار منهم سبعين رجلاً يصحبونه لميقات آخر مع ربه، ولكنهم ما أن اقتربوا من الموضع المحدد على جبل الطور حتى اجتاحتهم

رجفة وهزة أرضية عنيفة كادوا أن يموتوا منها جميعاً، فدعا موسى ربه ألا يهلكهم ـ وهو القادر على ذلك ـ أمام أعين قومهم، وأن يقضي ويقدِّر لهم بالخير في هذه الدنيا وقد عادوا تائبين إليه تعالى.

فأكد له ربه بأنه هو وحده تعالى العالم بخلقه يصيب بعذابه من يستحقه، وأن رحمته بنفس الوقت تشمل كل شيء، وأنه تعالى قد حكم بها لمن يخشونه بإيمانهم ويؤدون زكاة أموالهم، وليس لمن يعرضون عن أمر ربهم ولا يؤمنون بآياته تعالى ولا يطيعونه، وأن المؤمنين منهم هم الذين يؤمنون برسوله محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم المكتوبة نعوته كاملة عندهم في التوراة والإنجيل، والذي يأمرهم بخلع الأنداد وصلة الأرحام، ويحل لهم الأطايب من الطعام والشراب،ويزيل عنهم الأعباء الثقيلة التي كانت مفروضة عليهم، ويخلصهم من القيود الشديدة السابقة عنهم، وأن من يفعل ذلك ويوقر هذا النبي الأمي محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ويؤمن به ويتبعه فهو المفلح الفائز.

وفوراً تخاطب السورة الناس كافة؛ حيث تأمر الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ليقول لهم بأنه ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ فعليهم الإيمان والاتباع لأنه عليه وآله وصحبه السلام يدعوهم للإيمان والطاعة لمن له السموات والأرض، والذي لا معبود بحق غيره، والذي يحيي ويميت، وأن من يؤمن بذلك ويتبع أمر الله ونهيه المبلغ إليه من رسوله فإنه هو المهتدي وإلا فلا.

وبعدها تعود السورة لتكمل قصة موسى فتخبرهم والبشرية جمعاء بأن من قوم موسى جماعة تمسكوا بشرعه قبل نسخه، ولم يبدلوا ولم يقتلوا الأنبياء ولكنهم اعتزلوا بني إسرائيل الماضون على الباطل والرافضون الإيمان بمحمد كما رفضوا الإقرار بنبوة عيسى عليهما السلام من قبل. وأما ما حصل مع قوم موسى في حينها فقد أنعم الله عليهم بنعم كثيرة بعد أن تفرقوا إلى اثنتي عشرة جماعة تبعاً لعدد الأسباط والقبائل فيهم، فرزقهم الله عيناً لكل جماعة يستقون منها دون مزاحمة غيرهم في صحراء سيناء التي يندر فيها الماء، وأظلهم بالغمام يحميهم من الحر، ورزقهم طيور السلوى وحلو المن لأكلهم، وأمرهم بالتوجه لبيت المقدس للسكنى فيها على أن يقولوا وهم يدخلون سجداً: حط عنا يا ربنا ذنوبنا، ولكنهم غيروا ودخلوا زحفاً وقالوا حنطة بدلاً من حِطّة فاستحقوا العذاب.

وللبيان اليقين إسألهم يا محمد عن أهل القرية التي كانت مجاورة للبحر، ماذا كانوا يفعلون من تحايل ليوم السبت عندما كانوا ينصبون الشراك يوم الجمعة لتجمع

السمك يوم السبت المحرم عليهم العمل فيه ثم يجمعونه يوم الأحد، حتى ضج المؤمنون منهم من ذاك الاحتيال ورأوا ألا نفع من عظتهم لأنهم مصرون على العصيان وأنهم لا بد وأنَّ الهلاك واقع بهم أو على الأقل العذاب الشديد، وأنه بالفعل قد أنجى الله تعالى المؤمنين منهم الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وأوقع العذاب بالظالمين لفسقهم وتمردهم، ولكنهم ما أن أصروا على تجاوز كل حدود المعصية مسخهم الله إلى قردة، وأعلم من بقي منهم بأنهم إن غيروا ولم يؤمنوا بالنبي الأمي فإنه يبعث عليهم من يعذبهم سواء بأخذ الجزية أو التشريد في الآفاق.

وبالفعل فقد تفرقوا جماعات في البلاد وإن كان منهم الصالح ومنهم الطالح، ولاحقتهم النقم والنعم ليتعظوا ويرجعوا إلى الإيمان، ولكن هيهات! فقد جاء من بعدهم أولادهم الذين ورثوا التوراة والذين أخذوا يركضون وراء متع الدنيا وهم يزعمون أن الله سيغفر لهم ولكن دون توبة عن منكراتهم وكأنه لم يؤخذ عليهم عهد الله وميثاقه بالتزام الحق وعدم التخلي عنه، ونسوا ذلك كله ونسوا أن الآخرة للمتقين العاقلين الملتزمين لكل ما في التوراة، ومنها بالطبع الإيمان بمحمد وبالإسلام وبإقامة الصلاة.

وذكّر يا محمد أولادهم هؤلاء ماذا فعل أجدادهم عندما رفع الله الجبل فوقهم ليهلكهم إن لم يلتزموا التوراة بكل صدق وتقى! فقد وعدوا كعادتهم بما نكلوا عنه بعد ذلك.. وذكّرهم يا محمد أيضاً بالعهد والميثاق الذي أخذه الله على العباد عندما خلقهم مؤمنين بالفطرة وأنهم شهدوا على أنفسهم بذلك ولكنهم أسندوا شركهم إلى آبائهم الذين بدؤوا به فاتبعوهم عليه كأبناء لهم وأن ذلك لن يرحمهم لتلاعبهم وافترائهم... وذكّرهم بقصة معروفة عندهم في التوراة عن ذاك الشخص المختلف في تعيينه وإن قال ابن عباس وابن مسعود بأنه بلعام بن باعوراء، الذي زامن موسى، وكان من أعظم علماء عصره، ولكنه تواطأ ضد موسى مع الجبارين فدعا عليه فنزع الله منه القدرة على المجيء بأي آية، وسار في طريق الضلال والغواية، مع أن الله تعالى قادر على منعه من ذلك ولكن قدرة الاختيار التي أخذت بسنة الله في خلقه أعطته المهلة ليعمل بعمل أهل الجنة ويدخلها ولكنه ركن إلى الأرض وسعى في طلب لذاتها، فأصبح كالكلب يظهر عليه الضيق واللهاث في الراحة والتعب.

فذكّرهم يا محمد بهذا القصص الحق على رجاء أن يفكروا بها ويعتبروا لأنه لا مصير لمن يكذب بآيات الله غير السوء، وذكّرهم يا محمد بأن من يتبع هدى الله فهو المهتدي ومن يعرض عنه فهو الضال الخاسر، وذكّرهم بأن كل من يصر على الضلال

ويقفل عقله وعينه وأذنه عن الحق فإنه أضل من الأنعام التي تعرف بفطرتها طريقها بينما هو يضل طريقه وينتهي إلى جهنم مع أمثاله من الجن والإنس.

وذكّرهم يا محمد بأن عليهم أن يدعوا إلى الله بأسمائه الحسنى ويخلصوا العبادة له ويتجنبوا الملحدين والمشركين، وعندها سيجدون الجزاء الطيب المناسب لأعمالهم الطيبة هذه، وليعلموا أن الله كما أعطى لقوم موسى الخير عندما وجد منهم جماعة مؤمنين مهديين فقد أعطى مثل ذلك لأمة الإسلام بدءاً بالعرب، وأنه تعالى مهما ابتلاهم فإنه يجزيهم بأطيب الجزاء على إيمانهم وصبرهم بينما يستدرج المكذبين الكافرين بما يعطيهم من أرزاق ومتع الدنيا على مهلة طويلة يؤخر معها العقوبة إلى مدى طويل أو إلى يوم الحساب.

وكم كان حرياً بهم أن يعيدوا النظر والتفكير في كل ما حولهم ليتأكد لهم أن محمداً صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ليس مجنوناً فيما يدعوهم إليه، وأنه إنما هو نذير لهم من عذاب شديد إن استمروا على الكفر والإعراض، وأنهم لو نظروا بعقل فاحص في عالم السموات والأرض، وفي النظام الكوني المدبرة وفقاً له، وفي المخلوقات التي خلقها تعالى فيهما، وفي آجالهم المحتملة الانتهاء، فلن يجدوا قرآنا غير ما جاء به محمد يصدقون، كما عليهم أن يعلموا أن من يتبع طريق الضلال منهم ويرفض هذا القرآن إيماناً والتزاماً فلن يجد له أحداً يهديه للطريق القويم بل سيسير في طريق الحيرة والاضطراب والضلال.

وتقترب السورة من نهايتها فتخبر الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن اليهود والمشركين يسألونه عن موعد يوم القيامة، فتأمره أن يخبرهم بأن علم وقوعها عند الله وحده فقط، وأن الله لا يظهرها إلا عند وقتها المحدد بعد أن أخفاها عن أهل السموات والأرض، وأنها ستحل فجأة، وأن سؤالهم له هو من باب الظن بأنه يلح في معرفتها، ولذلك أكد لهم يا محمد بأن علم كنهها هو عند الله فقط، كما أكد لهم بأنك لا تملك جلب خير ولا دفع شر عن نفسك إلا تبعاً لما تعطى من قدرة الاختيار وما يقضيه الله تعالى ويقدره، وأنك لو كنت تعلم الغيب وما يجري فيه لفعلت الكثير من الخير وتجنبت الوقوع في السوء، وأنك ما أنت إلا نذير من العذاب وبشير بالثواب للمؤمنين المستجيبين بالذات.

وقل لهم يا محمد بأن الله تعالى عندما خلقهم من آدم عليه السلام وزوجه حواء، وحملت منه وأثقلت، فإنهما ألزما نفسيهما بالشكر إن رزقهما الله تعالى بالولد السوي، وأنهما عندما رزقا بذلك جعلا لله شركاء في الولد عندما سمياه عبد الحارث وإن لم

يفعلا ذلك من باب العبودية وإنما من باب التسمية فقط، الأمر الذي يجر أبناء آدم وحواء إلى الوقوع في مثل ذلك وأكبر والله تعالى بريء من الشرك كله، فليحذروا من ذلك.. وليحذروا أن يعبدوا ما لا يقدر على خلق شيء بل هم أصنام يصنعها مخلوق مثلها، وهي لا تنصر أحداً ولا تنتصر لأحد، وأنها لو دعيت إلى الهدى فلا تملك الاتباع سواء دعيت بصوت عال أو همساً.

وأكّد لهم يا محمد بأن الأصنام هذه التي يعبدونها ما هي إلا عباد مثلهم، وأن عليها أن تستجيب لهم عندما يدعونها إذا كانت عبادتهم لها كأصنام تنفع، ولينظروا إليها وهي جامدة لا حراك ولا مشي لها، ولا عمل ولا أيدي لها، ولا بصر ولا أعين لها، ولا سمع ولا آذان لها، فهاتوا شركاءكم من هذه الأصنام ولا تتأخروا في كيدكم ضدي إن كان له أي قيمة، وقل لهم بأن الله هو من يتولى نصرك عليهم وحفظك منهم، وهو سبحانه الذي أنزل القرآن عليك، وأنه هو سبحانه الذي يتولى الصالحين، فليعجلوا وليكونوا منهم، وليعلموا أن ما يدعونه ويعبدونه من دون الله لا يمكنه نصرهم ولا نصر نفسه، ولا يمكنه الاستجابة للهدى لأنه لا يسمع ولا يبصر.

وعليك يا محمد وأنت تحاجج المشركين أن تلتزم بمكارم الأخلاق من التزام العفو عن الظالم والأمر بالمعروف والإعراض عمن يجهل عليك ترفعاً عن ذلك واستجلاباً لهم إلى الإيمان، واعلم أنه لو داخلتك أي وسوسة من الشيطان فاطرد ذلك بالاستعاذة بالله الذي يسمعك ويعلم ما تكنه نفسك، واعلم أن من يتجنب الشرك والمعاصي يتذكر أمر الله فينتهي عن كل غواية للشيطان بينما الفجار إخوان الشياطين يمدونهم في الغي ولا يتوبون من غيهم.

واعلم أنك عندما تقرأ عليهم آية يتهمونك باختلاقها من عندك فقل لهم بأن الآيات من الله تعالى وأنك لا تتلو عليهم إلا ما أنزله الله عليك، وأن هذا القرآن قد جاءكم بالدلائل والعبر الموصلة لهم إلى الله تعالى كما جاء رشداً ونعمة، وأن عليهم إذا قرئ أن يستمعوا إليه استماع تدبر وينصتوا إنصات تفكر لما يرجى لهم من ذلك من الرحمة.

وتأتي السورة إلى النهاية وهي تأمر الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بالدعاء إلى الله في نفسه بكل الخشوع والخوف من الله، وتجنب رفع الصوت بأكثر من إسماع النفس في كل الأوقات من الصباح والمساء، والحذر من الغفلة عن ذكر الله تعالى، وذلك لأن من يستكبر عن عبادة ربه والدعاء له لن يكون متصفاً بصفات ملائكته تعالى الذين يعظمونه ويسجدون له صلاة وتلاوة، فرضاً ونفلاً.

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ ١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ
٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا
كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٥ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا
كُنَّا غَآئِبِينَ ٧ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٨ وَمَنْ خَفَّتْ
مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ٩﴾.

تبدأ السورة بعد حروف الافتتاح (آلمص) بأمر الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بشأن القرآن الذي أنزل عليه وذلك بأن لا يضيق صدره بإبلاغه للناس وبعدم إيمانهم، بدلاله قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ٣﴾ [الشعراء: ٣]، ولأنه منذر للكافرين ومذكر للمؤمنين المنتفعين به، ثم تأمرهم باتباع ما أنزل إليهم من ربهم من الكتاب والسنة، بدلالة قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ﴾ [الحشر: ٧] فيحلوا حلاله ويحرموا حرامه، ويمتثلوا أمره ويجتنبوا نهيه، دون اجتهاد مع وجود النص، وليجتنبوا طاعة وعبادة غيره سبحانه وليتذكروا ذلك دائماً.

كما ليتذكروا كم من القرى أهلكها الله عندما أنزل عليها عذابه في الليل أو في النهار فلم يملكوا أمام ذلك إلا الإقرار بظلمهم لأنفسهم بالشرك وعبادة غيره سبحانه وتعالى، وليعلموا بأن الله عز وجل سيحاسب كل قوم أرسل إليهم سؤال إفضاح للكافرين، وسيسأل المرسلين سؤال استشهاد وإفصاح فيتأكدوا من علمنا بهم ومعرفتنا بأعمالهم، ويروا وزن أعمالهم يوم الحساب بالميزان بوزن صحائفها بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام: «إن ميزان بعض بني آدم كاد يخف بالحسنات فيوضع فيه رق مكتوب فيه لا إله إلا الله فيثقل» فمن رجحت كفة ميزانه بصحيفة الحسنات على صحيفة السيئات فقد أفلح وفاز وبالعكس من خفت فإنه يخسر نفسه بافترائه وتعديه على آيات الله تعالى.

ثم تنقلنا لذكر ما هيأه الله للبشر من أسباب المعيشة على الأرض بعد أن أهبط أباهم إليها فتقول:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ
صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا
مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ
لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ
﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ
أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ
جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ
فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا
رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ
ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ
ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا
رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ
عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

فتذكّر بأن الله قد هيأ لهم أسباب المعيشة على الأرض من طعام وشراب ولباس وغيرها مما تكون به الحياة، ولكن القليل منهم من شكر نعم الله تعالى باستسلامهم لشهوات النفس ومتع الدنيا، وتذكّر بأن الله تعالى قد خلقهم نطفاً في الأرحام ثم صورهم بالصور التي يخرجون عليها من البطون، وهذا ما يحصل مع ذرية آدم عليه السلام الذي خلقه تعالى من طين ثم أمر الملائكة أن تسجد له فاستجابوا للأمر وسجدوا جميعاً باستثناء إبليس الذي كان يعيش معهم وإن خلقه الله من النار وهم من النور،وهما متقاربان في الخفة متباعدان في الحقيقة، فإنه رفض السجود، فسأله ربه وهو عالم به عما منعه من تنفيذ الأمر له بالسجود، فزعم لأنه خير من آدم إذ خلق من النار بينما آدم خلق من الطين، وأن النار بزعمه أشرف من الطين لعلوها وخفتها وإضاءتها، ولكنه لعنه الله أخطأ القياس لأن الطين أفضل من النار لأنه يتصف بالسكون والوقار والحلم بينما النار بالخفة والطيش والاضطراب، فظهر على آدم التواضع والتضرع عند التوبة بينما ظهر على إبليس الاستكبار والإصرار، فسعد آدم بذاك وشقي إبليس بهذا. هذا ويمتاز تراب الجنة بأنه مسك أذفر ولا يوجد فيها نار، وأن النار سبب العذاب وليس التراب كذلك،

وأن الطين مستغن عن النار والنار محتاجة للمكان ومكانها التراب، وأن التراب مسجد وطهور.

واختلف العلماء في استخدام القياس لاستنباط الأحكام العملية من أدلتها التفصيلية، ورجح القول به لركون الصحابة والتابعين وجمهور من بعدهم إليه، ويكفي إقرار الرسول عليه وآله وصحبه السلام به وإجماع الصحابة عليه مما لا يحتاج معه للقول بإجماع الأمة لأن الأمة تجمع على عدم الضلال والكفر ولا تجمع على استنباط أي حكم من الأحكام. وأما المذموم من القياس فهو المتكلف المنهي عنه والقائم على العقل البعيد عن الشرع.

ونعود إلى السورة فنجدها تخبرنا بان الله تعالى قد أمر إبليس بعد استكباره عن السجود بالهبوط من السماء إلى الأرض لأن السماء مسكن الملائكة الذين ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[التحريم: ٦] ولا استكبار فيها ولا تمرد على أوامر الله ونواهيه، فطرد منها صاغراً ذليلاً، ولكنه استمهل الله أن يبقيه إلى يوم البعث والحساب فأمهله سبحانه، فأعلن بنزعته الشريرة، عندما علم بما في فطرته النارية من الخفة والاستكبار، بأنه سيعمل على إغواء نسل آدم من البشر لا لأن الإغواء من الله تعالى عندما نسبه إلى الله ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ ولكن لأنه تعالى شاء بقضائه وقدره أن يعطي لمخلوقاته من الطين ومن النار قدرة الاختيار بين الخير والشر، فإبليس اختار الشر والغواية وأخذه الكبر عندما طرد من السماء فاختار أن يعمل على غواية غيره فيبعدهم عن السير على الطريق القويم ويزيّن لهم السير على طريق الضلال لينتهوا إلى الجحيم كما هي مآله هو اللعين بعد أن يزين لهم الغواية بما يستطيعه بالصد عن الحق وذلك بالإتيان عن أيمانهم، والترغيب في متع الدنيا بالإتيان عند شمائلهم، والتشكيك في الآخرة بالإتيان من خلفهم، وبالدفع في الشهوات والأعمال القذرة بالإتيان من بين أيديهم، فيكون القليل منهم من يوحد ويطيع ويشكر.

وهنا يعرفنا المولى سبحانه بمصير إبليس جزاء أعماله تلك، وهو نفس المصير الذي يلاقيه من يتبعه على ذلك، وأنه طرده من الجنة مذموماً وأن مصيره ومن تبعه من البشر جهنم وبئس المصير، وأما آدم فقد أمره المولى سبحانه بالإقامة مع زوجه في الجنة حيث يأكلان مما يشاءان باستثناء شجرة منعهما منها وإلا ظلما نفسيهما، ولكن وسوسة الشيطان الذي يمشي من الإنسان مسار الدم في العروق، بمعنى توفر القدرة على الاستجابة للشر باختياره بدل الخير، عملت عملها لينتهي به وبزوجه الحال إلى انكشاف

عورتيهما، مؤكداً لهما أن نهي ربهما لهما عن الأكل من تلك الشجرة ما كان إلا كراهة أن يكونا ملكين أو من الخالدين.

وأصر على تأكيده بالخداع والمكر عندما أقسم لهما أنه ناصح لهما في هذا القول. وبالنظر لأنهما لم يكونا على معرفة بمثل هذا المكر والكذب فقد صدقاه في قسمه واستجابا لخداعه فوقعا في الهلاك بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام (المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم) عندما تجرآ على المعصية، فبدأت العقوبة بأن انكشفت عورتاهما أولاً كمرحلة أولى للعقوبة ثم أخذا يبحثان عن ورق في الجنة يغطيانهما به.. مما يدل على قبح كشف العورة ووجوب سترها.

فماذا وقع بعدها؟ سألهما ربهما عن سبب عدم تجنب تلك الشجرة التي نهاهم عن الأكل منها، والاستجابة لغواية الشيطان، فأقرا بأنهما خدعا وظلما نفسيهما، وأنهما سيكونان من الخاسرين للدنيا والآخرة إن لم يغفر لهما ربهما ويرحمهما، فقبل تعالى اعترافهما بالخطيئة وتوبتهما الصادقة، فكان الحساب كمرحلة ثانية من العقوبة، ثم جاءت المرحلة الثالثة منها بإنزالهما من الجنة إلى الأرض بعد أن أنزل منها إبليس وبإفهامهما بأنهما وذريتهما سيكونان عدوين لدودين لإبليس الذي سيلاحقهم بالترصد والغواية ما دام لأحدهم حياة على الأرض، وأخبرهم هما وذريتهما وإبليس وقومه بأنهم سيحيون على الأرض ويدفنون فيها ويخرجون منها يوم القيامة للحساب.

وتأتي السورة بعدها بخطاب المولى سبحانه لنسل آدم داعياً لهم للباس التقوى ومحذراً لهم من فتنة الشيطان، وآمراً رسوله محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بأوامر ليبلغها لهم لهدايتهم وخيرهم.. فيقول:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ
لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا
لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ
لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ
بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ
مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ
إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ
زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ

ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِىۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

لقد أنزل الله عليكم يا بني آدم نعماً كثيرة منها أمره للأرض لتوفر لكم هي والأنعام الألبسة التي تغطون بها عوراتكم وتتخذونها فرشاً لراحتكم ونومكم، ومنها ما أمركم به من التقوى وهي خير لباس، فعليكم باستشعار تقوى الله في كل ما أمر به ونهى عنه.

واحذروا أن يفتنكم الشيطان فتستجيبوا لأهوائكم وشهواتكم فيحرمكم من دخول الجنة كما حرم والديكم من البقاء فيها عندما استجابا لغوايته ومكره وخديعته وكذبه في اليمين فانكشفت عنهما عورتاهما، ولا سيما أنه يراكم هو وجنوده وأنتم لا ترونهم لاختلاف الخلق والتكوين، وذلك بأن يستميلكم للشر بوسوسته ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس: ٥ ـ ٦] و﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧] فكان الطرفان سواء في البعد عن الحق، كيف لا وهم إذا فعلوا فاحشة ماذا زعموا؟

أنهم تبعاً لآبائهم الذين كانوا يطوفون عراة بالبيت ويعتقدون الشرك بعبادة الأصنام ويقولون ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾ إذ لو كره الله ما هم عليه لنقلهم عنه، ولكنه تعالى بيّن كذبهم فأمر رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أن يقول لهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ﴾ فأين دليلهم على هذا الافتراء، فيالقبح تقليدهم الأعمى وجهالاتهم!

وقل لهم يا محمد إن ربك يأمرك بالعدل فأطيعوه وتوجهوا إليه في كل صلاة إلى القبلة في أي مسجد كنتم ووحدوه ولا تشركوا به شيئاً، وهو سبحانه يعيدكم كما خلقكم أول مرة، وعندها تظهرون أنكم فريقان فريق اتبع الهدى وفريق اتبع الضلال ذلك لأن

هؤلاء الضالين قد حرّفوا ما خلقهم عليه الله من الفطرة السوية إلى الشرك والضلال فساروا في طريق الشيطان يطلبون منه لا من الله العون والمساعدة.

فعليكم يا بني آدم أن تأخذوا زينتكم باللباس المشروع عند الصلاة في كل مسجد فلا يطوف بالبيت عريان سواء كان من حُمُسٍ قريش أو غيرهم، ولا وقفة بمزدلفة بل على كل حاج أن يقف بعرفة، وأن يلبس ثيابه لا ثياب أهل مكة، فلا صلاة دون ستر العورة، ولا مشي خارج الصلاة دون سترها، بدلالة أمره صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم للمسور بن مخرمة «ارجع إلى ثوبك فخذه ولا تمشوا عراة» في الوقت الذي كان يقول في إمامة الصلاة «ليؤمكم أكثركم قراءة للقرآن».

وعليكم أيها الناس بما أحل الله من الأكل والشرب دون سرف أو مخيلة لأن السرف سواء كان بالأكل الزائد عن الحاجة أو المحرم فإنه يوقع صاحبه في الأذى أو الإثم، وأما المخيلة فالإثم حتماً لأنه كبر محرم، والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه» ويقول: «المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء وأعط كل جسد ما عوّدته» ويقول: «أصل كل دواء الحمية».

وأما قوله عليه وآله وصحبه السلام «الكافر يأكل في سبعة أمعاء والمؤمن يأكل في معي واحد» فهو حض على التقليل من الأكل بل من الدنيا كلها والزهد فيها والاكتفاء بما دون الشبع والإيثار على النفس، فالكافر يأكل بجشع ونهم كمن له سبعة أمعاء لكثرة ما يأكل، والمؤمن قليل الأكل وأكله كمن ليس له إلا معى واحد. هذا وليحرص الآكل على غسل يديه قبل الطعام وبعده، لقوله عليه وآله وصحبه السلام «الوضوء قبل الطعام وبعده بركة»، وأن يتجنب الطعام الحار، لقوله عليه وآله وصحبه السلام «أبردوا بالطعام فإن الحار غير ذي بركة».

واحذروا أيها الناس أن تحرّموا من اللباس ما لم يحرمه الله عليكم، فأوسعوا على أنفسكم إذا أوسع الله عليكم من رزقه، وتجنبوا اللباس الذي يزري بصاحبه، وكأنه لسان شكوى من الله تعالى، ويؤدي لاحتقار اللابس، لأن الإنسان يجب أن يرى جميلاً دون كبر، بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام «نعم إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليهيئ من نفسه، فإن الله جميل يحب الجمال» رداً على سؤال عائشة رضي الله عنها عن ذلك، ولكنه في نفس الوقت قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» وقال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس» وذلك بأن يتجاوز الحق ويحتقر الناس.

كما على الناس أن لا يحرموا على أنفسهم كل ما طاب كسباً وطعماً، بدليل أنه عليه وآله وصحبه السلام كان يأكل الحلوى والعسل والبطيخ والرطب ولا يمتنع من طعام لأجل طيبه قط وإنما يكره التكلف لما يشغله بمتع الدنيا عن مهمات الآخرة، كيف والله تعالى يقول ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي بحقها من التوحيد لله والتصديق له لأنه المنعم الرزاق المتفضل، ولكن يشترك معهم المشركون، وأما في الآخرة فهي ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فلا نصيب فيها معهم للمشركين، وفي هذا القول يظهر البيان الواضح للحلال والحرام في اللباس والأكل والشرب.

وقل لهم يا محمد إن الله تعالى قد حرم الفواحش من الزنى والخمر وغيرهما مما ظهر فكان علانية وما بطن فكان سراً، كما حرم الإثم والبغي والظلم وجميع المعاصي، وليعلموا أن لكل أمة من أمم الأرض، كما لكل فرد من البشر، أجل ووقت مؤقت ينتهي إليه فإذا حان هذا الأجل بمجيء الوقت المعلوم عند الله عز وجل فإنهم لا يتأخرون عنه ساعة ولا أقل من ذلك ولا يتقدمون، فالمقتول يموت بأجله، والقاتل يقتل لتعديه وتصرفه فيما ليس له، وأما الموت فذلك لله وحده، ولهذا لو ترك الناس والتعدي من غير قصاص لفسدت الأرض وتدمر العباد.

واعلموا يا بني آدم أن الله تعالى عندما يرسل الرسل إليكم منكم فإن إجابتكم تكون أقرب، والحجة عليكم ألزم، ولذلك من يخشى الله فيؤمن بالأحكام والفرائض كلها، ويصلح ما بينه وبين الله بالإيمان والطاعة فإنه لن يلحقه أي خوف ولا حزن، ولكن من يكذب بذلك ويستكبر عن الإيمان والطاعة فهو من أصحاب النار الخالدين فيها جزاء ذلك.

وليعلموا أن أحداً ليس بأظلم ممن يفتري على الله تعالى ويكذّب بآياته وأنه سيناله ما قضى الله له وقدر من الرزق والعمر، سواء وصفه بالشر أو بالخير حسب ما يلحقه منه من ضر أو نفع، ولكن ما أن تأتيهم رسل الموت ليقبضوا أرواحهم ويسألوهم عن شركائهم ومعبوداتهم من دون الله، ولماذا لا يحمونهم من الموت، فإنهم يجيبون بأن شركاءهم قد بطلوا وذهبوا وتخلوا عنهم، وبذلك فإنهم يقرون على أنفسهم بين يدي المحاسب الديان بأنهم كانوا كافرين باتخاذهم أولئك الشركاء.

وتواصل السورة إنذار المشركين بالنار وتبشير المؤمنين بالجنة، وتذكر الحوار بين أهل الجنة وأهل النار وتدخل أهل الأعراف في ذلك فتقول:

﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَاۖ

حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابًا ضِعۡفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ
قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ
فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ
ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ
مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا
نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ
تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ
جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ
أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن
لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا
حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ
﴿٤٦﴾ ۞وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ
ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ
أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ
ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى
ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ
كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ
عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن
قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ
قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٥٣﴾

يا من تصرون على الشرك ادخلوا في النار مع تلك الأمم المشركة التي سبقتكم سواء من الجن أو الإنس، حيث تلعن التي سبقتها إلى النار عندما يلتقون جميعاً هناك، وحيث تقول هذه اللاحقة لتلك السابقة، أو يقول الأتباع لقادتهم الذين سبقوهم إلى النار، بأن هؤلاء القادة قد أضلونا فضاعف لهم العذاب بسبب ذلك، فتقول لهم ملائكة العذاب بأن الضعف لكل من التابع والمتبوع، ولكن أحداً لا يعلم مدى حرقة العذاب

وشدته للطرفين، ويعود القادة السابقون فيقولون لأتباعهم اللاحقين، بأنه لم يكن لهم عليهم من فضل ليخفف عنهم العذاب أقل منهم لأنهم كفروا مثلهم وفعلوا فعلتهم، فالكل في العذاب سواء.

ثم ليعلموا أن من يكذّب بآيات الله ويستكبر عن الإيمان والعمل به لن يسمح له بدخول السماء ولا الجنة حتى يدخل الجمل في ثقب الإبرة، وأنى له ذلك! وأن مقرهم إلى جهنم حيث يجدون من تحتهم ومن فوقهم فرش النار وأغطيتها، وليعلموا أن من ينخلع من ذاك التكذيب والكفر ويدخل في زمرة المؤمنين الصالحين فإنه لن يجد من التكليف ما لا يطيق وسيكون من الخالدين في الجنة، حيث ينزع من صدره وإخوانه الذين معه فيها كل حقد وحسد لتفاضل منازلهم فيها، وحيث يحمدون الله ويثنون عليه لأن سبحانه أبان لهم الهدى وطريقه ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠] كما أبان الضلال وطريقه، وجعل لهم الاختيار فاختاروا الهدى دون الضلال دون جبر ولا إكراه، وقالوا بملء أفواههم أن ما جاءت به رسل الله هو الحق، فنادتهم ملائكة الرحمة تدعوهم لدخول الجنة التي ورثوا منازلها بأعمالهم ودخلوها بفضل الله ورحمته بدليل قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ و﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ وبدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام «لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة».قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

وما أن استقر بهم المقام في الجنة حتى سألوا أصحاب النار فيما إذا وجدوا ما وعدهم ربهم حقاً لأنهم هم وجدوا ذلك، فردوا عليهم بالإيجاب، فأعلن بينهم مؤذن بأن لعنة الله تحل اليوم على الظالمين المشركين الذين يمنعون الناس كما يمنعون أنفسهم عن سبيل الله فيرفضون الإيمان ويطلبون البعد عنه ويكفرون بيوم القيامة.

وتخبرنا السورة بأن بين النار والجنة يقف سور ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ يحجز بينهما، ويقف على أعراف وشرفات هذا السور رجال استوت وتعادلت حسناتهم وسيئاتهم، بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام «أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون» جواباً على من سأله عن مكان من استوت سيئاته وحسناته، وهم يعرفون كلاً من أصحاب الجنة وأصحاب النار بعلاماتهم الفارقة، ولذلك نادوا أصحاب الجنة وألقوا عليهم السلام ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ ولكنهم لم ينادوا أصحاب النار، بل ما أن تقع أبصارهم عليهم حتى يبادروا في الدعاء إلى الله ألا يجعلهم معهم، ولكنهم ينادون بعض الرجال من أهل النار الذين يعرفونهم بسيماهم الخاصة أن انظروا بأن ما جمعتموه من أموال الدنيا وحشدتموه من طاقاتها واستكبرتم به من مكانتها لم تنفعكم بشيء حتى انتهيتم إلى

ما أنتم فيه من النار! ثم هاهم المؤمنون الفقراء الذين كنتم تسخرون منهم في الدنيا وتقسمون أنهم لن يحصلوا يوم القيامة على شئ من رحمة الله وجنته قد دخلوا الجنة دون خوف ولا حزن وعلى العكس مما أنتم عليه.

وهنا تنقلنا السورة إلى نداء أصحاب النار لأصحاب الجنة ليفيضوا عليهم من الماء أو غيره مما رزقهم الله لعلهم يطفئوا بذلك ظمأهم ويسدوا رمقهم، فيأتيهم الجواب القاطع بأن الله قد حرم ذلك كله على الكافرين الذين اختاروا هذا المصير بمحض إرادتهم واختيارهم عندما سخروا من الدين وهزئوا من اتباعه واندفعوا وراء متع الدنيا ونسوا يوم القيامة ولم يعملوا له مع أن كتاب الله حافل ببيان ذلك كله وبما يقدمه لكل ذي عقل من البراهين المحققة لتمام العلم بذلك، ولهدى الله ورحمته لمن فتح عقله وقلبه للإيمان، فماذا ينتظرون غير ما وعدوا به في القرآن من العقاب والحساب؟!

وانظروا إليهم وهم ما أن تبدوا عواقب الحساب يوم القيامة حتى يبادروا بعد أن نسوه إلى القول بأن الحق كل الحق قد جاءت به رسل الله، معترفين على أنفسهم بالمكابرة والجحود، فيتمنون الشفاعة عند الله من أي كان، أو أن يردوا إلى الدنيا ليعملوا غير ما كانوا يعملونه من الضلال والباطل، فيأتيهم الجواب أن قد فات الأوان ووقع عليهم الخسران وبكل من كانوا يزعمون بأن لله نداً.

وتحدثنا السورة بعدها عن قدرة الله على الخلق والتدبير، وما يجب على المخلوقات من طاعة وإصلاح، فتقول:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

فيبين سبحانه أنه المتفرد بقدرة الخلق والإيجاد، فهو الذي يجب أن يعبد، وأن ما

هذه المدة ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ إلا تعليم للعباد بالرفق والتثبت في الأمور، وإلا فإنه سبحانه قادر على أن يخلق كل ما خلق في لحظة وبكلمة (كن)، وأنه سبحانه قد ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ بعد ذلك إشارة إلى ملكه وسلطانه على ما خلق وعلى من خلق، وإلا فهذه الكلمات لا تؤخذ بمعاني ألفاظها لأنها لا تليق بالخالق الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فكيف يأخذ حيّزاً مكانياً؟!

وجعل بعدئذ الليل يذهب بنور النهار ليتم قوام الحياة إذ الليل للسكون والنهار للمعاش، فبحركة الأرض ودورانها حول نفسها الذي يجري بسرعة يتعاقب الليل والنهار مع بطء حركة الشمس الذي تبدو معه كأنها ثابتة ولذلك عبّرت الآية ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ عن سرعة هذا التعاقب، ثم أشارت إلى تسخير الشمس والقمر والنجوم بإلزامها البقاء والحركة وفقاً لنظام كوني لا يتخلف، فالخالق سبحانه هو خالقها وهو صاحب الأمر في تدبيرها ولذلك قال ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ وليس الخلق فقط، فقد خلق كل شئ وأمره بالعيش والبقاء والحركة وفق نظام لا يملك التخلف عنه سواء في ذاته بنظام الذرة الدقيق أو بصلته مع غيره بنظام المجرة البديع.

فيا أيها الخلق توجهوا بالدعاء متعبدين لربكم الذي خلق ودبر كل شيء، وادعوه بخشوع واستكانة وتضرع، ادعوه سراً بعيداً عن الرياء بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام «خير الذكر الخفي وخير الرزق ما يكفي».. وادعوه رافعي أيديكم بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام «إن ربكم حي كريم يستحي من عبده أن يرفع يديه إليه فيردهما صفرا خائبتين»، واحرصوا على عدم التعدي في الدعاء بدلالة نهيه عليه وآله وصحبه السلام عن ذلك «سيكون قوم يعتدون في الدعاء» وذلك بطلب أن يكون له منزلة نبي أو يدعو في محال أو يدعو طالباً معصية وغير ذلك، وتجنبوا أسلوب الصياح والجهر الصاخب.

وتجنبوا كل فساد مهما قل بعد صلاح مهما كثر في شأن المسلمين، وإن كان ما يعود ضرره على المشركين فجائز طالما كانوا محاربين معتدين بدلالة فعله عليه وآله وصحبه السلام عندما طمر قليب بدر وقطع شجر الكافرين.. واحرصوا على دوام الترقب والتخوف والتأميل لله عز وجل ليحملكم الرجاء والخوف كما تحمل الجناحان الطائر في طريق الاستقامة بحيث إذا انفرد أحدهما هلك الإنسان بدلالة قوله تعالى ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ وقوله تعالى ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ وقوله عليه وآله وصحبه السلام «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله».

واذكروا أن الله تعالى هو الذي يجعل الرياح بما أودع في الكون من نظام تأتي

مبشرة بنزول المطر من سحاب يبعث الحياة في بلد مات وأجدب بما يخرج من ثمرات وينبت من نباتات تماماً كما يخرج الموتى من قبورهم يوم البعث والنشر والحساب، فترى التربة الطيبة تنبت من النباتات ما لا ينبت في الأرض المليئة بالشوك والحجارة تماماً كالإنسان الطيب الذي يكثر من الصالحات والخبيث الذي لا يصدر عنه إلا السيئات.

وتأتي بنا السورة بعدها لعرض العديد من قصص الأمم السابقة حاملة التحذير للكفار، ومدللة على قدرة الخالق المدبر فتقول:

﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ
يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ
وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا
تَعۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٦٣﴾
فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ
﴿٦٤﴾ ۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ
لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ
﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ
بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا
لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾
قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم
مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ
بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۗ
قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ
ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٣﴾
وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا
وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ

ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن
رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ
كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ
أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ
ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ
ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن
قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ
قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟
ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ
ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ
وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ
ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا
كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن
نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا
بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ
﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى
وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ
أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ
مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟

لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ
أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى
وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ
لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ
لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ
لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم
مِّنْ عَهْدٍۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

اذكروا أيها الناس ما حصل في الأمم السابقة عندما كذبوا الرسل الذين أرسلهم الله إليهم وكفروا برسالات ربهم إليهم فحل بهم العذاب الشديد، فاحذروا أن تفعلوا فعلتهم فتقعوا تحت نوع من أنواع العذاب الذي حاق بهم:

فاذكروا أولاً نوحاً عندما أرسله الله إلى قومه في نواحي ما بين النهرين دجلة والفرات، ودعاهم لعبادة الله الواحد الأحد، وأنذرهم من عذاب عظيم، فما كان من أشراف قومه إلا أن تصدوا له واتهموه بالضلال، وبالسخرية بقولهم بأن الضلال في الهدى وذلك من شدة عنتهم! ولكنه رد عليهم بهدوء بأنه رسول الله إليهم يبلغهم رسالة الله وينصح لهم أن يؤمنوا بها ويطيعوا ويخلصوا في الإيمان والطاعة لله رب العالمين، وأن لا يستغربوا مجيئه إليهم كرجل منهم برسالة الله، لأن في ذلك تطميناً لهم لمعرفتهم به ودفع التذرع ضده، لأنه لو كان من غيرهم لما وثقوا به، ولو كان من غير جنسهم كأن يكون ملكاً، لنفروا منه، فلكونه رجلاً منهم يتيسر وصول إنذاره إليهم من عذاب الله إذا كذبوا وفي ذلك رجاء الإيمان والحصول على رحمة الله.. ولكنهم بدلاً من ذلك كذبوه فأغرقهم الله ولم ينج منهم إلا من حمله نوح معه في السفينة.

واذكروا ثانياً هوداً عندما أرسله الله إلى قومه عاد في نواحي حضرموت من اليمن وهم يعبدون الأصنام، فدعاهم لإفراد الله بالعبادة والحرص على طاعته والخوف من عذابه، فانبرى إليه أشراف قومه الذين كانوا منعمين في بلاد خصبة فاتهموه بالحمق وقلة العقل والكذب، ولكنه أكد لهم صدق دعوته إليهم وإخلاص نصحه لهم، وأن لا يعجبوا لكونه رجلاً منهم، وذكّرهم بأنهم خلفاء قوم نوح الذين لاقوا مصيرهم لتكذيبهم لنوح وكفرهم برسالة ربه إليهم، كما ذكّرهم بما أنعم الله عليهم من قوة في الجسم حتى قال ابن عباس بأن أطوالهم كانت ما بين ستين إلى مائة ذراع غير ما قيل عن ضخامة

رؤوسهم وأن قدرة الواحد منهم كانت تعادل قدرة خمسمائة رجل.. ولكنهم استنكروا عليه ترك عبادة آبائهم من الأصنام والذهاب إلى عبادة الله وحده، وتحدوه أن يأتيهم بما ينذرهم من العذاب إذا كان صادقاً في رسالته، فأكد لهم بأنه واقع بهم لعبادتهم للأصنام التي لم يكن لهم حجة في عبادتها من دون الله، ولم ينج منهم إلا هود ومن آمن معه فقط.

واذكروا ثالثاً صالحاً عندما أرسله الله إلى قومه ثمود، وكانوا عرباً يقيمون في الحجر ما بين الحجاز والشام، فدعاهم كما يدعو كل رسول لتوحيد الله وعبادته وحده، وأخرج لهم الناقة ـ حين سألوه ـ من حجر صلد، وأمرهم أن يدعوها تأكل وتشرب دون تكلف منهم، وأن لا يتعرضوا لها بسوء، وإلا حل بهم العذاب الأليم، وذكّرهم بنعم الله الكثيرة عليهم إذ خلفوا قوم عاد بعد أن أخذهم العذاب، ويسر لهم تشييد المنازل والقصور في كل موضع، ونحت البيوت في الجبال لطول أعمارهم.

وفي هذا ما يدل على جواز بناء الدور ولو كلفت الكثير من المال بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام «إذا أنعم الله على عبد أحب أن يرى أثر النعمة عليه» وإن كره أمثال الحسن البصري ما زاد عن الحاجة بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام «إذا أراد الله بعبد شراً أهلك ماله في الطين واللِّبِن».

وطلب إليهم صالح ألا يفسدوا في الأرض، ولكن أشراف قومه الذين تعالوا على الضعفاء المؤمنين أظهروا تواضعاً كاذباً بسؤال هؤلاء الضعفاء عن صحة رسالة صالح، وما هم في الحقيقة إلا مستخفين ودافعين لهم لترك الإيمان بدليل مبادرتهم للقول ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ رداً عليهم عندما قالوا ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾، ولم يكتفوا بالقول حتى ألحقوه بالعمل فعقروا الناقة، مستكبرين على الإيمان ومستخفين بما أنذرهم به من العذاب، بدليل قولهم له ﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ وبالفعل حصل زلزال شديد صحبته صيحة شديدة خلعت قلوبهم فالتصقوا بالأرض على ركبهم ووجوههم ميّتين، فما كان من صالح إلا أن تركهم وهو يردد بأنه أبلغهم رسالة الله ونصحهم ولكنهم أعرضوا عن سماع نصحه فاستحقوا ما حل بهم.

واذكروا رابعاً لوطاً إذ قال لقومه دعوا إتيان الذكور دون النساء مما لم يسبقكم إلى هذه الفاحشة أحد من البشر. وفي هذا دليل على تحريم ذلك وإن حصل خلاف بين الفقهاء على العقوبة، والراجح فيها الرجم للمحصن والحد لغير المحصن وإن كان الحكم الفصل في ذلك لما يتبناه الخليفة. وقال لهم بأنهم مسرفون بهذا الجمع بين الشرك وهذه الفاحشة. ولكن قومه تصدوا له ورأوا طرده ومن آمن معه من قراهم بحجة

أنهم يستقذرون تلك الفاحشة، ويا لها من حجة ! وكانت عاقبتهم نجاة لوط وأهله دون امرأته عندما جعلت قراهم عاليها سافلها وأمطرت بحجارة من سجين.

واذكروا خامساً شعيباً عندما أرسل إلى قومه مدين، ودعاهم إلى عبادة الله وحده والتخلي عن بخس قيمة الشيء بالاحتيال في الزيادة والنقص في الكيل والميزان، وإلى تجنب الفساد في الأرض من استحلال المحارم وسفك الدماء، وإلى ترك الصد عن الإيمان بالله والتزام طاعته، وإلى عدم سلب الناس أموالهم. كما ذكّرهم بنعمة الله عليهم إذ كثروا بعد قلة، كما أنذرهم بنفس عاقبة المفسدين من العذاب إن استمروا على ما كانوا عليه من الفساد، كما دعاهم بحجته البينة لانتظار حكم الله الفاصل فيما بينهم وبين من آمن منهم، مهدداً لهم بعاقبة من سبقوهم.

ولكن أشراف قومه، كعادة زعماء كل قوم ممن استمرءوا الباطل في التحكم برقاب وأرزاق العباد والبلاد، هددوه ومن آمن معه بالطرد من بلادهم إن لم يرجعوا إلى دينهم في عبادة الأصنام، فسألهم: أهو الإكراه ولاخيار لهم في ذلك؟ وأكد لهم أنه لو فعل هو ومن آمن معه بالله ذلك لوقعوا في الافتراء والكذب على الله وهم ينسبون له تعالى ما ليس بحق، وأنهم لن يعودوا لذلك مطلقاً إلا إذا كان الله يريد لهم الشرك والكفر، وحاشا لله ذلك! وأن عليهم أن يدركوا أن الله يعلم حقيقة إيمانهم وأنهم إن أكرهوهم على الخروج فسيخرجون على كره منهم، وأن الله تعالى كفيلهم وحافظهم، وأنه سيحكم في النهاية بينهم ويعينهم على العودة إلى بلادهم بعد أن ينزل عقابه بأولئك العاصين المستكبرين المفسدين منهم.

ولكن الزعماء المستكبرين الكافرين أصروا على منع قومهم من الإيمان واتباع شعيب، مما يشمل أهل مدين وأصحاب الأيكة، فدعا إلى الله ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ فاستجاب المولى سبحانه وتعالى له وأهلكهم بالرجفة وأصبحوا كأنهم لم يكن لهم وجود في الأرض، فتركهم وهو يردد بأنه قد بلغهم رسالة ربه وصدق لهم النصيحة فلا مجال للحزن عليهم وقد ذهبوا كافرين.

وتعقّب السورة على هذه القصص الخمسة بالقول بأن الله تعالى لم يرسل نبياً لأي قرية إلا وعالجهم بعد تكذيبهم بما يناسبهم من البأساء والضراء في أجسامهم ومعايشهم ليدفعهم للتفكير والاعتبار قبل فوات الأوان، وأنه تعالى أعطاهم بعد تلك المحن الوفير من الأموال والأولاد ولكنهم لم يكونوا ليزدجروا ولا ليشكروا بحجة أن مثل تلك المحن قد أصابت آباءهم فلم تغير عليهم دينهم ولكن ما بالهم وقد حل بهم عذاب الله فجأة ودون معرفة مسبقة منهم!

ثم تقول السورة: كم كان حرياً بأهل القرى والأقوام السابقين الاستجابة للرسل إليهم والإيمان بالله والخوف من عذابه وبالتالي العيش في بحبوحة العيش التي كانوا عليها وتوقع المزيد منها، ولكن ألا قاتل الله الكبر في الباطل والتكذيب للحق! وماذا كانت عاقبة ذلك كله؟ إنه العذاب الذي استحقوه بسوء أفعالهم.. وكان حرياً بهم أيضاً أن يذكروا من كان قبلهم ويتأكدوا من وقوع العذاب عليهم سواء كان ليلاً وهم يغطّون في نومهم أو نهاراً وهم لاهون في لعبهم.

فمن أين جاءهم الأمن والاطمئنان بأن عذاب الله لن يقع عليهم مع باطل أعمالهم وسوء معتقداتهم؟ أمن استدراجه تعالى لهم بالنعمة والصحة بعد الضر والبؤس، ألا يدركون أن في ذلك تذكيراً وتهديداً؟! أيضاً ألا يدرك هؤلاء الذين جاءوا من بعدهم أن أمر إيقاع العذاب بهم عائد إلى الله تعالى الذي يعطيهم مهلة الأوبة والإصلاح لمن فتح عقله وقلبه للحق، وفرصة الاختيار للكفر والفجور لمن عقد العزم عليها وسار في طريقها؟!

وأخيراً يقول المولى سبحانه في هذه السورة مع هذه القصص بأنه تعالى يخبر رسوله محمداً صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بأخبار تلك القرى، وكيف أنهم أعرضوا عن الإيمان بكل الرسالات والبينات التي جاءتهم، واختاروا طريق الضلال والكفر فأسلمهم سبحانه لباطلهم لينالوا بحق وحقيق ما يستحقونه.. كيف لا وقد ظهر أنهم لم يعرفوا ولم يقدروا لله ورسله عهداً ولا ذمة، وسار أكثرهم في طريق الافتراء والتكذيب والفسق والفجور، فكانت تلك عاقبة كل منهم.

وتعود السورة للوقوف ملياً هذه المرة مع قصة موسى مع فرعون وقومه ومع بني إسرائيل، ولا سيما أن اليهود يحيطون بالمدينة أو يتجمعون في كثير من المناطق حولها وبعيداً عنها في أرض العرب الأولى، فتقول:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى
ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ
بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ
فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم
مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ

سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ
وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْۖ
فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ
أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ
وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ
﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا
مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا
مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ
قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ
وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن
قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ
فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ
يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ
أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا
فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ
فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ
عِندَكَۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا
عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ
كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ
وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرْنَا مَا
كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ
قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ
﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ

فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ
أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ
لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى
وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ
إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ
لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ
﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ
قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ
بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن
يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ
مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ
ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ
يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ
بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ
إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾
قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟
ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟
ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى
ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ
سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا
فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ
وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ

عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ
ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ
مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ
ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ
وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ
أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ
مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ
وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾
وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ
سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ
ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ
عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ
سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ
قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ
بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ
تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ
وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم
بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا
ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى
ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ

بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

مذكرة كفار مكة بالذات وبني يهود بخاصة وبني البشر بعامة بما حصل مع كليم الله موسى عليه السلام مع فرعون وآله وصحبه ومع قومه بني إسرائيل عندما بعثه تعالى بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب بمعجزاته إلى فرعون وحاشيته ولكنهم كفروا ولم يصدقوا بها فكانت لهم سوء العاقبة. فقد أكد موسى إلى فرعون بأنه رسول الله وأنه صادق كل الصدق في كل ما يقوله بدلالة البينات التي لديه، وأنه يطلب منه أن يرسل معه بني إسرائيل ويرفع عنهم السخرة والعذاب، فطلب منه فرعون أن يظهر ما جاءه من الآيات الدالة على رسالته إن كان صادقاً، ﴿فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ﴾ فإذا هي أفعى ضخمة جداً، ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ من جيبه فإذا بنور ساطع ينبعث منها يزداد لمعاناً لسمرة موسى الشديدة.. فاتهمه دون تفكر ولا تدبر زعماء قوم فرعون بالسحر، وأنه يسعى لأخذ ملك مصر من الأقباط إلى بني إسرائيل، وطلبوا الأمر من فرعون لينفذوه في موسى، فرد هو وصحبه عليهم بأن يؤخر البت في أمره وأخيه حتى يجمع السحرة من جميع مناطق مصر.

وما أن تم ذلك حتى طلب السحرة من فرعون المقابل إذا تغلبوا على موسى فوعدهم بذلك وأن يقربهم إليه ويرفع منزلتهم لديه. فتأدبوا مع موسى في طلبهم إما أن يبدأ هو بإلقاء ما لديه أو يبدءوا هم، وكان ذلك إشارة إلى لين جانبهم نحوه وليس عنادهم واستكبارهم، فدعاهم للإلقاء ليفضح أمرهم على أعين الناس لا ليشجعهم أو يأمرهم بالسحر، فألقوا حبالهم وعصيهم فسحروا أعين الناس بأن تخيلوها أفاعي مما أشعر الناس المشاهدين بالرهبة والخوف، فأمر الله تعالى موسى بإلقاء عصاه فماذا حصل؟

لقد التهمت كل أفاعيهم عندما ظهرت كأفعى أضخم بدرجات مما أوهموا الناس به بفعل سحرهم، فظهر كذبهم إذ كان ما ألقوه مجرد حبال تتحرك بفعل ما فيها من زئبق، وظهر الحق وانقلب فرعون وقومه أذلاء مقهورين مغلوبين فبادر السحرة إلى إعلان إيمانهم بالله وبرسالة موسى عليه السلام فبادرهم فرعون بالتهديد إن لم يرجعوا بأن يقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أي الرجل اليمني واليد اليسرى، وبالعكس، ثم يصلبهم، فأعلنوا ثباتهم على الإيمان والاعتماد على ربهم في صبرهم، واخذوا بالدعاء إليه تعالى أن يمدهم بقوة من الصبر ليتحملوا تعذيب فرعون ويموتوا على الإسلام والخضوع لله رب العالمين.. وبالفعل نفذ فرعون وطغمته ما هدد به في حقهم.

وتنقلنا السورة إلى مشهد آخر من هذه القصة فنجد زعماء قوم فرعون يتآمرون معه ضد موسى وقومه بحجة أنه إذا تركهم أحياء سيوقعون الفرقة في القبط قوم فرعون ويشتتون شملهم ويخرجون الناس من طاعته وعبادته، فيستجيب لهم ويأمر بقتل أبناء بني إسرائيل وترك نسائهم أحياء فلا يخشى جانبهم، كما يأمر بممارسة المزيد من القهر والظلم عليهم ولكنه لم يجرؤ على الأمر بقتل موسى نفسه لعلمه أنه لا يقدر على ذلك بعد أن ملئ رعباً مما رأى على يديه من المعجزات حتى يروى أنه كان إذا رآه بال كما يبول الحمار.

كما نرى موسى في هذا المشهد وهو يطلب من قومه المزيد من الصبر والاستعانة بالله في ذلك طمعاً في أن يورثهم الله أرض مصر، وأما في الآخرة فلهم الجنة ما داموا على التقوى الحقة، ولكن قومه يردون في وجهه ويعلنون التذمر ولما يجف حبر معجزاته، التذمر مما لحقهم من الأذى من بدء ولادته بقتل الأبناء واسترقاق النساء، وأن ذلك يعود ويتكرر الآن ثانية، فيعود موسى لتأكيد وعد الله لهم وتحقيقه. وبالفعل قد استخلفوا في مصر في عهد داود وسليمان عليهما السلام وفتحوا بيت المقدس كما مر مع (يوشع بن نون). ومع تأكيده عليه السلام بذلك يحذرهم من مخالفة أوامر الله ونواهيه في جميع أعمالهم بقوله ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، لأنه سبحانه يحاسب الناس بما يقع منهم، وبعد أن يقع، وليس بما يعلمه من أعمالهم قبل أن تقع لأنه تعالى محيط بعلمه بكل ما يقع وما لا يقع.

وتواصل السورة نقل مشاهد هذه القصة فتأتي إلى عرض ما يحل بآل فرعون من أصناف العذاب بدءاً بالجدوب وقلة الثمار وذلك ليتعظوا وترق قلوبهم، ولكنهم بدلاً من ذلك كانوا ينسبون الخصب والسعة عندما تأتيهم إلى استحقاقهم لها وينسبون القحط والمرض إلى موسى وقومه من باب التشاؤم والتطير، فرفض المولى سبحانه هذا التطير وأخبرهم بأنه تعالى عالم بذلك ولو جهله أكثرهم.

وهذا التطير والتشاؤم نهى عنه الإسلام بما يسمع من صوت طائر سواء كان البوم أو الغراب أو غيرهما حتى قال عليه وآله وصحبه السلام «أقرّوا الطير في مكناتها» فلا ترعبوها وتنفروها لتتفاءلوا أو تتشاءموا بصوتها وباتجاه طيرانها، وقال «من رجّعته الطيرة عن حاجته فقد أشرك» ومن فعل ذلك فليقل «اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك، ثم يمضي لحاجته».

ومع ذلك التطير منهم كانوا يرددون لموسى بأنهم لا يؤمنون لكلامه مهما جاءهم من الآيات والمعجزات التي كانوا ينسبونها للسحر، وما ذلك إلا جزءاً من عنادهم

وكبرهم في الباطل الذي استمر منذ سجود السحرة عشرين سنة حتى أغرق الله فرعون ومن معه.

ومع عنادهم أخذت تنزل بهم بعض الجدوب ومحن أخرى، فكان الطوفان بعد مطر شديد حتى عاموا فيه، ولم يرفع عنهم حتى تعهدوا بالإيمان لموسى إن رفع عنهم، ولكنهم لم يؤمنوا بعد رفعه عنهم بدعاء موسى فجاءهم الجراد الذي أخذ يأتي على كل شيء حتى عادوا للتعهد لموسى بالإيمان لو كشف عنهم، ولكنهم لم يؤمنوا وقد ذهب عنهم، فبعث الله عليهم القمل التي لزمت جلودهم كالجديري ومنعتهم من النوم والقرار، واستمرت حتى تضرعوا فلما ذهب عنهم بأسها لم يؤمنوا، فأرسل الله عليهم الضفادع حتى ملأت فرشهم وأوعيتهم وطعامهم وشرابهم، وكشف عنهم بأسها بتوبتهم إلى موسى ولكنهم بعدها عادوا إلى كفرهم، فأرسل الله عليهم الدم حتى سال النيل عليهم دماً، فكان يغترف منه الإسرائيلي ماء والقبطي دماً، وكانت هذه الآيات متقاربة الوقوع، وبالرغم من ذلك استمروا على استكبارهم وترفعهم عن الإيمان بالله تعالى.

وجاء صنف آخر من العذاب بعد تلك، قيل أنه رجز الطاعون الذي كاد يقضي عليهم، وأنهم عادوا للتعهد لموسى بالإيمان وإرسال بني إسرائيل معه إذا كشفه عنهم، وعادوا إلى النكث بالعهد بعد أن كشف عنهم بدعائه، واستمروا على كذبهم وتحايلهم حتى جاءهم العذاب القاصم لظهورهم، إنه الغرق في البحر الأحمر، وورث بنو إسرائيل المستذلون أرض مصر والشام التي كانت تعتبر المشارق والمغارب والتي كانت كثيرة الخصب بزروعها وثمارها وأنهارها، وتحقق لهم ذلك بصبرهم على أذى فرعون، وعلى أمر الله بعد إيمانهم بموسى، وانتهى ملك فرعون وقومه.

ويأتي بعد غرق فرعون وقومه مشهد خروج بني إسرائيل بسلام من البحر، ومرورهم بقوم يعبدون أصناماً للبقر، مما جعلهم يحنّون إلى ماضيهم في مصر فيطلبون من موسى أصناماً يعبدونها مثلهم، وهذا ما جعل السامري فيما بعد يصنع لهم عجلاً، فوصفهم موسى لطلبهم هذا بالجهل بحقيقة ما يطلبونه من كفر، وأوضح لهم أن عبادة أولئك القوم متبرة ومهلكة لمن أقدم عليها وباطلة، واستنكر عليهم طلبهم إلهاً غير الله تعالى بعد أن فضلهم سبحانه على عالمي زمانهم بأن أهلك عدوهم وخصّهم بآيات كثيرة منها أن أنجاهم من عذاب قوم فرعون وقتلهم أبناءهم واسترقاق نسائهم، فاذكروا يا يهود المدينة وما حولها هذه المنن على أجدادكم قبل فوات الفرصة.

ويتلو ذلك المشهد الذي يظهر فيه موسى عليه السلام وهو يعهد لأخيه هارون في قومه بالصلاح واتباع المصلحين منهم قبل أن يباشر في الذهاب لميقاته مع ربه إذ يغيب

فيه عنهم ثلاثين ليلة بالإضافة لعشر يقضيها في مناجاته تعالى إكراماً له، فأبطأ على قومه في هذه العشر، لعلمهم بالثلاثين فقط وعدم إدراكهم لجواز التأني والتأخر، مما جعلهم يقولون: إن موسى ضل أو نسي، ونكثوا عهده وبدلوا بعده، وعبدوا إلهاً غير الله هو العجل الذي صنعه لهم السامري، كما لم يدركوا أهمية وقيمة الإعذار.

كما لم يدرك من المسلمين من تعلق بحديث الرسول عليه وآله وصحبه السلام في هذا الصدد عندما قال لعلي رضي الله عنه حين خلفه في بعض مغازيه «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدي» وأن هذا الاستخلاف كان في الحياة كالوكالة التي تنقضي بعزل الموكَّل أو بموته ولا تستمر لما بعد وفاة الموكِّل، وإلا لكان استخلافه عليه وآله وصحبه السلام لغير علي من مثل ابن أم مكتوم مستمراً كذلك لبعد الموت، وعندها يتعدد المستخلفون، وهذا مرفوض شرعاً بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما»، ثم إن هارون قد أشرك مع موسى في أصل تبليغ الرسالة، فلا دلالة بحديث الرسول عليه وآله وصحبه السلام ذاك على استخلاف علي رضي الله عنه كما لا دليل في عمل الرسول عليه وآله وصحبه السلام في استخلاف غيره.

وتتابع السورة المشاهد فيظهر موسى عليه السلام في الوقت الموعود وهو يسمع كلام ربه من غير واسطة ودون أن يرى مصدراً لذاك الكلام، مما جعله يطلب من ربه أن يمكّنه من رؤيته تعالى وليس فقط سماع كلامه، فسمع الجواب على هذا الطلب بأنه لا يمكنه أن يراه تعالى ما دام في إطار هذا التكوين الخلقي المحدود في كل شيء، والمخلوق المحدود لا يمكن أن يرى الخالق المطلق غير المحدود، ولكن المولى دعاه للنظر إلى الجبل، وأخبره بأنه يمكنه أن يراه إذا ثبت الجبل وسكن، وأما إذا لم يسكن فلا يمكنه أن يراه تماماً كالجبل الذي لا يطيق ذلك. وبالفعل ما أن تجلى أمر الله وقدرته وظهر للجبل حتى ساخ في الأرض، مما جعل موسى يقع مغشياً عليه لهول ما رأى، وأناب وتاب إلى الله عندما أفاق معلناً بأن الله تعالى منزه عن الرؤية ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ وأنه تائب إليه تعالى من مثل هذا الطلب وأنه أول من يؤمن بذلك.. وهنا يأتيه النداء الرباني ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ فقد اختاره المولى سبحانه لتبليغ رسالته لقومه، وفضله على الناس بأن كلمه ولم يكلم غيره منهم وإن كلم الملائكة، وأمره تعالى بأن يقنع بما أعطاه ويظهر إحسان الله تعالى إليه وفضله عليه.

ويظهر موسى عليه السلام في المشهد التالي وهو يمسك بألواح التوراة بيديه بكل جد ونشاط، وينظر إليها فيجد أنها تشتمل على كل شيء مما يحتاج إليه في دينه من

الأحكام وتبيين الحلال والحرام، وكل شيء أمروا به من الأحكام لأنه لم يكن عندهم الاجتهاد الذي خصت به أمة محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وهو يستقبل أمره تعالى بأن يعمل قومه بالأوامر ويتركوا النواهي ويتدبروا الأمثال والمواعظ ويعتبروا مما يمرون عليه كلما سافروا من منازل عاد وثمود وغيرهما من الأقوام الذين هلكوا.. وذلك لأن من يتكبر عن الفهم والاعتبار فإنه لن يعتبر بما يشاهد ولن يؤمن ولن يتبع طريق الهدى ويتخلى عن طريق الغي والضلال التي استمرأها ووجد متعه وشهواته ومنزلته فيها، فأصبح غافلاً جاهلاً بحقيقة غيرها، الأمر الذي يجعله يكذب بكل آية ومعجزة ودلالة تدل على وجود الله وقدرته وعظمته، كما يكذب بيوم القيامة، فيفسد جميع أعماله بإضاعة كل مثوبة عليها في الآخرة ونفع في الدنيا لأن الله تعالى يعطي الجزاء من نوع العمل.

وفي المشهد التالي يظهر قوم موسى وهم يعبدون عجلاً له خوار صنعه لهم أحدهم المدعو السامري وذلك بعد خروج موسى إلى الطور لميقات ربه، وتأخره عنهم أكثر من الأيام الثلاثين المعلومة لديهم. وصنعه مما بقي لديهم من حلي القبط، سواء التي أتوا بها معهم من مصر أو جمعوها بعد غرقهم في البحر، وكان يسمع له خوار، وقال لهم بعد أن أنجز صنعه ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ أي نسي موسى وضل طريق العودة إليهم، فأخبره الله تعالى بما حصل من قومه ﴿فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ فلم ينجحوا في الفتنة والاختبار وإنما سارعوا إلى الكفر لحداثة عهدهم بالإيمان على الرغم من أنهم كانوا يرون العجل لا يكلمهم إذا دعوه ولا يرشدهم إلى أي طريق يريدونه فوقعوا في الكفر والظلم لأنفسهم.

ويعود المشهد ليظهر فيه موسى عائداً إليهم وهم يأكلهم الندم والحسرة على ما وقعوا فيه من الضلال، ويدعون الله أن يرحمهم ويغفر لهم بينما موسى في حالة غضب شديد وألم شديد لما وقع منهم وهو يقول لهم ﴿بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ ويقول ﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾ بأن استعجلتم سخط ربكم بهذا الفعل الشنيع، وبعدها يظهر وهو يلقي ألواح التوراة التي عاد بها بسبب ما اعتراه من الغضب والأسف حينما رآهم عاكفين على عبادة العجل، ويقترب من أخيه هارون الذي كاد يذوب همّاً، فيأخذ برأسه بين يديه ويسحبه نحوه بلحيته وذؤابتيه، وإن كان أكبر منه بثلاث سنين وأحبَّ إلى بني إسرائيل منه للينه، وذلك ليعلم منه ما لديه من أخبارهم، ولكن هارون خشي أن يظن بنو إسرائيل بأنه يهينه بذلك فيبادر بالبيان لأخيه بأنهم استضعفوه عندما أقدموا على عبادة

العجل وأوشكوا أن يقتلوه، وهنا يهدأ موسى ويتوجه إلى الله بالدعاء ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى﴾.

وهنا يأتي القرار الرباني بإحلال العقوبة على عبدة العجل والذلة في الحياة الدنيا إذ أمروا بقتل بعضهم بعضاً فقبل الله توبة التائب من الشرك وغيره نتيجة تنفيذهم العقوبة وبقاء من بقي منهم تائباً نادماً.. فيطوى مشهد المجزرة التي حدثت فيما بينهم ويتوب الله على من تاب ويأتي مشهد موسى عليه السلام وقد ذهب عنه الغضب بعد ذلك فيتناول ألواح التوراة التي كان قد ألقاها على الأرض من غضبه، وكانت تتضمن الهدى والرحمة لمن يؤمن بها من بني إسرائيل، ويلتزم بحلالها وحرامها من يخافون ربهم لا لأجل الرياء والسمعة.

ويظهر مشهد آخر بعدها وموسى يختار من قومه سبعين رجلاً ليصطحبهم معه لميقات آخر مع ربه، ثم يتركهم ليصعد الجبل للمناجاة، فيستأخرونه، فيزلزلوا حتى يظهر وكأنه لا أحد على قيد الحياة، فيتوجه موسى داعياً ضارعاً ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ﴾ ولكن قضاءك قد أبقاني وإياهم فلا تهلكنا يا رب لما يصدر عن عبدة العجل من شرك، وأن ذلك كله اختبار منك ليظهر المختار للضلال من المختار للهدى.

ويكمل ضراعته قائلاً ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾، ويواصل الدعاء إلى ربه بأن يوفقهم للأعمال الصالحة التي تجلب الحسنات في الدنيا والآخرة لأنهم تابوا وحسنت توبتهم، فيأتيه الجواب الرباني بأن عذابه يحل بالمستحقين له، ورحمته وسعت كل خلقه حتى البهيمة، وأنها للمتقين من المكلفين الذين يؤدون الزكاة ويصدقون بجميع آيات الله ومعجزاته، والذين يتبعون رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم النبي الأمي المكتوبة جميع نعوته عندكم أيها اليهود والنصارى في التوراة والإنجيل، وهو الذي يأمركم فيها بالمعروف من خلع الأنداد والتزام مكارم الأخلاق وصلة الأرحام، وينهاكم عن المنكر من عبادة الأصنام وقطع الأرحام، ويحل لكم ما أحله الشرع من طيبات الأطعمة، ويضع عنكم التكليف بذلك العهد والأعمال الثقال من مثل جواز غسل البول بالماء بدلاً من قرض كل موضع يسقط عليه، وتحليل الغنائم بعد أن كانت محرمة عليكم ومجالسة الحائض ومؤاكلتها ومضاجعتها المقيدة بعد أن كان ذلك كله محرماً عليكم.

كما يضع عنكم الأغلال التي كانت عليكم من مثل ترك الاشتغال يوم السبت فسمح بذلك وسمح بالدية بعد أن كان عليكم القصاص فقط، وقبلت التوبة بالندم وشروطها دون قتل النفس بعد أن كانت لا بد فيها من هذا القتل الثقيل، إلى غير ذلك..

فإن من يؤمنوا بهذا النبي الأمي ويوقروه وينصروه ويلتزموا القرآن والسنة اللذين أتى بهما فإنهم وحدهم المفلحون الفائزون يوم القيامة عند رب العالمين.

وهنا يدخل مشهد طارئ على قصة موسى ويظهر فيه المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وربه يأمره أن يبلغ الناس أنه رسول الله إليهم جميعاً، وليس للعرب دون العجم، ولا للأسود دون الأبيض، ولا للأصفر دون الأحمر، وأن عليهم أن يؤمنوا بأن الله هو مالك السموات والأرض، وأنه سبحانه المعبود بحق دون غيره، وأنه المحيي والمميت للخلق كل بأجله، وأن عليهم بذلك أن يؤمنوا به وحده خالقاً ومدبراً كما يؤمنوا برسوله النبي الأمي الذي يؤمن معهم بالله وكلماته في التوراة والإنجيل، دون تحريف وتغيير، والقرآن الذي لا يلحقه أي تحريف وتغيير، ويتبعوه في كل ما يأمرهم به وينهاهم عنه، وفي ذلك الهدى الكامل.

وتعود المشاهد إلى قصة موسى فيظهر مشهد يشتمل على جماعة مهديين ملتزمين بالحق من قوم موسى قبل أن ينزل القرآن وينسخ التوراة، وأنهم لم يبدلوا ولم يشتركوا في قتل الأنبياء كغيرهم.. ثم يتبعه مشهد يظهر فيه بنو إسرائيل وهم موزعون إلى اثنتي عشرة جماعة تبعاً لعدد أسباط بني إسرائيل، ويستقي كل منهم من عين منفصلة عن الأخرى حيث نبعت من حجر واحد بعد أن أمره ربه بضربه بعصاه، مؤكداً بذلك تمزقهم، وتظهر من فوق رؤوسهم الغيوم وهي تحميهم من حر الصيف، ومن بين أيديهم أطعمة طيبة من المن وحلاوته، ومن لحم طائر السلوى ولذته، فيتمتعون بتلك الطيبات من الرزق، ويتحملون أي تقصير يجر على أنفسهم الظلم.

وهاهم وقد قيل لهم أقيموا في بيت المقدس واستمتعوا بطيباتها واطلبوا من الله أن يحط عنكم ذنوبكم، وادخلوا باب السور إليها وأنتم ساجدون وليس زحفاً فعندها وعندها فقط يغفر الله لكم بطاعاتكم خطيئاتكم، ولكنهم يظهرون وهم يطلبون أدنى الأطعمة من البصل والثوم بدلاً من المن والسلوى، ويرددون كلمة حنطة بدلاً من حِطّة، ويدخلون الباب زحفاً على أستاههم بدلاً من السجود، فيخسرون مثوبة الطاعة الحقة ومزيد الإحسان الكريم، وينزل عليهم من السماء من العذاب ما يتناسب مع معصيتهم.

ويتلوه مشهد آخر وفيه يظهر أهل تلك القرية المجاورة لشاطئ البحر، والذين كانوا يحتالون في صيد السمك يوم السبت المحرم العمل فيه عليهم بنصب الشباك يوم الجمعة ليجمعوا سمكها يوم الأحد، فكان يظهر فسقهم وتجاوزهم لطاعة ربهم بذلك الاحتيال، مما جعل الأتقياء منهم لا يرون قيمة للوعظ والتخويف لهم من عذاب الله وهم مصرون على الاحتيال والعصيان، فيعتزلون ولا ينهون، فيظهر بذلك بنو إسرائيل في

ثلاث فرق: عاصية، ومعتزلة ناهية، ومعتزلة غير ناهية، فيحل المسخ بالعاصية، وتنجو الناهية، ويسمع النداء الرباني بأن الله تعالى قد أمر بسوء العذاب يلاحقهم إلى يوم القيامة، هذا بشأن أسلاف يهود وأما بشأن من كان يخاطبهم المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم فإن عليهم أن يعلموا أنهم إن لم يؤمنوا بالنبي الأمي ويتبعوه فإن الله سيبعث عليهم من يعذبهم لأنه سبحانه سريع العقاب للعاصين كما هو غفور رحيم للمطيعين.

ويظهر مشهد مريع وبنو إسرائيل يتمزقون فيه إلى جماعات مشتتة في أقطار الأرض، ومنهم من آمن بمحمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم كما تأمر التوراة ولم يبدل ما فيها ومات قبل نسخ شرع موسى ببعثة محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، فكانوا صالحين، ومنهم من كفر بذلك، فتعرضوا للكثير من الابتلاء بالحسنات من خصب وعافية، وبالسيئات بالجدب والمرض والشدائد، وذلك ليرجعوا عن كفرهم.

ويتبع ذلك المشهد ظهور أولاد أولئك الذين تفرقوا في الأرض والذين ورثوا التوراة عنهم فقرؤوها ولكنهم خالفوا أحكامها عندما ارتكبوا المحارم مع علمهم بها فاستحقوا هذا التوبيخ والتقريع إذ أنهم كانوا يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا لشدة حرصهم ونهمهم،ويزعمون أنهم سيغفر لهم ذلك مع أنهم لم يكونوا يتوبون عما هم فيه، ويتكرر ذلك منهم فيأخذون كل ما يتوفر لهم من عروض الدنيا، فكأنهم لا علم لهم بالميثاق والعهد الذي أخذ عليهم بأن لا يفتروا على الله الكذب بزعمهم الحصول على المغفرة دون توبة عن المعصية، فلم تكن قيمة لدراستهم للتوراة وعلمهم بما فيها وهم يجرؤون على مخالفتها.

فاعلموا أنتم يا أحفادهم كما علم أجدادكم بأن الجنة للأتقياء المطيعين، وهذا لايغيب عن عاقل حريص على اتباع الحق بالإيمان بالنبي الأمي واتباعه وليس بالتحريف والتغيير للتوراة والزعم أن ذلك غير مطلوب منهم.. وانظروا إلى أن من تمسك منكم بالتوراة وعمل بها دون تحريف، وأقام الصلاة مع المسلمين فدخل في ملتهم، فإنه هو الصالح المصلح الذي ينال أعظم الأجر والثواب.

وتنتهي مشاهد قصة موسى وبني إسرائيل في هذه السورة بمنظر الجبل وقد رفعه الله بأمره من فوق رؤوسهم حتى كأنه سحابة تظللهم، ورأوه يوشك أن يسقط فوقهم فيقضي عليهم قضاء مبرماً إن لم يستجيبوا للالتزام بجد ونشاط بما أمرهم تعالى في التوراة من حلال وحرام، ويستحضروه دائماً في ذاكرتهم ويجعلوه ديدن مخافتهم لربهم

وطاعتهم له سبحانه عز وجل بالإيمان بالنبي الأمي والسير معه ومع أمته على الصراط المستقيم.

وتنقلنا السورة بعدها للتذكير بعهد الله لبني آدم جميعاً، ومصير كل من يعصي الله ويرفض هداه فتقول:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ
شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ
وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾
وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ
عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ
ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ
قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ
مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم
مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن
شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ
لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

داعية الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أن يذكرهم مع ما سبق من تذكير بالمواثيق في كتابهم بما أخذه الله تعالى من المواثيق من العباد يوم خلقهم واقتضت سنته على الفطرة، فطرة الإيمان بالخالق والحاجة لتدبيره وتقديره، وألهم النفس فجورها وتقواها، وجعل لها قدرة الاختيار ولذلك ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾، فبعد أن أقر البشر بعجزهم عن خلق أنفسهم، وحاجتهم لتدبير وتنظيم ربهم، ونقصهم عن الكمال في كل أحوالهم وأعمالهم فإنهم يعترفون بالغفلة عن هذا

الحساب يوم القيامة، سواء كانت الغفلة جزئية بالتقصير في الطاعات، وعندها يقعون في الفسق والمعصية، أو كانت كلية بالوقوع في الشرك أو الكفر، والعياذ بالله، فيتبعون آباءهم على الشرك زعماً بأنهم لم يكونوا بدعاً بل تبعاً في ذلك، وعندها يغفر للمقصر مع التوبة ولا يغفر للمشرك مع الإصرار والزعم بأن أعماله تبعاً لوالديه، فلا عذر للكافر بالتقليد كما لا عذر للمقلد المضطرب في التوحيد.

ثم تدعوه عليه وآله وصحبه السلام ليخبرهم بقصة من آتاه الله تعالى آياته ففرط في الالتزام بها واتبع الشيطان في غوايته وأنه من بني إسرائيل، وأنه كما قال ابن مسعود وابن عباس بلعام بن باعوراء الذي عاصر موسى عليه السلام، وكان من العلماء المجلين، ولكنه ترك دين موسى عندما أغراهُ الجبارون وكاد لبني إسرائيل معهم، وإن قيل غير ذلك، والمهم أنه تخلى عن علمه ومعرفته بربه سبحانه ولحق بشهوات الدنيا ومتعها فكان كاليهود والنصارى الذي عرفوا محمداً صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في كتبهم وانتظروا خروجه ولكنهم كفروا به عندما جاء على غير هواهم.

فذكّرهم يا محمد بأن الله لو شاء بقضائه لرفع منزلة بلعام قبل أن يقع في الكفر، وذلك بالموت وهو على الإيمان، ولكنه تعالى قد تركه للابتلاء والاختبار ففشل فيهما واختار الدنيا على الآخرة عندما اتبع هواه والتصق بالأرض ومتعها فأصبح في كد وتعب ولهاث دائم كالكلب الذي يلهث عند التعب وعند الراحة على حد سواء، وهذا هو حال كل من كذب بآيات الله وكفر بها، فليتفكر بذلك كل عاقل ولا يسير على هذا السبيل السيء فيقع في الكفر والظلم لنفسه.

وذكّرهم يا محمد بأن من يختار بإرادته هداية الله تعالى فهو المهتدي ومن يختار الضلال فهو الخاسر ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وذكّرهم يا محمد بأن الله تعالى عندما خلق جهنم وخلق الجن والإنس وأعطاهم قدرة الاختيار كان يعلم أن الكثير منهم سيختار طريق الضلال المؤدي إلى جهنم، ولكنه تعالى لا يحاسب خلقه بعلمه وإنما بعملهم، ولذلك فإنهم لا يفكرون بعقولهم ليعرفوا الحق فيلتزموه، ولا يبصرون بأعينهم مواضع الاستدلال الموصلة للإيمان وما يقتضيه، ولا يسمعون بآذانهم دعوات الحق وتلاوات الهدى ليتبعوه ويعرضوا عن غيره، فهم أضل عن الحق من الأنعام، وإن كانت بفطرتها تهتدي لمنفعتها، فهم بحق الغافلون عما ينفعهم في الدنيا والآخرة.

وذكّرهم يا محمد بأن الأسماء الحسنى التسع والتسعين وما يزيد عنها هي كلها لله

تعالى، وأن على من يريد الإخلاص والعبادة والدعاء أن يتوجه إليه تعالى بالدعاء المخلص بها، كأن يقول: يا رحيم ارحمني، يا رزاق ارزقني، يا غفار اغفر لي.. وهكذا، وهي تسع وتسعون بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام «لله تسعة وتسعون اسماً من أحصاها دخل الجنة»، وسميت بالحسنى لأنها حسنة في الأسماء والقلوب ودالة على توحيد الله وكرمه وجوده ورحمته وأفضاله.

فعلى المؤمنين بإخلاص الدعاء إليه تعالى بأسمائه الحسنى والتخلي عن أي تغيير فيها كما يفعل المشركون عندما يسمون بها أوثانهم، فلا يزيدون فيها بالتشبيه ولا ينقصون فيها بالتعطيل كما يفعل الجهال بالدعاء بغير أسماء الله تعالى، وعليهم أن يتركوا الملحدين ولا يحاجوهم ولا يعرضوا لهم، فآتيهم من الأيام ما فيها من غضب الله وعذابه.

وذكّرهم يا محمد بأن من خلق الله تعالى أمة يهتدون بالحق و«هم هذه الأمة» كما قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وأنهم بالتزامه واتباعه وتحكيمه في حياتهم وعلاقاتهم ينظمون ذلك بعدل، وأما أولئك الذين يكذبون بآياته تعالى فإنه يستدرجهم بأخذهم بالتدريج، منزلة بعد منزلة، فكلما جدّدوا معصية جدّد الله لهم نعمة، فيسبغ عليهم النعم فينسوا الشكر فيطيل لهم المدة ويمهلهم ويؤخر عقوبتهم.. وأن عليهم أن يفكروا فيما جاءهم به محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، ويكفوا عن اتهامه بالجنون، ويعلموا إنما هو ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، ولينظروا بتدبر وإمعان ﴿فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ليروا ما فيها من آيات تعرّف بكمال قدرته تعالى، مما يدل على لزوم النظر والاستدلال بعد وجوب الإيمان بالله تعالى، ويتدبروا في كل ما خلق الله تعالى من أشياء من حولهم أو في مجال معرفتهم، وفي آجالهم التي ربما يكون قد اقتربت، فيصلوا إلى أنه لا مجال للإيمان بأي كتاب غير القرآن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

وذكّرهم أخيراً يا محمد بأن من يختار الضلال منهم فإن الله لا يفرض عليه الهدى وإنما يتركه لاختياره وظلمه لنفسه وعمهه وتردده وحيرته.

وتقترب السورة من نهايتها فتشير إلى الأسئلة عن الغيب وما يجره من خلل في التفكير الذي قد يوقع في الشرك، وما يلزم لتلافي ذلك فتقول:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ
مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ
وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت
دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ
فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ
لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ
أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ
بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ
ٱلْكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ
يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ
ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ
﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ قُلْ
إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا
قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً
وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

وانظر إليهم يا محمد وهم، يهود ومشركون، يسألونك عن موعد مجيء يوم القيامة، بدليل قول اليهود له عليه وآله وصحبه السلام: إن كنت نبياً فأخبرنا عن الساعة متى تقوم، وسؤال المشركين ذلك لفرط الإنكار، فأجبهم يا محمد بأن ربك لم يبينها لأحد حتى يكون العبد دائماً على حذر، وأنه تعالى وحده هو الذي يظهرها في وقتها، وأن علمها قد خفي على أهل السموات والأرض مما أثقله عليهم، وهي لا تجيء إلا فجأة، فلا حاجة لسؤالك عنها كأنك عالم بها مكثر من السؤال عنها،

فأكد لهم أن علم وقوعها عند الله وحده كما أن علم كنهها إليه وحده فليعلمه

الناس قليلهم وكثيرهم. وقل لهم يا محمد بأنك لا تملك أن تجلب إلى نفسك خيراً ولا تدفع عنها شراً، فمن أنّى لك أن تعلم بالساعة! ومن أين لك أن تجلب أو تدفع ما قضى به الله وقدره!

وليعلموا بأنه لو كنت تعلم غيب ما يريده المولى سبحانه منك من قبل أن يعرفك به لفعلته، ولو كنت مثلاً تعلم متى ستموت لاستكثرت من العمل الصالح، ولو كنت تعلم سنة الجدب مثلاً لاستعددت لها في زمن الخصب وما أصابك من آثار الجدب شيئاً، كما ليس بك مما ينسبونه لك من الجنون أثر وإنما أنت نذير للكافرين من العذاب وبشير للمؤمنين بالمغفرة.

وقل لهم يا محمد بأن الله تبارك وتعالى هو الذي خلق البشر كلهم من نفس واحدة هو آدم عليه السلام، ثم خلق منها زوجها حواء عليها السلام ليأنس بها ويطمئن عندما كانا في الجنة، ثم جامعها بعد أن أهبطا إلى الأرض فحملت فكان في بدايته حملاً خفيفاً، ثم عندما ثقل عليها توجها إلى الله بالدعاء ليرزقهما الولد الصالح فيكونا من الشاكرين. وهذا هو شأن كل زوجين من بني آدم، على الإيمان أو على الشرك، وأن المشركين ما أن يرزقا بالذرية الصالحة السليمة السوّية كما أراداها حتى يعمدا إلى صرف الفطرة إلى الشرك بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام «ما من مولود إلا يولد على الفطرة وأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه».

وفي الآية دليل على أن الحمل مرض من الأمراض، ولعظمه وشدته فقد جعل موت الحامل شهادة بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام «الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله، المطعون شهيد، والغريق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمبطون شهيد، وصاحب الحريق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجمع شهيدة» أي تموت وفي بطنها ولد.

واستنكر عليهم يا محمد معنفاً موبخاً كيف يشركون مع الله الخالق في عبادتهم ما لا يقدر على خلق شيء من أمثال هذه الأصنام المخلوقة، والتي لا تملك نفع أحد ولا حتى نفع نفسها، ولا تنصر ولا تنتصر!! والتي إن تدعوها إلى الهدى فإنها لا تملك الاتباع ولا عدمه، والأمر في حقها سيان أدعوت أم لم تدع فهي فاقدة الحياة، ومن أنّى لها الاستجابة أو الرفض!!

وأكد لهم يا محمد بأن ما يدعونه آلهة من دون الله من الأصنام وغيرها ما هي إلا مخلوقة مثلكم لا تملك النفع والضر، فادعوها وانظروا إليها فيما إذا كانت تملك الجواب على سؤال: هل لعبادتها من نفع؟وانظروا إليها فيما إذا كان لديها أعضاء

الاستجابة من أرجل للمشي، وأيد للعمل والضرب، وأعين للبصر، وآذان للسمع، إنها لا تملك من ذلك شيئاً، فأين عقولكم؟!

وإذا كنتم مصرين فاطلبوا منها أن تؤذيني بكيدها دون تأخير، واعلموا أن الله تعالى هو الذي يتولى نصري وحفظي كما يتولى كل صالح مطيع مؤمن، وتأكدوا أن ما تعبدونهم من دون الله لا يملكون لكم ولا لأنفسهم نصراً ولا عوناً، وأنهم لا يملكون السمع إذا دعوا للهدى ولا يملكون البصر وإن وجدت لديهم عيون يخيل إليكم أنها تنظر إليكم!!

وتنقلنا السورة إلى ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات، إنها ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ أي صل القاطع، واعف عن المذنب، وارفق بالمؤمن و﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ من صلة الرحم، وغض البصر، وتقوى الله، واستعداد للآخرة. ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ بالحض على العلم، ونبذ أهل الظلم، وتجنب السفهاء، بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام «إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق»، وسأل النبي عليه وآله وصحبه السلام جبريل عن هذه الكلمات الثلاث، فقال «لا أدري حتى أسأل ربي» فذهب ثم رجع فقال «إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك».

وقال جعفر الصادق رضي الله عنه بأن الله أمر نبيه بمكارم الأخلاق في هذه الآية، وقال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، وليس هذا يعني أن الشريعة الإسلامية هي أخلاق أو نزلت لتكمل مكارم الأخلاق بل لأن من يلتزم الشريعة بجميع جوانبها فإنه يصبح إسلاماً يمشي على الأرض فيكون كريم الأخلاق مع نفسه ومع غيره ومع ربه في جميع جوانب علاقاته الثلاثة، مما يجزم أن الأخلاق نتيجة قطعية للملتزم بدينه بحق قولاً وعملاً.. كيف لا والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول: «أمرني ربي بتسع: الإخلاص في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وأن أعفو عمن ظلمني، وأصل من قطعني، وأعطي من حرمني، وأن يكون نطقي ذكراً، وصمتي فكراً، ونظري عبرة».

ولما نزلت ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ قال عليه وآله وصحبه السلام: «كيف يا رب والغضب؟» فنزلت ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ﴾ بأن تتحرك ولو أدنى حركة بدافع وسوسة الشيطان، فعليك بطلب النجاة من ذلك بالله بدفعها والإعراض عنها ما دامت خواطر غير مستقرة ولا سببها الشبهة، وأما إذا كانت كذلك فلا بد من دفعها بالحجة، وذلك لأن من يتجنب الشرك والمعاصي إذا وردته وسوسة في اليقظة أو النوم يتذكر أمر

الله ونهيه فيلتزمه، ولا تؤثر عليه تلك الوسوسة وإن حاول الفجار من ضلال الإنس أن يعبثوا بهم بمدد من شياطينهم دون تقصير.

وانظر إليهم يا محمد، فإنك ما أن تقرأ عليهم الآية المنزلة حتى يبادروا إلى اتهامك باختلاقها من نفسك، فرد عليهم بأنك لا تقرأ عليهم إلا ما أنزله الله عليك وليس من عند نفسك لأنك حريص على اتباع ما يوحيه إليك ربك، بدلالة هذا القرآن الذي يستبصر به على أن الله تعالى واحد لا شريك له، وأن فيه الهدى لمن يتبعه ويلتزم أمره ونهيه، كما فيه الرحمة في الدنيا والآخرة لكل مؤمن به فرداً أو جماعة.

ولذلك ما على المؤمن سواء كان في الصلاة أو أثناء الخطبة في الجمعة والعيدين إلا أن يستمع للإمام عندما يقرأ وينصت ليعيه تمام الوعي ويعمل بما فيه ولا يتجاوزه لتتحصل له الرحمة، وليتجنب الجهر خلف الإمام مما نهاهم عنه عليه وآله وصحبه السلام، كما على المؤمن أن يقرأ القرآن في الصلاة وخارجها قراءة تأمل وتدبر وخشوع وخوف، ويتجنب رفع الصوت بحيث يسمع نفسه فقط، وذلك في جميع الأوقات، في الصباح والمساء، وليحذر من الغفلة عن هذا، وذلك لأن هذا من صفات الملائكة الذين لا يتعالون عن عبادة الله وتعظيمه وتنزيهه عن كل سوء، وله يصلون دائماً ركوعاً وسجوداً.

وفي الآية إشارة لسجود التلاوة مما يرجح أنه ليس بواجب بدلالة عدم مداومة الرسول عليه وآله وصحبه السلام عليه، وأن الأفضل له ما للصلاة من طهارة وغيرها، وله تكبير وإن لم يكن له تسليم لأنه ليس بصلاة، وأن وقته مستوعب جميع الأوقات إلا عند النهي فتركه فيها أفضل، ومن سجده يقول «اللهم احطط عني بها وزراً، واكتب لي بها أجراً، واجعلها لي عندك ذخراً» كما روى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

دليل سورة الأعراف ـ ٧

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٢٠٦ آيات باستثناء ٨ آيات من ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾.

-تركزت وسوسة إبليس لآدم وحواء على تأويل أمر الله تعالى بأن لا يأكلا من شجرة معينة بأنه كان كراهة أن يصبحا ملكين أو خالدين، واستخدم الحلف في ذلك مما يسر التغرير بهما فأكلا من الشجرة فعوقبا عقاباً جزئياً لأنهما اعترفا واستغفرا إذ أنزلا

إلى الأرض ليعيشا وذريتهما عليها.. مما يجزم أن المهم ليس الألبسة المغطية بل الطاعة المغنية عن الحاجة لهذه الألبسة.

- تؤكد أن تقليد الأبناء للآباء في الكفر والمعصية تقع مسئوليته على الطرفين وينتهون للنار بينما من يعمل عقله ويرفض التقليد ويتبع الحق والهدى فإنه بإرادته واختياره يدخل الجنة ويتمتع بنعيمها بدلاً من النار وعذابها.

- عقدت حواراً مثيراً بين أهل الجنة وأهل النار وأشركت معهم أهل الأعراف لتدلل على قيمة استثارة العقل والفكر في الإيمان.

- تذكر جوانب من قدرة الله تعالى على الخلق والتدبير، خلق السموات والارض وتدبيرهما بنظام كوني مناسب لكل شيء وخاضع لأمره تعالى في إنزال النعمة أو النقمة على من يستحقهما.. وفي ذلك أعظم التحذير لأولي العقول.

- وتكمل التحذير بعرض ما فعلته قدرة المولى سبحانه في تدمير الأمم السابقة سواء كانوا قوم نوح أو قوم عاد أو قوم ثمود أو قوم لوط أو قوم مدين.. فتحذر مشركي مكة والعرب كلهم من نفس المصير ولا سيما وهم يسمعون من اليهود ما حل بفرعون وقومه لرفضهم لرسالة موسى واستعبادهم لقومه، وما فعله بنو إسرائيل من عصيان ومخالفات أثناء توجههم لبيت المقدس وما حل بهم من عقوبات جزاء ذلك.. محذرة من التعالي عن سماع الحق والاعتبار بما حل بالأمم السابقة ومذكرة بأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام هو ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ مما يوجب عليهم الإيمان والاتباع.. ومنبهة أبناء أولئك القوم من بني إسرائيل من أن يصابوا بما حل بآبائهم إذا استمروا على العناد في الكفر والعصيان.

- وتركز على إثارة التفكير بذلك كله والاعتبار به واختيار الهدى على الضلال قبل ضياع الفرصة ويحيق بهم عذاب الدنيا ثم عذاب الآخرة.. وأن ذلك كله محض إرادتهم واختيارهم.

- وتؤكد لهم جميعاً مشركين وأهل كتاب بأنه لا حاجة بهم للسؤال عن موعد يوم القيامة والحساب لأن علمه إلى الله وحده، والمهم أن يستعدوا له قبل حلوله.

- وتلفت نظر الإنسان بأن يتجنب جميع أنواع الشرك حتى في التسمية بـ (عبد الحارث) مثلاً لأن (الحارث) هو إبليس، كما تذكر بأن تلك الاصنام التي يعبدها مجرد حجارة أو أمثالها مما لا تضر ولا تنفع معه أحداً لانفسها ولاغيرها.

- وتدعو الرسول عليه وآله وصحبه وسلم وكل حاكم يخلفه على المسلمين بالعفو

عن الظالمين والإعراض عن الجاهلين جلباً لهم للإيمان، وهذا ما كان عليه الحال في المرحلة المكية.

- وتعود وتكرر الأمر للرسول عليه وآله وصحبه السلام ولكل مسلم بالدعاء إلى الله تعالى بكل خوف وخشوع متصفاً بذلك بصفة الملائكة الذين لا يفترون عن ذلك.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ بدأت السورة بالتهيئة لنفس الرسول عليه وآله وصحبه السلام وأصحابه لتحمل رفض الناس وصدهم وتعذيبهم للمؤمنين وذلك بالإشارة لمثل ذلك مع الأقوام السابقين ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾.

٢ ـ ثم جاءت على جانب من قصة آدم وزوجه مع ابليس، وكيف أغواهم بمخالفة أمر الله تعالى فأكلا من الشجرة المحرمة فعوقبا.. مؤكدة أن الخطأ من طبيعة البشر بقابلية عمل الخير والشر فيها، وأن إرادة الفرد وحده هي التي تنقذه من الشر عندما يرجح الخير على الشر باتباع أوامر الله وتجنب نواهيه التي استقرت بما في الاسلام الناسخ لكل ما سبقه من الشرائع ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾.

٣ ـ ثم أظهرت أن الحوار مما يجري بين أهل الجنة والنار مع الأعراف هو الأسلوب الأمثل لإدراك الحق وبالتالي التزامه لأنه يستثير تفكير العقول لإدراك هذا الحق واتباعه وهي تري قدرة الله تعالى في خلقه وتدبيره لهذا الوجود المادي والبشري، وهذا النظام الكوني البديع الذي يجري تدبيره وفقاً له ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ﴾.

٤ ـ ثم عرضت بشيء من التفصيل ما حصل مع رسل الله تعالى إلى أقوامهم بدءاً من نوح ومروراً بهود وصالح ولوط وانتهاء بشعيب، وكيف حل بكل قوم جزاؤهم لاستكبارهم على الطاعة وتعنتهم عن الاستجابة.. مؤكدة أن قوماً لن ينجوا من ذلك إذا فعلوا فعلتهم.

٥ ـ ثم خصّت موسى عليه السلام مع فرعون وقومه بتفصيل مقصود لتؤكد لليهود وللمشركين بأن رسوله محمد عليه وآله وصحبه السلام مبلغ رسالة صدق وحق.. وأن قوماً كبني اسرائيل لن يفلتوا من العقاب إذا وقعوا في نفس ما وقع فيه الأقوام السابقين من المعصية.

٦ ـ إن رحمة الله تعالى وعفوه أوسع وأعظم من كل ذنب يتوب مرتكبه، ولذلك نجد ذلك قد ظهر جلياً مع بني إسرائيل لكثرة ما ارتكبوه من معصية ثم توبة.

٧ ـ أن استخلاف علي يختلف عن هارون لأن هذا نبي وذاك مجرد وكالة تنتهي بعزل الموكل أو وفاته وإلا لاستمر استخلاف غير علي من مثل ابن أم كلثوم، ومعها يتعدد المستخلفون وهذا مرفوض شرعاً، ثم لأن هارون قد أُشرك مع موسى في أصل التبليغ مما يجزم أن استخلاف علي لا دلالة فيه على الإمامة والخلافة فهو تماماً مثل استخلاف غيره.

٨ ـ أن أمثال السامري الذي صنع بيديه العجل ليعبده بنو إسرائيل في غيبة موسى يمكن وجوده في كل أمة مما يستدعي الحذر من دعاة الباطل بين المسلمين مهما كانت مكانتهم العلمية.

٩ ـ أن الفرق كبير بين بني اسرائيل وقد رفضوا دخول بيت المقدس مع موسى بحجة قومها الجبارين وبين المسلمين الذين بادروا للاستعداد لخوض كل المعارك التي يراها الرسول عليه وآله وصحبه السلام.. مما يجزم ضرورة مراعاة ذلك في كل زمان مع خلفاء الرسول عليه وآله وصحبه السلام على أمته.

١٠ ـ تكرر السورة بأن للإنسان ان يختار الهدى والضلال، وسيحاسب على اختياره بعد أن وضع تعالى بين يديه الهداية وأمره بالأخذ بها وتجنب الضلال أو العمل به. .﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ﴾.

١١ ـ وتؤكد أن يوم الحساب لابد قادم، وأن على كل إنسان أن يستعد له بالطاعات وتجنب المعاصي بالإيمان بالاسلام والعمل بأحكامه والتخلي عن غيره، وليحرص على دوام هذا الالتزام مع دوام الدعاء إليه تعالى على كل حال وفي ذلك الجزاء الطيب في جنات النعيم.

سورة الأنفال (٨)

التقديم

تبدأ السورة ببيان الحكم في الأنفال في الحرب أو الغنائم فتنهي الخلاف الذي نشب بين الصحابة بصدد ذلك يوم بدر إذ تبين أن ذلك للرسول عليه وآله وصحبه السلام أو لمن خلفه في حكم المسلمين فيقسمها بين المحاربين المسلمين بالسواء بعد أن يقتطع منها الخمس لنفسه، وهذا الخمس منوط بالإمام تقسيمه، والمهم أن يجتمعوا على التقوى والإصلاح ويقسموا الغنائم وفقاً لأمر الله وفعل رسوله، وأن هذه هي صفة

المؤمنين الصادقين المتقين العابدين الذين يزدادون خوفاً من الله وإيماناً به كلما ازدادت تلاوتهم لآياته.

ثم تأمر الرسول عليه وآله وصحبه السلام بتنفيذ ذلك ولو كرهه فريق من المؤمنين.. ثم تعقب على ذلك بوعد الله لهم بإحدى الأمرين إما عير قريش وإما النصر في الحرب، وتدعوهم لاختيار الثاني لما فيه من إعلاء كلمة الإسلام والقضاء على الكافرين.

وتنقلنا السورة لما وقع في معركة بدر عندما استغاث الرسول عليه وآله وصحبه السلام ربه سبحانه وتعالى وقد رأى قلة المؤمنين بالنسبة للكافرين، فأمدهم الله تعالى بألف من الملائكة طمأنت مشاركتهم المؤمنين وتحقق نصر الله بذلك لهم، وتذكّرهم بمنة الله عليهم عندما قواهم وطمأنهم بالنوم الذي فرضه عليهم ليلة المعركة ثم المطر الذي تيسر لهم به الشرب والتطهر ودك الأرض لتثبت تحت أقدامهم، ثم تذكّرهم بفضل الله عليهم عندما أمر الملائكة المشاركين لهم في المعركة تثبيتهم وضرب رقاب وأصابع الكافرين، وذلك بعد أن خاصموا أولياء الله المؤمنين ووقفوا ضد رسوله فاستحقوا هذا العقاب الشديد في الدنيا وعذاب النار في الآخرة بانتظارهم وأمثالهم.

وتعقب السورة على ذلك بأمر المؤمنين بعدم التولي يوم الزحف بالهرب من القتال اللهم إلا باستثناء حالتين: الأولى عند الكر والفر بالتراجع مناورة استعداداً للإيقاع بالعدو، والثانية عند التقصد للانضمام إلى جيش آخر استعداداً للقتال، وإن حصل الفرار دون إحداهما فقد أوجب الفار على نفسه غضب الله وعظيم عذابه.

ثم تذكر المؤمنين بأن دعمهم بالملائكة في بدر وإعانته تعالى لهم بالنصر الذي بيده وحده سبحانه كانا سبب فشل كيد الكافرين ضدهم، وتسارع فتأمرهم بأن يلتزموا طاعة الله ورسوله ولا يفرطوا في ذلك بأي حال، وأن يحذروا أن يتشبهوا باليهود والمنافقين الذين يتظاهرون بالسماع وهم أبعد ما يكونون عنه فيصبحون شر ما دب على الأرض بعد أن أقفلوا عقولهم عن سماع الحق والاستجابة له عناداً وكبراً.. فإياكم أيها المؤمنون أن تكونوا على شيء منهم، واحرصوا على الاستجابة لما يأمركم به الله ورسوله مما فيه الحياة الحقة سواء كان بالجهاد أو بالطاعات كلها.

واعلموا أن الله تعالى قادر على أن يحول بين المرء وعقله حتى لايدري ما يصنع ولكنه سبحانه يعطيه فرصة الاختيار فيتحمل مسئولية ما يفعل، وإياكم أن تقروا المنكر بين أظهركم فيعمكم العذاب أنتم ومن يرتكبه على حد سواء، واذكروا منّة الله عليكم عندما كان المهاجرون منكم في قلة وضعف وخوف وعذاب ثم أنقذهم من ذلك بالهجرة

إلى المدينة ونصركم في بدر ووفّر أرزاق الغنائم عليكم، فاحذروا أن تخونوا الله ورسوله بنقل أخباره إلى الكفار وأنتم تدركون خطورة وشناعة ذلك.

واذكروا أن أموالكم وأولادكم قد تشكل اختباراً لكم فيظهر مدى صدق إيمانكم وصلابة أعمالكم فتنالون أعظم الثواب وإلا كان النقيض من ذلك، كما واذكروا أن من يحرص على طاعة الله والخوف من عقابه والرجاء لثوابه فإنه يحصل بذلك على المخرج السليم من كل الأزمات في الدنيا ويلتقي مع أطيب الجزاء في الآخرة عندما يعفو المولى سبحانه عن سيئاته ويغفر له خطيئاته.

وتعود بنا السورة إلى مواقف المشركين من الرسول عليه وآله وصحبه السلام وصحابته قبل الهجرة فتقول: واذكر يا محمد وهم يكيدون لك في دار الندوة ويتآمرون على قتلك إذ لم يكفهم ما قد ألحقوه بك من الأذى، والإخراج من مكة، وكيف أن ذلك قد أعانك الله به عليهم فضاع كل مكرهم وخرجت من بينهم آمناً سالماً ووصلت يثرب معززاً مكرماً.

واذكر يا محمد أيضاً مقولة بعضهم وهو يزعم القدرة على الإتيان بمثل ما يسمع من الآيات مما نقله من قصص الفرس، ومقولة بعضهم باستخفاف لما تخوفهم به من أن تمطرهم السماء بالحجارة أو ينزل عليهم العذاب الأليم إذا كان ما تدعوهم إليه هو الحق.

وأن عليهم أن يعلموا أن الله تعالى قد قضى بتدبيره أن لا يعذبهم ما دمت بينهم وما داموا يستغفرون، وأن عذاب الله لن يفوتهم بتماديهم في الباطل ووقوفهم ضد من يقصد الحج إلى البيت الحرام ومنعهم له، وأن يعلموا أنهم ليسوا بمسئولين عنه وإنما مسئوليته للمؤمنين المتقين،وأن صلاتهم المزعومة عند البيت بالتصفيق والصفير ليست من العبادة لله في شيء، وسيجزون عليها بشديد العذاب.

وأن يعلموا أن إنفاقهم في الصد عن طاعة الله سيكون عليهم حسرة وندامة لأنهم سيهزمون في الدنيا ويزجون في جهنم في الآخرة حيث يرون أنفسهم كأهل الخبائث في جهنم بينما ينتهي أهل الطيبات إلى خالد الجنان.. وشتان بين الفريقين!

وبالرغم من كل سيئاتهم قل لهم يا محمد بأنهم إن أقلعوا عن الكفر ودخلوا في حظيرة الإيمان فإن الإسلام سيهدم ما قبله ويغفر لهم ما سلف، ولكن إذا عادوا إلى القتال ضد المسلمين فعليهم ألا يغيب عن أذهانهم مصير من فعل ذلك من الأمم السابقة بما وقع عليهم من العذاب، وأنكم لن تتركوهم دون قتال لمنع كفرهم من السيطرة

وليكون الحكم لدين الإسلام، وأنهم إن استجابوا وتركوا القتال فلن ينالهم أي أذى وإن رفضوا وأصروا على القتال فلينتظروا تكرار نصر الله عليهم وهزيمتهم.

ثم تواصل السورة بيان تقسيم ما يظفر به المسلمون من الغنائم على وجه الغلبة والقهر، وذلك بأن يكون الخمس لله ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، والأربعة أخماس الباقية للمحاربين تقسم وفق نظام مخصوص يتبناه خليفة المسلمين، كما أن هذا الخمس يوزع وفق ما يتبناه الخليفة، وذلك كأقوى الأحكام دلالة وأكثرها انطباقاً على الأمر، الذي سيظهر مزيد بيان له فيما بعد.

ثم تذكّر السورة المؤمنين بالحالة التي كانوا عليها في موقعة بدر عندما كانوا في الموقع الأدنى والأقرب إلى المدينة والمشركون كانوا بالعكس في الأبعد منها، وكان ركب أبي سفيان بالإبل وما تحمله من أمتعة في موقع أسفل منهم، وتذكّرهم بأنهم لو عرفوا كثرة المشركين بالنسبة لهم لتأخروا عن القتال ولكن توفيق الله تعالى قد صاحبهم لينفذ قضاؤه بتحقيق النصر لهم وإظهار دينه على الشرك، وعندها مات من مات وهو يرى البينة أمام عينيه فقامت عليه الحجة ولم يبق له عذر للمكابرة، لا هو ولا من بقي حياً.

ثم تذكّر الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأنه رأى المشركين في منامه قليلاً فذكر ذلك لأصحابه مما ثبتهم وشجعهم للجهاد والاستشهاد، وأنه لو حصل العكس ورآهم كثيرين وأخبر المسلمين بذلك لجبنوا عن الحرب واختلفوا ولكن الله قد قضى بسلامتهم من ذلك. ثم تذكّر المؤمنين بأنهم رأوهم في يقظتهم قليلين مما حثهم ودفعهم على بسالة القتال ضدهم، كما أظهر المؤمنين في بداية القتال قليلين في أعينهم مما شجعهم على قتالكم فوقع القتل الكثير فيهم وقد عملت سيوفكم قتلاً بهم وتمزيقاً.

ثم تأمر المؤمنين بالثبات عند قتال الكفار والإكثار من ذكر الله كثيراً بالقلب واللسان مما يضاعف طاقتهم على الاستشهاد، وأن يحرصوا كما أمروا بتنفيذ الوصية لهم بلزوم طاعة الله ورسوله بنبذ كل اختلاف بينهم أثناء المعارك بخاصة لأن في الخلاف ضياعاً للقوة وفقداناً للنصر.

ثم تحذرهم من الخروج للقتال كما خرج أبو جهل وجمعه كبرياء ورياء، ذلك لأن الشيطان زين لهم أعمالهم عندما ظهر لهم بصورة سراقة بن مالك الذي يعرفونه ويهابون قومه، والذي قام بدور المؤيد والمساند لهم ضدكم أيها المسلمون وإن كان قد هرب عندما رأى الحقيقة من دعم الملائكة للمسلمين وتبرأ من المشركين.

كما تحذرهم من أولئك المنافقين والمرتابين الذين يطعنون في المسلمين عند

القتال بقولهم بأن دينهم قد غرّهم، كما تذكّر الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأنه قد رأى أمراً جللاً سواء والملائكة تضرب المشركين على وجوههم وعلى ظهورهم وهم هاربون فتحدث حرقاً على موضع كل ضربة وعندما تسوقهم يوم القيامة لحريق النار جزاء أفعالهم الشنيعة ضد الإسلام وأهله، وذلك كما حصل مع قوم فرعون والأقوام قبلهم عندما كفروا بآيات الله فحل بهم أشد العقاب في الدنيا، وما ذلك إلا لأن العقاب لم يحل بهم وهم في أمن وإنما بعد أن أصرت قريش على الكفر بمحمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ورسالته فهاجر هو وأصحابه للمدينة وحل بقريش العقاب، وهذا تماماً ما حصل مع قوم فرعون ومن قبلهم من الأقوام الذين كذبوا بآيات الله ورسله فحل بكل منهم ما حل من العقاب جزاء ظلمهم وتكذيبهم واضطهادهم لهم.

وتعقب السورة على ذلك فتقول بأن شر ما يدب على وجه الأرض من المخلوقات هم الكافرون الذين لا يعرفون عهداً ولا ذمة إذ يسارعون بنقض العهود والمواثيق دون خوف من الانتقام، وأن أمثال هؤلاء لا بد لهم من عقوبة شديدة بالتنكيل بهم عندما تلتقون بهم في الحرب بحيث يدب الذعر في أوساطهم فيتذكرون ما التزموا به من عهود.

وأما إذا خفتم أيها المؤمنون من قوم خيانة العهد، وظهرت منهم أمارات الغدر، فعليكم أن تعلموهم حسب الحالة بأن عهدهم قد انتهى وأنكم ستحاربونهم في أي وقت، وأن هذا جزاء الخيانة والغدر الذي باتوا يبيتونه ضدكم، وليعلم أولئك الذين أفلتوا من وقعة بدر بأن الهزيمة بانتظارهم والقتل يترصدهم مهما امتد بهم العيش.

وبعدها يأمر المولى سبحانه بإعداد القوة ضد الأعداء جنباً لجنب مع التقوى، وأن تكون تلك القوة مما يحقق الرهبة والخوف لدى أعداء الله المواجهين ولدى من خلفهم من المتآمرين الكائدين غير المعلومين من قبل المؤمنين، وأن يحرصوا مع هذا الإعداد على البذل والإنفاق في سبيل الله لما في ذلك من عظيم الأجر والثواب.

ولكن لتعلموا أيها المؤمنون بأنكم مع هذا الإعداد اللازم لستم بطلاب حرب إلا بقصدها بحيث لو مال العدو للمصالحة وقبل شروطكم إما بالدخول في الإسلام، وهذا غير وارد مع العدو المصر على الحرب، وإما بدفع الجزية مقابل تطبيق شريعة الإسلام عليهم ودخولهم في ذمة المسلمين، وعندها عليكم أن تقبلوا منهم مع الحذر واليقظة لأنهم قد يهدفون للخديعة، فإن ظهر ذلك منهم وعرف عنهم الغدر والخيانة فلا تبالوا بذلك وامضوا في المصالحة من منطلق القوة ولكن مع الحذر، واطمئنوا أن الله تعالى الذي نصركم عليهم في معارك أخرى وجمع قلوبكم على الإلفة بعد العداوة فإنه ينصركم عليهم في كل وقت ما دمتم صادقي الإيمان.

واذكر يا محمد أن الله تعالى كافيك والمؤمنين معك منهم، وما عليك إلا أن تحرض المؤمنين على القتال بحيث لا يتراجعون من قتال عشرة أضعافهم، ومن قتال ضعفهم عند الضعف، وأن عليهم الصبر والتضحية في كل الأحوال.

ويخاطب المولى سبحانه يوم بدر أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم معاتباً لهم قبول الأسرى قبل المبالغة في قتل الكفار وهم ما زالوا في بداية المعارك ولم يتم تركيز شريعة الله في الأرض بعد، فكيف يتطلعون لأخذ الفدية وإن كان لهم الاجتهاد في ذلك لجواز الغنائم لهم، ولكن تثبيت الإسلام في الأرض أولى من إبقائهم ودفعهم فدية يتقوّى بها الإسلام وأهله كما اجتهدوا.

ثم ينذرهم المولى تعالى بأنه لولا السماح بالغنائم من قبل لحل بهم عذاب عظيم لمخالفتهم.

ويعود المولى سبحانه وهو يعلم تضحيتهم في بدر وإخلاصهم فيدعوهم للتمتع بكل ما غنموه بشرط وهو إخراج الخمس منه وصرفه في الوجوه المحددة.

وأما هؤلاء الأسرى فقل لهم يا محمد إن كان بصدق قد آمن منهم أحد كما يقول فإن الله سيعطيهم ما هو أفضل مما دفعوه من فدية، كما يغفر لهم ذنوبهم. وبالفعل فقد حصل ذلك عندما استقام إيمان بعضهم كالعباس.

ولكن السورة تعود وتحذر النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم من خيانتهم ومكرهم لأن ذلك ليس مستبعداً ممن غدر وخان من قبل مراراً.

وتنتهي السورة بذكر الموالاة ليعلم كل فريق وليه الذي يستعين به، فالمهاجرون والأنصار أولياء بعضهم البعض، ومن آمن ولم يهاجر ليس من أوليائهم وإن جاز نصره ضد العدو غير المعاهد، والكفار كلهم أولياء بعضهم البعض، فاحذروا أن توادوهم، وكذلك المؤمنون بحق هم المهاجرون والأنصار ومن آمن وهاجر بعد عهد الحديبية وجاهد معهم، وإن كان ذوو الأرحام العصبات أولى ببعضهم البعض في التوريث دون غير العصبات.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ

ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾
أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ
مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا
يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾

فنتيجة لأن فئة من المسلمين تبعت العدو بعد هزيمته في بدر يقتلونهم، وفئة أحاطت بالرسول عليه وآله وصحبه السلام تحميه وفئة قامت بسلب العسكر والاستيلاء على معداتهم، فقد اختلفوا لمن الأنفال فنزلت ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ﴾ فقسمه الرسول عليه وآله وصحبه السلام بسرعة بينهم على السواء، فتحقق بذلك التقوى وإصلاح ذات بينهم وطاعة الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام.

والأنفال هي الغنائم نفسها بإشارة حديث الرسول عليه وآله وصحبه السلام «فضلت على الأنبياء بست ـ فيها ـ وأحلت لي الغنائم». وهي أربعة أخماس الغنيمة بعد اقتطاع الخمس كحق للرسول عليه وآله وصحبه السلام نفسه، بدلالة قوله عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام «مالي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم»، فتوزيع هذا الخمس للإمام يضعه حيث يشاء، كما له أن ينفل ما يشاء على العمل الفردي كهدم حصن من باب التحريض والتضحية الزائدة بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام «من قتل قتيلاً فله كذا ومن أسر أسيراً فله كذا».

وانتهت الآية الأولى بالأمر بتقوى الله في القول والفعل، وإصلاح فيما بينهم من الخلاف في تقسيم الغنائم، والتزام طاعة الله ورسوله في الغنائم وغيرها لأن هذا هو سبيل المؤمنين الذين ما أن ينزل حكم الله تعالى حتى يهبوا لطاعته وتنفيذ أمر رسوله لما يستشعرونه من خوف الإيمان وزيادته مع كل آية تنزل، والذين لقوَّة إيمانهم يفزعون من عذابه تعالى ويعتمدون عليه وحده سبحانه ويلتزمون عبادته وعلى رأسها الصلاة، وينفقون في سبيله دون تردد، فيستوي ظاهرهم وباطنهم.

ثم خاطبته عليه وآله وصحبه السلام السورة بأن الأنفال ثابت جوازها لك كما أمرك ربك بالخروج من بيتك بالحق، و أن عليك أن تمضي لأمرك في الغنائم، فتنفل من شئت وإن كرهوا، وتعطي ما شئت لكل من وعدته بشيء إن أتى بأسير ولا تنظر لقول من قال: يبقى أكثر الناس بغير شيء، كما لم تنظر لمناقشتهم لك بأنهم قد خرجوا للعير والعير قد ذهبت وهم كانوا غير مستعدين للقتال، وأنك لو أخبرتهم بالقتال لأخذوا له عدته، فإنك لا تأمرهم إلا بأمر الله، فلا تأبه لخوفهم وترددهم.

وتنقلنا السورة إلى التذكير بوعده تعالى للمؤمنين، ومننه الكثيرة عليهم في بدر فتقول:

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ
وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾
وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ
عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى
مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟
مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ
شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾

مبينة ما وعدهم سبحانه في بدر بأنهم إما أن يظفروا بالعير دون قتال وإما أن ينتصروا على أهل مكة، وأنه إن فاتت العير فلا بد من الظفر على أهل مكة، فلا حاجة لهم بالجدال ولا بالتردد في القتال والميل للعودة إلى المدينة وقد فاتت العير تجنباً للقتال.. وأن عليهم أن يعلموا أن الله تعالى يريد أن يظهر الإسلام بوعده وينهي وجود الكافرين وسيطرتهم في مكة وما حولها، لما في ذلك من إعزاز دينه سبحانه والإجهاز على الشرك وإبطاله رغماً عن أنف العتاة المجرمين.

وليذكروا وهم والرسول عليه وآله وصحبه السلام يطلبون الغوث والنصر من الله بعد أن رأوا المشركين وهم ألف بينما هم لا يتجاوزون ثلث ذلك إذ أخذ صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم يهتف بربه «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم ائتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض» حتى قال له أبو بكر رضي الله عنه: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. فأمده سبحانه بالملائكة في ألف متتابعين فرقة بعد فرقة مما يوقع الرعب في النفوس المشركة والطمأنينة في النفوس المؤمنة، وإن كان النصر من عند الله لا منهم، وأنه لولا نصره سبحانه لما انتفع المؤمنون بكثرة عدد الملائكة إذ قد يكون النصر بالسيف كما يكون بالحجة.

وليذكروا وقد تغشاهم النوم بعد أن اطمأنت نفوسهم وذهب عنهم الخوف، فاستيقظوا وهم على قوة ونشاط بعد أن ارتاحت أجسامهم واستعدت أكثر فأكثر للقتال، وأنزل المطر عليهم ليزيدهم طمأنينة على طمأنينة إذ به يزيلون ما أصابهم من حدث النوم فتصفوا نفوسهم وتتخلص من وساوس الشيطان، وبه يدكّون الأرض اللينة من تحت أقدامهم فتثبت في القتال ولا تنزلق بهم.

وانظروا والرسول عليه وآله وصحبه السلام يستشير الناس، فيرد أبو بكر فعمر فيحسنا الرد، ويرد المقداد بن عمرو بما يلفت النظر: يا رسول الله، امض لما أمرك الله، فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، والذي بعثك بالحق لو سرت إلى برك الغماد - مدينة بالحبشة - لجالدنا معك من دونه. فسرَّ بذلك رسول الله ولكنه عاد يقصد الأنصار «أشيروا عليّ أيها الناس» لأنهم كانوا الأكثرية، ولأنه عليه وآله وصحبه السلام كان يتخوف من أنهم يرون نصرته بما بايعوه عليه في العقبة بأنه في المدينة فقط دون خارجها، فطمأنه زعيماهما سعد بن معاذ وسعد بن عبادة بلسان واحد: إنّا قد آمنَّا بك واتبعناك، فامض لما أمرك الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك. فسرَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وقال: «امضوا على بركة الله، فكأني انظر إلى مصارع القوم».

ولكن الحباب بن المنذر بن عمرو بن الجموح تدخل بخبرته في المواقع الحربية عندما نزل رسول الله عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام على أدنى ماء من مياه بدر إلى المدينة وسأل الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فرد عليه وآله وصحبه السلام «بل هو الرأي والحرب والمكيدة» مؤكداً عليه وآله وصحبه السلام أن هذا الفعل ليس من الوحي الرباني وإنما من الفعل البشري الاختياري، مما جعل الخبير يقول: يا رسول الله، إن هذا ليس لك بمنزل، فانهض بنا إلى أدنى ماء من القوم فننزله ونعوّر ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضاً فنملأه فنشرب ولا يشربون. فوافقه رسول الله على رأيه دون استشارة غيره، مما يدل على جواز الأخذ برأي الواحد في مثل هذه الأمور التي تحتاج للخبرة دون التفكير بالأكثرية والأقلية.

هذا خلال يوم بدر وأما بعده فقد ثبت أن جبريل عليه السلام قد سأل الرسول عليه وآله وصحبه السلام «كيف أهل بدر فيكم؟» فقال «خيارنا» فقال: «إنهم كذلك فينا»

مما يدل على رفعة مكانة أهل بدر وتفضيل جهادهم على من بعدهم لأن بناء الإسلام ودولته كان قائماً عليه. كما أن خروج النبي عليه وآله وصحبه السلام ليلقى العير يدل على جواز النفير للغنيمة لأنها كسب حلال أولاً ولأنها كانت لإضعاف العدو ثانياً. كما أن في مناداة الرسول عليه وآله وصحبه السلام لقتلى بدر من المشركين «أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً» فيسأله عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، كيف يسمعون، وأنّى يجيبون وقد جيفوا؟ فيرد عليه «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا»، وفي هذا دليل على أن الموت ليس بعدم محض وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن، ولذلك قال عليه وآله وصحبه السلام: «إن الميت إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم»، مما يستدعي التصديق بذلك لصحة هذه الأحاديث وشهرتها ولكن ليست على مستوى اليقين والتواتر فإن منكرها لا يكفر.

وليذكروا أمر الله إلى من أرسلهم من الملائكة لمعونتهم بأن يبشروهم بالنصر وهم يقاتلون معهم، فكانوا يسمعون الملك وهو يسير في أول الصف ويقول: سيروا فإن الله ناصركم، ويظن المسلمون أنه منهم، كما كانوا يرون رؤوساً تسقط عن الأعناق دون أن يروا ضارباً.. فكان لهم في ذلك كله تثبيت وأي تثبيت، وكان لضربهم والملائكة فوق الأعناق وقطع الرؤوس والأيدي، مع ما وقع في قلوب العدو من الرعب، ما يسر الله به تحقيق النصر للفئة القليلة المؤمنة على الفئة الكبيرة الكافرة التي تصدت بالخصومة لله ورسوله، فرفضت الإيمان وأعلنت الحرب فكانت الهزيمة المنكرة لهم ولكل من يرفض الانصياع لأمر الله ورسوله بدليل قوله تعالى لأولئك الكفار ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ ومن على شاكلتهم على الكفر والخصومة ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ فلهم ولأمثالهم الخزي في الدنيا والنار في الآخرة.

وتأتي السورة بعدها لتحديد ما يجب أن يكون عليه المؤمنون في القتال وبعده وما يتعلق به فتقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ
دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ
وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ
وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ
الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ

وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ
﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا
لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا
دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾
وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾
وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم
بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ
وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ
عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ
لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

عليكم أيها المؤمنون عند مجابهة العدو أن لا تفروا من أمامهم وتعطوهم ظهوركم، وأن تثبتوا في القتال حتى لو كان عددهم ضعف عددكم، وأما إذا أصبحوا ثلاثة أضعافكم فيجوز لكم الفرار حسب الحالة التي تكونون عليها وحالة عدوكم من الضعف والقوة والعدة، لأنه قد يفر الواحد إذا تفاوتت القوة والعدة بشكل كبير، وإن كان الصبر هو الأولى والأحسن، فثلاثة آلاف في جيش مؤتة صمدوا لمئتي ألف من الكفار، وطارق بن زياد صمد في ألف وسبعمائة أمام سبعين ألف عنان من الكفار ونصره الله وهزم الطاغية لذريق، ولكن المولى سبحانه عنّف المؤمنين لفرارهم أمام أكثر من ضعفهم يوم أحد، وقال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: «ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة»، مما يدل على مراعاة هذا العدد الذي لا يجوز معه الفرار مهما كثر عدد العدو، ولكن يجب ملاحظة ظروف كل معركة على حده، فلا يجوز الفرار من مثل معركة أحد وجاز الفرار من مثل حنين، فحيث تكون المعركة مصيرية أو حاسمة لابد من الثبات والتضحية أكثر بكثير من غيرها، ومن يفر من المعركة المتعين الثبات فيها لا تقبل شهادته، وعلى من يفر أن يستغفر الله لذنبه ويقلع عن ذلك في المعارك التالية.

وأما متى يجوز الفرار والتظاهر به أمام العدو، فذلك عندما يلجأ الجيش أو فئة منه إلى المناورة أو المكيدة الحربية فيتظاهر بالهزيمة كأنه يريد أن يجر العدو إلى كمين،

هذه حالة والحالة الثانية الجائز فيها الفرار هي لكي ينضم المتظاهرون بالفرار إلى جيش أو فئة أخرى يتقووا بها ويشتد بها أزرهم، وفي غير هاتين الحالتين، مما فيه عدم مراعاة التضحية والثبات، يؤدي بالفار لاستحقاق غضب الله وإدخاله جهنم إلا أن يستغفر الله ويقلع عن ذلك بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام «من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم غفر له وإن كان قد فر من الزحف».

وبعد هذا التشديد على عدم الفرار يوم الزحف تؤكد للمؤمنين بأن الله تعالى قد قضى على الكفار في بدر وقدّر القتل، فأعان المؤمنين عليهم وأظفرهم بهم عندما أسبغ نعمة الصحة والعافية والقوة على كل رامٍ منهم فرمى بهذه القوة الربانية الممنوحة له، فكان الحال كأن الله هو الذي رمى وليس هو، ولذلك قال بعدها ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ عندما أنعم الله عليهم بالقدرة على القتال وألقى في قلوب الكفار الرعب فتشتتوا وضعفوا فارتد كيدهم عليهم.

ثم تخاطب السورة المشركين فتقول لهم بأنهم قد طلبوا النصر على المسلمين يوم بدر، سواء بلسان أبي جهل أو النضر بن الحارث أو كليهما،وأن الفتح الذي طلبوه قد جاءهم ولكنه كان للمسلمين عليهم فبان به الأمر وانكشف الحق، فلذلك أمرهم بالكف عن الكفر والدخول في الإسلام لينجوا من أمثال ذلك من الهزائم المقبلة،وأنهم إن أصروا على كفرهم وخوض المعارك ضد الإسلام وأهله فإن الله سينصر المؤمنين عليهم ولن تنفعهم كثرتهم مهما تضاعفت.

وفي نفس الوقت في الآية إشارة للمؤمنين وتحذير لهم من أخذ الغنائم دون إذن الإمام وتحريض للحرص على الإيمان وصفائه ليستحقوا النصر دائماً، ثم تشدد عليهم بلزوم طاعة الله ورسوله والنهي عن التولي يوم القتال وهم يسمعون الأوامر الصريحة بلزوم الثبات والتضحية، والنهي عن التشبه باليهود أو المنافقين أو المشركين الذين كانوا يتظاهرون بسماع آيات الله تتلى عليهم وهم أبعد ما يكونون عن السماع للحق والاستجابة، مما يجعلهم أسوأ وأشر من الدواب عند الله التي لا تعقل ما يقال لها من الأحكام والبيان.

ثم تؤكد لهم بأن الله تعالى بعلمه المطلق والمحيط بكل شيء يعلم أنهم مصرون على الكفر والطغيان والعداوة، وأنه لا خير فيهم، وأنه سبحانه لو فرض عليهم السماع فإنهم لن يستجيبوا لما يلقى عليهم بل سيعرضون.

فاطمئنوا لذلك أيها المؤمنون ولا تأخذكم رأفة بهم في دين الله، واحرصوا أن تلبوا أمر الله ورسوله عندما يدعوكم للجهاد لأن فيه حياتكم الحقة بما تدفعون به عن

البلاد والعباد من القتل والأذى، ولما تحققون به من العزة والمكانة للإسلام في النفوس، كما عليكم أن تستجيبوا للطاعة في كل أمر ونهي، وأن تعلموا أن الله تعالى قادر بقضائه وقدره أن يفرض الإيمان أو الكفر على من يريد ولكن حكمته اقتضت في خلقه أن يجعل لهم الاختيار ليتحمل كل منهم مسئولية ما اشتمل عليه قلبه من إيمان وعملته جوارحه من أعمال، ولذلك عليكم أيها المؤمنون أن تبادروا إلى الاستجابة قبل أن يتوفاكم الأجل فتذهب منكم فرصة الاختيار، وأن تستنكروا أي منكر يظهر بين أظهركم لأن جزاءه سيعمكم مع من يقترفونه إذا أقررتموه وسكتُّم عن تغييره ولو بأضعف الإيمان بدلالة قوله عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام «إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده» وقوله عليه وآله وصحبه السلام «إذا أنزل الله بقوم عذاباً أصاب من كان فيهم ثم بعثوا على أعمالهم».

وعليكم أن تتذكروا تلك القلة والإستضعاف اللذين كنتم عليهما في مكة والخوف يسيطر عليكم من بطش أهلها الكفار ثم أنقذكم الله من ذلك عندما أمر بالهجرة إلى المدينة حيث استقر بكم المقام، وأيدكم الله بعونه وأباح لكم الغنائم مما يلزمكم بالشكر والعبادة والطاعة له سبحانه، وأن تتجنبوا أي خيانة لله ورسوله، لا بقول ولا بفعل، فلا تشيروا كما فعل أبو لبابة إلى مناحركم عندما أشار لبني قريظة بالذبح، بحجة أن له مالاً وأولاداً كانت عندهم، فتقعون بإفشاء سر رسول الله أو خليفته، وكيف يجري فيهم ذلك وأنتم تعلمون ما في الخيانة من قبح وعار؟!

وعليكم أن تعلموا أنه مهما كان الدافع للخيانة من أموال أو أولاد، فإياكم أن تفتنوا بذلك وتضعفوا، وتأكدوا أن ما عند الله من الثواب العظيم هو الواجب عليكم إيثاره على كل شيء، فاعلموا وتأكدوا أيها المؤمنون أنكم سيتوفر لكم المخرج من كل ضيق ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ وليس هذا فقط، ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ وليس هذا فقط ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾... وهل بعد هذا الفضل العظيم من الله فضل ؟!

ثم ينتهي هذا القسم من السورة إلى خطاب موجه إلى الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وذلك بشان مكر المشركين ضده، وما يقترفونه من مكر بحق المسجد الحرام، ودعوتهم للإسلام قبل فوات الأوان.. فتقول:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ

أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا
حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا
كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ
صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ
يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ
بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ
كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾
وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا
يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

مشيرة إلى تآمر مشركي مكة ضد الرسول عليه وآله وصحبه السلام في دار الندوة، واتفاقهم على قتله، فخرج تاركاً علياً في فراشه فوجدهم نياماً وألقى التراب على رؤوسهم وذهب في طريق الهجرة إلى يثرب. فقد مكروا إما لقتله أو أذاه بالجراح والضرب أو طرده من مكة، ولكن الله رد مكرهم إلى نحورهم فنجاه عليه وآله وصحبه السلام منهم، فاذكر ذلك يا محمد واطمئن لحماية ونصر الله لك وللمؤمنين، وانظر إليهم وأنت تتلو عليهم آيات الله ماذا يفعلون؟

ها هو النضر بن الحارث القادم بقصص كليلة ودمنة وقصص كسرى وقيصر أثناء تجارته يزعم أنه قادر على أن يأتي بمثلها افتراء وكذباً، وهو يصفها بعناده بأنها قصص الغابرين ليس إلا! وانظر إليه وهو يردد، هو وأبو جهل، عبارات الاستخفاف بما تتوعدهم به من عذاب الله ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

فقل لهم يا محمد بأن الله تعالى قد رفع عنهم العذاب وأنت فيهم، كما رفعه عنهم بسبب استغفارهم أثناء الطواف بقولهم: غفرانك! فكيف لو أصبحوا من المؤمنين حقاً المستغفرين صدقاً؟!

وأعلمهم يا محمد بأنهم مستحقون العذاب بما ارتكبوا من قبائح سواء بالصد عن

المسجد الحرام والحج إليه والصلاة فيه أو غيره مع أن رعايته وحفظه ليست موكلة إليهم وإنما للمؤمنين المتقين، وأعلمهم بأن صلاتهم عند البيت بالصفير والتصفيق ليست من الحق في شيء وإنما هي كفر يستحقون عليه العذاب، وأن ما ينفقونه من أموال ليغروا الفقراء بالبعد عن الإسلام ستكون حسرة عليهم لأن الإسلام سينتصر رغماً عنهم ويساقون إلى جهنم حيث يرون الفرق بينهم وبين المؤمنين، فهم وخبثهم في جهنم والمؤمنون وطيبهم في الجنة،وشتان بين الفريقين!

وأعلمهم يا محمد بأن باب المغفرة مفتوح لهم إن دخلوا في الإسلام وتخلوا عن معاداة وقتال أهله، وأما إن استمروا على ذلك وعادوا للقتال فلينتظروا عقاب الله لهم بالهزيمة في الدنيا والخزي في الأخرى، بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله» الحديث، وبأمر الله تعالى بقتالهم وقتلهم ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ فينصر الله الإسلام وأهله على الكفر وأهله، وقد كان وسيبقى إلى آخر الزمان ما بقي مؤمنون حقاً في الأرض ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾..

وليعلم أولئك المشركون بأنهم إن دخلوا في حظيرة الإسلام فعليهم بالصدق والإخلاص في ذلك، لأن الله يعلم خفايا صدورهم ويبصر مظاهر أعمالهم وأما إن رفضوا ذلك فلينتظروا الهزائم المخزية من المسلمين بنصر الله تعالى لهم على أعدائهم وأعداء دينه مهما أمدهم به من قدرات يستدرجهم بها ويبتلي المؤمنين لضعفهم وتخاذلهم واستجدائهم لرضى أعدائهم!

وتأتي السورة بعدها للإشارة إلى كيفية تقسيم الغنائم، فتقول:

﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾

مبينة كيفية تقسيم الغنائم التي يكسبونها في القتال ضد العدو، وذلك بأن يقتطع منها الخمس وتوزع الأربعة أخماس الباقية على المحاربين. هذا في الغنيمة وأما في الفيء وهو ما يكسبه المسلمون دون قتال كالخراج والجزية فأمره إلى خليفة المسلمين يضعه حيث يشاء وفق ما يتبناه في دستور دولة الخلافة. والغنيمة ليست على عمومها إذ سلب المقتول لقاتله إذا رأى ذلك الإمام أو الخليفة، والأسارى كذلك، وأما الأرض

فلها خصوصية أيضاً فأصبح المعنى أن غنيمة الذهب والفضة وسائر النقود والأمتعة والسبي هي المقصودة في الآية وليس كل شيء، ولذلك قال عمر رضي الله عنه: لولا آخر الناس ما فتحت قرية إلا قسمتها كما قسم رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم خيبر، ومما يؤكد صحة هذا قوله عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام «منعت العراق قفيزها ودرهمها ومنعت الشام مدها ودينارها» الحديث بمعنى ستمنع كما قال الطحاوي مما لا يجعلها تقبل التوزيع على الغانمين، وأن عمر رضي الله عنه قد استشهد بقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ [الحشر: ١٠] عطفاً على ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ [الحشر: ٨] مما يحصر القسمة في كل ما ينقل من موضع إلى آخر فقط، وأما الأسرى فإن الإمام مخير فيهم بين أن يمن أو يقتل أو يسبي، ويوزع ما أخذ منهم أو سبي كالغنيمة.

ولذلك فالراجح في الأرض أن يقر الإمام أهلها عليها وتصير منفعتها لهم وتبقى أرضاً خراجية كأرض الصلح التي يشترط فيها ذلك في عقد الصلح، كما أن السلب لقاتله، كيفما كانت حالة القتل، بدليل عموم قوله عليه وآله وصحبه السلام «من قتل قتيلاً فله سلبه» إذا ترجح هذا الدليل للإمام على غيره سواء كان السلب قليلاً أو كثيراً، وسواء خمّس هذا السلب أو لم يخمس، وبشرط أن يقيم القاتل الدليل على قتله إذا رأى الإمام أيضاً، وبشرط أن ينطبق عليه أنه من السلب كأن يكون من أدوات القتال بالذات.

وأما كيفية قسمة الخمس فالراجح من الأقوال الستة في ذلك أنه موكول لرأي الإمام فيأخذ منه ما يريد، ويعطي القرابة باجتهاد، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين. وهذا ما فعله الخلفاء الراشدون، ودل عليه قول الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام «مالي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم». وأما ذوو القربى فالراجح أنهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب لأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام قسم سهم ذوي القربى بينهم. وأما سهم الصفّي فكان لرسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم من الغنيمة، حضر أو غاب، يصطفي بموجبه سيفاً أو سهماً أو خادماً أو دابة، وكانت صفية بنت حيي من الصفي من غنائم خيبر، وكان السيف ذو الفقار من الصفي، ولكن هذا السهم انقطع بموته عليه وآله وصحبه السلام.

وأما كيفية توزيع الأربعة أخماس فالراجح أن للفارس سهمان وللراجل سهم واحد، هذا لأن الفارس كانت فرسه على حسابه فلها سهم وله سهم وأما الآن فالفرس هي السيارة أو الدبابة أو الطائرة وليس للمقاتل في ملكية ذلك شيء مما يرجح معه إلى أن الفارس والراجل على حد سواء إلا ما رآه الإمام. وأما ما يعطى لغير المقاتلين كالأجراء والصناع والعبيد والنساء وأهل الذمة والصبيان فيرضخ لهم كعطايا يحددها

الإمام لا كسهام. وأما أصحاب الأعذار، كالمتأخر عن الموقعة بسبب ما، خرج لها ابتداء أو لم يخرج، والغائب عنها تماماً، فالمتأخر يسهم له إذا حضر منها شيئاً والغائب لا يسهم له مطلقاً. وتنتهي آية الغنائم بالتنبيه على المؤمنين والأمر لهم بالانقياد والتسليم لأمر الله في الغنائم.

وتنقلنا السورة إلى التذكير بواقعة بدر وما يجب أن يكون عليه المجاهدون، وما يميزهم عن المشركين والمنافقين فتقول:

﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ
لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ
وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ٤٢ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ
أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ
٤٣ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ
مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٤٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ
كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ
ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٤٧ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ
ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ
مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤٨ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ
وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ
٤٩ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ
ٱلۡحَرِيقِ ٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٥١ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ
وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٥٢ ذَٰلِكَ
بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٥٣
كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ
فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٥٤ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٥ ٱلَّذِينَ
عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ٥٦ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ

بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾

اذكروا أيها المؤمنون عندما كنتم في المكان الأقرب إلى المدينة والمشركون في المكان الأبعد منها، وكان ركب أبي سفيان وغيره من الإبل وما تحمله من أمتعة في الجهة السفلى من ساحل البحر مما جعلها تأمن منكم فلا تقع في أيديكم، وكانوا أكثر منكم بكثير بحيث لو عرفتم كثرتهم لفتَّ ذلك في عضدكم وتأخرتم عن قتالهم ولكن الله قضى لكم بالتوفيق ليحقق لكم النصر ويظهر دينه، فيموت من يموت عن بينة رآها وعبرة عاينها، فقامت عليه الحجة، ويحيا من يحيا عن بينة كذلك، وهذا يعني أيضاً ليكفر من كفر بعد حجة قامت عليه وقطعت عذره، ويؤمن من آمن على ذلك..

كما اذكر يا محمد كيف أن الله تعالى قد أراكهم في منامك قليلاً، فأخبرت بذلك أصحابك، فثبتهم الله بذلك، ولو حصل العكس ورأيتهم كثيراً لجبنوا عن الحرب وتنازعوا واختلفوا فيما بينهم ولكن الله تعالى قد قضى سلامتكم من هذه المخالفة والفشل وحقق لكم النصر.

كما واذكروا أيها المؤمنون كيف أن الله تعالى أراكموهم قليلاً عندما التقيتم في ميدان المعركة، وفي نفس الوقت قللكم في أعينهم ليدفعهم للمجابهة والقتال معكم، ولكن ما إن اشتبكوا في القتال حتى عظم المسلمون في أعينهم فكثروا فدب الذعر فيهم، وما ذلك إلا ليحقق الله في الأول اللقاء وفي الثاني قتل المشركين وإعزاز الدين.

ثم تخاطب السورة المؤمنين فتأمرهم بالثبات عند اللقاء في المعركة والإقدام بعد أن كانت نهتهم عن الفرار والتردد، وأن يكثروا من ذكر الله والدعاء إليه بقلوبهم أو ألسنتهم لما في ذلك من الدافع على التضحية أو الاستشهاد في سبيله تعالى وهم لاينسون وعده سبحانه عز وجل لهم بالنصر، وأن يحرصوا على رفع الصوت بالذكر عندما يحملون على العدو في جماعة، لما في ذلك من إثارة الذعر فيهم، وأن يكون خفياً عند الهجوم الفردي تلافياً لتنبيه العدو عليه.

وبعدها تواصل الوصية لهم بالتذكير بطاعة الله ورسوله وتجنب الاختلاف والتنازع كما حصل في بدر على الغنائم وأن في ذلك إضاعة لقوتهم ونصرهم، وذهاب لريحهم حتى قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»، (والصبا الريح الشرقية، والدبور الريح الغربية)، وأن يحرصوا على الصبر على كل ما يلحقهم من عدوهم في المعركة لأن ﴿ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ فييسر لهم النصر مع الصبر،

وألا يكونوا كأبي جهل وجماعته الذين خرجوا يوم بدر بالقيان والمغنيات بقصد البطر والرياء أمام العرب في سوق بدر وهم يشربون الخمر ويحتفلون وهم يستخدمون ذلك كله للصد عن الإسلام، وما ذلك إلا لأن الشيطان قد تمثل لهم في ذلك اليوم بصورة سراقة بن مالك بن جعشم، من بني بكر بن كنانة الذين كانت قريش تخشى هجومهم من الخلف ثأراً لرجلهم الذي قتلته قريش، وأنه شجعهم بجنوده على القتال وطمأنهم على النصر، ولكنه ما أن رأى جبريل عليه السلام يقود جانباً من مدد الملائكة وميكائيل يقود الجانب الآخر حتى هرب من المعركة معلناً أنه بريء من المشركين لأنه يرى من لا يرون، وأنه كذب بقوله ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ بمعنى الخوف وما هو إلا علمه بأن لا قوة له في مثل هذه المعركة.

وتواصل السورة التذكير بما يجري في مثل هذه المعارك عندما يقول المنافقون الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، ويقول معهم ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي الذين يشكون ويرتابون ممن هم دون مرتبة المنافقين يقولون جميعاً بأن المؤمنين قد غرهم دينهم وأخذوا لا يبالون بغيره، وينسون أن من يعتمد على الله فإنه تعالى قادر على نصره وتدبير شؤونه.

ثم تذكّر الرسول عليه وآله وصحبه السلام بقتلى بدر من المشركين، فقد كان ملائكة المدد يعينون المؤمنين في ضربهم على وجوههم وظهورهم وتظهر آثار الضرب كالحريق بالنار، كما أن ذلك في انتظارهم يوم الحساب، وأنه جزاء وفاق لأفعالهم وحكم عادل على أعمالهم منه سبحانه الذي لايظلم أحداً شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

وتذكر بأن ما حل بهم من تعذيب عند موتهم مما يشبه ما حل بآل فرعون عند غرقهم، وأن هذا العقاب ما حل بهم إلا لأنهم غيّروا وبدلوا فلم يقروا بما أنعم الله عليهم من السعة والعافية والأمن، وما أنزل عليهم من نعمة الإسلام، فكان عقابهم جزاء تكذيبهم بالإسلام، فجاءهم العقاب بسببين: التكذيب والتغيير، كما جاء ذلك مع قوم فرعون، محذرة بذلك من الأمرين معاً، ومذكرة لهم بألا يكونوا أسوأ من يدب على الأرض بكفرهم واستمرارهم عليه عناداً واستكباراً، وبارتكابهم لعمليات نقض العهود والمواثيق حتى أنهم لا يبالون بذلك مع كل عهد دون أن يخشوا الانتقام بسبب ذلك.. ولهذا يأمر المولى عز وجل رسوله المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أن ينكل بهم متى وجد الفرصة في معركة مواتية، وأن يجعلهم عبرة لمن خلفهم حتى لا يعودوا يستخفون بعهودهم معه ويتذكروا وعده لهم.

ولكن احذر يا محمد من خيانتهم وغدرهم ونقضهم للعهد، كما حصل مع بني قريظة وبني النضير، فإذا تيقنت بمعلومات أكيدة وصلتكم بأنهم قد عزموا على الغدر فأخبرهم بانقضاء العهد معهم، وأنك ستهاجمهم في أي وقت، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد أو ميثاق لأن ذلك غدر وخيانة، والله لا يحب من يفعل ذلك، لما في المحافظة على العهد من الثقة في العلاقات وحث للمشركين على الاطمئنان للتعامل مع المسلمين وبالتالي المقارنة بين غدرهم وأمانة المسلمين مما يجعلهم يقبلون على الدخول في الإسلام، وأما بعد نبذ العهد معهم فيمكن اتخاذ وسائل المناورة والحيلة والخديعة «الحرب خدعة» لتحقيق النصر للمؤمنين ودفع الضر عنهم الذي يقع بالمغامرة غير المحسوبة.

وأخيراً تدعو السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن يفهم المشركين بأن من لم يمت في معركة سابقة وبقي حياً لا يعني ذلك نجاته من الموت المحتم، وليعلموا بأنهم ﴿لَا يُعْجِزُونَ﴾ وقبل الآخرة بما ينتظرهم من هزيمة أمام المؤمنين.

وتصل بنا السورة إلى الأمر بإعداد القوة ضد الأعداء بأنواعها المناسبة مع الإنفاق اللازم ولكن دون رفض الصلح المشروع والذي لا يبطن الخديعة، فتقول:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ
وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ
لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن
يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ
لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

مبينة أنه بعد تأكيد الأخذ بالتقوى أمر سبحانه بإعداد القوة المناسبة للحرب مع العدو من سلاح وعتاد وآليات لازمة بدلالة قوله عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»، مما يكشف عن شمول كلمة الرمي لكل ما يرمى مما يغطي كل أنواع الأسلحة الحديثة التقليدية والمتطورة، في البر وفي البحر وفي الجو، كما تبقى الجندية الإجبارية فرض كفاية حتى تصبح فرض عين مما يلزم كل أبناء الأمة الإسلامية البالغين على

التدريب والاستعداد الكافيين للاستدعاء متى تعين الفرض العيني ولم يكف الجيش النظامي.

وأما ﴿رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ فهو تعبير عن أقوى الأسلحة التي كانت في ذلك الوقت، مما يفرض إعداد الجيش الإسلامي بأقوى الأسلحة في كل زمن، وذلك ليتحقق إرهاب عدو الله الظاهر أمام المسلمين والخفي عن أعينهم ممن بينهم من المنافقين والكافرين وممن يجاورهم أو يبعد عنهم من الكائدين والمخادعين.

وهذا الإرهاب للعدو مما يسمى اليوم بتوازن الرعب بملكية الأسلحة النووية بأنواعها والصواريخ بكل أشكالها والقاذفات بكل أصنافها.. وأن على المؤمنين ألا يبخلوا بمشاركة الدولة الإسلامية،دولة الخلافة، التي تتولى أمرهم وأمر تطبيق الإسلام في الداخل وحمل دعوته للخارج، في المجهود الحربي متى استدعى الأمر ذلك، والأصل في الدولة أن تكون مكتفية بإعداد ذلك ولكن كثرة الأعداء وتنوع الأسلحة اللازمة قد يستدعي مثل هذه المشاركة في الإنفاق على الإعداد للقوة بأصنافها للجهاد في سبيل الله بدءاً من حماية ديار الإسلام من طمع الطامعين وغزو المستكبرين وانتهاء بالتهديد وتنفيذ التهديد بضرب كل من يضع الحواجز المادية أمام الدعوة الإسلامية.

ولكن لكل ذلك حساباته المتناهية في الدقة، ولذلك جاء أمر الله تعالى بعد الأمر بإعداد القوة بالجنوح والميل إلى السلام والصلح مع العدو عندما يعرض ذلك ويقبل أن يفتح حدوده للدعوة الإسلامية من باب ما يسمونه بحرية الرأي، أو أن يقبل دفع الجزية ويحتكم للشريعة الإسلامية، فيكون المعنى إن دعوك إلى الصلح فأجبهم، وهذا إذا استشعر المسلمون خطورة عدوهم وتوازن قوتهم مع قوته أو ضعفهم النسبي أمامه، واستطاعوا أن يخفوا ذلك، وأما إذا كان المسلمون على عزة وقوة ومنعة بكثرة العدد وقدرتهم على التفوق على العدو، فلا مجال للصلح.

والهدنة تعقد بمعنى الصلح بالمدة المناسبة إذا لزم ذلك بشرط ألا تتجاوز العشر سنين، وإن كان تقدير ذلك لخليفة المسلمين، إذ هو بما لديه من معلومات استخبارية كافية يستطيع أن يقرر الموادعة من عدمها مع العدو، كما يقرر أن يأخذ ما يعرض عليه من جزية أو يقبل دونها أو حتى بدونها تماماً، بل حتى أن يدفع هو كما كاد يفعل الرسول عليه وآله وصحبه السلام عندما عرض على زعيمي غطفان يوم الأحزاب أن ينصرفا بمن معهم ويخذلا قريشاً مقابل ثلث ثمار المدينة في ذلك العام، ولكنه عليه وآله وصحبه السلام ألغى العرض عندما استشار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فرفضا أن

يعطياهم شيئاً بعد أن هداهم الله للإسلام وأعزهم برسوله عليه وآله وصحبه السلام وقال لزعيمي غطفان «انصرفا فليس لكما عندنا إلا السيف».

ثم نبه المولى سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بأن المشركين إذا تبين له أنهم يقصدون الخديعة بما يظهرونه له من السلم فلا يهتم بذلك ما دام يهدف خير الإسلام والمسلمين حسب علمه واجتهاده، ويواصل الموافقة على الصلح ولا يبالي بنياتهم الفاسدة لأن الله تعالى سيتولى كفايته منهم ورعايته وحياطته، كيف لا وقد قواه بنصره يوم بدر وجمع المؤمنين من الأنصار من حوله، وألف بين قلوب الأوس والخزرج منهم بعد أن كانت العصبية تأكل قلوبهم وتدمر حياتهم كما ألف بين المهاجرين والأنصار، واعلم يا محمد بأن الله تعالى كافيك أنت بخاصة كما هو كافيك أنت والمؤمنين بعامة فاطمئنوا للنصر دائماً ولا تخشوا غدر وخيانة المشركين المضمريْن ما داموا يمدون أيديهم بالصلح وما دمت ترى في ذلك الخير للإسلام والمسلمين.

وتصل السورة إلى نهايتها مع أمر الرسول المصطفى عليه وآله وصحبه السلام بالتحريض على القتال، وبيان ما يصاحب ذلك من قوة وضعف وأخذ أسرى وغنائم، وبيان الموالاة ولمن تكون أو لا تكون، فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ
إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن
مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ
﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ
ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾
فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم
مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ
رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ
أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي
ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ
﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى
كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾

فتأمر السورة النبي عليه وآله وصحبه السلام بحث المؤمنين على القتال، والصمود لعدوهم بحيث يثبتون لعشرة أضعافهم من العدو الذي لايفهم حقيقة ما يقاتل لأجله، والصمود لضعفهم فقط حالة ضعفهم من باب التخفيف عنهم لأنهم يدركون قتالهم في سبيل الله وما له من أجر عظيم.

ثم تنتقل السورة ليُعاتب المولى سبحانه أصحاب النبي عليه وآله وصحبه السلام لقبولهم الأسرى قبل المبالغة في القتل يوم بدر، وأنهم بمشورتهم على النبي بأخذ الفدية استحقوا هذا العتاب بغض النظر عن مقصدهم الطيب من الحصول على مال الفدية تقوية للمسلمين وإضعافاً للمشركين، ولكن عمر وسعد بن معاذ وعبد الله بن رواحة كرهوا الفدية ورأوا القتل للأسرى اجتهاداً منهم أن ذلك أكثر إضعافاً للمشركين وتقوية للمؤمنين، ولكن الرسول عليه وآله وصحبه السلام لم يرد عليهم شيئاً ثم قال بعد أن أثنى على أبي بكر وعمر «أنتم عالة فلا ينفلتن أحد إلا بفداء أو ضربة عنق». وكان ذلك لقلة المسلمين وضعفهم، ولكن بعد قوتهم وشدة سلطانهم نزلت ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾.. ثم لأهمية موقعة بدر كأول معركة حاسمة كان قتل صناديد قريش وأخذ أموالهم أهم من الفداء، وإن كان انتظار الوحي أولى، فاستحقوا العتاب للاستعجال.

ويسند الطبري وغيره بأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام خيّر الناس يوم بدر إذ قال: «إن شئتم أخذتم فداء الأسارى ويقتل منكم في الحرب سبعون على عددهم وإن شئتم قُتلوا وسلمتم» فاختاروا أخذ الفداء واستشهاد سبعين، وأن ذلك نزل به جبريل عليه السلام، وبالفعل قتل منهم سبعون يوم أحد، فقد وقع الحرص على أخذ الفداء أولاً ثم جاء التخيير بدلالة الأمر بقتل الأسارى عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث وغيرهما وطلبه عليه وآله وصحبه السلام بعد ذلك الرأي فجاء الرأيان اجتهاداً بعد تخيير مما لم ينزل بعده أي تخيير. والمهم أن القتلى من المشركين يوم بدر كانوا سبعين والأسارى سبعين.

ثم تقول السورة بأنه لولا حكم الله السابق بتحليل الغنائم لم يكن في تعجل الناس إليها حرجاً ولكن أخذ الفداء قبل الإثخان هو استعجال يعاتب عليه فاعلوه، كما أن

مغفرة الله لأهل بدر السابقة جعلت مغفرته تعالى تشملهم بعد الاستعجال. ولذلك جاءت الآية التالية تدعوهم للتمتع بالغنائم مع الحرص على تقوى الله.

وبعدها تأتي السورة إلى التنبيه على الرسول عليه وآله وصحبه السلام وأصحابه بشأن الأسرى وهم العباس وأصحابه الذين قالوا بأنهم أسلموا يوم بدر فقال له عليه وآله وصحبه السلام «الله أعلم بإسلامك» الحديث، ونبهه على المال الذي تركه عند زوجه أم الفضل عندما أظهر عجزه عن دفع الفدية، فاعترف به وشهد الشهادتين ولكن الرسول عليه وآله وصحبه السلام أبقى صدق إسلامه لربه وقال «أضعفوا الفداء على العباس» وأمره بفداء عقيل ونوفل، وبالفعل فقد روي أنه أعطي من مال جاء من البحرين أكثر مما افتدى به نفسه وابني أخويه، وأما من أظهروا الإسلام غير العباس ولم يعزموا عليه فقد كانوا على الكفر، وأنهم لو خانوا الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام وصحبه فليس بمستبعد على من يكفر ويمكر ذلك، ولكنهم انتهوا إلى الهزيمة والخيبة فليحذر أمثالهم ذلك وليصدقوا في إسلامهم وليتجنبوا المكر والخديعة.

وتأتي السورة في النهاية على ذكر الموالاة من أجل أن يعلم كل فريق من المؤمنين والكفار وليه الذي يستعين به، فالمؤمنون المهاجرون المجاهدون هم والأنصار أولياء بعضهم بعضاً، وأما المؤمنون الذين لم يهاجروا من مكة دار الكفر حينئذ إلى المدينة دار الإسلام فليس للمؤمنين في دار الإسلام من ولايتهم من شيء إلا إذا هاجروا والتحقوا بدار الإسلام وعاشوا في ظل حكم شريعة الإسلام، ولكن إذا طلبوا العون والنصرة في الدين ضد من يستذلهم ويعتدي عليهم فيجب على دار الإسلام أن تهب لنصرتهم وإنقاذهم مما هم فيه من أي قوم يعتدون عليهم بشرط ألا يكون هناك عهد أو ميثاق بين هؤلاء القوم وبين دار الإسلام وحكامها، فعندها لا يجوز لدار الإسلام أن ترسل الجيوش ضد من لهم عهد عندها وتخرقه وتخون العهد حتى تتم مدته.

هذا وإن الكفار هم أولياء بعضهم بعضا، ولا ولاية لهم عند المؤمنين ولا للمؤمنين عندهم، وأن أي خروج عن مجال الولاية والنصرة هذه يؤدي إلى الفتنة والفساد الكبير في الأرض لأنه يخرج عن الحلال إلى الحرام، فالأخ المسلم في دار الكفر لا ولاية له على أخته في دار الإسلام وإنما يزوجها من هو دونه قرابة أو أهل ملتها ممن في دار الإسلام بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»، وقد جعل الله المهاجرين والأنصار أهل ولايته في الدين دون من سواهم، وجعل الكافرين بعضهم

أولياء بعض، ثم حرم أن يتولى المؤمن الكافر دون المؤمنين بقوله ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ﴾ فتقع الحرب إن فعلتم ذلك.

هذا بالنسبة للمهاجرين قبل الحديبية، وأما بالنسبة لمن بعدها وبيعة الرضوان، وهي الهجرة الثانية التي كانت أقل رتبة من الأولى، فقد انتهت هي والهجرة ككل عندما فتحت مكة وقال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: «لا هجرة بعد الفتح»، وبين سبحانه بأن المؤمنين المهاجرين بعد الحديبية وحتى فتح مكة يلتحقون بالمؤمنين في دار الإسلام سواء بسواء وهم مثلهم في النصر والموالاة.

وأما أثر تلك الموالاة فقد ظهر في الميراث، فكانوا يتوارثون بالهجرة، وكان لا يرث من آمن ولم يهاجر ممن هاجر ثم نسخ الله ذلك بقوله ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ وصار الميراث لذوي الأرحام من المؤمنين ولا يتوارث أهل ملتين شيئاً، ثم جاء قوله عليه وآله وصحبه السلام «ألحقوا الفرائض بأهلها».

لقد ظهر هذا الأثر في موالاة المهاجرين فيما بينهم وفيما بينهم وبين من لم يهاجروا فاقتضت الإشارة إليه هنا، ولكن المعنى المستهدف هنا من الموالاة هو النصرة والمعونة، كما مر في سورة (النساء)، ولذلك لا يوجد هنا نسخ.

ونعود للإشارة لتوريث ذوي الأرحام ممن ليس لهم نصيب في الكتاب من قرابة الميت وليس بعصبة له، كأولاد البنات، وأولاد الأخوات، وبنات الأخ، والعمة والخالة وغيرهم فقيل بتوريثهم وقيل بعدم توريثهم، والترجيح في الأمر عائد إلى ما يتبناه خليفة المسلمين في دولة الخلافة بناء على قوة الدليل وانطباقه على المسألة بشكل أدق وأصح من غيره.

دليل سورة الأنفال ـ ٨

- إنها سورة مدنية بدرية إلا سبع آيات من ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وقد أنزلت في ٧٥ آية.

- تبين كيفية تقسيم أنفال الحرب أو الغنائم، وأن ذلك للرسول عليه وآله وصحبه السلام أو لكل خليفة يخلفه على المسلمين، وأنه أربعة أخماس للمحاربين بالتساوي وخمسها الآخر منوط تقسيمه بالرسول عليه وآله وصحبه السلام أو بخليفته من بعده.

- تؤكد وقائع معركة بدر بالمدد من الملائكة والتطمين بالنوم ليلة المعركة والمطر للشرب والتطهر وتثبيت الأرض. . . بأن النصر بيد الله تعالى مهما قل عدد المؤمنين.

- وتؤكد أن الأموال والأولاد تشكل اختباراً دائماً للمؤمنين فليحذروا القعود عن الطاعات وعلى رأسها حمل الدعوة في المرحلة المكية والجهاد لإعلاء كلمة الله بحماية تطبيق الشريعة الإسلامية وحملها للأرض في المرحلة المدنية.

- وتبين أنه لولا قضاء الله تعالى أن لا يعذبهم ما دام الرسول عليه وآله وصحبه السلام بينهم، وما داموا يستغفرون لحل بهم من العذاب ما يستحقونه كما حل بغيرهم.

- وتؤكد لحكام الشر ودعاة الباطل بأنهم مهما أنفقوا من أموال وارتكبوا من فظائع ضد الإسلام ودعوته ورجاله فإنها ستكون حسرة عليهم في الدنيا والآخرة، فليكفوا عن ذلك رحمة بأنفسهم.

- و تدعوهم للحرص على لزوم الطاعة لله ولرسوله ولخليفته من بعده ونبذ كل اختلاف وخاصة أثناء المعارك لئلا تضيع قوتهم ويضيع النصر منهم.

- وكما تحذرهم من الكبرياء والرياء في القتال تحذرهم من المنافقين والمتشككين بينهم لأنهم من أخطر عوامل الهدم.

- وتؤكد الحرص على الوفاء بالعهد والميثاق فيعلم من تخشون منهم الخيانة فتلغوا العهد معهم.

- وتأمر بإعداد القوة المناسبة المحققة إخافة العدو منكم سواء كان بينكم أو بعيداً عنكم، واعلموا أنكم لستم طلاب حرب إلا بقدر ما تفرض عليكم مع الحذر من الخديعة.

- وتحدد قدرة المؤمنين على القتال بأنها بنسبة عشرة أضعافهم عند القوة وضعفهم عند الضعف.

- وتأمر بالمبالغة في قتل الكفار في البداية لتركيز شريعة الله في الأرض وإن جاز لهم الاجتهاد بأخذ الفدية لجواز الغنائم لأن تثبيت الإسلام في الأرض أهم وأولى من الفدية والتقوّي بها.

- وتشير إلى معاملة الأسرى وأن ذلك للخليفة حسب مصلحة الإسلام والمسلمين.

- وتحذر أخيراً من موالاة غير المؤمنين ومواددتهم لما في ذلك من إعانة للكفر على الإيمان.

فتبرز الأمور التالية :

١ ـ أكدت السورة بأنه لا يجوز اعتبار خوف جيش المسلمين وترددهم بعد الحذر يخالف الأخذ بجميع أسباب النصر، وإلا فالمسلمون لم يخوضوا معركة متكافئة في العدد والعدد مع أعدائهم طيلة تاريخهم.

٢ ـ إن النصر بيد الله مهما كان المدد بالملائكة ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾.. فالنوم والمطر والرعب وغيرها كلها أمور خرجت عن علاقة الملائكة بالمعركة.

٣ ـ أخذ الرسول عليه وآله وصحبه السلام برأي الحباب بن المنذر كخبير في مواقع القتال دون عودة لرأي أكثرية أو أقلية، مما يدل على إلزام رأي الخبير في مجاله.

٤ ـ لقد أعطي أهل بدر من الميزة ما جعله عليه وآله وصحبه السلام عندما سأله جبريل عليه السلام يقول «خيارنا» لأنهم بنوا دولة الإسلام بانتصارهم.

٥ ـ لا يجوز الفرار من المعركة مهما تفاوتت الأعداد والعُدد إذا اقتضت الثبات، فلكل معركة ظروفها، فلم يجز الفرار من أحد وجاز من حنين لأن الأولى كانت مصيرية وحاسمة أكثر من الثانية بكثير ويبقى الفرار محصوراً إما بالمناورة أو الإنضمام لفئة أخرى ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾.

٦ ـ وأما نسبة القتل والرمي في بدر إلى الله تعالى ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ﴾ فإنه من باب إسباغ العافية والقوة على الرماة فرمى كل منهم بهذه القوة الربانية الممنوحة له، فكأن الله هو الذي رمى وليس الرامي، فيبقى ذلك من قضاء النصر .

٧ ـ إن بيان الرسول عليه وآله وصحبه السلام، وبطريق التأكيد بالتكرار «ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي» يؤكد شمول كلمة الرمي لجميع أنواع ما يرمى في البر والبحر والجو من الاسلحة القديمة والحديثة، والمهم أن تتحقق بذلك إخافة العدو وإرهابه وبالتالي ردعه عن التفكير بمهاجمة المسلمين في دارهم.

٨ ـ لخليفة المسلمين تقدير مدة الهدنة أو الصلح أو الموادعة مع العدو سواء كانت عشرة أعوام أو أكثر أو أقل بناء على مالديه من معلومات كافية عن العدو.

٩ ـ إن معنى ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ حمل ضمنه شرط استحالة وقوع أي سبيل من الكفار من سيطرة تامة أو جزئية أو نفوذ على المسلمين إذا بقي هذا الشرط موجوداً ألا وهو الإيمان الحق.. مما يجب على المسلمين اليوم وفي كل وقت التنبه لذلك وعدم استنكار مثل هذه السيطرة والهوان التي يعيشها المسلمون اليوم مع الكافرين.

سورة التوبة (٩)

التقديم

سميت هذه السورة الفاضحة والبحوث لأنها تبحث عن أسرار المنافقين كما أطلق عليها المبعثرة والبعثرة، وسقطت البسملة من أولها لأنها بمضمونها نزلت بنقض العهد مع المشركين، والبسملة أمان لا يتناسب مع ذلك ولأن السورة نزلت بالسيف، ودعيت مع الأنفال القرينتان، وجبريل عليه السلام لم ينزل لها بالبسملة، وهذا هو الراجح من الأسباب، وهي تشتمل على الأمور التالية:

بدأت السورة بنقض العهد الذي عقد بين النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وبين المشركين، وأعطتهم مهلة لإكمال الشهور الأربعة المتفق عليها لفئة من المشركين، وحصرها في أربعة لمن كانت مهلته مفتوحة، وأن علياً قد أرسله رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بقراءتها على الحجيج وأميرهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وأنها أبلغتهم أن الله ورسوله بريئان من كل عهد مع المشركين، وأن عليهم التوبة عن الشرك والدخول في الإسلام وإلا فإنه تعالى سينزل عقابه بهم، وأمرت المسلمين بأن يبادروا بقتل كل مشرك يرفض ذلك بعد مرور الخمسين يوماً الباقية من الأشهر الحرم إلا من استثني منهم من امرأة وراهب وصبي وغيرهم.

وقرنت السورة التوبة من الشرك مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ونبهت المسلمين على جواز إجارة المستجير من المشركين وذلك لفترة يسمع فيها ما يتلى عليه من كلام الله وأحكامه ثم يوصل إلى جهته إذا أراد المغادرة، وأن مشركاً لن يكون له عهد عند المسلمين إلا لمن لا ينقض العهد ولا ينكث به فهؤلاء تعطى لهم مهلة الشهور الأربعة وأما من نقض العهد فيجب قتاله حتى يتوب، ولا سيما أن لمثل هؤلاء لا يوجد أمان ولا ذمة إذ يتظاهرون بالأمان وهم يخفون الغدر بعد أن نقضوا العهود مقابل أكلة أطعمهم إياها أبو سفيان، وأنهم عندما يتوبون ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة يصبحون أخوة لكم في الدين، ولكنهم عندما ينقضون العهد ويطعنون في الإسلام فلا مجال غير القتال ضدهم حتى ينتهوا من ذلك.

ثم تنتقل السورة لتحريض المسلمين على قتالهم وهم الذين نكثوا عهد الحديبية عندما أعانوا بني بكر على خزاعة، وعندما فرضوا على الرسول عليه وآله وصحبه السلام الخروج من المدينة لقتالهم، وعندما بدءوا قبل ذلك بالقتال يوم بدر، فلا بد من القتال ضدهم ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب بالهزيمة والقتل والسبي، وليتوب منهم من

استعد لذلك ورأى الحق معكم والباطل مع قومه.. ثم تذكّر المسلمين بأن سنة الله أن يبتليهم ليظهر المؤمن من المنافق لأن في القتال تظهر النفوس على حقيقتها.

وتنقلنا السورة بعدها للحديث عن إعمار المساجد، سواء بالإنشاء أو بمداومة الصلاة فيها، وأن هذا لن يتم من المشركين وإنما يتم من المؤمنين الصادقين.. ثم تحذر من التسوية بين من يسقي الحجيج ومن يؤمن بالله ويجاهد في سبيله ولا سيما إذا كان من المهاجرين الذين يضحون بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله، فهو أعظم درجة ومكانة عند الله تعالى.

ثم تحذر المسلمين من موالاة ومحبة الآباء والإخوة المقيمين على الكفر لأنهم ظالمون لأنفسهم، وتأمر الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن يحسموا مواقفهم مع جميع ارتباطاتهم في مكة سواء مع أهليهم أو أموالهم أو مساكنهم ولا يترددوا في الهجرة إلى دار الإسلام ليشاركوا في العيش في ظل شريعة الإسلام وفي الجهاد لإعلاء كلمة الله في الأرض وإلا حل العقاب الآجل أو العاجل بهم.

ثم يمن الله تعالى عليهم بما تحقق لهم من نصر بفتح مكة، وبالسكينة والطمأنينة التي أنزلها على رسوله وعلى المؤمنين يوم حنين بعد أن كادت الهزيمة تلحق بهم، فأنقذهم الله بنصره وهزم الكافرين.

وتعود السورة لتخصيص المسجد الحرام بمنع المشركين لأنهم نجس من الاقتراب منه بعد تلك السنة العاشرة من الهجرة، وأن لا يخشى المؤمنون الفقر لمنع المشركين من ذلك لان الله تعالى سيرزقهم فليطمئنوا، وما أسرع ما جاءهم التطمين عندما أحل المولى سبحانه لهم الجزية بعد أن كانت لم تؤخذ قبلها وذلك بأن أمرهم بقتال الكفار الذين هم من أهل الكتاب من اليهود والنصارى حتى يدفعوا الجزية وينزلوا تحت حكم شريعة الإسلام وأما المشركون العرب فليس لهم إلا القتال أو الإسلام بدليل قوله تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ﴾.

وتأتي السورة بعدها على حال أهل الكتاب من الكفر فيزعم اليهود بأن العزير هو ابن الله كما يزعم النصارى أن المسيح ابن الله سبحانه وتعالى عما يشركون، وعما يقولون وما يشابهون به الكفار من الزعم بأن الملائكة بنات الله أو غير ذلك من الشرك.

ثم تذكر نمطاً آخر من شركهم عندما ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فحرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام واتبعوهم في ذلك كما أن النصارى زعموا بأن المسيح هو الله سبحانه حيناً وابن الله حيناً آخر، فسبحانه وتعالى عما يشركون علّواً كبيراً.

وتعقب السورة على افتراءاتهم قائلة بأن إرادتهم من إبطال الحجج والدلائل على وحدانيته تعالى هي الباطلة والفاشلة رغماً عنهم بكثرة ما يجد الإنسان العاقل من أدلة ودلائل على ذلك، كيف لا و﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ فمن يستطيع أن يقف أمام ذلك ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ وليخسأ المشركون مهما زعموا !

ثم تضيف السورة نموذجاً آخر من باطل الأحبار والرهبان عندما يعتدون على أموال الناس دون حق ويواصلون منع الناس من الدخول في دين الإسلام، ويدخرون الذهب والفضة عن الإنفاق في سبيل الله، وأنهم هم وأمثالهم من المسلمين يرتكبون إثماً عظيماً ناهيك عن كفرهم الزائد، وأن من يكنز ويدخر أمواله من الذهب والفضة ولا يخرجها للتعامل بين الناس لا في الإنفاق في سبيل الله في الجهاد ولا في غيره فإنه سيحرق بها يوم القيامة في جهنم.

وتعود السورة لتكمل البيان عن الشهور، وأنها اثنا عشر شهراً في السنة، وأن منها أربعة حرم: ثلاثة سرد وواحد فرد، وهي ذو القعدة، وذو الحجة ومحرم ورجب، ثم تحذر من ارتكاب المعاصي والذنوب فيها بخاصة لعظم شأنها عند الله، وتأمر بقتال جميع المشركين وأن يكون المسلمون كلمة واحدة في هذا القتال ولا يتفرقوا أمام المشركين، ثم تحذر من اللعب بالشهور وبتأخير تحريم القتال من محرم إلى صفر الذي يفعله المشركون حسب حاجتهم.

وتستفهم السورة بعدها مقررة وموبخة عن التثاقل في تلبية الدعوة للنفير للقتال في سبيل الله، منبهة إلى أن الحياة الدنيا بكل ثمارها ومتعها لا تغني شيئاً عن الآخرة ناهيك عما يتعرض له المتثاقل من العذاب الأليم، ومحذرة من القعود عن النفرة، كما حصل من بعضهم في غزوة تبوك، ومؤكدة أن الله تعالى الذي نصر رسوله ورعاه هو وصاحبه في رحلة الهجرة من مكة إلى المدينة، وحقق النصر له على المشركين، لقادر على نصره ونصر دينه في كل وقت، وداعية للمؤمنين للنفير تبعاً لذلك دون تردد سواء كان الواحد منهم خفيفاً بحمله إلى المعركة أو ثقيلاً، وأن لا يبخلوا في الجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وموبخة للمنافقين بالذات الذين قعدوا عن النفرة في تبوك وأخذوا في الحلف بأنهم لم يكونوا قادرين على ذلك، وما هو في الحقيقة إلا الكذب والنفاق.

وتعاتب السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام لترك الأولى عندما أذن لهم بالقعود، ومبينة له عليه وآله وصحبه السلام بأن مؤمناً بالله واليوم الآخر لا يستأذن لترك الجهاد في سبيل الله بماله ونفسه وإنما المنافق هو الذي يستأذن، ويكفي دليلاً على ذلك

عدم الإعداد لذلك منهم، ومطمئنة الرسول عليه وآله وصحبه السلام أن الخير كان في عدم خروجهم معهم لأنهم لو خرجوا لأفسدوا بالإيقاع بين المؤمنين بالنميمة والتثبيط ولا سيما أن من المؤمنين من يقبل قولهم ويطيعهم، وكان ذلك حالهم من قبل أن يكشفهم الوحي لكم إذ أن منهم من يدعي الفتنة بنساء بني الأصفر، وهو كاذب، كما أنهم يفرحون لكل مصيبة تحل بالمؤمنين ويحزنون لكل حسنة تصيبهم.

ثم تدعو الرسول عليه وآله وصحبه السلام ليوبخهم لما يريدونه من الوقيعة بالمسلمين ويفهمهم بأن عذاب الله سيحل بهم، أو الهزيمة ستلحقهم، فلينتظروا ذلك! وليعلموا أنهم مهما أنفقوا طائعين أو مكرهين، فإن الله تعالى لن يتقبل منهم ذلك لفسقهم وسوء مقصدهم وكفرهم بالله ورسوله،وتركهم الصلاة في غير الجماعة.. ثم تدعوه عليه وآله وصحبه السلام لكي لا يستحسن شيئاً من أموالهم وأولادهم فكلها استدراج لهم لعذاب الدنيا بكرههم الإنفاق وببحثهم عن أي مكان يختبئون فيه تهرباً من المسلمين.

وتبعاً للحديث عن هؤلاء المنافقين تبين السورة كيف أنهم يسخطون عند عدم إعطائهم من الصدقات ويطعنون في الرسول عليه وآله وصحبه السلام لذلك ولكنهم يظهرون رضاهم عندما يعطون منها، وكم كان طيباً منهم لو رضوا واكتفوا بما أعطي لهم.

ثم تبين السورة أن الصدقات لها مصارف ثمانية هي الفقراء والمساكين والعاملون عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب، أي تحرير العبيد، والمدينون، والجهاد في سبيل الله ولابن السبيل، أي المقطوع في السفر، فتعطى لهم كلهم أو بعضهم حسب ما يتوفر منهم في أي وقت، ولا يعطى منها من تلزمه نفقته بحيث يعطى الواحد بقدر دين المدين وكفاية الفقير وعياله.

وبعد بيان السورة لمصارف الصدقات تعود للتنبيه على ما يفعله المنافقون من الطعن في رسول الله عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام وقولهم فيه بأنه أذن سامعة فترد عليهم بأنه عليه وآله وصحبه السلام أذن خير لا أذن شر فيسمع الخير ولا يسمع الشر وهو يصدق للمؤمنين لا للكفار.

ثم تشير إلى نمط من كذبهم بالحلف ليرضوا المؤمنين وكان حريّاً بهم أن يحرصوا على إرضاء الله ورسوله لو كانوا مؤمنين حقاً، وكأنهم لا يعلمون أن من يخاصم الله ورسوله بتمرده وعصيانه الظاهر أو الخفي جزاؤه جهنم وعظيم الخزي، ثم تذكر حذرهم من نزول الوحي بكشف أخبارهم، ثم تتوعدهم وتهددهم بذلك. ثم تشير إلى رد فعلهم عندما كانوا يسألون عن هزئهم بآيات الله تعالى فتوبخهم على ذلك لأن الكفر هزلاً كفر،

ثم تقرعهم على كفرهم بهذه السخرية مع أنهم كمنافقين يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان، ثم تؤكد لهم وللمؤمنين أن الذكور والإناث من المنافقين هم كالشيء الواحد في الخروج من الدين،وأنهم على نفس الطريقة من الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف وترك الجهاد وكل ما أمر الله به، وأنهم جميعاً مع الكفار الصريحين خالدون في جهنم ويكفيهم ذلك جزاء وفاقاً ناهيك عن البعد من رحمة الله والعذاب الدائم، وهم في ذلك كمن سبقهم من الكفار الذين فاقوهم في القوة وكثرة الأموال والأولاد والذين تمتعوا بنصيبهم من الدنيا كما يتمتع هؤلاء، وطعنوا في دين الله ورسله كما يطعن هؤلاء، فخسروا أعمالهم في الدنيا والآخرة إذ لن يجدوا عليها إلا العقاب في نار جهنم، وكأنهم لم يسمعوا بأنباء أولئك الذين سبقوهم من قوم نوح وعاد وثمود وإبراهيم ومدين والمؤتفكات وغيرهم الذين أنكروا ما جاءهم به رسل الله إليهم من البينات فحق عليهم العذاب بظلمهم لأنفسهم.

وتنقلنا السورة بالمقابل إلى الإشارة إلى أن الذكور والإناث من المؤمنين هم أيضاً كالشيء الواحد في الإيمان وأنهم يأمرون بالمعروف من عبادة الله وينهون عن المنكر من الشرك والكفر، وأنهم يقيمون الصلاة ويؤدون الزكاة ويلتزمون جميع أوامر الله ورسوله مما يجعلهم أهلاً لرحمة الله وفضله، والمصير إلى الخلود في جنات عدن، والحصول على أكبر من ذلك ألا وهو رضوان الله تعالى الذي هو بحق ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

ثم تأمر السورة الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بالجهاد ضد الكفار والمنافقين دون رحمة ولا شفقة بهم، كيف لا وهم الذين يطعنون بالرسول عليه وآله وصحبه السلام ويكذبونه ويحلفون على أنهم لم يفعلوا ذلك وأنهم لم يهموا بقتل الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في غزوة تبوك، وأن حقدهم ذلك كان بسبب ما تفضل به الله تعالى على المسلمين من الغنى بالغنائم، وبالرغم من ذلك فهم مدعوون للتوبة الصادقة عن ذلك. وعندها يتحقق الخير الأفضل لهم، وأما إن أصروا على الإعراض عن الإيمان والتوبة فلينتظروا عذاب الدنيا بالقتل، وعذاب الآخرة بالنار.

ثم تنبه الرسول عليه وآله وصحبه السلام والمسلمين معه إلى كذبهم في العهد مع الله عندما ألزموا أنفسهم بالصدقة والزكاة إذا تفضل الله تعالى عليهم بالرزق الوفير ولكنهم لم يفعلوا بل بخلوا فزادهم ذلك نفاقاً في قلوبهم، وضاعف ذلك عقابهم من عالم السر والنجوى.. كيف لا وهم لم يكتفوا ببخلهم بل غمزوا وطعنوا في المؤمنين المتصدقين، فيا محمد تجنب الاستغفار لهم لأنك لو استغفرت الكثير الكثير لهم فلن

يغفر الله لهم وهم مصرون على الكفر بالله ورسوله وعلى شنيع الأفعال ومنكرها في حق المسلمين.

وانظر إليهم يا محمد وهم يعلنون فرحهم بالقعود عن صحبتك في الجهاد في غزوة تبوك بخلاً عن الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله وتنفيراً للمجاهدين عن ذلك بحجة الحر، وأن عليهم أن ينتظروا حر جهنم الأشد من حر الدنيا ليكفوا عن ذلك، كما عليهم أن يعلموا أن ضحكهم القليل هذا في الدنيا لن يعقبه إلا البكاء الكثير والندم الشديد في الآخرة جزاء سيء أعمالهم.

ثم تحذر الرسول عليه وآله وصحبه السلام من السماح لهم بالخروج معه لو طلبوا ذلك أو بالقتال بعد أن قعدوا عن ذلك وتخلفوا المرة الأولى، فعليهم أن يبقوا مع أمثالهم من المنافقين أو العاجزين كالضعفاء، كما تحذره عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام من الصلاة على أي ميت منهم أو من الوقوف على قبره للدعاء له بعد أن أصروا على الكفر بالله ورسوله وماتوا على فسقهم وعصيانهم، كما تحذره من الإعجاب بكثرة أموالهم وأولادهم لأنها لمزيد من عذاب الدنيا والآخرة بما تتعرض له من القتل والسبي والغنم وبما تنتهي إليه من العذاب في النار، وتلفت نظره عليه وآله وصحبه السلام بعدها إلى موقف أغنيائهم يطلبون الإذن بالقعود عن الجهاد وهم القادرون عليه، ويكتفون بأن ينضموا إلى النساء والصبيان دون خجل ودون أدنى تأثر بمبادرة الرسول عليه وآله وصحبه السلام والمؤمنين معه إلى طاعة الله بالجهاد بالمال والنفس، مما يجزيهم عليه بالخلود في الجنان والتمتع بالغيد الحسان.

ثم توضح السورة من يقبل الاعتذار منه، وأنه ليس من يدعي كذباً العذر وإنما من هو بحق، كذلك كالضعفاء والمرضى والعاجزين مالياً ما داموا لا يبخلون بصدق القول والنصح لله ورسوله، ومن يعجز الإمام عن تزويدهم بالعدة القتالية اللازمة عندما يطلبونها وهم في غاية الأسى لذلك، وأين هؤلاء من الأغنياء القادرين على الاستعداد والإعداد، والذين يكتفون بالتخلف مع أمثالهم، والذين لا هم لهم إلا افتعال الأعذار عندما ترجعون من المعركة، وهي أعذار مردودة مرفوضة لأن المولى سبحانه قد أخبر رسوله بأخبارهم الحقيقية، وأن مصير أعمالهم إلى الخسران المبين يوم الدين مهما تذرعوا بحلف الأيمان بالله تعالى البريء من كذبهم، ولذلك ما على المؤمنين إلا أن يعرضوا عنهم ولا يتعاملوا معهم لقبح أعمالهم، وكان الحري بهم الصدق مع الله لإرضائه بدلاً من الحلف الكاذب لإرضاء المؤمنين.

وتأتي بعدها السورة إلى ذكر نوعين من الأعراب: نوع مغرق في الكفر والنفاق

لجهلهم بأحكام الله وتعصبهم لزعمائهم الطغاة المستبدين، والنوع الآخر المشابه لهذا وهم أولئك الأعراب الذين يعتبرون ما ينفقونه في سبيل الله خسارة لعدم رجائهم الثواب عليها، وهم في نفس الوقت يكيدون للمؤمنين مع أعدائهم ويعملون لإيقاع الشر والهزيمة بهم، وهؤلاء كأولئك ينتظرهم سوء العذاب في الدنيا والآخرة، وأما النوع المخالف لهم فهم أولئك الأعراب الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر، واعتبروا نفقاتهم في سبيل الله قربات يتقربون بها لله تعالى لينالوا رحمته ومغفرته.. وأن مثل هذا النوع ممن هو سابق لهم بالإيمان والإحسان ألا وهم المهاجرون والأنصار ومن أحسن الاتباع لهم ممن رضي الله عنه وأعد لهم الجزاء الطيب في جنات الخلد.

وهناك نوع آخر من الأعراب مشابه للنوع الأول في الكفر والنفاق وهم ممن يحيط بالمدينة ويعيش بين أهلها ويتظاهرون بالإيمان كاذبين مما يجعلهم أشد خطراً على المؤمنين من الكفار المكشوفين ومما يجعلهم جديرين بالضِّعف من العذاب في الدنيا والآخرة، ويستثنى من هذا النوع أولئك الأعراب الذين يعيشون حول المدينة أو من أهلها ولكنهم اعترفوا بذنوبهم لتخلفهم عن الخروج في غزوة تبوك مما يرجى معه قبول توبتهم والمغفرة لهم،كيف لا وقد عرضوا تقديم جميع أموالهم لله تعالى ولكن الله سبحانه أمر رسوله أن يكتفي بأخذ شيء كالثلث منها لا كلها،كما أمره أن يدعو للمتصدق منهم بالبركة، وهي تصيب كل من يفعل فعلتهم.

وطمأنهم المولى سبحانه بأن تصدقهم هذا مع التوبة يجعلها مقبولة عنده تعالى، وأن عليهم وعلى جميع المؤمنين الصادقين أن يقبلوا بصدق على الأعمال الصالحات، وأنه تعالى عالم بذلك وسيجزيهم خير الجزاء على ذلك، وهذا هو شأن من اعترف بذنبه وحرص على الصدقة والتوبة وطلب قبول عذره بذلك، وأما من صدق القول مع الرسول عليه وآله وصحبه السلام كالثلاثة الذين تخلفوا، فإنهم قد أرجئوا لحكم الله فيهم إما بالعذاب أو قبول التوبة.

وتنقلنا السورة للحديث عن مسجد الضرار الذي بناه من حسدوا بناة مسجد قباء، وأجّل الرسول عليه وآله وصحبه السلام الصلاة لهم فيه لانشغاله بالتجهيز لغزوة تبوك، ولكن الله تعالى أخبره بأمرهم وسوء قصدهم، وكذبهم في إيمانهم، وأنهم أهل لأمره تعالى لرسوله عليه وآله وصحبه السلام بعدم الصلاة في مسجدهم ذاك، لأنه لم ينشأ على أساس من التقوى وجمع كلمة المسلمين كما بني مسجد قباء.

ثم تعطف السورة على هذا بالإشارة إلى الصفقة التي عقدها المؤمنون الصادقون مع المولى سبحانه بتقديم أموالهم وأنفسهم له سبحانه مقابل الجنة، وعداً قطعياً تكرر

ذكره في التوراة والإنجيل والقرآن، وهذا ما بايع عليه المسلمون الرسول عليه وآله وصحبه السلام في العقبة الكبرى محققين بذلك الفوز العظيم في الدنيا والآخرة وذلك بما امتازوا به من صدق التوبة، وإخلاص العبادة، ودوام الحمد، وإخلاص السياحة مع الله بالصوم وعموم الطاعات، ودوام الركوع والسجود في صلواتهم المفروضة والنافلة،ومتابعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بما أمر الله به ونهى عنه.

ثم تحذر السورة النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم والمسلمين إلى يوم القيامة من الاستغفار للمشركين حتى لو كانوا من أقرب الناس إليهم كالآباء والأمهات بعد أن تأكدوا ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ بسبب موتهم على الكفر، وتذكّرهم بأن ما فعله إبراهيم عليه السلام عندما استغفر لأبيه لم يكن إلا عن موعد له عندما قطع على نفسه عهداً أن يؤمن بالله ويخلع الأنداد، بدليل أنه تبرأ منه عندما علم بل تأكد أنه مات على الكفر ولم يف لابنه إبراهيم بوعده وعهده.. وأن هذا مما يؤكد مسئولية هذا الأب عن موته على الضلال مع أن الهدى كان واضحاً بين يديه بدعوة ابنه إبراهيم.

وتعود السورة لتطمئن الرسول عليه وآله وصحبه السلام وصحبه من المهاجرين والأنصار ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ في غزوة تبوك بأن الله تعالى قد قبل توبتهم وذلك بسبب إذنه عليه وآله وصحبه السلام للمنافقين بالتخلف عنه وبسبب ما تعرض له المسلمون من عسرة الزاد والظهر والماء حتى أنقذهم المولى سبحانه بفضله وكرمه على رسوله عندما نزل الغيث عليهم بدعائه وتوفر الزاد بين أيديهم ببركته عليه وآله وصحبه السلام عندما دعا على الزاد القليل ليكفي الجيش ويزيد.. كما تاب سبحانه وتعالى على الثلاثة الذي أرجئوا لحكم الله: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية بعد أن ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾.

ولذلك تدعو السورة المؤمنين أن يحرصوا على دوام تقوى الله والصدق في كل قول وعمل ليكونوا من الفائزين دائماً.. ثم تؤكد لهم بأن ليس من حق سكان المدينة بصفتها مركز دار الإسلام أن يتخلفوا عن النفرة هم وكل من جاورهم مع الرسول عليه وآله وصحبه السلام في مثل غزوة تبوك، لأنهم لا يمكن أن يرتضي أحدهم الدعة لنفسه والرسول عليه وآله وصحبه السلام في المشقة، ولأنهم ينالون أعظم الثواب بكل عطش أو تعب أو جوع أو إغاظة للكفار أو إيقاع أي أذى بأعداء الله أو إنفاق أي نفقة في سبيل الله مهما كانت صغيرة أو قطع أي مسافة ابتغاء نصرة دين الله.

كما أن على المؤمنين جميعاً وفي كل عهد من العهود أن يحرصوا على عدم النفرة جميعاً ليبقى جمع منهم بجانب الرسول عليه وآله وصحبه السلام ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾

ولينقلوا ما تعلموه من شرع وأحكام إلى العائدين من النفرة ليكونوا على بينة من أحكام الله والحذر من أي مخالفة لها ولو دون قصد.. وأن عليهم، أي المؤمنين، أن يهبوا لقتال من يليهم من الكفار بكل شدة وعنف حتى إذا انتهوا من الأقرب انتقلوا للأبعد، وهكذا حتى تصل رايات الإسلام لجميع الآفاق.

وأن عليهم أن يزدادوا إيماناً مع إيمانهم مع كل سورة وحكم ينزل به الوحي ولا يداخلهم أي نقص في الإيمان كما يحصل لدى المنافقين الذين يتضاعف شكهم وكفرهم مع كل وحي جديد وكأن الابتلاءات المتتالية من قحط وشدة وأمراض غير كافية لتنبيههم وتذكيرهم بضرورة الإقلاع عن النفاق والنقلة إلى الإخلاص في الإيمان والصدق فيه، وأن ينتهوا عما يجري بينهم من تبادل النظرات تعبيراً عن الخوف من نزول وحي جديد يفضحهم ويفضح نفاقهم، وأن يقبلوا بقلوبهم على الإيمان وليس الإعراض عنه، ويكفيهم رأفة بهم ورحمة أن الله تعالى قد أرسل إليهم رسولاً منهم يعرفونه حق المعرفة، ويعرفون مدى حرصه الشديد عليهم وعلى تجنيبهم أي عنف وشدة.

ثم تنتهي السورة بمخاطبة الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بأن الكفار إن أعرضوا بعد هذه النعم الكثيرة عليهم فما عليه إلا أن يقول ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ معتمداً عليه سبحانه ومفوضاً أمره عليه وآله وصحبه السلام إليه سبحانه جل وعز، كيف لا وهو سبحانه مالك الملك كله وخالق الخلق كله.

التفسير

تبدأ السورة دون البسملة منهية كل العهود التي عقدت مع المشركين فتقول:

﴿۞بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١ فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢ وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٤ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ

﴿٥﴾ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ
لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ
عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيۡفَ وَإِن
يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ
فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ
﴿٩﴾ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ
عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾
أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ
أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ
وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن
يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ
يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾

مبينة للمؤمنين التزام البراءة إلى الذين عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم الذي كان يتولى العقود، وإلى من رضي أصحابه رضوان الله عليهم بالعهد معهم، فقل لهم يا محمد سيحوا وسيروا في الأرض ذاهبين وآيبين وأنتم آمنون من المسلمين وذلك لمدة أربعة أشهر، فمن كان من المشركين صاحب عهد أقل من أربعة أشهر فيمهل لإتمامها ومن كان عهده بدون أجل محدود أو لأكثر من أربعة أشهر فقد قصر على أربعة أشهر فقط، ومن ثم حرب لله ولرسوله وللمؤمنين، فيقتل كل من يدرك منهم ويؤسر إلا إذا تاب ودخل حظيرة الإيمان، وأن بدء هذا الأجل هو يوم الحج الأكبر وانقضاؤه هو يوم العاشر من ربيع الآخر، وأما أجل من لم يكن له عهد فهو مرور ما تبقى من الأشهر الحرم أي خمسون يوماً هي عشرون من ذي الحجة والمحرم كله.

فيا أهل مكة لقد نقضتم العهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم الذي جرى في الحديبية عندما عدت بنو بكر حلفاؤكم على خزاعة التي دخلت في عهد الرسول عليه وآله وصحبه السلام وساندتموهم على ذلك فجاءوه عليه وآله وصحبه السلام شاكين صنيعكم فقال لهم «لا نصرت إن لم أنصر بني كعب» أي خزاعة، فحاول

أبو سفيان لدى الرسول عليه وآله وصحبه السلام أن يستديم العقد ويزيد في الصلح ولكنه رجع خائباً، وتجهز الرسول عليه وآله وصحبه السلام لفتح مكة فنصره الله وفتحها سنة ثمان من الهجرة، وتبعتها في أول شوال من نفس العام وقعة حنين التي هزم فيها هوازن، ثم عاد عليه وآله وصحبه السلام للمدينة بعد أن أمر على الناس للحج عتاب بن أسيد، وكان أول أمير أقام الحج في الإسلام.

ثم خرج عليه وآله وصحبه السلام في رجب من سنة تسع بالمسلمين إلى غزوة تبوك، وهي آخر غزواته عليه وآله وصحبه السلام، وأراد الحج عند انصرافه منها فقال: «إنه يحضر البيت عراة مشركون يطوفون بالبيت فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك» فأمّر أبا بكر على الحج وأرسل علياً ليقرأ على الناس (براءة) فختمها قبل التروية بيوم واحد، وقال بأنه بعث في الحج بأربع: ألا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم عهد فهو إلى مدته، ومن لم يكن له عهد محدد المدة فأجله أربعة أشهر، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا.

وفي الآية دليل على جواز قطع العهد بين المسلمين والمشركين إما بانقضاء المدة فيؤذنوا بالحرب وإما بخوف غدرهم فينبذ إليهم عهدهم كما مر سابقاً.

وتبين الآية التالية الإيذان بالحرب بعد انقضاء الأجل إذ أعلموا المشركين بالبراءة من العهد بعد أن نقضوه، وأن ذلك قد تم يوم الحج الأكبر الذي كان يوم عرفة بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام «يوم الحج الأكبر يوم عرفة» وإن قال آخرون إنه يوم النحر، وأن للمشركين أن يختاروا بعدها إما التوبة عن الشرك وهي ولا شك أنفع لهم وإما الإعراض عن الإيمان وعندها فلينتظروا الحرب وعقوبة الهزيمة بعون الله ونصره، وأن هذه البراءة من المشركين عامة إلا للمعاهدين فلهم مدة عهدهم سواء من خان ونقض العهد فينتقص قبل تمامه أو من ثبت على الوفاء ولم يعاون عدو المسلمين عليهم، وهذا خاص ببني ضمرة.

وأما بعد انقضاء الأشهر الحرم المعروفة وذلك بمرور الخمسين يوماً الباقية منها فيجب قتال المشركين عامة إلا ما استثني منهم من امرأة وراهب وصبي وغيرهم حتى يقتلوا أو يسلموا ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ﴾، وهذا لا يتناول أهل الكتاب الذين ينتهي قتالهم بـ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾، كما لا يتناول كل طرق القتل للنهي عن المثلة، ولكنه يتناول كل مكان وموضع ولو في المسجد الحرام مما ينسخ كل آية ورد فيها الإعراض والصبر على

أذى الأعداء، ولكن ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ تدل على الأسر إما للقتل أو الفداء أو المنَّ على ما يراه الإمام، وفي نفس الوقت يمنعوا من الدخول لديار الإسلام إلا بإذن بدليل ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾.

وأما ﴿وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍۚ﴾ فتقتضي مراقبة العدو ورصد تحركاته بجميع الأوجه حتى لا تقع الغِرة مما يجيز اغتيالهم قبل الدعوة وبالذات لأئمة الكفر منهم، وبعدها إذا تخلوا عن الشرك فلا قتل ما دام ذلك قبل وقت الصلاة والزكاة وأما إذا حان وقت الصلاة وتركها مستحلاً فهو كافر غير مقبول التوبة عن الشرك فيقتل،وكذلك الزكاة، مما يدل على لزوم إضافة الأفعال المحققة للتوبة حتى تقبل لأن الله تعالى شرط معها إقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

وتشير السورة بعدها إلى حالة أخرى مع المشركين الذين أمر الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بقتالهم وهي ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ أي عند سؤال الجوار وطلب الأمان والذمة، فعندها يجب إعطاؤه ذلك لكي يسمع القرآن ويفهم أحكامه وأوامره ونواهيه، فإن قبل ذلك فحسن، وإلا رُد إلى مأمنه. وأما إذا كانت الإجارة لغير سماع القرآن وفهم الأحكام فإجازتها للإمام تبعاً لمصلحة المسلمين من ذلك.

ثم تعبر السورة عن التعجب من إعطاء المشركين العهد مع إضمار الغدر، كما وكيف يكون لهم عهد عند الله يأمنون عذابه غداً، واستثني من عاهدهم الرسول عليه وآله وصحبه السلام ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ﴾ وهم بنو بكر الذين حافظوا على العهد، ولكنها وضعت خطاً عريضاً للكل بالتعامل معهم بإقامة الوفاء لمن يقيم عليه وإلا فلكل حسابه كما سبق. ثم تكرر التعجب من أن يكون لهم عهد مع خبث أعمالهم وسوء مقاصدهم ولو تظاهروا بالقول المقبول، وأن ذلك ليس ببعيد عليهم وهم الذين نقضوا العهد بوجبة طعام قدمها لهم أبو سفيان فأقدموا على الإعراض عن الإسلام ومنع الآخرين من ذلك.

فالمشركون بعامة واليهود بخاصة لا ذمة ولا عهد لهم لأن ديدنهم الاعتداء باستحلال أموال ودماء المسلمين، ولذلك ليس معهم من تعامل إلا أن يتوبوا عن شركهم وأفعالهم ويلتزموا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة كدليل على صدق توبتهم وعندها يكونون إخواناً للمسلمين في الإسلام، وأما إذا عادوا ونقضوا العهد وطعنوا في الإسلام سواء بالحرب أو الاستعداء فلا مجال إلا قتالهم وقتلهم، وما قتل كعب بن الأشرف إلا تنفيذاً لذلك، وأن في ذلك دليلاً على نقض العهد من الذمي إذا حارب فيصبح ماله وولده فيئاً للمسلمين، وأن من نقضه بسب الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأي وجه فإنه يقتل لأنه لم يعط عهداً على ذلك، بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام في حق امرأة كانت تشتم

الرسول عليه وآله وصحبه السلام «ألا اشهدوا إن دمها هدر»، وأما لو أسلم الذمي بعد السب لكي يتقي القتل فأمره إلى الإمام إما أن يقتله وإما أن يؤدبه ويعزره.

وتحض السورة المؤمنين لقتال أهل مكة الذين نقضوا عهد الحديبية، وألجأوا الرسول عليه وآله وصحبه السلام إلى الهجرة إلى المدينة، وأعانوا بني بكر على خزاعة وبدءوا المسلمين بالقتال يوم بدر، فعليكم أيها المؤمنون بقتالهم دون خوف إلا من الله تعالى وحده، وتأكدوا أن الله تعالى يعذبهم بأيديكم بما تلحقونه بهم من هزائم ويطمئن حلفاءكم بنو خزاعة ويشفي صدوركم بالنصر عليهم ويتوب عليكم إن قاتلتموهم وتخليتم عن الخوف والتردد في ذلك.

وتستنكر السورة على المؤمنين موقفهم فتقول لهم: هل ظننتم أن تتركوا من غير أن تبتلوا بما يظهر به المؤمن والمنافق الظهور الذي يستحق به الثواب والعقاب، فيظهر المؤمن الحق الذي جاهد ولم يتودد لغير المؤمنين من المنافق الذي فعل ذلك ولم يجاهد، وفي هذا دليل على عدم جواز اتخاذ بطانة من المشركين يفشون إليهم الأسرار ويعلمونهم بالأمور.

وتنقلنا السورة بعدها لأحكام المساجد وعمارتها وتحريم ذلك على المشركين فتقول:

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ
وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ
ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ
وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ
دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ
مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ
ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا
وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ
فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ

كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ
ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ
وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ
بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ
فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن
فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

موضحة أنه ليس للمشركين الحج بعد ما نودي فيهم بالمنع من المسجد الحرام، وكانت أمور البيت كالسدانة والسقاية والرفادة إلى المشركين فبينت أنهم ليسوا أهلاً لذلك بل أهله المؤمنون، مما يوجب على المسلمين تولي أمور المساجد ومنع المشركين من دخولها، كما ليس لهم أن يجعلوا المسجد عامراً أو يعينوا على عمارته مما يشمل المسجد الحرام وغيره من المساجد، وأنهم بذلك يشهدون على أنفسهم بالكفر لسجودهم لأصنامهم وإقرارهم بأنها مخلوقة، وأن الشهادة لعمار المساجد بالإيمان هي شهادة صحيحة لأن الله تعالى ربطه بها وأخبر عنه بملازمتها وبدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان».

وليعلموا أن من صفات عمار المساجد الإيمان بالله واليوم الآخر وإقامة الصلاة وأداء الزكاة والخشية لله وحده في طاعته، وأنه لا يجوز أن تجعل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بمعاهدته والقيام بمصالحه كالإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله، وأن أهل هذا الإيمان والجهاد هم أعظم درجة ومرتبة ومكانة عند الله من الذين افتخروا بالسقي والعمارة حسب تقديرهم، لأنهم كمشركين لا درجة لهم أصلاً عند الله غير دركات النار، وأن لأولئك المؤمنين البشارة من الله تعالى في الدنيا بما لهم من عظيم الثواب في الآخرة بالإضافة للرضوان، الأمر الذي يفرض على أولئك المؤمنين أن لا يفكروا في ولاية ومناصرة من يفضل الكفر على الإيمان من آبائهم وإخوانهم لأن في ذلك الظلم العظيم مما يؤكد أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان وإن كان الإحسان للوالدين والهبة لهما مستثناة مع كفرهما بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام لأسماء بشأن أمها الكافرة «صلي أمك».

وعليه تأمر السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن لا يسمح لأحد من المسلمين أن يفضل الرابطة العائلية المتمثلة في الآباء والأبناء والإخوة والزوجات

والعشيرة، ولا أن يفضل الرابطة المادية المتمثلة في الأموال التي جمعوها والتجارة التي يخشون بوارها، ولا أن يفضل الرابطة الوطنية المتمثلة في المساكن التي يعيشون فيها ويتنعمون بخيرات الأرض التي يعيشون عليها، فتأمره عليه وآله وصحبه السلام أن يفرض على المسلمين ولا يسمح لأحد منهم أن يفضل أياً من هذه الروابط كلها على الرابطة المبدئية المتمثلة في الإيمان بالله، مبدأ كل المخلوقات، والإيمان برسوله الشامل للقرآن والسنة اللذين أتى بهما للناس كافة، والجهاد في سبيل الله الطريق الوحيد لحمل الدولة الإسلامية، دولة الخلافة، الإسلام للأمم والشعوب الأخرى، وأن أي مسلم يقع في ذلك فعليه أن ينتظر عقاب الله في الدنيا والآخرة بالعقوبة العاجلة والآجلة.

ثم تأتي السورة إلى تذكير المؤمنين بنعم الله ونصره لهم في معارك كثيرة سبقت يوم حنين من بدر وبداية أحد والخندق وفتح مكة، وأن حنيناً كادت تنتهي بهزيمتهم عندما أعجبتهم كثرتهم فركنوا إليها وهربوا أمام هوازن عندما أطبقت عليهم في وادي حنين لولا أن تداركهم الله تعالى بفضله فطمأن رسوله عليه وآله وصحبه السلام والمؤمنين بما قذف في صدورهم من السكينة، وأنزل جنوداً من الملائكة يشدون أزرهم دون أن يروهم فأخذ العباس ينادي بأمر من الرسول عليه وآله وصحبه السلام أصحاب الشجرة «أي عباس ناد أصحاب الشجرة» فنادى: أين أصحاب الشجرة؟ فسمعوا صوته الجهوري فقالوا: يا لبيك، يا لبيك، ورجعوا والتفوا حول الرسول عليه وآله وصحبه السلام وخاضوا المعركة وهزموا هوازن وقائدهم مالك بن عوف النصري، ونفذوا قوله عليه وآله وصحبه السلام تشجيعاً لهم «من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه».

وفي الآية دليل على جواز استعارة السلاح واستلاف المال كما فعل الرسول عليه وآله وصحبه السلام عندما استعار من صفوان بن أمية عدداً كبيراً من الدروع قيل إنها أربعمائة، واستلف ثلاثين ألفاً أو أكثر من المال من ربيعة المخزومي، ورد ذلك كله لهما. كما أن في هذه الغزوة قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «ألا توطأ حامل حتى تضع ولا حائل حتى تحيض حيضة» مما يدل على أن السبي يقطع العصمة، وأما الاستعانة بالمشركين فيجوز إذا كانوا تحت راية الإسلام وحكم الإسلام هو الغالب وليس تحت رايتهم وسلطانهم بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام «لا نستضيء بنار المشركين» كناية عن سلطانهم. وفي هذه الغزوة رد الرسول عليه وآله وصحبه السلام والمسلمون تبعاً له ذراري هوازن لهم بعد أن جاءوه مسلمين راغبين في العطف والإحسان وبعد أن خيرهم بين الذراري وبين الأموال.

وتنتهي هذه المجموعة من الآيات بمخاطبة المؤمنين وأمرهم ليمنعوا المشركين من

الاقتراب من المسجد الحرام والدخول فيه لأنهم نجس وذلك بعد العام العاشر من الهجرة، وإن جاز دخولهم في المساجد الأخرى فذلك بشرط تجنب القاذورات والنجاسات، وأن يطمئنوا أي المسلمون أن منع المشركين من ذلك لن يؤدي إلى حاجتهم وفقرهم لأن الله تعالى يغنيهم عنهم سواء بإدرار المطر وإنبات النبات وإخصاب الأرض أو بالجزية التي يأخذونها من أهل الذمة أو بالجهاد والظهور على الأمم.

وفي الآية جواز تعلق القلب بأسباب الرزق، وأنه ليس مناف للتوكل إذ هو من السعي في مناكب الأرض بجميع أنواعه من حرث وتجارة وعمارة وغيرها مما يشمل طرق طلب الرزق الستة: من الغنائم والفيء وغيرهما من كسب الغلبة والقهر في الجهاد وفي سبيل الله، ومن العمل اليدوي، ومن التجارة، ومن الزراعة، ومن التعليم للقرآن والعلوم الشرعية والعلوم الأخرى، ومن الاقتراض والاستلاف بنية الأداء.

وبعدها تأتي آيه الجزية من أهل الكتاب، وبيان ما يرتكبونه من شرك ويقترفونه من قبيح الأفعال فتقول:

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا
يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾
وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ
يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ
أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ
إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ
بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ
بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ
إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ
وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾
يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ
لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾

مبينة البديل عن التجارة مع المشركين التي خاف المؤمنون الفقر بسبب توقفها نتيجة منع المشركين من الاقتراب من المسجد الحرام، ألا وهو الجزية التي لم تكن قد

أخذت من قبل، فكانت خير عوض عن ذلك، وكان الأمر بقتال جميع الكفار، وما ذكر أهل الكتاب إلا لخصوصية علمهم بالتوحيد والرسل والشرائع ولكن الحجة تأكدت عليهم لإنكارهم الإسلام وعظمت منهم الجريمة فجاء ذكرهم: فقد جاء معه بيان الذنب وتأكيده ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ وزيادته في مخالفة الأعمال ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ والإصرار عليه بالمعاندة والانحراف ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ وتلا ذلك ذكرهم ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ لتتأكد الحجة لأنه مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، وأنهى ذلك ببيان العقوبة ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾ التي عينت البدل الذي ترتفع به فتقبل الجزية من أهل الكتاب بشكل خاص لهذه الاعتبارات، ومن جميع المشركين، مهما كان معتقدهم، باستثناء عبدة الأوثان من العرب بحيث لا يبقى منهم على الأرض أحد ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾. كما تؤخذ من المجوس بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام «سنوا بهم سنة أهل الكتاب».

وأما مقدارها فهو على ما يراه الإمام من دينار وأكثر على الواحد من المقاتلين، وأما أهل الصلح فعلى ما صولحوا عليه، ولا يؤخذ من ثمارهم شيئاً كالزكاة من المسلمين ولا من تجارتهم إلا إذا كانت خارجية فيؤخذ منها العشر كالمسلمين، ولا حظ لهم في الفيء، ولا يزيدون من الكنائس ودور العبادة على ما صولحوا عليه.

والجزية بدلاً عن القتل بسبب الكفر وهي تسقط بالإسلام بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام «ليس على مسلم جزية»، ولو نقضوا عهد الذمة ورفضوا دفع الجزية وحكم الإسلام دون ظلم فإنهم يقاتلون وينفذ فيهم حكم دار الحرب، ولو كان نقضهم بقطع الطريق كانوا كالمحاربين المسلمين إذا لم يمنعوا الجزية، ولو خرجوا متظلمين أنصفوا من ظالمهم وردوا إلى الذمة، وإن نقض بعضهم دون بعض يحاسب الناقضون عند إنكار الآخرين عليهم وإلا كانوا كلهم سواء فالجزية توفر لأهل الذمة الأمن، ولا أمن عند منعها إلا إذا تأكد عجز الواحد منهم أو جماعة منهم عنها بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام «من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ شيئاً منه بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة». ويشترط دفعها من الشخص بنفسه لا بالنيابة.

وتتحدث السورة بعدها عن شرك أهل الكتاب بقول اليهود بأن العزير ابن الله، وما كان إلا أحد أنبيائهم بعد أن قتلوا بعد موسى العديد من أنبيائهم فأوحى الله إليه بالتوراة فقالوا عنه تلك المقولة الشنعاء من الشرك بالله، وكذلك زعم النصارى عندما قالوا بأن المسيح ابن الله، وما قول الطرفين إلا كذب وافتراء على الله يشابهون به الكفرة

القائلين بأن الملائكة بنات الله كما ينسجون فيه على آثار آبائهم في ذلك. وفي هذا النص دليل على جواز ذكر كفر الكافر نقلاً لا ابتداء.

ثم تبين السورة نمطاً آخر من كفرهم عندما ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فأحلوا لهم الحرام فتبعوهم وحرموا لهم الحلال فتبعوهم، وأنهم بذلك وبزعمهم أن المسيح ابن مريم هو ابن الله يقصدون أن يبطلوا دلالته تعالى وحججه على توحيده وبالتالي يخمدوا دين الإسلام وأنّى لهم ذلك والله غالب على أمره إذ أنه سبحانه أرسل رسوله محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بالفرقان مدعوماً بالحجج والبراهين ليظهر دين الإسلام على كل دين.

ولم يكتف أولئك الأحبار من علماء اليهود والرهبان من علماء النصارى بذلك الشرك والصد حتى استحل أكثرهم أموال الآخرين وبالذات المسلمين، دون حق، وواصلوا تنفير الناس من الإسلام والدخول في حظيرته، فعليهم وعلى الناس كافة معهم أن يعلموا أن من يكنز ما لديه من الذهب والفضة ولا ينفق في سبيل الله بالتعامل بها وبالذات على الجهاد بالنسبة للمسلمين فإنه يعذب بذلك أليم العذاب.

وبالمناسبة فإن هذه الآية هي سبب الخلاف بين معاوية وأبي ذر عندما قال معاوية بأنها نزلت في أهل الكتاب فقط فرد عليه أبو ذر بأنها نزلت فيهم وفي المسلمين معاً، فشكاه إلى عثمان فقدم أبو ذر المدينة، فاجتمع عليه الناس بشكل ملفت للنظر، فنقل ذلك إلى عثمان الذي قال له على رواية: إن شئت تنحيت فكنت قريباً، فذهب إلى الربذة وأقام فيها حتى وفاته.

ونعود إلى الآية فنجدها لا تذكر الزكاة بصراحة وإن فهم بعض المفسرين والفقهاء من ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بأنها تتضمن ذلك، ولكنهم اختلفوا في المال الذي تؤدى زكاته فيما إذا كان كنزاً أم لا، فقال بعضهم لا يعتبر كنزاً وقال آخرون يعتبر كذلك، وقد رأى القرطبي الرأي الأول، وإن كان رأي أبي ذر وغيره هو الأقوى لأن الآية نزلت في وقت شدة الحاجة وضعف المهاجرين وقصر يد الرسول عليه وآله وصحبه السلام عن كفايتهم، ولم يكن في بيت المال مايسعهم، وكانت الجوائح شديدة عليهم، فنهوا عن إمساك شيء من المال إلا على قدر الحاجة، مما يؤكد أن الواجب التعامل بالمال لا ادخاره لأن في ذلك تعطيل عن أس حركة الحياة، والزكاة لا تحرك إلا جانباً ضئيلاً من ذلك وهم المحتاجون وبقدر محدود ولكن تشغيل المال هو الذي يحرك جميع الجوانب، ولذلك لوحظ أن الرسول عليه وآله وصحبه السلام قد أوجب الزكاة في الذهب والفضة بعد أن فتح الله على المسلمين ووسع عليهم.

ثم إن ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تتركز في الجهاد حيثما وردت مما يقوي ويرجح هذا الرأي، ثم إن القول بـ ﴿يُنفِقُونَهَا﴾ ينصب على الأموال المكنوزة أكثر من أي معنى آخر مما يدعم هذا الرأي أكثر فأكثر، ثم أن ﴿يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ يؤكد ذلك، وأما لماذا تكوى هذه الأعضاء بالذات فلأنها أشد إهانة وألماً فيخجل المشوه في وجهه من الناس، ولا يرتاح المكوي في جنبه وظهره كيفما اضطجع. وانظر إليه عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام وهو يقول بعد أن مات رجل من أهل الصفة فوجد في بردته دينار (كيّه) وفي برد آخر ديناران (كيتان) وهو يقول «من جمع ديناراً أو درهما أو تبراً أو فضة ولا يعده لغريم ولا ينفقه في سبيل الله فهو كنز يكوى به يوم القيامة» مما يؤكد معنى الكنز في المال المدخر مهما كان قليلاً وليس حتى يبلغ النصاب ليخرج عنه الزكاة.

وتتحدث بعدها السورة عن قضاء الله وقدره في شهور السنة بأن جعلها بعدد محدود، ووصف بعضها بوصف معين حرم العبث فيها بالتغيير عند القتال والجهاد في سبيل الله الذي شدد على الأمر فيه فقال:

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً
كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ ۖ
يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ
ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا
لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ
ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا
أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا
تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ
يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ
تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ
وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ

عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ
يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا
يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾
۞وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ
مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ
وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ
حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ
أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ
وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن
يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلۡ هَلۡ
تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ
أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ
كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ
وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعۡجِبۡكَ
أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ
﴿٥٥﴾ وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوۡ يَجِدُونَ
مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ﴿٥٧﴾

مؤكداً سبحانه أنه تعالى قضى وقدر عدد الشهور باثني عشر شهراً في السنة عندما خلق السموات والأرض، وأنها لا مجال فيها للزيادة والنقصان، وأنه تعالى قد جعل منها الحرم وحكم بتحريم القتال في تلك الحرم الأربعة وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، وأن ذلك هو الحساب الصحيح والعدد الوافي الذي تجري فيه العبادات والطاعات، وبقدر ما يجوز وما لا يجوز، فكان القتال جائزاً فقط في غير تلك الأشهر الأربعة ثم أبيح في جميع الشهور، ثم شدد على تجنب ارتكاب الذنوب في الأشهر الحرم أكثر من غيرها لأن العقاب يتضاعف بالعمل السيئ فيها كما يتضاعف عند الثواب في العمل الصالح، وإن كانت الديات لا تتضاعف لمن قتل فيها خطأ. وأما قتال

المشركين فقد أمر به سبحانه بأن يشملهم جميعاً، كما أمر بالحض على قتالهم وجمع الكلمة في ذلك ما داموا هم ﴿يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ فيكون النفير العام ضدهم حيث وحين يلزم.

ثم نبه سبحانه إلى أن الزيادة في الأشهر الحرم بتأخير بعضها كما كانت تفعل العرب في الجاهلية إلى وقت تال، بأن ذلك من الكفر، فلا يجوز التغيير والتبديل في الشهور لأن الطاعات والعبادات مرتبطة بها،ولأن الخمسة عشر يوماً التي كانوا يزيدونها على شهور السنة باطلة وهي زيادة في كفرهم إذ أنكروا وجود الخالق سبحانه وعبثوا في الشهور التي قضاها وقدرها يوم خلق السموات والأرض، كما أنكروا البعث وغير ذلك من أوجه كفرهم في الجاهلية، وهم بذلك يضلون من يقبل منهم.

ثم تخاطب السورة المؤمنين مقررة تثاقلهم عندما يدعون للنفير وموبخة لهم على ذلك بعد أن تخلف منهم من تخلف عن الرسول عليه وآله وصحبه السلام في غزوة تبوك سنة تسع من الهجرة بسبب ما كان من شدة الحر وطيب الثمار وبرد الظلال، ومتسائلة باستنكار بشأن رضاهم بالدنيا ومتاعها بدلاً من الآخرة ونعيمها وهم يعلمون حق العلم أنه لا مجال للمقارنة بينهما. ثم يتهددهم المولى سبحانه إذا قعدوا عن دعوة النفير بالعذاب الأليم من حبس الأمطار عنهم وهزيمتهم أمام الأعداء ومن عذاب النار في الآخرة، هذا بالإضافة إلى التوعد بأن يبدل لرسوله قوماً لا يقعدون عند الاستنفار، مما يدل على أن الإمام إذا استدعى للجندية أي فئة من الأمة أو استنفر أي فرقة من الجيش فيجب عليهم عدم التثاقل وقد عينوا لذلك.

ثم يوضح لهم المولى سبحانه بأنهم إن لم يهبوا لنصرة الرسول عليه وآله وصحبه السلام، ونصرة أي خليفة من خلفائه في دولة الخلافة، فإن الله تعالى الذي نصره عند خروجه من مكة مهاجراً إلى يثرب وأوصله بالسلامة مع صاحبه أبي بكر رضي الله عنه، بالرغم مما أحاط بهما من الشدة، وما لحق بصاحبه من الحزن والخوف عليه من المشركين، ولكنه عليه وآله وصحبه السلام طمأن صاحبه برعاية الله لهما فأنزل الله الطمأنينة عليه وأيده في أول معركة هي بدر خاضها ضد مشركي مكة بعدد من الملائكة، مما نصر كلمة الإسلام وأعلاها على كلمة الكفر، فإن الله تعالى الذي نصره في ذلك ينصره دائماً إذا لم تهبوا لنصرته في هذه الموقعة، موقعة تبوك، فاحذروا من عدم النفير مهما خفت أو ثقلت حركة الواحد منكم، وإن رخص للضعفاء والمرضى وأصحاب الأعذار عن الخروج.

كما أمروا ببقاء فئة منهم تتفقه على يد الرسول عليه وآله وصحبه السلام لتعلّم

المجاهدين متى عادوا إليهم، ولكن لابد من نفرة أهل كل قطر يتعرض لغلبة العدو ليتخلصوا من ذلك، وإن عجزوا وجب على جوارهم أن يهبوا لنصرتهم، وهكذا حتى يتحقق النفير العام لجميع الأقطار في الديار الإسلامية إذا كان لابد من ذلك، إذ لا بد من الجهاد بالأموال والأنفس ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ مما يشمل كل مسلم قادر بماله ونفسه وإلا فبأحدهما بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»، وما أروع هذه «وألسنتكم» مع هذا التقدم الإعلامي الرهيب! ثم تواصل السورة توبيخ المتخلفين بالإشارة إلى أنهم وقعوا في النفاق عندما استبعدوا المكان واستثقلوا الجهد بينما لو كانت هناك غنيمة قريبة لساروا ولما تخلفوا.

ثم تخبر الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأنهم سيلجأون إلى الحلف بالله بأنهم عجزوا عن الخروج معه بحجة النقص في الظهر والمال وهم في الحقيقة كاذبون ومهلكون لأنفسهم بالنفاق، ثم تخبره عليه وآله وصحبه السلام بأن الله تعالى قد عفا عنه في إذنه لهم وكان عليه أن ينتظر الوحي قبل الإذن فعمل بأن ترك الأولى فعفى عنه ذلك لأن في عدم الإذن لهم بالتخلف ما يبين له من يصدق ممن ينافق لأنه عليه وآله وصحبه السلام لم يكن يعرف يومئذ المنافقين وإنما عرفهم بعد سورة التوبة.

وتأتي السورة بعدها للحديث عن الاستئذان أثناء الجهاد في سبيل الله فتقول بأن المؤمنين لا يقدمون على مثل ذلك لأنهم وقفوا أنفسهم على طاعة الله، ولكن الكفار والمنافقين هم الذين يستأذنون ليتهربوا من إنفاق المال ويزعموا تعرض الجسم للهلاك وهم طلاب حياة لا طلاب استشهاد وشهادة.

وتذكّر بعدها الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن من يريد الخروج معه يستعد لذلك سلفاً ولكنهم لم يفعلوا ذلك فدللوا على أنفسهم بما يبيتون من القعود والتخلف وكان للمؤمنين في ذلك الخير إذ لو خرجوا لأفسدوا بما يشيعونه من تثبيط العزائم وإشاعة البلبلة والنميمة وإفساد ذات البين ولا سيما أن في المسلمين من يظن بهم خيراً فيسمع منهم ويستجيب لأكاذيبهم، ولم يكن ذلك جديداً عليهم إذ سبق أن حاولوا مثل هذا الفساد قبل أن ينزل الوحي بهم وينكشف أمرهم، وذلك عندما كانوا اثني عشر رجلاً ممن نافقوا ووقفوا عند ثنية الوداع بتاريخ ليلة العقبة ليفتكوا بالنبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، ولكنهم فشلوا وانكشف أمرهم وانتصر دين الله عليهم.

ثم تكشف السورة أساليبهم في الاستئذان، فمنهم وهو جد بن قيس الذي زعم أنه لا يقدر على رؤية جمال بنات بني الأصفر من الروم حتى يفتن بهن، وهو كاذب بقوله، وانظروا إليه وإلى أمثاله وهم يعبرون عن سرورهم لأي مصيبة تحل بالمسلمين وعن

حزنهم لأي خير يصيبهم، ويقولون بأنهم قد احتاطوا ضد المصيبة فنجوا منها، فقل لهم يا محمد إعلموا بأن قضاء الله وقدره لن يهرب منه أحد، وأنه سيصيبنا ما قضاه المولى علينا، وإننا معتمدون عليه سبحانه راضون بقضائه.

وقل لهم يا محمد بأنهم لن يتوقعوا أن يحل بالمسلمين من المصائب غير الحسنيين وهما الغنيمة أو الشهادة، وأما بحقهم فليخسأوا في توقعهم وليعلموا أن ما يتوقع لهم هو عذاب من الله يحل بهم كما حل بالأمم السابقة أو الهزيمة التي يوقعها المسلمون بهم.

وقل لهم بأن ينفقوا ما يشاءون فلن تقبل منهم نفقاتهم عند الله سواء كانوا قد أنفقوا طائعين أو مكرهين وذلك بسبب كفرهم ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾، وفي هذا دليل على أن الإيمان أساس قبول الأعمال مهما كانت حسنة حتى قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بحق عمه أبي طالب الذي مات على الشرك «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه». ثم تؤكد السورة هذا المعنى وأن سبب عدم قبول نفقاتهم هو كفرهم وتهربهم من الصلاة عندما يكونون في انفراد ودون رجاء ثواب ولا خوف عقاب بتركها، وإن كان نفاقهم كله لا يعدونه مغرماً والامتناع منه مغنماً.

ولذلك تواصل السورة التذكير للرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن أموال وأولاد مثل هؤلاء المنافقين مهما كثرت وقويت لا تستحق أن تكون موضع إعجاب لأنها مجرد استدراج لهم في الدنيا، وتعذيب بكره الإنفاق منها، وتنتهي بهم الحياة إلى الموت كافرين والعياذ بالله بالرغم من أنهم يحاولون أن يدللوا على إيمانهم بالحلف الكاذب بالله بأنهم مؤمنون مثل غيرهم من المؤمنين وما هم في الحقيقة إلا كاذبون ويكاد الخوف أن يقتلهم من شدة ما يشعرون به عندما ينكشف أمرهم فيعرضون لعقوبة القتل.. وانظر إليهم وهم لا يفتأون يبحثون عن أي ملجأ أو مغارة أو مدخل يختفون فيه بأمل أن يتجنبوا الانكشاف والقتل.

وتأتي السورة بعدها للإشارة إلى ما يرتكبونه من غمز ولمز بالرسول عليه وآله وصحبه السلام بالصدقات أو بغيرها مستخدمين الحلف الكاذب بالله تعالى فتقول:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾
وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ
إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ

وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ
﴿٦٠﴾ وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ
لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦١﴾ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ
لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن
يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحۡذَرُ
ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ
﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ
تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ
بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٦٦﴾

مبينة أن من المنافقين من كان يطعن على الرسول عليه وآله وصحبه السلام ويعيبه في توزيع الصدقات، مثل ذو الخويصرة التميمي الذي قال: إعدل يا رسول الله، فرد عليه «ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل» فنزلت الآية، وهمّ عمر بقتله فقال عليه وآله وصحبه السلام «معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي، إن هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية» فكان هذا ذو الخويصرة أصل الخوارج.

ثم تنبه السورة إلى ما كان يجب أن يكونوا عليه لو صدقوا في إيمانهم بأن يرضوا بقسمة الرسول عليه وآله وصحبه السلام كما أمره ربه، ويعتمدوا على رزقه وفضله، ويرغبوا إلى ذلك، بدلاً من سوء قولهم وفعلهم.

ثم تأتي السورة على ذكر مصارف الزكاة المفروضة الثمانية: الفقراء، والمساكين، والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم، وفك الرقاب، والغارمين، وفي سبيل الله، وابن السبيل، فتخص هذه الأبواب دون غيرها لأهمية كل منها في موقعها: فالفقراء والمساكين بإعطائهم رفع مستوى هذه الفئة المعوزة من المجتمع لتقترب من غيرها، والعاملين عليها يأخذون أجورهم، والمؤلفة قلوبهم متى وجدوا وكان للإسلام حاجة لهم لنصرته، وفي الرقاب بفك العبيد وتحريرهم من الرق، والغارمين بدفع ديونهم وفتح مجال الحياة أمامهم دون همّ في الليل ولا ذل في النهار، وفي سبيل الله بتجديد الإنفاق بالقدر اللازم على الجهاد، وابن السبيل المنقطع عن بلده وأهله فيعطى ليصل موطنه.

والمهم أن الصدقة تؤخذ من مصادرها المحددة شرعاً بأنواعها ونصابها وتصرف

في مصارفها الثمانية هذه كلها أو بعضها بحسب ما يراه الإمام مراعياً ما بين يديه من أحكام ألزم نفسه العمل بها وتبناها في دستور وقوانين دولة الخلافة التي يرأسها وفي رأسها قوله عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام «أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها في فقرائكم» وقوله «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي» مما يقتضي التحقق من الفقر والغنى ليضع الحاكم أمر الله ورسوله في موضعه ولا يترك ذلك لذمم العباد، وإن كان مثل هذه النصوص تشحذ من تقوى المؤمن لأداء الطاعات والحرص على المندوبات قبل المفروضات.

وأما موضوع إخراج الزكاة ونقلها إلى قطر آخر أو بلد آخر، وغير ذلك مما يتعلق بتحقيق المناط في تنفيذ الحكم الشرعي فكل ذلك منوط بالحاكم وما يتبناه من أحكام، وأما المؤلفة قلوبهم فيكفي أن يتذكر الحاكم قوله عليه وآله وصحبه السلام بهذا الشأن «فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم» وبالتالي يكسب قومهم للإسلام ونصرته وللمسلمين ودعمهم، وهذا مما لا يخلو منه عهد من العهود ولا زمن من الأزمان، وأما فك الرقاب فللإمام حسب ما يتبناه أن يشتري رقاباً من مال الصدقة يعتقها عن المسلمين ليكون ولاؤهم لجماعة المسلمين بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام «الولاء لمن أعتق»، ولا يدخل في ذلك الأسارى في الحرب إلا إذا استرقهم العدو، وأما الغارمون فهم من ركبهم الدين ولا يجدون عندهم الوفاء به سواء كان من حمالة في إصلاح وبر أو من إنفاقه في رعايته لأسرته أو غير ذلك، وأما في سبيل الله ففي الإنفاق على المجاهدين والمرابطين وذلك كله منوط بالخليفة بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام «لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة: لغازٍ في سبيل الله، أو لعامل عليها، أو لغارم، أو لرجل اشتراها بماله، أو لرجل له جار مسكين فتصدق على المسكين فأهدى المسكين للغني»، وأما ابن السبيل فهو المسافر الذي انقطعت به الأسباب في سفره ومستقره وماله ولو كان غنياً في بلده. ومن جهة أخرى لايعطى من الزكاة من تلزمه نفقته وهم الوالدان والأولاد والزوجة، وأما إعطاؤها لمن لا تلزمه نفقتهم من أقاربهم فهو الأولى لقوله عليه وآله وصحبه السلام لزوجة عبد الله بن مسعود «لك أجران: أجر القرابة وأجر الصدقة»، وأما مقدار المعطى فيعطى الغارم قدر دينه، ويعطى الفقير والمسكين كفايتهما وعيالهما، ويعطى العامل عليها قدر أجرته.

وتأتي السورة بعدها لبيان من كان يطعن من المنافقين في رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بكونه أذن سامعة أو أنه مستمع وقابل، فبينت السورة أنه عليه وآله وصحبه السلام ﴿أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ﴾، فيسمع الخير ولا يسمع الشر وهو رحمة لهم

ويصدق المؤمنين لا الكافرين. وتؤكد هذا المعنى لبيان كذبهم في الحلف بالله عندما اجتمع منهم نفر وقالوا: إن كان ما يقوله محمد حقاً لنحن شر من الحمير. فنقل خبرهم ممن سمعهم للنبي عليه وآله وصحبه السلام فحلفوا تكذيباً فكشفتهم السورة ودعتهم للحرص على إرضاء الله ورسوله بدلاً من استرضاء الآخرين. وفي الآية دليل على قبول يمين الحالف ولو لم يرض المحلوف له.

ثم تحذرهم السورة من المشاقة لله ورسوله بمثل هذه الأعمال لأن من يفعل ذلك يخلد في جهنم، وأن عليهم بدلاً من الخوف من نزول الوحي بكشف سرهم وسوء طويتهم أن يكفوا عن ذلك لأن الله تعالى سيفضح كل ذلك منهم، وأن عليهم أن ينتهوا عن القول بعدم جدية ما يقولونه، وزعمهم بأن ذلك كان منهم مجرد لعب ولهو، لأنهم يقعون بذلك في السخرية والهزء بآيات الله وبرسوله، وذلك كله كفر في كفر لأنه لا هزل بالكفر، وأن عليهم أن يعلموا أن اعتذارهم عن ذلك مردود عليهم وغير مقبول منهم لأنهم قد كفروا بذلك، ولا يعفى إلا عن الذي لم يشاركهم مجلسهم بالضحك والسخرية.

وتنقلنا السورة للحديث عن جوانب أخرى من صفات المنافقين ومقارنتهم بالمؤمنين فتقول:

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ
أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ
وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ
كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ
وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ
ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ
بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

مبينة أن المنافقين والمنافقات هم كالشخص الواحد في الخروج من الدين، وأنهم متشابهون في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، وترك الجهاد، وما يجب عليهم من حقوق، وأن ذلك قد أورثهم الشك والريبة في قلوبهم والخروج عن الطاعة والدين، وأنهم لذلك قد توعدهم المولى سبحانه هم والكفار جميعاً بالخلود في نار جهنم، إذ هي كفاية ووفاء لجزاء أعمالهم مع طردهم من رحمة الله ودوام العذاب، وهم في ذلك كمن سبقوهم ممن فعلوا أفعالهم المنكرة والكافرة مع أنهم كانوا أقوى منهم أجساماً وأكثر أولاداً وأموالاً، وأن اليهود والنصارى منهم قد انتفعوا بنصيبهم من الدين كسابقيهم وسرتم أنتم أيها المنافقون على نهجهم واستمتعتم بأسباب الدنيا وخضتم في الكذب والنميمة وغيرهما من الأخلاق والأفعال الذميمة كما فعلوا فانتهيتم لما انتهوا إليه من خسران الأعمال في الدنيا والآخرة.

ثم تستنكر السورة عليهم تجاهلهم لأخبار الأقوام السابقين من قوم نوح وعاد وثمود وإبراهيم ومدين والمؤتفكات قوم لوط، وما حل بكل منهم من العذاب بعد أن بلغتهم رسل الله الهدى والرشاد فأعرضوا فظلموا أنفسهم بما أصابهم جزاء أعمالهم.

ثم تبين بالمقارنة حال المؤمنين والمؤمنات، وكيف يناصرون بعضهم بعضاً، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فتجدهم كالشخص الواحد في توادهم وتعاطفهم وهم يعبدون الله تعالى ويأمرون بتوحيده ونبذ عبادة الأوثان، ويلتزمون إقامة الصلاة وأداء الزكاة المفروضة ويواظبون على طاعة الله في الفرائض، ورسوله في كل ما سنه لهم، الأمر الذي يجعلهم أهلاً لرحمة الله تعالى ووعده سبحانه لهم بالخلود في جنات عدن، ومنحهم الفوز العظيم بالحصول على رضوانه الأكبر.

وتطلب السورة بعدها من الرسول عليه وآله وصحبه السلام آمرة بما يجب في حق الكفار والمنافقين، وموضحة أكاذيبهم وطعنهم في المؤمنين المتصدقين، ومبينة جزاءهم فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا

أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ
لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ
وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا
كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ
﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ
فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ
سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ
﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا
جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

داعية النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أن يبادر للجهاد ضد أولئك الكفار والمنافقين ودون رأفة ولا رحمة بهم، ومبينة له عليه وآله وصحبه السلام بأنهم سيحلفون له مكذبين لما صدر عنهم من الطعن به، مما أوقعهم في الكفر، وأنهم قد فشلوا في تنفيذ مكيدتهم وذلك عندما حاولوا قتل الرسول عليه وآله وصحبه السلام في غزوة تبوك وذلك بتاريخ ليلة العقبة، وكانوا اثني عشر رجلاً، وأن نقمتهم لم تكن لها أي مبرر بعد أن استغنوا بالغنائم، وأن عليهم التوبة والاستغفار مما وقعوا فيه كما فعل الجلاس بن سويد بن الصامت الذي استغفر وتاب من النفاق، مما يدل على توبة الكافر المظهر للإيمان نفاقاً، أي الزنديق، وأنهم إن أعرضوا عن الإيمان والتوبة فسيحل بهم من العذاب في الدنيا بالقتل، وفي الآخرة بالنار ما يوافق أعمالهم.

ثم تخبر الرسول عليه وآله وصحبه السلام بكذبهم في عهودهم مع الله بأن يتصدقوا عندما يرزقهم المولى سبحانه الرزق الوفير ولكنهم لم يفعلوا ذلك مما يؤدي إلى الفجور، والعياذ بالله، فظهر عليهم النفاق بإخلاف العهد مع الله وكذبهم وبظنهم بأن الله تعالى لا يعلم كل ما يصدر عنهم في السر والعلن.

وينسب بعض الرواة أنها نزلت في ثعلبة بن حاطب الأنصاري، ولكن القرطبي ينفي ذلك عنه بحجة أنه بدري أنصاري وممن شهد الله له ورسوله بالإيمان كغيره من البدريين، وأن الآية نزلت بالمنافقين وليس ثعلبة منهم.

وفي الآية دليل على عدم إلزام أحد حكماً إلا بعد أن يلفظ به بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام «أن الله تجاوز عن أمتي عما حدثت بها أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به»، وقوله «لا نذر لابن آدم فيما لا يملك، ولا عتق له فيما لا يملك، ولا طلاق له فيما لا يملك»، كما تدل على أن النفاق في القلب كفر، وفي العمل معصية، ولذلك قال عليه وآله وصحبه السلام «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» وأن هذا يعني كما وضحه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بأن النفاق يقع عندما يحدث عازماً على الكذب، وعندما يعد عازماً على الإخلاف، وعندما يؤتمن عازماً على الخيانة.. وأن هذه الصفات هي صفات المنافقين بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام بصددها «ما لكم ولهن، إنما خصصت بهن المنافقين كما خصهم الله في كتابه..» الحديث.

والنفاق كما قال الحسن البصري نوعان: نفاق الكذب، الذي كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، ونفاق العمل الذي لا ينقطع إلى يوم القيامة.

ثم تبين السورة صفة أخرى من صفات المنافقين بأنهم يعيبون على المتصدقين الأغنياء من المؤمنين من أمثال عبد الرحمن بن عوف الذي تصدق بنصف ماله، وعلى المتصدقين الفقراء منهم من مثل أبي عقيل الذي تصدق بنصف صاع.. وأن سخريتهم بالمؤمنين ترتد عليهم بأليم العذاب حتى أنهم لو استغفر الرسول عليه وآله وصحبه السلام للواحد منهم سبعين مرة أي استغفاراً كثيراً فلن ينالوا مغفرة الله لذنوبهم بسبب كفرهم وفسقهم.

وانظروا إليهم وهم يظهرون فرحهم وسرورهم بقعودهم عن الخروج للجهاد في غزوة تبوك مع رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وعن الجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله بزعمهم أنهم مقلّون، وتثبيطهم لبعضهم البعض عن الخروج بحجة شدة الحر، وليعلموا أن ما ينتظرهم من جهنم أشد إيلاماً، وإذا كان لهم أن يسروا ويضحكوا لذلك فليعلموا أنه سيكون قليلاً وأن ما ينتظرهم من بكاء وحزن سيكون كثيراً بسبب كفرهم وسوء أعمالهم.

وتنقلنا السورة بعدها إلى تهرب المنافقين بالاستئذان من النفير للجهاد، وبيان من يجوز أو لا يجوز له الاستئذان من ذلك، وتقارن بين الفريقين، فتقول:

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ
عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا
وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ
إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ
ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾
رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ
ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ
ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾
لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ
وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ
لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟
مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ
ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا
تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ
عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ
إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ
﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾

مبينة للرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام كحاكم وقائد للمسلمين بأن يرفض خروج المنافقين معه في النفير للجهاد عندما يطلبون منه ذلك، ويكون ذلك عقاباً لهم لأنهم ارتضوا أن يكونوا مع النساء والضعفاء من الرجال، وأن لا يصلي على أي منهم كعبد الله بن أبي بن سلول الذي عامله الرسول عليه وآله وصحبه السلام بالظاهر من إسلامه بغاية تطييب قلوب بعض الأحياء من قرابات المستغفر لهم إذ طلب ابنه عبد الله من الرسول عليه وآله وصحبه السلام أن يعطيه قميصه يكفّن فيه أباه فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه فصلى عليه ثم نهي عند ذلك. وأما النهي السابق عن الاستغفار للمشركين

فكان بشأن عمه عليه وآله وصحبه السلام عندما مات مشركاً. ولذلك يروى بشأن قميصه عليه وآله وصحبه السلام أنه قال: «إن قميصي لا يغني عنه من الله شيئاً، وإني لأرجو أن يسلم بفعلي هذا ألف رجل من قومه» ويذكر أنه بالفعل أسلم ألف رجل من الخزرج بسبب ذلك.

وأما الصلاة على الميت فهي أربع تكبيرات على الراجح يقرأ بالفاتحة بعد الأولى ويصلى على النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بعد الثانية ويخلص الدعاء للميت بعد الثالثة ويسلم بعد الرابعة ويقف الإمام عند رأس الرجل الميت وعجيزة المرأة الميتة.

وأمرت السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن لا يعجب بأموالهم وأولادهم مهما كان بحاجة لها في الجهاد وللمسلمين لأنها سبب لتعذيبهم في الدنيا قبل الآخرة.

ثم تنبهه عليه وآله وصحبه السلام إلى ما يفعله الأغنياء منهم عندما يهبون للاستئذان للقعود عن النفير للجهاد وبمجرد نزول وحي للأمر بالجهاد، مرتضين لأنفسهم أن يكونوا مع النساء والصبيان والمعذورين من الرجال بينما لن يرضى بذلك الرسول والمؤمنون معه الذين يبادرون للجهاد بأموالهم وأنفسهم بمجرد نزول مثل هذا الأمر من الوحي، مما يكرمهم الله عليه في الجنة بالغيد الحسان.

ثم تخبره عليه وآله وصحبه السلام بتلك الجماعة من الأعراب الذين يعتذرون له كأعراب طيء خوفاً على مواشيهم وأولادهم ونسائهم، والذين عذرهم النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، أو من غفار الذين لم يعذرهم الرسول عليه وآله وصحبه السلام لعلمه أنهم غير محقين، أو ممن قعدوا بغير عذر جرأة على الرسول عليه وآله وصحبه السلام فأخبره الله تعالى عنهم فقال: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾.

ثم تبين له عليه وآله وصحبه السلام ولكل إمام من بعده على المسلمين من يجوز له التخلف عن النفير، وأنهم من يسقط عنهم التكليف بعجزهم سواء من جهة القوة، كالصبيان والنساء والمرضى، أو من جهة المال كالفقراء، فهؤلاء هم أصحاب الأعذار لهم أن يتخلفوا عن الجهاد إذا صدقوا النصح لله ورسوله بالتزام الحق ومحبة أوليائه وبغض أعدائه فكانوا صادقين في اعتذارهم، وكانوا من المحسنين في أعمالهم وأقوالهم، أو كانوا ممن عجزت قدرتهم المالية عن ذلك أو عجز الحاكم عن توفير العدة لهم وظهر عليهم التأثر الشديد بسبب ذلك حتى طفحت عيونهم بالدموع حزناً لذلك، فأمثال هؤلاء معذورون عند الله عن الجهاد، وأما الأغنياء فغير معذورين لا هم ولا القادرين بدنياً إذا توفرت العدة القتالية لهم.

وزعْم أولئك المنافقين الذين يسارعون بالاعتذار إليكم عندما تعودون من المعارك

غير مقبول، وعليكم أن تخبروهم بذلك وتقولوا لهم بأن الله تعالى قد كشف أخبارهم إليكم فلا مجال لقبول أعمالهم لا في الدنيا ولا في الآخرة ما داموا على هذا السبيل، وليكفوا عن الحلف بالله كوسيلة للإقناع بصحة زعمهم بقصد أن تصفحوا عنهم، ولا تلوموهم ولا تخاطبوهم، فارفضوا ذلك منهم، ولا تجالسوهم ولا تكلموهم لأنهم أقدموا على رجس الأعمال وقبيحها ومكانتهم جهنم جزاء ذلك، واحذروا أن ترضوا عنهم مهما حلفوا لكم. .

وبعد بيان أحوال المنافقين بالمدينة تأتي السورة لبيان أحوالهم خارجها فتقول:

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

مبينة أن كفر الأعراب خارج المدينة وبعيداً عنها أشد ممن هم في داخلها لأنهم أبعد عن معرفة الأحكام، ولأنهم أغلظ طبعاً وأقل نظراً في حجج الله في الربوبية وفي بعثة الرسل، ولذلك كانوا أقل مرتبة عمن سواهم مما لم يعطهم حقاً في الفيء والغنيمة لمن أسلم منهم حتى يتحولوا إلى دار المهاجرين، دار الإسلام، ويجاهدوا مع المسلمين، كما أسقطت شهادة الواحد منهم من أهل البادية عن الحاضرة إلا بقيود العدالة، ثم لأن الآية وصفتهم بثلاثة أوصاف: الكفر والنفاق، واعتبار الإنفاق مغرماً مع التربص بالمسلمين الدوائر والأذى، هذا بحق الكافرين والمنافقين منهم، والوصف الثالث بحق المؤمنين بأنهم يؤمنون بالله وباليوم الآخر وأنهم يعتبرون الإنفاق في سبيل الله تقرباً وطلباً لدعاء الرسول عليه وآله وصحبه السلام. وأما إمامتهم بأهل الحاضرة فكانت ممنوعة بسبب جهلهم بالسنة وتركهم الجمعة.

وتبعاً للحديث عن أصناف الأعراب تأتي السورة لذكر المهاجرين والأنصار والتابعين لهم فتقول:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

مثنية عليهم بهذه التسمية (الأنصار) وتفضيلهم هم والمهاجرون وقد صلوا إلى

القبلتين وشهدوا بيعة الرضوان وكانوا أهل بدر وكان الخلفاء الأربعة في أوائلهم ثم الستة الباقون من العشرة المبشرين بالجنة، وفي مطلعهم إسلاماً من الرجال أبو بكر رضي الله عنه ومن النساء خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها وعلي رضي الله عنه من الصبيان، وزيد بن حارثة رضي الله عنه من الموالي، وبلال رضي الله عنه من العبيد. وتبقى الصحبة صفة لكل من صحب الرسول عليه وآله وصحبه السلام سنة أو سنتين، وغزا غزوة أو غزوتين، وهذا هو الراجح، وليس مجرد من رآه. وقد فضل عمر رضي الله عنه في خلافته بينهم وبين من تبعهم في العطاء بينما كان أبو بكر رضي الله عنه يسوي بين الجميع.

ثم تذكر الآية أولئك التابعين للمهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان في الأفعال والأقوال، فكان كل من صحب الصحابة تابعياً، وكل من تبع وصحب التابعي تابع تابعي. وأشهر التابعين الفقهاء السبعة من أهل المدينة: سعيد بن المسيب، والقاسم بن محمد، وعروة بن الزبير، وخارجة بن زيد، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وعبد الله بن عتبة بن مسعود، وسليمان بن يسار. وكان عطاء بن رباح، مفتي مكة، والحسن البصري، مفتي البصرة، وحفصة بنت سيرين، وعمرة بنت عبد الرحمن، وأم الدرداء من أكابر التابعين.

ولكنها تعود وتكمل ذكر الأعراب خارج المدينة وداخلها، وما فيهم من المنافقين على أوصافهم، وما تأمر الرسول عليه وآله وصحبه السلام بحقهم، وما تدعوهم إليه من أعمال ليقدموا عليها او ليتجنبوها فتقول:

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ
نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا
صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ
وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ
ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ
وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ
مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا
وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا
ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ

أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ
بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ
فِى نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ
أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

مبينة أن هناك قوماً منافقين خارج المدينة وهم مزينة وجهينة وأسلم وغفار وأشجع، وأنهم أغرقوا في النفاق مثل من هم على شاكلتهم داخل المدينة، وأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام وصحبه لم يكونوا يعرفونهم، ولا يعرفون ما ينتظرهم من سوء العاقبة، وأنهم سيعذبون مرتين أولهما بفضيحة اطلاع النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم والثاني عذاب الآخرة وإن قيل عذاب القبر.

وتذكر السورة أن هناك صنفاً آخر من خارج وداخل المدينة قد أخر الحكم فيهم إلى الوحي، وذكر ابن عباس أنهم عشرة تخلفوا عن غزوة تبوك وأوثق سبعة منهم أنفسهم في سواري المسجد، وهم أبو لبابة وأصحابه. وقد عاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى يكون الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم هو الذي يطلقهم ويرضى عنهم، فأطلقهم بالفعل عندما نزلت الآية وعذرهم، فعرضوا أموالهم التي كانت سبباً لتخلفهم للصدقة والتطهر والاستغفار فنزلت ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ فأخذ عليه وآله وصحبه السلام ثلث أموالهم كفارة لما أصابوه من الذنوب.

وهكذا كانت التوبة والندم والكفارة عملهم الصالح الذي اختلط مع طالح التخلف، وكان قبول توبتهم بتلك الكفارة، وكان دعاء الرسول عليه وآله وصحبه السلام لهم بعد أن طهروا أنفسهم وزكوها بتلك التوبة الصادقة التي ظهرت بعرضهم جميع أموالهم وإن لم يقبل منها إلا الثلث. ثم تنبه السورة أولئك المتخلفين الذين لم يتوبوا إلى أن الله تعالى يقبل التوبة ممن يتوب منهم فليعلموا ذلك وليبادروا إليها صادقين بتقديم الصدقات كفارة لذنب تخلفهم كما فعل من سبقوهم للتوبة.. ثم أمر المولى سبحانه رسوله المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أن يقول لهم ولكل الناس بأن يبادروا للأعمال الصالحة ليروا الله منهم الصدق والإخلاص كما يروا رسوله ذلك والمؤمنين، ولينتظروا عظيم الجزاء الطيب لهم من عالم الغيب والشهادة سبحانه يوم الدين.

ثم تشير السورة إلى الثلاثة: كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع الذين صدقوا الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأنه لم يكن أي عذر لتخلفهم عنه في غزوة تبوك ولكنهم لم يربطوا أنفسهم بسواري المسجد، فتركهم الرسول عليه وآله وصحبه

السلام لبيان الوحي فيهم إما بالعذاب وإما بالتوبة حتى تاب الله عليهم كما يرد فيما بعد.

ثم تذكر السورة منكر ما فعله أصحاب مسجد الضرار بنو غنم بن عوف عندما حسدوا إخوانهم بني عمرو بن عوف لبنائهم مسجد قباء الذي لبى الرسول عليه وآله وصحبه السلام طلبهم فأتاهم وصلى فيه، ولكن مسجد الضرار لم يكن كمسجد قباء إذ بني لإيقاع الضرر بالمسلمين وبدافع الكفر لا الإيمان، وبهدف تمزيق وحدة المسلمين، وبانتظار أن يأتيهم الروم بتحريض أبي عامر الراهب الحاقد على الرسول عليه وآله وصحبه السلام ودينه، ولذلك أخبر المولى سبحانه رسوله عليه وآله وصحبه السلام بأنهم كاذبون في حلفهم على حسن مقصدهم، مما جعله عليه وآله وصحبه السلام يأمر مجموعة من الصحابة «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه» وبالفعل نفذوا الأمر، وقال عليه وآله وصحبه السلام «لا ضرر ولا ضرار، من ضار الله به ومن شاق شاق الله عليه» مما يجعل كل مسجد يبنى على ضرار أو رياء وسمعة في حكم مسجد الضرار ولا تجوز الصلاة فيه، وأن الصلاة غير جائزة خلف إمام ظالم إلا أن يظهر عذره أو يتوب كما حصل مع مجمّع بن جارية إمام مسجد الضرار الذي تاب وعذره عمر رضي الله عنه وأمره بالإمامة في مسجد قباء. وأما كفر أصحاب مسجد الضرار فلاعتقادهم بأنه لا حرمة لمسجد قباء ولا لمسجد النبي عليه وآله وصحبه السلام، مما يطعن به عليه وآله وصحبه السلام.

ومن هنا جاء أمره تعالى لرسوله عليه وآله وصحبه السلام بأن لا يصلي في ذاك المسجد وأن يصلي في المسجد الذي أنشئ على طاعة الله من أول يوم، وكل المصلين فيه يبتغون الطاعة الصادقة لله تعالى، مما يفرض الحرص على مراعاة مثل هذا القصد عند تأسيس كل مسجد حتى لا يكون لجهنم وعذابها كل من قصد غير ذلك ناهيك عن الشك الذي يأكل قلوبهم طيلة حياتهم.

وتنقلنا السورة إلى ما عليه المؤمنون الصادقون من مواصفات التضحية في سبيل الله فتقول:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ

﴿ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾

مبينة الصفقة التي عقدها المؤمنون مع الله تعالى عندما باعوا له سبحانه وتعالى أنفسهم وأموالهم مقابل الجنة بأن يقاتلوا في سبيله تعالى ويقتلوا، وأن ذلك قد تعهدوا به لرسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في بيعة العقبة الكبرى عندما كانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين من الأنصار، وإن كانت الآية عامة في كل مجاهد إلى يوم القيامة، وأن نفاذ هذه الصفقة يتم مع كل مؤمن يافع مكلف، وأن وعده تعالى بتحقيق هذه الصفقة ليس بجديد إذ سبق أن ورد في التوراة والإنجيل كما يرد الآن في القرآن، وأن أحداً لن يكون قادراً على الوفاء بوعده كما هو سبحانه وتعالى القادر على كل شيء والذي لا يعجزه شيء، فما على المجاهدين إلا أن يطمئنوا ويسروا بهذه الصفقة الرابحة المربحة قطعاً، وينتظروا الفوز العظيم بالظفر بالجنة والخلود فيها نتيجة ذلك.

كيف لا وهم المتصفون بالمبادرة إلى التوبة من كل معصية، والعابدون المطيعون لله وحده، والحامدون الراضون بقضائه على كل حال، والسائحون الصائمون عن كل المعاصي والذنوب والمجاهدون في سبيل الله والمتفكرون في خلق السموات والأرض، والراكعون الساجدون في صلواتهم المفروضة والنافلة،والآمرون بكل عمل عرف من الشريعة، والناهون عن كل منكر بينته الشريعة، والحافظون لكل ما أمر الله به ونهى عنه.. هذه الأوصاف التي يتحقق بها الكمال الإيماني مما يستحث أهل الوحدانية على الحرص عليها.

وتأمر السورة بعدها النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم والمؤمنين معه ومن بعده بأوامر في حق الاستغفار للمشركين فتقول:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾

مبينة أنه لا يجوز لأحد سواء كان الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام أو

غيره من المؤمنين حتى قيام الساعة أن يطلب المغفرة لمشرك مهما كان قريباً له عزيزاً عليه بعد أن يتأكد أنه مات على الشرك بالله، وهذا ما حصل مع عمه عليه وآله وصحبه السلام أبي طالب عندما رفض القول بالشهادة عندما حضرته الوفاة بإلحاح الرسول عليه وآله وصحبه السلام، وبالرغم من ذلك وعده عليه وآله وصحبه السلام بالاستغفار له «أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فجاءه النهي عن ذلك بهذه الآية حتى تضمنت قطع موالاة الكفار حيّهم وميتهم،

وأما دعاء الرسول عليه وآله وصحبه السلام «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» عندما شجوا وجهه يوم أحد فإنه كان ليس ابتداء منه عليه وآله وصحبه السلام وإنما على سبيل الحكاية كما فعل نوح عليه السلام، ثم إن من الاستغفار المنهي عنه النبي عليه وآله وصحبه السلام هنا هو الصلاة على موتى المشركين، وأما الاستغفار للأحياء فجائز لأنه مرجو إيمانهم، ولذلك قال كثير من العلماء بأنه لا بأس أن يدعو الرجل لأبويه الكافرين ويستغفر لهما ما داما حيين لرجاء الإيمان وأما بعد الموت فلا لانقطاع الرجاء.

ثم ساقت السورة بيان حقيقة استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه لترتفع هذه الحجة، وأنه كان مجرد وعد وعده له أثناء حياته عندما تعهد له بالإيمان والتوحيد قبل أن يموت، ولكنه عندما مات على الكفر علم أنه عدو لله فترك الدعاء له مع أنه اشتهر بالتأوه في الدعاء إلى الله والخشوع الشديد مع الحلم والصبر على كل من يؤذيه حتى أنه لم يعاقب أحداً قط إلا في الله ولم ينتصر لأحد إلا لله.

ومع بيان حال استغفار إبراهيم لأبيه هذا أسقطت السورة الاحتجاج بذلك ونهت المؤمنين عن الاستغفار لآبائهم الذين ماتوا على الشرك، وأنه تعالى بهذا البيان قد أنقذ المؤمنين من الوقوع في الضلال والبعد عن الهدى حتى لا يتعرضوا للعقاب بجهلهم الأمر وظنهم بجوازه قياساً على ما علموه من ذاك الاستغفار من إبراهيم عليه السلام لأبيه.

وتعود السورة وتكمل الحديث عن التوبة على المتخلفين بخاصة وعلى النبي وصحبه بعامة ثم تأمر بعدم التخلف فتقول:

﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا

مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن
يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ
وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا
كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً
وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾
۞وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةًۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي
ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

مبينة أن الله تعالى قد تاب على النبي بسبب إذنه للمنافقين في القعود ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، وعلى المؤمنين لميل قلوب بعضهم إلى التخلف عنه، وكان منه عليه وآله وصحبه السلام عملاً بخلاف الأولى، ومنهم ميلاً قلبياً حوسب من عمل به ولم يحاسب عليه من لم يعمل به. وأما العسرة فقد كانت على أشدها في غزوة تبوك لقلة الظهر وقلة الزاد وقلة الماء حتى فكروا بنحر نواضحهم فأنقذتهم بركة الله تعالى بدعاء رسوله على ما لديهم من الزاد القليل فملأوا أوعيتهم بعد أن شبعوا واطمأنت قلوبهم لعون الله لهم ورجعوا إليه تعالى لا تؤثر عليهم أي ضائقة وهم يرون الرسول عليه وآله وصحبه السلام بعد أن أقام في تبوك شعبان وأياماً من رمضان قد بث سراياه وصالح أقواماً على الجزية.

هذا بشأن المؤمنين وقائدهم المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وأما بخصوص الثلاثة الذين خلفوا وصدقوا الرسول عليه وآله وصحبه السلام أمرهم، كما أشرنا سابقاً، فقد خصتهم السورة بالتوبة بذكرهم بالعدد، فوصفتهم بأنهم قد كادوا يختنقون من شدة الشعور بالضيق لمقاطعة المسلمين لهم، حتى منعت عنهم نساؤهم، وحتى ابتلي كعب بن مالك منهم بملك غسان التابع للروم يستدعيه ليحرضه على الرسول عليه وآله وصحبه السلام والمؤمنين، وحتى كملت خمسون ليلة من حين النهي عن الكلام معهم، وحتى تيقنوا أن لا ملجأ يلجأون إليه في الصفح عنهم وقبول التوبة منهم إلا إليه تعالى فجاءتهم منه سبحانه التوبة ليثبتوا على التوبة، وأعطاهم الفسحة ولم يعجل عقابهم كما فعل بغيرهم لصدقهم، ثم دعاهم سبحانه هم وكل المؤمنين أن يحرصوا

دائماً على تقوى الله ومخافته ويكونوا مع الصادقين في كل أقوالهم وأعمالهم لأن الصدق نجاة مهما طال الابتلاء.

وتعقب السورة على ذلك بتحذير أهل المدينة ومن بخارجها من المسلمين من التخلف عن تلبية دعوة الرسول عليه وآله وصحبه السلام للنفير، ولا يقعون في ما وقع به بعضهم ممن ارتضوا لأنفسهم الراحة والدعة والرسول عليه وآله وصحبه السلام في الضيق والمشقة، وكيف يرتضون لأنفسهم ذلك؟! وليذكروا أن أدنى عطش أو تعب أو جوع يصيب أحدهم في سبيل الله أو مسافة يقطعونها مما يغيظون به الكفار أو عمل يحقق لهم أدنى مكسب ضد العدو فإن لهم بذلك أجر المحسنين الصالحين، كما ليطمئنوا أن أي نفقة مهما قلت أو كبرت، وأي جهد مبذول في سبيل الله، سيجزيهم المولى سبحانه بأحسن من أعمالهم من الأجر والثواب. ثم طمأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام الجيش ممن معه «لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم من واد، إلا وهم معكم فيه» أي حبسهم العذر والمرض عن صحبتهم.

وتنهي السورة هذا التعقيب بأنه لا يجوز للمؤمنين أن ينفروا جميعهم للجهاد، بل لا بد أن يبقى من كل فرقة منهم طائفة بجانب الرسول عليه وآله وصحبه السلام كي يتلقوا عنه ما ينزل به الوحي ثم يعلّموا المجاهدين به متى رجعوا إليهم، وبذلك يتحقق تحركهم عن علم فلا يقعون في أي محظور، مما يدل على مكانة العلم والعلماء، حتى قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «من يرد الله به خيراً يفقه في الدين، ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة».

وأخيراً تصل بنا السورة إلى خاتمتها وهي تأمر بجهاد الكفار، وتفضح المنافقين، وتدعو للالتفاف حول الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ
مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ
رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ
مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ
هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدۡ
جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ

رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

عليكم أيها المؤمنون في كل زمان ومكان أن تقاتلوا من يلونكم ويجاورونكم من الكفار الذين يضعون في طريق دعوة الإسلام الحواجز المادية فيمنعونها من أن تصل إلى شعوبهم، وإياكم أن تجد الرأفة طريقاً إلى قلوبكم أثناء قتالكم ما داموا يصدون عن الإسلام ويمنعون أحكامه من أن تنتشر في الأرض.. وهذا يعني المبادرة في قتال الكفار الأقرب فالأقرب، والأدنى فالأدنى، كما يعني أنه لا بد من جيوش تحمل راية الإسلام ودعوة الإسلام للشعوب الأخرى. ولما كانت هذه الجيوش لا يمكن أن تكون جاهزة العَدد والعُدد إلا تحت حكم الإسلام ودولة الإسلام وخلافة الإسلام فهذا يقتضي وجوب العمل لإقامة هذه الدولة لتقوم بهذا الواجب، لأن القاعدة الشرعية (مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب).

وانظروا إلى المنافقين بينكم وهم يتساءلون سخرية عما إذا زادت السورة من القرآن أحداً منهم إيماناً، وليعلم من خربت قلوبهم بأن المؤمنين أصلاً هم الذين يزدادون إيماناً على إيمانهم ويسرون بكل سورة وآية وحكم ينزل من الله على رسوله ويوجد في طريقه إليهم، وأما هم وقد مرضت قلوبهم بالنفاق فإنها بإعراضهم وسخريتهم تزيدهم رجساً إلى رجسهم وينتهون إلى الموت على كفرهم.

فهلا نظروا نظرة المتدبر المتمعن في كل ما يمر بهم من فتن واختبارات من قحط وشدة وأمراض وأوجاع ومن قتل وهزائم لأعداء الإسلام ونصر للإسلام ورسوله.. ألا يذّكرهم ذلك فيتوبون عما هم فيه؟! وانظروا إليهم وهم يلتفتون حولهم، و إلى بعضهم البعض متسائلين تساؤل الخائف الجبان فيما إذا كان هناك من أحد قد رآهم وهم يهربون من سماع القرآن ويخشون أن يفضحهم في نفاقهم، ثم ينصرفون بعيداً عن الإسلام والمسلمين بالإصرار على طريق الضلال وإقفال قلوبهم ضد الهدى والرشاد.

وتقرع السورة أسماعهم أخيراً بتذكيرهم بأن محمداً صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم الذي جاءهم برسالة الإسلام معروف معلوم لديهم، لأنه جاء من أوسطهم حسباً ونسباً، وأنه بشر مثلهم يفهمون عليه ما يخاطبهم به، فلا حجة لهم في الإعراض عنه وعن دعوته، وأنهم كما يعرفون يعز عليه أي مشقة تنزل بهم، وأنه بالمؤمنين بالغ الرأفة والشفقة.

وأما أنتم أيها الكفار والمنافقون فاعلموا أنكم إن أعرضتم عن الله تعالى بعد كل

هذا التيسير الذي أنعم به عليكم فما على الرسول عليه وآله وصحبه السلام إلا أن يقول ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي أنه عليه وآله وصحبه السلام قد فوض جميع أموره إليه تعالى واعتمد عليه، فهو سبحانه كافيه.

دليل سورة التوبة ـ ٩

- إنها سورة مدنية، وأنزلت في ١٢٩ آية وذلك في غزوة تبوك وما بعدها وسميت الفاضحة والبحوث لأنها فضحت المنافقين وسلطت الضوء على أسرارهم.

- بدأت بنقض العهد مع المشركين العرب وأعطتهم مهلة الشهور الأربعة للتوبة من الشرك والدخول في الإسلام وإلا القتل لكل من يرفض من الرجال المحاربين ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَۖ﴾.

- فرضت الهجرة من مكة إلى المدينة دار الإسلام، ولكن هذه الهجرة ألغيت وأصبحت جهاداً بعد فتح مكة، ولذلك لا هجرة واجبة من أي بلد إسلامي إلى بلد آخر تقوم فيه دولة الخلافة ليصبح دار الإسلام.

- وفي السنة العاشرة للهجرة فرض منع المشركين من الاقتراب من المسجد الحرام واستمر هذا التحريم إلى يوم الدين.

- ألزمت غير المشركين العرب بدفع الجزية إن رفضوا الإسلام والنزول تحت حكم الإسلام.

- اعتبرت اتباع أهل الكتاب في تحليل الحرام وتحريم الحلال لأحبارهم كأنهم أرباباً لهم ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مما يحذر المسلمين من التحليل والتحريم دون دليل شرعي.

- تستنكر التثاقل في تلبية دعوة النفير للجهاد كما حصل في غزوة تبوك مهما كانت أرض المعركة بعيدة لأن مثل هذا العمل لا يليق إلا بالمنافقين الذين لاهم لهم إلا الدنيا ومتاعها والذين لا عذر لهم في القعود عن الجهاد كحال الضعفاء والمرضى والعاجزين.

- تلزم بوجوب بقاء فئة من المسلمين بجانب الرسول عليه وآله وصحبه السلام عند النفير للجهاد وذلك ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ ويعلموا المجاهدين العائدين ما فاتهم من شرع الله وأحكام دينه.

- تدعو الرسول عليه وآله وصحبه السلام وكل خليفة له أن يقول ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ عندما يعرض الناس عن الإيمان بالإسلام مفوضاً أمره إلى الله تعالى.

- لقد جاءت السورة على أثر نقض مشركي مكة عهد الحديبية عندما تعدى حلفاؤهم بنو بكر على بني خزاعة معاهدي الرسول عليه وآله وصحبه السلام، فتم غزو مكة وفتحها في السنة الثامنة للهجرة، وفي نفس العام وقعت معركة حنين التي هزمت فيها هوازن ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾.

- وفي السنة التاسعة من الهجرة خرج الرسول عليه وآله وصحبه السلام في غزوة تبوك آخر غزواته، وأمّر أبا بكر على الحج لأن العراة كانوا ما زالوا يطوفون بالبيت فأراد تأجيل حجه للعام التالي، وأمّر علياً ليقرأ على الناس سورة (براءة..) ويخبرهم: بألا يطوف بالبيت عريان، وأهل العهد إلى مدته، وإذا وجد من لاعهد محدد المدة له فهم لأربعة أشهر، ولا يدخل الجنة إلا المؤمنون، ولا يجتمع بعد ذاك العام المسلمون والمشركون.. مما يدل على تحديد العلاقة معهم كمشركين إما يسلمون أو يقتلون.

فتبرز الأمور التالية :

١)لا عهد للمشركين بعامة واليهود بخاصة لاستحلالهم دماء وأموال المسلمين.. فلا يسمح لهم بعد ذاك العام من الاقتراب من المسجد الحرام ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾

٢ ـ آية ٢٤ تبين أن جميع الروابط العائلية والقبلية والمالية والوطنية تسقط أمام الرابطة الإيمانية المبدئية ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ﴾

٣ ـ تحذر المؤمنين من الاغترار بكثرتهم كما حصل في حنين فكادوا يفشلوا لولا أن تداركوا أنفسهم فتداركهم الله تعالى بنصره ربطاً للنتائج بأسبابها ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾

٤ ـ آية ٢٩ تفرض ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ الجهاد مبادرة

ضد جميع الكفار ومنهم أهل الكتاب حتى يدفعوا الجزية ولا يستثنى من ذلك إلا مشركو العرب.

٥ ـ تجريم كنز الذهب والفضة ولو أخرجت زكاتهما كرأي راجح.. وأن الاختلاف بشأن هذه الآية بين أبي ذر ومعاوية إذ أصر الأول على شمولها للمسلمين وغيرهم بينما حصرها الآخر بغير المسلمين فاستدعى الخليفة عثمان أبا ذر بناء على شكوى معاوية وعرض عليه التنحي في رواية فأقام في الربذة حتى وفاته.. فقد فعل الخليفة ذلك تجنباً لإثارة الفتنة.

٦ ـ إن التفصيل الواضح لأمور المنافقين يدل على مدى خطورتهم على كيان الأمة والدولة، فلابد من اتخاذ الموقف المناسب لكل حالة من حالاتهم وبشكل حاسم.

٧ ـ اتخاذ موقف النبذ والمقاطعة بصورة فردية أو جماعية للمنافقين ورفض مشاركتهم في القتال لأثرهم السلبي على الجيش الإسلامي بخاصة وعلى وحدة المسلمين بعامة.

٨ ـ خطورة الإخلاص في كل عمل وبالذات إعمار المساجد، فكلما كان للإضرار بالمسلمين وتفريقهم كانت مقاطعته إن لم يمكن هدمه واجباً.. والعكس صحيح، والمهم أن ذلك لإمام المسلمين وما يراه من الإسلام وبعيداً عن الحساسيات المذهبية والاختلافات الفكرية.

٩ ـ آية ١٢٣ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ تأمر بمبادرة القتال ضد الكفار المجاورين للدار الإسلامية والذين تشكل حواجزهم المادية أخطر الموانع ضد الدعوة الإسلامية.. وفي هذا دلالة على وجوب إيجاد دولة الخلافة التي تتولى ذلك.. ولما كانت مثل هذه المناطق والبلدان المجاورة ستكون من العالم الإسلامي فإنه يفرض عدم اعتبارهم أجانب.

سورة يونس (١٠)

التقديم

بعد حروف الافتتاح ﴿الٓر﴾ تشير السورة إلى أن ما يتلى على الرسول عليه وآله وصحبه السلام هي آيات القرآن المحكم التي منها الاستنكار والتوبيخ لمن تعجب من إرسال الرسول محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم كرجل منهم لينذرهم من النار لمن يكفر ويبشرهم بالجنة لمن يؤمن ولاتهامهم له بأنه ساحر، وأن عليهم أن يعلموا أن

ذلك حكم الله وتدبيره وليس لأحد شرك فيه فهو سبحانه من خلق السموات والأرض والعرش، ودبر كل شيء، ولا يملك أحد الشفاعة عنده إلا بإذنه فهو وحده المستحق العبادة، وإليه وحده يرجع العباد كلهم يوم القيامة للحساب بعد أن خلقهم وأماتهم ليجدوا جزاء معتقداتهم وأعمالهم بالعدل سواء كانوا مؤمنين أو كافرين، وهو وحده سبحانه الذي جعل الشمس منبع الضوء وجعل القمر منعكس نور وجعل له منازل يمر بها ليعلم الناس عدد السنين وحساب الشهور، وأن ذلك هو الحق المبين الواضح، وأنه تعالى قد جعل في هذا الاختلاف والتنوع بين الليل والنهار وبين ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ دلالات لكل عاقل على قدرته ووحدانيته، وأنه تعالى ينذر من لا يخافون عذابه ويكتفون بمتع الحياة الدنيا ويغفلون عن الاعتبار بعاقبة الخلود في النار، بينما يبشر المؤمنين الصالحين بجنات النعيم حيث يسبّحون الله تعالى ويحمدونه ويتبادلون تحية السلام.

ثم تنبه السورة الناس كل الناس ألا يتعجلوا استجابة الدعاء بالشر كالخير، كأن يدعو الإنسان على نفسه أو أحبائه، لأنه متى حل القضاء قد انتهى الأمر للمؤمن ووقع الكافر في حيرة من أمره.. وكذلك الحال ليحذر الإنسان الكافر من استخفافه بالدعاء إذ ما أن يكشف الله عنه بدعائه الضر حتى يتجاهل ربه وكأنه لم يدعه ولم يكشف عنه ضره.. ثم تخوّف كفار مكة من نزول الهلاك بهم كالأمم السابقة التي أعرضت عن رسل الله إليهم وأشركت بالله فنزل بهم العذاب، وانقرضوا وكان أهل مكة هم من جاء بعدهم.

ثم تحذرهم من الهرب من الإيمان بما يتلى عليهم من القرآن وطلب قرآن آخر، وتأمر الرسول عليه وآله وصحبه السلام أن يبلغهم أن ذلك إلى الله وحده، وأنه وإن كان هو رسول الله تعالى إلا أنه يخشى عذابه، وأن تبليغه لهم هو بأمر منه تعالى بدليل أنه قد عاش بينهم هذه السنوات الطوال ولم يخبرهم قبلئذٍ بشيء من ذلك حتى أمره به تعالى.

ثم تذكّرهم بأن أشد الناس ظلماً لنفسه وغيره هو من يكذب على الله أو يكذّب بآيات الله لأنه يوقع نفسه بأفظع أنواع الإجرام ولا سيما عندما يقدم على عبادة الأصنام أو غيرها من المعبودات المخلوقة والتي يزعم أنها تشفع له عند الله وهي لا تملك له ولا لنفسها الضر والنفع فكيف يزعم لها ذلك والله منزه عن الشرك والجحود والعالم بأنه لا شفاعة لمثل هذه المعبودات الباطلة.

وتخبرنا السورة بعدها بأن العرب كانوا معتادين على الشرك قبل الإسلام، وأنه ما أن جاءهم القرآن ورسول الإسلام حتى اختلفوا، فمنهم من آمن ومنهم من بقي على

كفره، ولولا أن قضاء الله وقدره قد حكم بتأجيل إيقاع المثوبة والعقوبة إلى يوم القيامة لعجل لهم ذلك، كيف لا وهم يتظاهرون بطلب آية من الله تدل على النبوة، ولكن المولى سبحانه أمر رسوله أن يخبرهم بأن ذلك من الغيب الذي لله وحده وأن ما عليهم إلا أن ينتظروا قضاء الله الفاصل بين المحق والمبطل.

كما انظروا إليهم وهم يهزؤون ويكذبون بآيات الله بمجرد كشف الضر عنهم واستبداله بالخير، وينسون أن قدرة الله على إيقاع العذاب بهم أسرع من ألاعيبهم، ولكنها سنة الله في تسجيل ذلك عليهم ليوم الدين.. وكم كان حرياً بهم لو نظروا حولهم ليروا أن الله تعالى وحده هو الذي يحمل البشر في البر والبحر بوسائط كل منهما، وأنهم من بغيهم الذي لا يحيق إلا بهم أن يدعوا الله أن ينجيهم من رياح البحر العاصفة ولكنهم ينكثون العهد برفض الإيمان والإخلاص عند النجاة، فهل ينسون أن كل ما هم عليه ليس بأكثر من متاع الحياة الزائل وأنهم راجعون للحساب بين يدي الله ؟! وعليهم أن يتذكروا أن الحياة الدنيا التي يعيشونها تشبه ما يخرج من الأرض من نبات ينتفع به الإنسان والحيوان، وأنه ما أن يحين حصاده والانتفاع به حتى تحل به جائحة تأتي عليه بقضاء وقدر، فهلا تدبروا ذلك وتفكروا فيه ؟!

وعليهم أن يعلموا أن ما يدعوهم إليه المولى سبحانه هو الدار الآخرة، دار السلام والسلامة التي لا ينتهي للخلود فيها إلا من سار على الصراط المستقيم بصدق الإيمان وصالح الأعمال، وهو الذي يستحق بإحسانه هذا الجزاء الحسن والرضوان الأكبر حيث يتمتع بلا هوان ولا سواد يظهر على وجهه كالكفار في النار وإنما بالخلود في جنات النعيم، وشتان بينه وبين من يعمل السيئات من شرك في العقيدة إلى منكر في العمل فإن هذا يجد العذاب بانتظاره مقابل ذلك، كما يجد الذلة والسواد على وجهه، وينتهي للخلود في عذاب الجحيم.

فانظروا إلى أولئك المشركين عندما يجمعون يوم القيامة مع معبوداتهم للحساب، ثم يفرق بينهم لتقف لهم معبوداتهم لتقول لهم بأنهم ما كانوا يشعرون بأنهم يعبدونهم، وأنهم لم يأمروهم بعبادتهم، فيؤكد لهم المولى العالم بكذبهم عندما يستشهدونه بأنهم لم يأمروا بهذه العبادة ولا رضوا بها، وأنهم مجرد أصنام لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، وأنها جماد لا روح فيه، وعندها تذوق كل نفس جزاء ما عملت.

وتأتي السورة بعدها لتأمر الرسول عليه وآله وصحبه السلام بالرد على المشركين بدلالة خلق السموات والأرض من خالق لا ينكره عاقل، وكذلك سؤالهم عمن يدبر كل شئ ليعترفوا بأنه الله، وهو وحده الحق وما بعده الباطل، مما يجعل جزاء العاصين حقاً

وعدلاً. ثم تأمره عليه وآله وصحبه السلام للتساؤل عمن بدأ الخلق ثم يعيده، وهل من شركائهم من يفعل ذلك، أو منهم من يهدي إلى الحق، ثم تجيب بأن ذلك لله وحده، فليكفوا عن الزعم الكاذب في ذلك وهم يعلمون أن سبيل الظن الذي يتبعونه لا قيمة له في مجال الإيمان الحق.

ولينظروا إلى هذا القرآن الذي لا يمكن أن يفتريه أحد لإعجازه ومعجزاته و إنما هو من الله وحده يصدّق الكتب المنزلة من توراة وإنجيل وغيرهما من قبل ويبينها، مما لا يملك معه أحد أن يتهم الرسول محمد عليه وآله وصحبه السلام بأنه اختلقه من لدنه، ولو حصل ذلك فليأت أحدهم أو كلهم بسورة مماثلة لسوره.. والحقيقة أنهم ليسوا بأكثر من مكذبين عن جهل لهذا القرآن وما فيه، مما يشبه ما فعلته الأمم السابقة مع رسلهم، فنالوا عقوبتهم لظلمهم. ومن الواضح المعلوم أن منهم من آمن بهذا القرآن ومنهم من كفر به، فقل يا محمد لمن كذبك بأنك بريء من عمله الباطل وهو بريء من عملك الحق، كما أن منهم، أي الكفار عامة، من يستمع لما تتلوه من قرآن، ولكنهم أنّى لهم السمع والوعي وهم يصرون على الصمم؛ كما أن منهم من ينظر إليك ولكن أنّى لهم معرفة سبيل الهدى وهم يصرون على عدم رؤيته!

وليعلموا أن الله تعالى عندما يعاقبهم لا يظلمهم وهم على هذه الحال وإنما هم يظلمون أنفسهم، كما ليعلموا أنهم عندما يحشرون يوم الحساب لن يظنوا لهول ما يرون إلا أن الحياة الدنيا كانت كأنها مدة ساعة من النهار، كما ليعلموا أن الله تعالى سواء أظهر دينك في حياتك أو بعد ذلك فإنه سيحاسبهم على كل ما يفعلونه من محاربة لك وتكذيب، كما ليعلموا أن أمة من الأمم لم تكن دون إرسال رسول إليهم يبلغهم كلمات الله بحيث ما أن يشهد عليهم يوم الحساب أنه بلغهم حتى يحكم الله عليهم بكل أعمالهم وبكل عدل، وعليه فلا حاجة لكم يا كفار مكة بالسؤال عن وقت يوم الحساب والعقاب الذي يعدكم به محمد. وقل لهم يا محمد بأنك لا تملك لنفسك الضر ولا النفع وإنما تحديد وقت الحساب إلى الله وحده، وأن إنزال العقاب بهم محدد الوقت عنده تعالى وحده بلا تأخير ولا تقديم، وقل لهم أيضاً أنه لو قضى الله بإيقاع العذاب بهم في أي وقت ليلاً أو نهاراً في هذه الدنيا فلا حاجة لتعجلهم به، ويكفي أن يعلموا أنهم لن يأمنوا وقوعه بهم، كما أن إيمانهم عند وقوعه لن ينفعهم إذ لا قول حينئذ إلا الأمر بذوق عذاب الجزاء على أعمالهم.

وعندما يسألون عن التأكد من العذاب يوم الحساب فأخبرهم يا محمد بأنه واقع حتماً، ولن يتخلص منهم منه أحد، ولن يكفي الواحد منهم إن ارتكب الشرك فدية بملء

الأرض ذهباً وهو تعتصره الحسرة لما يلمسه من عذاب حل به بالعدل بعد أن أفسد أتباعه، ويكفيهم دلالة على صدق ذلك أن من يتوعدهم بهذا العذاب هو خالق السموات والأرض والقادر على كل شيء، ولن يعجزه إيقاع العذاب بهم، وأنه هو سبحانه الذي أحياهم وأماتهم ويبعثهم للحساب يوم الحساب.

فاعلموا أيها الناس في مكة وخارجها أن لكم في هذا كله من القرآن ما يجب أن تتعظوا به، وتتخلصوا من الشك والنفاق والشقاق، وتتبعوا الهدى بعد الضلال، فتنالوا رحمة الله تعالى الواسعة.. ولذلك قل لهم يا محمد أن يفرح أولئك المؤمنون بما يشملهم المولى سبحانه من فضله ورحمته، وأن ذلك أفضل لهم من دنياهم، كما ذكّرهم يا محمد بكذبهم على الله عندما وفر لهم الكثير من الرزق فأحلوا منه وحرموا دون التقيد بأمر الله ونهيه، فماذا يتوقعون بكذبهم على الله هذا من الجزاء يوم القيامة؟! إن الله تعالى يمهل الناس من فضله ليرتدعوا عن الشرك والمنكر ولكن أكثرهم يبقى سادراً في غيه ولا يقر لله بفضله.

وتواصل السورة الخطاب للرسول عليه وآله وصحبه السلام وأمته بأنهم لا يمرون في أمر فيتلى القرآن بسببه، ولا يعملون عملاً إلا علم ذلك كله لله تعالى إذ لا يغيب عنه سبحانه وتعالى شئ مهما صغر لا في الأرض ولا في السماء، وبأن أولياء الله تعالى لا يخشون شيئاً في الآخرة ولا يحزنون لفقدان الدنيا، ولهم البشرى بالرحمة والرضوان في الدنيا والآخرة لإيمانهم وتقواهم.. وأما المكذبون أعداء الله فلا يحزنك يا محمد ما يقولونه من افتراء وتكذيب لك، واطمئن بأن العزة والغلبة لله وحده، وأنه ناصرك ومانعك، وهو سبحانه مالك كل ما في السموات والأرض فلا يخرجون عن حكمه، وأن كل ما يفعلونه من اتباع شركاء هو مجرد وهم وظن على الحقيقة لأنه قائم على التخمين والظن.. كيف لا وأنه سبحانه القادر على كل شيء، والواجب عبادته من دون غيره، إذ هو الذي خلق الليل للراحة والسكون والنهار للعمل والحركة مما يدلل على عظمته وقدرته لكل عاقل يسمع الحجة بوعي وبصيرة.

وتأتي إلى نمط من الكفر والافتراء على الله فتقول السورة انظروا إلى أولئك الذين يزعمون أن الله قد اتخذ ولداً له، فهو سبحانه الغني عن الخلق كلهم، وأن كل ما في السموات والأرض له وحده، وأن كل زعمهم مجرد من كل برهان وحجة وعلم، فقل لهم يا محمد أنهم وكل من يكذب على الله تعالى لا يفوز، وأن كل ما لديهم ليس بأكثر من متاع زائل مع الدنيا وأنهم سيذوقون العذاب الشديد في الآخرة بكفرهم.

ثم ذكّرهم يا محمد بما حصل مع نوح عليه السلام عندما قال لقومه فيما إذا طال

بقاؤه بينهم فاستثقلوه وهو يواصل تخويفهم بالعذاب ويذكّرهم بآيات الله، وفيما إذا كانوا قد عزموا على قتله وطرده بسبب ذلك، وأنه لا اعتماد له بسبب موقفهم إلا على الله وحده، وأن ما عليهم إلا أن يدعوا شركاءهم لنصرتهم، ثم ليكن أمرهم مكشوفاً بحيث يفعلون ما يريدون، ثم لينفذوا فيه ما يشاءون ولا يتأخرون عن ذلك وليروا ما سيحل بهم! وأكد لهم أنه لايبغي أجرة منهم على ما يدعوهم إليه لكي لا يعرضوا عنه لأنه يبتغي الثواب والأجر من الله فقط، وأنهم لم يرعووا بالرغم من ذلك، وكذبوه فأنجاه الله تعالى ومن آمن معه من الغرق وأغرق الآخرين، وفي ذلك عبرة لكم يا أهل مكة ومن حولها.

وانظروا أيضاً إلى الرسل الذين أرسلهم الله تعالى بعد ذلك من هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وغيرهم، وكيف كذّبهم أقوامهم فحق عليهم العذاب! وانظروا إلى فرعون وقومه أيضاً كيف استكبروا على الإيمان مع موسى وهارون فأوقعوا أنفسهم في الإجرام، إذ اتهموا موسى بالسحر، فاستنكر عليهم ذلك، فردوا عليه بأنه يريد أن يصرفهم عن عبادة آبائهم الصنمية، ويكون الحكم والملك له في الأرض، وكيف أن فرعون استدعى السحرة من قومه، وكيف أن موسى أخبر السحرة بأن سحرهم سيبطله الله تعالى الذي يحرم السحر، وينصر الحق عليه رغم أنوفهم، وكيف أن أبناء بني إسرائيل هم الذين آمنوا مع موسى لخوف آبائهم من قتل فرعون لهم، وكيف أن موسى دعا المؤمنين من قومه للتوكل على الله فاستجابوا له، ودعوا الله أن ينجيهم من فرعون وقومه، وكيف أن الله تعالى قد أذن لهم أن يجعلوا عبادتهم في بيوتهم ويجعلوها باتجاه قبلة بيت المقدس لينجوا من بطش فرعون الذي خرب معابدهم، وكيف أن موسى دعا الله تعالى أن يطمس على أموال فرعون وقومه التي تعالوا بها على المؤمنين، كما دعاه تعالى ليعاقبهم على أذاهم بالمؤمنين، وكيف أن المولى سبحانه قد استجاب لنبيه موسى عليه السلام وأمره وأخيه أن يخترقا وقومهما البحر حيث أغرق فرعون وقومه بعد أن أعلن الإيمان الذي لا ينفعه بشيء مع وقوع العذاب، ونجا بنو إسرائيل إلى الشاطئ الآخر، وأنجى الله فرعون ببدنه كجثة هامدة ليروها ويعتبروا بها، وكيف أن الله تعالى أنزل بني إسرائيل في بلاد الشام لتكون مع مصر موطناً لهم حيث أغدق عليهم الأرزاق، وطالما استمروا على شريعة موسى، وكيف أنهم أدخلوا عليها من التحريف والتغيير، حتى جاءهم المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم من غيرهم فحسدوه وأنكروه وكذبوه، وسيعلمون حكم الله الفاصل فيهم يوم الحساب.

وتنتهي السورة بخطاب النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بعدة أمور أولها أن

على غيرك الذي يشك بما أنزلناه إليك أن يطمئن بسؤال من آمن من أهل الكتاب فينتهي من الشك كما لا يمكن أن يقع في التكذيب إذا حرص على الإيمان، وأما من لم يحرص فإنه لن ينتفع بكل الآيات والحجج، فكم كان حرياً أن تؤمن كل القرى وتنتفع بإيمانها قبل أن يلحقها العذاب فتضيع عليها فرصة الانتفاع، وأن هذا يختلف عما حصل مع قوم يونس الذين آمنوا قبل أن يقع بهم العذاب وبمجرد مشاهدة علاماته لا ذاته فانتفعوا وذهب عنهم العذاب.

وتأكد أنت يا محمد وكل الناس أن الله لو قضى بمشيئته وقضائه الإيمان لاضطرهم إليه فلا تتعب نفسك بالضغط على أي إنسان للإيمان، وكذلك الحال بشأن كل فرد ليميز الله العاقل الذي اختار الإيمان ممن اختار الكفر.. فادعهم يا محمد لينظروا ويروا ما في السموات والأرض من دلائل على قدرة الله ووحدانيته وليتأكدوا أن من رفض الإيمان لن ينتفع بكل الآيات والحجج، وكأنه وأمثاله يريدون أن يروا وقائع ما حل بالأقوام السابقين حين هلك المكذبون ونجا المؤمنون ومعهم رسلهم.

فقل لهم يا محمد إن تشكّوا في الإسلام فإنك لا تعبد غير الله الذي يميتهم ويبعثهم ويحاسبهم، وأنك على الدين الحق لا الشرك، وأنك لا تعبد ما لا ينفع ولا يضر من المعبودات الباطلة، وأن الله وحده هو الذي يكشف كل بلاء يصيبك، وان أحداً لا يملك منع ما يريد الله لك من خير.

وقل يا محمد للناس جميعاً بأن القرآن قد جاءهم من الله تعالى، وأن من يتبعه فقد حقق الهدى لنفسه ومن يعرض عنه فقد أوقع نفسه في الهلاك وأن ما تبلّغه لهم هو وحي الله تعالى الذي لا تتبع غيره، وأنك صابر على طاعة الله وأمره.. وعليهم أن يقتدوا بك في ذلك مهما لحقهم.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ
وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ
ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ
بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ

إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ
مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ
مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
﴿٥﴾ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾
أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ
رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ
فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ
ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾
وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ
إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

فبعد افتتاحية السورة بـ ﴿الٓرۚ﴾ ذكر المولى سبحانه بأن ما يليها هي آيات من القرآن المحكم المبينة الحلال والحرام والحدود والأحكام، والتي يستهجن معها كيف يعجب الناس، وبالذات المشركون منهم، أن يوحى إلى محمد عليه وآله وصحبه السلام وهو رجل منهم يعرفونه حق المعرفة لكي يبشرهم بالخير والجزاء الطيب لمن يعمل هذا الخير، وينذرهم لمن يعمل الشر بجزاء العذاب الشديد، ويبشر المؤمنين منهم بأن لهم مكانة طيبة وأجراً حسناً في جنات الخلد، فكيف يعجبون من ذلك ويتهمونه عليه وآله وصحبه السلام بالسحر فيما يقول؟!

فاعلموا أيها الناس بأن الله تعالى هو ربكم الذي خلقكم وخلق السموات والأرض والعرش في وقت محدد، وأنه تعالى يدبر مخلوقاته كلها وفقاً لنظام دقيق وضعه لكل منها، وأنه لا يملك أن يشفع عنده أحد لأحد إلا بإذنه تعالى، وأن قولهم عن أصنامهم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ مردود عليهم، إذ الأنبياء لا يشفعون إلا بإذن الله فكيف بشفاعة أصنام لا تعقل؟فالله الذي خلق كل هذه المخلوقات ودبرها هو ربكم ولا رب لكم غيره فيجب عليكم إخلاص العبادة له وحده، وأنه يمكنكم أن تجدوا الدليل تلو الدليل من هذه المخلوقات عليه تعالى.

واذكروا أنكم سترجعون يوم القيامة للحساب بين يديه، وأن هذا وعده سبحانه

القاطع، فهو الذي بدأ الخلق من التراب، ويعيده إلى التراب بعد الموت ثم يبعثكم يوم الحساب للجزاء العادل بحيث ينال المؤمنون الصالحون جنة الخلد ونعيمها ويحل بالكافرين عذاب النار وجحيمها.

واعلموا أنه هو تعالى الذي خلق وجعل الشمس مصدر ضوء، كما خلق وجعل القمر منعكس نور لما يسقط عليه من ضوء الشمس، وقضى له منازل في دورته حول الأرض ودورتهما حول الشمس مما يتحقق للإنسان بتنقله بين هذه المنازل أن يعلم عدد السنين وحساب الشهور، وأنه تعالى قد قضى بكل ذلك لخير مخلوقاته، وأعطاهم الدلالات على قدرته وعلمه، وجازاهم تبعاً لأعمالهم الجزاء الحق، وأنه تعالى بتبيينها لهم ييسر هذا الاستدلال ويقيم عليهم الحجة، وأن في مثل هذا الاختلاف بين الليل في ظلمته وسكونه وبين النهار في ضوئه وحركته، وفي ما خلق تعالى في السموات والأرض لأعظم آيات لقوم يخشون الله ويقدمون، يا أهل مكة، على الإيمان الصادق وهم يلمسون كل تلك الأدلة صباح مساء بين أيديهم.

واعلموا أن الذين لا يخافون منكم من لقاء الله وحسابه يوم الحساب، ويرضون بهذه الحياة الدنيا الزائلة ويطمئنون بها دون الآخرة، ويغفلون عن الاستدلال بآيات الله الكثيرة للإقلاع عن كل ذلك، فإن هؤلاء لهم النار مأوى ومنزلاً جزاء أعمالهم تلك من الكفر والتكذيب، وأما الذين وجدوا في آيات الله الدلائل الحقة على الإيمان فآمنوا بالله تعالى وأقبلوا على طاعاته والأعمال الصالحة كلها فإنهم قد حققوا لأنفسهم الوصول للهدى الذي يأمرهم به ربهم، وأنه تعالى سيكافئهم على ذلك بجنات النعيم يوم القيامة حيث يجدون دعاءهم فيما بين أنفسهم التسبيح والتنزيه لله عن كل ما لا يليق به كخالقٍ مدبر، وتسمعون تحيتهم فيما بينهم بالسلام والسلامة من كل ما يتهددهم في هذه الدنيا، وكيف أنهم دائماً يختمون دعاءهم بالحمد لله تعالى خالق عالمي الإنس والجن وخالق كل شيء والثناء عليه سبحانه، مما يجعل من السنة الحمد لله عند الأكل والشرب، وأن يختم الدعاء دائماً بالحمد.

واعلموا أنه لو عجل الله للناس العقوبة كما يستعجلون الثواب والخير لماتوا، لأنهم خلقوا في الدنيا خلقاً ضعيفاً، وليس هم هكذا يوم القيامة إذ يخلقون حينئذ للبقاء، وكذلك لو عجل لهم المكروه، كأن يدعو الإنسان على نفسه أو ولده أو ماله إذا غضب، كما يعجل لهم الخير، لأهلكهم، مما يدل على تجنب مثل هذا الدعاء، ولذلك قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «إني سألت الله عز وجل ألا يستجيب دعاء حبيب على حبيبه»، ولكن بالرغم من ذلك نهانا عليه وآله وصحبه السلام عن مثل هذا الدعاء، وأنه

تعالى قد أعلمنا بأنه لا يعجل لأحد المكروه فربما يتوب من الناس تائب، أو يخرج من أصلابهم مؤمن، ولكنه سبحانه يترك الكافرين بالله واليوم الآخر لحيرتهم واضطرابهم والتي تظهر عليهم عندما يدعو الواحد منهم عند الضر بدعاء سواء كان واقفاً أو قاعداً أو مضطجعاً، فيذهب ضره فيعود إلى حالته الأولى من الكفر والشرك وكأنه لم يدع الله بشيء، وكأن ميله للفجور هو الذي يغلب على ميله للتقوى بحكم العادة والإلفة وتحكمهما فيه بدلاً من إعمال العقل والاعتبار وإعطاء الحق في العبادة لله تعالى الذي دعاه فكشف عنه الضر وليس للأصنام التي لا تضر ولا تنفع حتى نفسها.

وتدعو السورة أولئك الكفار للعظة بمن كان قبلهم من الأقوام فتقول:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾

أن انظروا يا أهل مكة، ومن على شاكلتهم من الشرك والكفر إلى يوم القيامة، إلى الأقوام السابقين نظرة تمعن وتدبر لتروا ما حل بهم من العقوبة بعد أن رفضوا الإيمان والاستجابة لما عرضه عليهم الرسل من المعجزات الواضحات والبراهين النيرات فظلموا أنفسهم فحق عليهم جزاء المجرمين، وانظروا كيف أن الله تعالى قد جعلكم أنتم سكان هذه الأرض من بعدهم وأرسل إليكم ما يكشف بمدى استجابتكم له عن حقيقة أعمالكم فتنالون بذلك جزاء وفاقاً.

وتتحول السورة للحديث عن مشركي مكة بأسلوب الغائب لا المخاطب فتقول بأنهم ما إن تقرأ عليهم آيات القرآن الواضحة حتى يهب المنكرون ليوم الحساب لطلب قرآن آخر أو تبديل الموجود بتحويل الوعد وعيداً والوعيد وعداً، وبتحويل الحلال حراماً

والحرام حلالاً، ثم تأمر الرسول عليه وآله وصحبه السلام أن يخبرهم بأن ذلك ليس له مطلقاً وإنما هو إلى الله تعالى الذي أنزله وأنه هو متبع لما يتلوه عليهم من وعد ووعيد، وتحريم وتحليل، وأمر ونهي، وأنه يخاف لو وقع في مثل ذلك من العصيان وخالف ربه في تبديل الوحي أو تغييره أو ترك العمل به أن يحل به يوم القيامة عذاب عظيم، وأنه لولا قضاء الله وحكمه لما تلاه عليهم أصلاً ولا عرفهم به، لأنه كما يعلمون أمضى بينهم سني عمره الأربعين السابقة ولم يذكر لهم من ذلك شيئاً، مما كان ملزماً لهم التعقل في طلبهم وليس لمجرد المماحكة والمعاندة، مما يوقعهم في ظلم أنفسهم بل في أشنع أنواع الظلم عندما يفترون الكذب على الله ويريدون تبديل كلامه وإضافة ما يشتهون إليه، أو عندما ينكرون القرآن ويزعمون أنه ليس كلام الله تعالى الذي جاء به رسوله عليه وآله وصحبه السلام، وليتأكدوا أن من يفعل ذلك هو المجرم الذي لن يرى الفلاح والفوز لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ثم تدعوهم للتفكير في عبادتهم للأصنام التي لا تضرهم ولا تنفعهم لا في الحال ولا في المآل، ثم في زعمهم أنها تشفع لهم عند الله في إصلاح دنياهم، وكأنهم يخبرون الله تعالى أن له شريكاً في ملكه أو شفيعاً بغير إذنه، فكيف يفعلون ذلك، وانظروا إليه تعالى وهو ينزه نفسه ويقدسها عن الشرك فيقول ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فاعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئاً.

وتشير السورة إلى قضاء الله وقدره في حق البشر بعد نزول القرآن وكفر الكثير منهم به، ودعوتهم للتدبر في ذلك فتقول:

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ
فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ
فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم
مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ
وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ
ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ
لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا
بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا
مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ

أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا
حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ
وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا
ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ
ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ
فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾

وانظروا أيها الناس من عرب وغير عرب، ومن مشركين وغير مشركين، إلى أن الناس كانوا في بلاد العرب أمة واحدة، ولكنهم ما أن جاءهم العلم بالقرآن حتى اختلفوا بين مؤمن به وكافر، فاعلموا أنه لولا قضاء الله وقدره بألا يعجل العقوبة بعد نزول القرآن وإنما يؤخرها ليوم القيامة، لولا ذلك لحسم الأمر بين الفريقين سريعاً ونزل العقاب الساحق بمن كفروا، فاطمئن يا محمد أن العذاب مؤخر عمن كفر بك، وقل لمن يطلب أن تنزل عليك معجزة أخرى غير القرآن، كأن تجعل لهم الجبال ذهباً، أن نزول مثل هذه الآية غيب بيد الله وحده، وأن عليهم أن ينتظروا قضاء الله وقدره ليظهر الحق من الباطل، وقل لمن يمكر ويهزأ ويكذب بآيات الله عندما يبدل الله الضر عنه برحمة بأن الله تعالى أسرع في إهلاكه مما يأتيه من هذا المكر، وأن ذلك كله مسجل عليه للحساب يوم القيامة.

وليعلموا بأن الله تعالى هو الذي خلق لهم الدواب وغيرها التي يتنقلون بها على الأرض، والفلك التي يسيرون بها على البحر وأنه هو الذي يدعونه سبحانه عندما تشتد عليهم الرياح العاصفة في البحر لينجيهم من الهلاك مع إظهار استعدادهم لينخلعوا من الكفر ولكنهم ينسبون النعم إلى أصنامهم وكيف أنهم ما أسرع ما يتخلون عن تعهدهم بمجرد إنقاذه سبحانه لهم فيعودون لكفرهم وفسادهم في الأرض بالمعاصي والتعالي على الناس، فقل لهم يا محمد بأن بغيهم وفسادهم عائد عليهم بما ينتظرهم من شديد العذاب على ذلك.

وأن عليهم أن يدركوا أن كل هذه الحياة الدنيا ليست بأكثر من متاع زائل وبعدها يعودون للعذاب الشديد يوم القيامة على سوء أعمالهم، وأن يعلموا بأن هذه الحياة الدنيا تشبه في فنائها وزوالها وقلة أهميتها كماء أنزله الله من السماء فاختلط بالأرض فأنبتت ألواناً من النبات مما يأكله الإنسان كالحبوب والثمار والبقول، ومما تأكله الأنعام من

الكلأ والشعير والتبن، واقتربت من الانتفاع والتمتع بزخرفها وزينتها، وتيقن الإنسان أنه قادر على حصادها والانتفاع الفعلي بمنتوجاتها وغلالها، فما أن يتحقق ذلك حتى يأتي أمر الله بهلاكها بجائحة من الجوائح الكثيرة فتصبح كأن لم تكن عامرة من قبل، مما يعطي هذا الإنسان آية واضحة لمن يتفكر أن الله تعالى هو الخالق المدبر، وهو القادر على كل شيء، وهو المستحق العبادة.

فانظروا إذن أيها الناس إلى آيات الله ومعجزاته، واعلموا أنه سبحانه يدعوكم إلى دار السلامة والأمان، دار الآخرة، بدلاً من هذه الدار الدنيا المليئة بالآفات والمصائب، وأنه تعالى قد وضع بين أيديكم سبيل الهداية إلى الطريق القويم، وما عليكم إلا أن تختاروه دون غيره فتكونوا من أهل تلك الدار الآمنة من كل ضرر، كما واعلموا أن لمن يحسن الإيمان والعمل منكم الجزاء الحسن بالخلود في جنات النعيم، وأن له زيادة على ذلك بحلول رضوان الله الأكبر عليه بالإضافة لما يعطيه من الشفاعة لمن يأذن بها منهم، وأن وجوههم ستبقى خالية من كل قتر وسواد وظلمة وهوان ومذلة، وأنهم خالدون في جنة النعيم، بينما لمن لم يؤمن واختار الكفر والأعمال السيئة والمعاصي الجزاء السيئ المطابق لذلك من سواد الوجه ومذلته، ولن تقبل فيه شفاعة ولن يمنعه من عذاب الله مانع، وأنهم خالدون في نار الجحيم.

وتنقلنا السورة لذكر يوم الحشر لهؤلاء المشركين، وما ينتظرهم فيه ودعوتهم للتقوى قبل فوات الأوان.. فتقول:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

واذكروا يوم الحشر عندما يجمعهم الله تعالى جميعاً ثم يقول لمن اتخذوا مع الله شريكاً إلزموا واثبتوا مكانكم أنتم وشركاؤكم، ثم يفرق بينهم سواء كان شركاؤهم الملائكة الذين زعموا أنهم بنات الله، أو الشياطين الذين تبعوهم، أو الأصنام الذين اتخذوها معبودات لهم، ثم ينطق هؤلاء الشركاء في حوار فيما بينهم عندما ادعوا على الشركاء أنهم أمروهم بعبادتهم فيرد الشركاء بأنهم ما كانوا يشعرون بعبادتهم لهم ولا أمروهم بذلك، وعندها تخرسهم شهادة الله العالم بكل شيء فيكتفون بها قائلين بأنهم لم يسمعوا ولم يبصروا ولم يعقلوا شيئاً من عبادتهم لأنهم كأصنام لا روح فيها، وعندها تذوق كل نفس جزاء ما عملت وقدمت، ويرى كل إنسان الجزاء الحق من رب الحق، ويبطل كل افتراء افتروه في الدنيا وهم لا يجدون أمام الله من يمكنه أن ينصرهم أو يعينهم.

فانظروا في ذلك أيها الناس وقل لهم يا محمد هل لهم غير الله من رازق يرزقهم من السماء والأرض، أو غيره من خلق السمع والبصر لهم، أو غيره من يخرج الحي كالنبات من الأرض الميتة، ويخرج الميت كالبيضة من الطير الحي، أو غيره من يدبر أمور المخلوقات كلها، وستجدهم يعترفون أن الله وحده الذي يفعل ذلك كله، وعندها استنكر عليهم عدم مخافتهم منه تعالى ما داموا يعترفون بأن ذلك كله إليه وحده، وأنه سبحانه هو ربهم الحق الذي إليه كل شيء، وأن ما بعده هو الضلال وهو الباطل، ولذلك استنكر عليهم يا محمد ميلهم وذهابهم إلى غيره سبحانه سواء كان في العبادة أو التحليل والتحريم للأشياء والمعاملات.

وهنا يرد حكم النرد والشطرنج والاختلاف بين العلماء في ذلك مما يرجح أنهما حرام، وإن رأى الشافعي أنهما حلال ما داما لتعليم القتال وليس للقمار واللهو المنكر.. ورأى أبو حنيفة كراهتهما.

ثم تخاطب السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن هذا هو حكم الله وقضاؤه على من خرجوا عن طاعته وكذبوا فخرجوا عن الإيمان، ولذلك قل لهم يا محمد موبخاً فيما إذا كان هناك من معبوداتهم من يخلق الخلق ابتداء ثم يعيد إحياءهم بعد موتهم، وقل لهم إن لم يجيبوك بأنه هو الله تعالى وليس غيره الذي يفعل ذلك فكيف ينصرفون عن الحق إلى الباطل؟واسألهم أيضاً مستنكراً فيما إذا كان هناك من شركائهم من يهدي إلى الحق، ورد عليهم إن لم يجيبوا بأن الله وحده هو الحق، وهو الذي يهدي إلى الحق، وأنه بالتالي الأحق أن يتبع في العبادات والطاعات كلها، وليس من لا يملك أن يصل للهدى إلا إذا وجد من يعرفه به ويدله على سبيله، مما يجزم بسوء حكمهم على

الأمور، ولا سيما أن أكثرهم من الرؤساء الذين لا يتبعون إلا الحدس والتخمين في أنها آلهة وأنها تشفع، وأنه لا حجة معهم في ذلك، وأما أتباعهم فهم تبعاً لهم في ذلك، وأن عليهم أن يعلموا أن الظن والحدس لا يغني من عذاب الله شيئاً لأن عذاب الله يقين والظن لا يستوي مع اليقين مطلقاً في مجال العقائد ولا يكفي، وليعلموا بأن الله عليم بكل ما يفعلونه من الكفر والتكذيب ولن ينجوا من الحساب الشديد.

وتأتي السورة بعدها للإشارة إلى القرآن وموقف المشركين منه، وموقف الرسول عليه وآله وصحبه السلام وأتباعه والمؤمنين جميعاً بعدهم منهم.. فتقول:

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ
فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ
فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ
أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا
تَعۡمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ
إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ
ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ
ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا
يُظۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا
شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ
عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ
تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٥٢﴾
۞وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا
فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ
﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ
يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي

ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا
يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ
لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو
فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

مبينة أنه ما كان يتهيأ لأحد أن يأتي بمثل هذا القرآن من عند غير الله ثم ينسبه إلى الله تعالى لإعجازه في وصفه ومعانيه وتأليفه، ولكنه كان تصديق التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب إذ قد بشرت به فجاء مصدقاً لها في تلك البشارة وفي الدعاء إلى التوحيد والإيمان بالقيامة، كما أنه تصديق النبي محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لأنهم شاهدوه قبل سماع القرآن منه، وأنه في نفس الوقت يبين ما في تلك الكتب، وما فيه من الأحكام، وأنه بلا شك منزل من عند الله تعالى.

ثم تسأل السورة مقرعة لهم فيما إذا كانوا يقولون بأن محمداً عليه وآله وصحبه السلام قد اختلقه من قبل نفسه، وإذا كانوا يفعلون ذلك فليأتوا هم كبشر بسورة واحدة تشبهه إن كان مفترى، مما يجزم أنه من عند الله تعالى إذ لن يستطيعوا لا هم ولا أي شخص من دون الله أن يأتي ولو بسورة واحدة من فعله، وأنهم يكذّبون به وهم يجهلون معانيه وتفسيره مع أن المفروض بهم أن يعلموا ذلك بالسؤال قبل أن يأتيهم حقيقة ما وعدوا به من نزول العذاب بهم، فوقعوا تحت قاعدة (من جهل شيئاً عاداه)، وأن مثل هذا الذي وقع منهم حصل في الأمم السابقة في تكذيبهم لرسالات الله تعالى لرسله، مما أوجب الهلاك والعذاب بهم.

ثم تقرر السورة بأن هناك من أهل مكة من سيؤمن بالقرآن مهما طال تكذيبهم، كما أن منهم من يبقى على إصراره في الكفر حتى يموت، كأبي طالب وأبي لهب وغيرهما، وكذلك من غير أهل مكة من جميع الكفار، فاطمئن يا محمد لذلك ولسبب تأخير العقوبة عنهم، ولكن قل لهم يا محمد عند تكذيبهم لك بأن لك ثواب عملك في التبليغ والإنذار والطاعة لله تعالى وعليهم الجزاء من الشرك، وأن أحداً لا يؤاخذ بذنب الآخر، وانظر إليهم تجد منهم من يستمع إليك ظاهرياً بينما قلبه لا يعي شيئاً مما تقوله من الحق وتتلوه من القرآن لأنه قد أقفل أذنيه عن السماع كالأصم، وكذلك النظر إذ قد أقفل عينيه عن رؤية الآيات الكونية الدالة على الهدى كالأعمى، فهم يهزؤون ولا يجدّون باستماعهم ونظرهم فاطمئن لتصرفهم الخاطئ، وتأكد أن الله تعالى لا يظلم بعذابه أحداً قد اختار لنفسه الشقاء بالإصرار على الكفر والمعصية والمخالفة لأمر خالقه.

وكذلك انظر إليهم وإلى حالهم يوم الحشر وهم يرون من شدة هول يوم القيامة قصر مدة وجودهم في الدنيا وهم يتعارفون عند خروجهم من قبورهم ويشتمون بعضهم بعضاً بقول بعضهم لبعض: أنت أضللتني وأغويتني وحملتني على الكفر، ثم ينقطع التعارف مع معاينة الأهوال، وسوقهم إلى عذاب النار بعد أن خسروا الجزاء الطيب لتكذيبهم بيوم الحساب.

ثم تخبر السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن الله تعالى إما أن يريه إظهار دينه في حياته، وقتل من وعد منهم بالقتل وأسر من أسر ببدر أو يتوفاه الله قبل ذلك، وبعدها يساق الباقون للحساب الشديد يوم القيامة، بمعنى إن لم ينتقم الله منهم عاجلاً سينتقم منهم آجلاً، وهو سبحانه لا يحتاج إلى شهيد مع علمه المحيط بهم وبأعمالهم المنكرة من محاربتك يا محمد وتكذيبك، وإن كان لكل أمة رسول شاهد عليهم، وأنه متى جاء رسولهم يوم القيامة قضي بينهم، وكذلك في الدنيا فلا عذاب أو حساب لأمة في الآخرة إلا بعد إرسال رسول إليها في الدنيا.

وانظر يا محمد إلى كفار مكة وهم لفرط إنكارهم واستعجالهم العذاب يسألونك عن موعده، وهذا ينطبق على كل أمة كذبت رسولها، ولذلك أجبهم يا محمد بأنك لا تملك لنفسك الضر ولا النفع، وأن ذلك ليس لأحد غير الله تعالى، وأن لهلاكهم وعذابهم وقت معلوم عند الله تعالى لا غير بحيث إذا حل فلا يمكنهم أن يتأخروا ساعة في الدنيا ولا يتقدموا عنها، وأجبهم أيضاً بأنه إذا جاءهم العذاب فلا نفع لهم بالإيمان حينها، وأن عليهم أن يدركوا هول ما يستعجلون به سواء حل بهم في الليل أو في النهار بالهزائم المنتظرة لهم في الدنيا وبالنار التي تنتظرهم بالآخرة جزاء كفرهم وتكذيبهم.

وانظر إليهم يا محمد وهم يستخبرونك عن العذاب وقيام الساعة،وهل هما حق أكيد، فقل لهم بالقسم أنه حق أكيد، وأنهم لن يفلتوا منه،وأن الواحد منهم سيكون مستعداً أن يفتدي نفسه بكل ما في الأرض من مال لو استطاع التخلص من ذلك العذاب، ولكنها الحسرة تعتصر قلوب رؤسائهم وقد رأوا العذاب ولما يقذفوا فيه بعد، وعندها ينتهي بهم الأمر فيقولون ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾، ويحسم الأمر بينهم وبين أتباعهم بالعدل ودون أن يظلم منهم أحد.

وبعدها تقف السورة للتنبيه لأمر هام فتقول: انتبهوا لما أقول لكم ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ و﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلا مانع يمنعه من إنفاذ وعده وإن جهل ذلك الكثيرون، وأنه تعالى بيده حياة خلقه وموتهم، وإليه مرجعهم يوم القيامة للحساب بالجنة أو النار.

فيا أهل مكة، ويا قريش، ها هي الموعظة الصادقة قد جاءتكم من ربكم وخالقكم بالقرآن ومواعظه وأحكامه، وأن فيه ما يشفي صدوركم من الشك والنفاق والخلاف والشقاق، وفيه الهدى والرشاد لمن يتبعه، وفيه الرحمة والنعمة لمن يعيش عليه من المؤمنين.. فقل لهم يا محمد أن يقبلوا عليه ولا يكفروا به ولا يكذبوه وليفرحوا به وهو الممثل لفضل الله ورحمته عليهم وعلى الناس جميعاً لأنه ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ في هذه الدنيا من متاع وأولاد، بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام «من هداه الله للإسلام وعلمه القرآن ثم شكا الفاقة كتب الله الفقر بين عينيه إلى يوم يلقاه» ثم تلا هذه الآية.

وقل لهم يا محمد بأن كل ما أنزله الله تعالى عليكم من رزق، سواء من الأنعام أو الزروع، فحرمتم ما حرمتم منه بأهوائكم وأحللتم ما أحللتم، فهل أذن الله لكم بهذا التحريم والتحليل أم هو الكذب والافتراء على الله تعالى؟! وماذا يظنون بهذا الافتراء على الله عندما يلقونه سبحانه للحساب يوم القيامة، فهل يحسبون أنه لا يؤاخذهم على ذلك؟! وأنه عليهم أن يعلموا أنه تعالى عندما يتفضل عليهم بالتأخير والإمهال فإنه لا يعفو عنهم وهم المصرون على عدم شكره تعالى على نعمه وعلى تأخير العذاب عنهم وهم المواصلون للكفر والتكذيب لرسوله.

وتواصل السورة مخاطبة الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام وأمته بشأن إحاطة علم الله بكل ما يعملونه لينال كل جزاءه حقاً وعدلاً مهما عمل ومهما قال من حق أو من باطل.. فتقول:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا

يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

أن انظر يا محمد، أنك لا تكون في شأن من عبادة أو غيرها إلا والرب مطلع عليك، وأنهم لا يعملون من عمل إلا والله تعالى يعلمه وهم يجترحونه، وأن شيئاً أو أمراً مهما قل أو كثر في الأرض أو في السماء إلا وعلم الله محيط به، كالمسجل في كتاب واضح، وأن من تولاه الله تعالى بحفظه ورعايته فلا يخاف يوم القيامة ولا يحزن، وأنهم بالتحديد أولئك المؤمنون الأتقياء من كل شرك ومعصية،وأن جزاءهم البشرى في الحياة الدنيا بمعرفة مكانهم من الجنة عند الموت ومما ينتظرهم من الرحمن والرضوان بدلالة قوله تعالى ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ﴾ [التوبة: ٢١]، ولهم البشرى في الآخرة بالخلود في الجنة، وأن ذلك هو وعد الله تعالى لهم الذي لا تبديل ولا خلف لوعده،وأنهم بذلك سيصيرون إلى الفوز العظيم.

وأما أولئك المكذبون الكافرون فلا تحزن يا محمد لتكذيبهم، واعلم أن ﴿ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ فكل القوة والغلبة والقدرة له تعالى وحده، فهو ناصرك ومعينك ومانعك، وأنه تعالى سميع لأقوالهم وأصواتهم، والعليم بأفعالهم وأعمالهم وسيجدون الجزاء العادل على ذلك كله.. كيف لا وله سبحانه ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يحكم فيهم بحكمه ولا راد لحكمه، وأما أولئك المشركون فإنهم لا يتبعون في الحقيقة شركاء وإنما هو مجرد الظن بأنها تشفع أو تنفع، وهيهات أن ينفعهم ظنهم مع تكذيبهم، ثم إن الله تعالى هو وحده الواجب عبادته وحده وقد جعل للناس الليل ليرتاحوا فيه من عناء العمل في النهار وجعل النهار ضياء ليكدوا ويعملوا فيه، مما يوفر لهم علامات ودلالات لكل من يسمع ويرى سماع رؤية واعتبار.

وأما من يزعم على الله تعالى أنه قد اتخذ ولداً فإنه سبحانه غني بملكه السموات والأرض وكل من وما فيهن، غني عن الصاحبة والأولاد، وعن الشركاء والأنداد، فكيف يزعمون ذلك ولا حجة لهم بزعمهم وإنما هو مجرد القول وهم يجهلون معنى ما يقولون من إثبات الولد لله تعالى، والولد يقتضي المجانسة والمشابهة والله تعالى لا يجانس شيئاً ولا يشابه شيئاً!! فقل لهم يا محمد إن من يختلق الكذب على الله لا يفوز ولا يأمن، وإنما هو مجرد متمتع بمتاع هذه الدنيا الزائل ثم يعود بعدها للحساب يوم القيامة ليذوق أشد وأغلظ العذاب بكفره وتكذيبه.

وتذكّر السورة أولئك الكفار بنوح عليه السلام والرسل من بعده وما لاقوه من تكذيب أقوامهم، وما حل بهم بسبب ذلك فتقول:

﴿۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى
ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ
٧١ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢
فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٧٣ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ
بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٧٤ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ
وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ
مُّبِينٞ ٧٦ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ٧٧ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا
لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ٧٨ وَقَالَ
فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ٧٩ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ٨٠
فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨١
وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨٢ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ
مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٨٣ وَقَالَ مُوسَىٰ
يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ
لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٦ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا
لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٧ وَقَالَ مُوسَىٰ
رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ
عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٨٨ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا
فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨٩ ۞وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ
وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ
إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ
بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢ وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ

إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

مخاطبة الرسول عليه وآله وصحبه السلام أن يذكرهم بقصص المتقدمين، ويخوفهم العذاب الأليم على كفرهم، فاقرأ عليهم يا محمد خبر نوح عندما تساءل فيما إذا كان قومه قد عظم وكبر عليهم طول لبثه فيهم وتذكيرهم وتخويفهم بآيات الله، وعن عزمهم على قتله وطرده، وأنه قد اعتمد على الله تعالى ليكفيه أمرهم وينصره عليهم، وأن عليهم أن يدعوا شركاءهم لينصروهم إن استطاعوا ولن يستطيعوا أمام الله تعالى فعل شيء مهما فعلوا، وأن في ذلك تعزية لنبيه محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وتقوية لقلبه.

ثم تواصل استكمال قصة نوح وهو عليه السلام يقول لقومه بأنهم إن أعرضوا عما جاءهم به من الله فليس ذلك لأنه سألهم أجراً يصعب عليهم دفعه، لأن الله تعالى هو الذي يثيبه على تبليغ رسالته وعلى طاعته له بأن يكون من المسلمين الموحدين له تعالى.. فماذا فعلوا أمام هذا الترغيب والتهديد؟ لقد كذبوه فنجاه الله مع المؤمنين من قومه بواسطة السفينة وجعل منهم سكاناً للأرض يخلفون من غرقوا في الطوفان، فانظر يا محمد وقل لقومك لينظروا ما انتهت إليه عاقبة من أنذرهم نوح وأعرضوا عن الاستجابة؟!

ثم تشير السورة إلى إرسال رسل آخرين من بعد نوح لأقوامهم، وكيف أنهم كفروا كقوم نوح بالبينات وتجاوزوا الحد في الكفر والتكذيب، ثم أرسل المولى عز وجل بعدهم موسى وهارون بآياته لفرعون وقومه، ولكنهم أيضاً استكبروا عن اتباع الحق وأصروا على الشرك إذ اتهموا موسى بالسحر فاستنكر عليهم قولهم وأكد لهم أن من يأتي بالسحر لا يمكن أن يفلح ويفوز، فعادوا بالرغم من هذا التأكيد إلى الجمود على التقليد دون إعمال فكر ولا نظر مستنكرين كيف يصرفهم بدعوته عن عبادة الأصنام التي توارثوها عن آبائهم ليكون كما زعموا العظمة والملك والسلطان له ولأخيه في أرض مصر بدلاً منهم، وأنهم لذلك يرفضون الاستجابة لهما.

ولم يكتف فرعون بذلك بل أمر باستدعاء كل السحرة في مملكته ليردوا على ما ظنه السحر من آيتي العصا واليد البيضاء، وأن السحرة قد تجمعوا وألقوا حبالهم بطلب موسى فقال لهم بأن كل هذا السحر سيبطله الله بقدرته لأنه سبحانه لا يقر عمل السحر وغيره من الفساد،ولكنه يوضح ويبين الحق لكل ذي عقل وعينين رغماً عن كره

المجرمين من آل فرعون لذلك، وبالفعل بعد أن ابتلعت عصا موسى كل سحرهم بقدرة الله تعالى لم يستجب فرعون وأشراف قومه لذلك بدواعي عتوهم وتكبرهم وتجاوزهم الحد في الكفر لأنه كان عبداً فادعى الربوبية، فلم يجرؤ أن يؤمن من بني إسرائيل إلا أولاد من أرسل إليهم موسى لشدة خوف آبائهم من بطش فرعون، فدعاهم موسى أن يتوكلوا على الله ويسلموا أمورهم كلها له سبحانه إن كانوا مؤمنين حقاً، فجأروا بالدعاء إلى الله ألا ينصر الظالمين عليهم فتحصل فتنتهم عن الدين، ولا يمتحنهم فيعذبهم على أيدي أولئك الظالمين، وأن ينجيهم ويخلصهم برحمته من الأعمال الشاقة التي يمارسها فرعون وقومه بهم.

وتذكر السورة كيف أن الله تعالى قد أمر موسى وأخاه أن يتخذا لقومهما معابد في مصر وذلك بأن يجعلوا القبلة في مساكنهم ويقيموا فيها الصلاة بدلاً من الكنس التي هدمها فرعون، فيأمنوا بذلك بطشه بهم، كما عليهم أن يستبشروا بنصر الله لهم في النهاية، وكيف أن موسى عليه السلام قد دعا الله أن يطمس على كل ما أعطى فرعون وقومه من الزينة والأموال التي استخدموها للضلال، وأن يقسّي قلوبهم ويشد عليها فلا يؤمنون وقد أصروا على الكفر وذلك ليروا العذاب الأليم جزاء ما اقترفوه من كفر وأذى وتكبر، وكيف أن الله سبحانه قد استجاب لدعوة موسى وأخيه فأحال كل أموالهم بجميع أصنافها إلى حجارة.

ولكنه سبحانه أمر موسى وأخاه أن يستقيما على أمرهما ويثبتا عليه بمواصلة دعوة فرعون وقومه إلى الإيمان إلى أن تتحقق الإجابة، وألا يسلكا طريق من لا يعلم حقيقة وعد الله ووعيده، وكيف أن الله تعالى قد فصل مياه البحر إلى قسمين وجعل بني إسرائيل يجتازونه إلى الشاطئ الآخر بسلام بينما أغرق فرعون وجنوده عندما حاولوا اللحاق بهم للبطش والاعتداء عليهم، وكيف أن فرعون وقد رأى الهلاك المحتوم بالغرق قال بأنه آمن وصدق بأنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، وأنه من المسلمين الموحدين المستسلمين بالانقياد والطاعة، وكيف أنه قد جاءه الرد على هذا الإيمان المتأخر بأنه لن ينفعه وقد رأى الغرق بعد أن كان يرفض الاستجابة ويصر على الكفر والفساد، وكيف أن المولى سبحانه قد قضى بحكمه أن ينجيه فقط بجثته بأن يلقيها البحر على مرتفع من الأرض لتطمئن قلوب بني إسرائيل وقد شاهدوه لموته، وليكون آية لهم ولمن بقي من قومه لم يدركه الغرق ولم يعلم الخبر وبخاصة أن الكثير من الناس مصر على الإعراض عن التأمل والتفكر بآيات الله تعالى، وكيف أن الله تعالى قد يسر لبني إسرائيل بذلك الوصول بسلام إلى البر وأنزلهم منزل صدق محمود مختار في الشام بالإضافة لمصر

ورزقهم لذراريهم من بني قريظة والنضير وغيرهم ممن كانوا في عصر النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم الكثير من الطيبات، واستمروا على الإيمان بمجيء محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وانتظار خروجه، ولكنهم ما أن ظهر من غير قومهم حتى حسدوه فاختلفوا في أمره عليه وآله وصحبه السلام عندما أوحى الله تعالى بالعلم بالقرآن ومحمد عليه وآله وصحبه السلام، وأنه عز وجل يحكم بينهم ويفصل يوم القيامة فيما اختلفوا حوله في الدنيا، فيثيب الطائع ويعاقب العاصي.

وتنتهي السورة بالحديث عن الإيمان، ومعنى ربطه بالمشيئة والإذن الإلهيين، ودعوة الناس كلهم للإيمان، وأمر الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بالتزام الوحي إليه.. فتقول:

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن
رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ
ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ
حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ
كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ
كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا
بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا
تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ
قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ
أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ
بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ
فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعۡ مَا
يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

مخاطبة النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ومريدة غيره، أي أنك يا محمد لست في شك ولكن غيرك يشك، ولذلك قل يا محمد لعابد الوثن بأنه إن كان في شك من القرآن فليسأل من أسلم من اليهود أمثال عبد الله بن سلام ما دام يقر لليهود أنهم أعلم منكم لكونهم أصحاب كتاب، وإن كنت في ضيق صدر بكفر هؤلاء فاصبر واسأل من يقرأون الكتاب من قبلك عن صبر الأنبياء السابقين على أذى قومهم وكيف كانت عاقبة أمرهم.

ثم تؤكد الآية له عليه وآله وصحبه السلام بما يزيده طمأنينة بأن ما جاءه من القرآن والوحي هو الحق من ربه، وأن عليه أن يحذر من الشك في ذلك، كما ليحذر أن يكون من المكذبين الخاسرين، وكل ذلك خطاب يراد به غير النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم الذي لا يتطرق الشك والتكذيب إليه مطلقاً. ثم تخاطبه عليه وآله وصحبه السلام فتخبره بأن من أصروا على الكفر والتكذيب ولم تنفعهم الدلائل والحجج لا يمكن أن يؤمنوا مهما خاطبتهم يا محمد بدلالات أخرى حتى يحل بهم العذاب الذي تتوعدهم به وعندها لن ينفعهم هذا الإيمان في شيء، ثم تخبره عليه وآله وصحبه السلام بأن ذلك قد وقع في القرى السابقة عندما أعرض أهلها عن الإيمان ولم ينج منهم إلا من آمن قبل وقوع العذاب، وأن قوم يونس هم الذين كشف الله عنهم العذاب عندما آمنوا لمشاهدة علاماته وقبل وقوعه، وعندها انتفعوا بإيمانهم وكشف الله عنهم ما توعدهم به يونس من العذاب في الدنيا واستمروا في حياتهم بآجالهم.

ثم تخبر السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن الله تعالى لو شاء بقضائه وقدره لاضطر جميع الناس إلى الإيمان ولم يترك لهم الخيار فيه ولذلك لا تلجأ يا محمد إلى إكراه أحد منهم على الإيمان سواء كان عمك أبو طالب أو غيره.. ثم تؤكد هذا المعنى في الآية التالية بأن إنساناً ما لن يؤمن إلا بإذن الله، أي دون أن يفرض ذلك على الله أو يخرج فيه عن إرادته سبحانه، لأنه عز وجل قادر على التدخل لمنعه أو إرغامه عليه لو قضى بذلك وقدر، ولكنه جل وعز أعطى الإنسان قدرة الاختيار وفي نفس الوقت بقي في ذلك في إطار الإرادة الإلهية، فاجتمع الإذن الرباني مع الاختيار الإنساني ولا تناقض في ذلك، وبقي يتحمل كل إنسان اختياره الإيمان أو الكفر، وحلول الرجس والعذاب على الذين لا يعقلون أمر الله تعالى ونهيه فلا يختارون لأنفسهم الإيمان والطاعة قبل فوات الأوان.

ثم تأمر السورة الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بأن يدعو الكفار للنظر في المصنوعات الدالة على الصانع والقادر على كل ما في السموات والأرض، وأن

يخبرهم بأن من لا يؤمن ويرفض الإيمان ويختار ويصر على اختياره الكفر بدلاً من الإيمان لا يمكن أن تفيده الآيات الدالة على وجود الله تعالى ووحدانيته وقدرته على كل شيء، وكأنه وأمثاله ينتظرون حصول الوقائع من أمثال ما حصل في قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، وأن يدعوهم للانتظار لحصول ذلك مهدداً متوعداً ومبيناً لهم بأن الله تعالى ينجي رسله والمؤمنين معهم متى حل العذاب وأن ذلك حق لعباده المؤمنين عنده، وأن يقول لهم، وبالذات كفار مكة، بأنهم إن كانوا في شك في الإسلام الذي يدعوهم إليه فإنك لا يمكن أن تعبد معهم غير الله من الأوثان وإنما تعبد الله فقط الذي يميتهم، وإنك مأمور أن تكون من المصدقين بآيات ربهم وأن تلتزم الدين الحق لا الشرك، وألا تعبد المعبودات التي لا تنفع ولا تضر وإلا كنت عابداً ما لا يعبد، وأن تخبرهم بذلك كله وبأن أحداً لن يزيل أي ضر يقضي به الله على أحد إلا هو سبحانه، كما لا يرد قضاءه بخير إلا هو سبحانه، وأن تخبرهم أيضاً بأن القرآن قد جاءهم من ربهم، وأن من يصدق بمحمد ويؤمن بما جاء به فقد اهتدى لنفسه، ومن يترك الرسول والقرآن ويعبد الأصنام فإنه يضل على نفسه، وأنك يا محمد لست بحفيظ لأعمالهم وإنما مبلغ أمر الله لهم، وأنك مأمور باتباع ما يوحى إليك والصبر على الطاعة وعن المعصية، مما جعله عليه وآله وصحبه السلام يخاطب الأنصار بالذات «إنكم ستجدون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» وأنهم بالفعل لم يصبروا فأمرهم بالصبر حتى يحكم الله الذي لا يحكم إلا بالحق.

دليل سورة يونس ـ ١٠

- إنها سورة مكية باستثناء القليل من الآيات، وأنزلت في ١٠٩ آيات.

-بعد أن توبخ من تعجب لإرسال رسول منهم تورد العديد من الأدلة على قدرته تعالى ووحدانيته.

- تحذر من استعجال إجابة الدعاء بالشر كالخير عند الدعاء على النفس او الأحباء فلا يجوز الاستخفاف بالدعاء.

- تنذر من أفظع الظلم بالنفس عند الشرك وعبادة الاصنام.. عند تكذيب آيات الله وقدرته على إيقاع العذاب بهم وكأنهم لم يعتبروا من الأمم السابقة.. كما كأنهم لم يروا أن أصنامهم لا تضر ولا تنفع.

- تقرر المشركين ليعترفوا بأن الله تعالى هو خالق السموات والأرض ومدبرهما.. ولا ينكر عاقل ذلك فكيف يعبدون غيره؟! وكيف يعتمدون على الظن سبيلاً للإيمان وهو

سبيل لا تقوم به حجة في الإيمان؟! وكيف يعاندون في إنكار معجزة القرآن كرسالة يعجز البشر جميعاً عن الإتيان بمثله؟!

- تقرعهم لما يوقعونه من ظلم بأنفسهم بكفرهم بالقرآن وبتأكيد الحساب لهم على ذلك بأشد العذاب وأن الفدية بملء الأرض ذهباً لن تنقذهم من ذلك، فشتان بينهم وبين المؤمنين وما ينتظرهم من النعيم في الجنان.

- وتورد الإشارة لما حصل مع الرسل وتكذيب أقوامهم لهم وما انتهوا إليه من عقاب بسبب ذلك.. وتخص بمزيد من التفصيل قصة موسى مع فرعون وكيف أعمل بنو إسرائيل التحريف والتغيير في شريعة موسى حتى جاءهم القرآن لينقذهم وينقذ البشرية جميعاً من ظلمهم لأنفسهم باتباع الباطل.

- وتؤكد معنى أن مشيئة الله تعالى لا تعني الفرض وإنما هو الاختيار البشري المتمشي مع المشيئة الربانية.

- وتكرر التذكير بأن القرآن رسالة الله تعالى للناس كافة، وأن من يتبعه فقد اختار الهدى لنفسه ومن ينكره فقد اختار الضلال والهلاك.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ تركزت السورة من أولها إلى آخرها على إبراز معجزة القرآن ودعوة الناس للإيمان به والتزام أحكامه بدلالة عجزهم عن الإتيان بمثله كلياً أو جزئياً ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾.

٢ ـ ولتحقيق ذلك أوردت الكثير من الأدلة على قدرة الله تعالى على إيقاع العقاب بالمكذبين لولا وجود الرسول عليه وآله وصحبه السلام بينهم ولولا استغفارهم.

٣ ـ كما أوردت تهديدات عديدة للمكذبين وعبدة الأصنام بأن أحداً لن يفلت من العقوبة بدلالة ما حصل مع الأقوام السابقين.. وأما المؤمنون المحسنون في طاعاتهم فلهم الحسنى وزيادة من جنة ورضا ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

٤ ـ التذكير بأن رازقاً غير الله تعالى لهم غير موجود بإقرارهم.

٥ ـ التأكيد أن عقائد المشركين والمكذبين جميعاً تقوم على الظن و﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ مما يفرض إعتماد اليقين في الاستدلال على العقائد.

٦ ـ إنقاذ فرعون ببدنه ليكون عبرة للمشركين والمؤمنين على حد سواء ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾

٧ ـ رغم تسمية السورة بيونس إلا أن قصته مع قومه جاءت مجرد إشارة ولكنها

كافية إذ رفع عنهم العقاب الجماعي كغيرهم لأنهم آمنوا بعد التهديد به وقبل نزوله ﴿إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾.

سورة هود (١١)

التقديم

قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: «شيبتني هود وأخواتها»، وأخواتها كثيرة مثل الواقعة والمرسلات وعم والتكوير والحاقة والمعارج والقارعة.

تبدأ السورة بعد الافتتاح بـ ﴿الٓرۚ﴾ بذكر ما يتضمنه القرآن من أحكام وأن في رأسها الأمر بعبادة الله وحده والمداومة على استغفاره والتوبة إليه، وأن ما يفعله المشركون من معاداة النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم والمؤمنين لا يغيب عن علام الغيوب الذي يعلم مكان معاش كل دابة على الأرض ومكان دفنها بعد موتها، والذي خلق السموات والأرض ليبتلي عباده بالاعتبار والاستدلال على قدرته الكاملة وعلى البعث، وأنه إذ يؤخر العذاب عنهم لا يعني حبسه عنهم بل هو من رحمته بهم ليعطيهم فرصة الإيمان أو ولادة من يؤمن وإلا فمتى حل بهم سيرون الحقيقة التي لا تحتمل الهزء والتساؤل.

كما تذكّر السورة بما يقع من الكافر بالذات عندما يشعر باليأس لذهاب النعمة وبالفخر لعودتها ودون اعتبار وتذكر للخالق المدبر الذي يبتلي لينال الصابر الشاكر ثوابه الأوفى.. وتخاطب الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام لكي لا يلتفت لما يقوله الكفار المكذبون من زعمهم بأنهم يؤمنون معه لو تخلى عن ما يذكر به كفرهم وأصنامهم من سوء أو أن يأتيهم بكنز أو بملك كآية تدلل على معجزته عليه وآله وصحبه السلام، وأن يقول لهم بأنه نذير لهم، وأنهم إن أصروا على التكذيب فليدعوا من يريدون وليتعاونوا جميعاً على الإتيان بعشر سور مثل القرآن، وأن يطمئن إن لم يفعلوا ذلك فهو دليل كذبهم وعجزهم، وأن يخبرهم بأن الله تعالى لن ينتقص نصيب أي إنسان همّه الحياة الدنيا ومتاعها بل سيعطيه إياه كاملاً ولكنه لن يجد في الآخرة إلا النار جزاء كفره وتكذيبه، وأن مثل هذا الإنسان لن يكون كمن يتبع النبي عليه وآله وصحبه السلام على بينة من ربه وبرهان ويجد شاهداً يوم القيامة يشهد له على صدق عمله.

وأما من يكفر بالقرآن ويكذب النبي عليه وآله وصحبه السلام فالنار بانتظاره، وأنه هو الظالم أشد الظلم لنفسه ولغيره لتكذيبه وكفره وسيجد من يشهد على تكذيبه يوم

الحساب، وأنه عندما أمهله الله بعذابه لم يكن لعجز في قدرته ولا لمناصريه من دون الله ولكنه الفضل الذي يعطي الفسحة لمن لديه عقل يعقل ليراجع به نفسه قبل فوات الأوان فيرى الحق حقاً فيتبعه ويسمع الحق حقاً فيلتزمه، ولا يبقى سادراً في غيّه فينتهي إلى خسارة نفسه.

وتأتي بعدها السورة لذكر المؤمنين الصالحين الخاشعين المطيعين وما ينتظرون من جزاء الجنة والخلود فيها. وتذكّر بالبون الشاسع بين هؤلاء وأولئك، هؤلاء المبصرين السامعين للحق والتزامه وأولئك العمي الصم عن الحق واتباعه.

ثم تورد العديد من قصص الأنبياء عليهم السلام للنبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم منبهة له على ملازمة الصبر على أذى الكفار إلى أن يكفيه الله أمرهم، فتذكر قصة نوح عليه السلام وما لاقاه من عنت وصلف وكبرياء وسخرية وتعذيب قومه له، وكيف أنه بذل السنين الطوال في جدالهم بالحق ولكنهم أعرضوا وكذبوا وآذوا، فأعلمه المولى سبحانه أنه لا حاجة به للمزيد من الجهد لأنه لن يؤمن منهم أحد أكثر ممن آمنوا مما جعله يدعو عليهم وهو يستعد لإنجاز بناء السفينة التي حملته ومن آمن معه ومن كل زوجين اثنين لينجوا من الغرق الذي كان نصيب الآخرين جميعاً بما فيهم ابنه كنعان الذي كان كافراً.

ثم تذكر قصة هود عليه السلام مع قومه عاد، وكيف أنهم أصروا على كفرهم وكيدهم به وبمن آمن معه حتى أهلكهم الله بعذابه.. ثم قصة صالح عليه السلام مع قومه ثمود وكيف حاول معهم الدخول في الإيمان بالله وحده والإخلاص له في العبادة، ولبى المولى تعالى له دعوته فجاءهم بمعجزة الناقة التي عقروها فجاءتهم الصيحة فقضت عليهم بكفرهم وتكذيبهم وعنادهم.

ثم قصة إبراهيم عليه السلام مع الملائكة الذين مروا به في طريقهم إلى قوم لوط، وكيف أن الله قد كافأه بأن تلد له زوجه العجوز سارة إسحاق ومن إسحاق يعقوب بعد أن كانت زوجه هاجر قد ولدت له إسماعيل، وكيف أنه عليه السلام جادلهم في إنقاذ المؤمنين من قوم لوط، وكيف أن لوطاً عليه السلام قد لاقى ما لاقى من العنت الشديد من قومه وهم يريدون الوصول للملائكة ظناً منهم بأنهم من البشر، وكيف أن الله تعالى قد أنزل بهم عقوبة لم ينزلها بغيرهم جزاء الفاحشة التي لم يأتها قوم مثلهم ألا وهي إتيان الذكور من دون النساء.

ثم قصة شعيب عليه السلام، خطيب الأنبياء، مع قومه مدين، وكيف أنهم لم يبالوا بكل ما دعاهم إليه للتوقف عن تطفيف الكيل والميزان وإشاعة الفساد في الأرض،

فأنزل بهم تعالى عقوبة الصيحة كما أنزل بقوم صالح فقضت عليهم تماماً.. ثم جانب من قصة موسى عليه السلام مع فرعون وما لاقاه من قوم فرعون ومن قومه بني إسرائيل الذين انقسموا بين مصدق ومكذب بالتوراة بالرغم مما رأوا من المعجزات..

وتنتهي السورة بتذكير النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بالمقصد من إيراد هذه القصص عليه، سواء من بيان قدرة الله على إنزال الجزاء العادل بكل قوم في الدنيا وغداً في الآخرة ليخوف بذلك الكفار في قريش وغيرها إلى يوم القيامة، وعلى إعطاء الثواب الكامل لكل من يؤمن ويطيع، ثم تأمره عليه وآله وصحبه السلام ليأمر أمته بالاستقامة والتوبة والوقوف عند كل أمر ونهي من الله تعالى، وألا يعتمدوا على أحد من الكافرين طلباً للنصر والعون وإنما على الله وحده، وأن يحرصوا على إقامة الصلاة بأوقاتها الخمسة، ناهيك عن النوافل منها، وأن يصبروا على الأذى في سبيل الله.

وأن يعلموا ويتأكدوا أن الله تعالى لا يوقع العذاب بأمة إلا بظلم وكفر وتكذيب وأذى وفساد يقع منها وترفض الاستجابة لدعوته تعالى لهم، وأن يعلم عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام أن في هذه القصص ما يدعوه للثبات والصبر أكثر فأكثر على الأذى في طاعة الله تعالى، وأن يدعو غير المؤمنين مهدداً لهم متوعداً إذا استمروا على كفرهم وغيّهم بنزول العقوبة الشديدة عليهم يوم القيامة إذا لم يؤمنوا ويلتزموا طاعة الله رب العالمين.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾

فبعد الافتتاحية بحروف ﴿الٓر﴾ تشير السورة إلى أن الله تعالى قد أنزل على رسوله

المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم القرآن كتاباً جعلت آياته محكمة كلها من حيث لا يتسرب إليها خلل ولا باطل، ولا يلحقها تناقض ولا تضارب، فكل ما فيها من أوامر ونواه، ووعد ووعيد، وثواب وعقاب، وحلال وحرام جاءت محكمة مبينة في آيات مفصلة بإنزالها على الوقائع منجمة، وذلك لأن منزلها سبحانه حكيم إذ يحكم الأمور، وخبير إذ يحيط بكل كائن موجود أو سيوجد.

وأنها قد بدأت بالأمر بعبادة الله تعالى وحده، وأن المصطفى عليه وآله وصحبه السلام نذير للناس كافة بين يدي عذاب يوم القيامة، وبشير بجنة عرضها السموات والأرض أعدت لكل المؤمنين المتقين، وأن على جميع الناس أن يؤمنوا به تعالى وبرسوله عليه وآله وصحبه السلام ويلتزموا كل أمر ونهي يبلغهما لهم ويستغفروا عما وقع من خطاياهم ويرجعوا إليه تعالى دائماً بتوبة صادقة طائعين عابدين، وأنهم إن فعلوا ذلك يمتعهم بثمرة الاستغفار والتوبة من سعة في الرزق ورغد في العيش ولا يعرضهم للاستئصال بالعذاب كما فعل بمن أهلك قبلهم، وأن ذلك لهم طول حياتهم، وإن أبوا فلينتظروا أشكالاً من العذاب في الدنيا من قحط وغيره، وأشد منها في الآخرة، وأنه سبحانه يعطي بذلك كل صاحب عمل صالح جزاء عمله، وينزل بكل من يعرض ما يخشى وقوعه به من العذاب الأليم يوم الحساب، بعد أن يرى ما يرى من الابتلاءات في الدنيا، كيف لا وكل البشر عائدون بالبعث إلى حساب الله تعالى القادر على ذلك وعلى كل شيء.

ثم تشير السورة إلى ما يقدم عليه المشركون من معاداتهم للنبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم والمؤمنين، ويظنون أنهم تخفى على الله أحوالهم، فيخفون حقدهم وبغضهم للرسول عليه وآله وصحبه السلام والمؤمنين ويظنون بجهلهم أن طعنهم يخفى على الله تعالى، وأن عليهم أن يعلموا أنه لا يوجد دابة تدب على الأرض إلا وقد حدد الله لها رزقها، وأنه تعالى على علم شامل بكل ما يتعلق بها من حيث مكان وجودها وحركاتها وسكناتها وفي نفس الوقت مكان انتهائها ودفنها في التراب بعد الموت حيث تودع في الأرض ليوم البعث، وأن ذلك كله معلوم لدى رب العالمين كالمسجل في كتاب.

وتحدثنا السورة بعدها عن قدرة الله تعالى على الخلق والبعث والجزاء فتقول:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا

سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ
لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ
نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ
ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ
كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

مبينة أن قدرة الله تعالى كعلمه لا تحد بحدود، وأنه سبحانه خالق السموات والأرض في ستة أيام، تنبيهاً لخلقه على التثبت للأمور على مهل وإتقان، وهو سبحانه القادر على خلقها بـ (كن) ولحظة من الزمن، وأنه سبحانه قد أحاط بسلطانه وتدبير كل ملكه سواء كان يابساً أو سائلاً أو غازياً، وأنه فعل ذلك لكي يختبر خلقه وعباده بالتفكر والاعتبار والاستدلال على كمال قدرته وعلى بعث مخلوقاته للحساب فيثيب المحسن ويعاقب المسيء لكل ما يفعل في جميع جوانب الحياة البشرية، بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام: «أيكم أحسن عقلاً، وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله».

ثم تنبه الرسول عليه وآله وصحبه السلام إلى أنه عندما يورد الأدلة على البعث بعد الموت للمشركين فإنهم يتهمونه بالسحر، وأنه عندما يؤخر إنزال العذاب عنهم إلى مدة معينة فإنهم من باب الاستخفاف والاستهزاء والتكذيب يستأخرونه، ولكنهم ما إن يحل بهم، كما حصل يوم بدر، حتى يروا كيف يحيط بهم جزاء استهزائهم وتكبرهم، وأنه عندما ينعم الله تعالى على الإنسان بنعمة الصحة والرخاء والرزق ثم يسلبها منه فإنه ما أسرع أن يعبر عن يأسه من الرحمة كما حصل مع الوليد بن المغيرة وعبد الله بن أبي أمية، ولكن عندما ينعم عليه بنعمة بعد ضر أو فقر أو شدة فإنه يزعم أن الخطايا التي تسوؤه قد ذهبت عنه، وأنه يستشعر الفرح والفخر لما ناله من السعة وينسى شكر الله عليه، وأن ذلك هو ديدن عامة الناس باستثناء المؤمنين الصابرين على الشدائد والصالحين في أعمالهم والذين يستحقون بذلك المغفرة والأجر العظيم.

ثم تتحدث السورة مع الرسول عليه وآله وصحبه السلام وما يعانيه من تكذيبهم لرسالته، والفرق بين المكذبين والمصدقين، فتقول:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ
مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ

سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ
فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ
ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا
ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ
وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ
ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ
ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ
لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ
﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ
ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ
فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ۞

قائلة له عليه وآله وصحبه السلام: إنه لعظيم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب فتظن أنهم يزيلونك عن بعض ما أنت عليه عندما فكرت أن تدع سبّ آلهتهم لما طلبوا منك أن تدعو ربك أن ينزل عليك كنزاً أو ملكاً، فهل أنت مستجيب لهم؟ ثم تؤكد له عليه وآله وصحبه السلام بأنه مبلغ، وأنه عالم بذلك وأنه لذلك لا يكون منه ما فكر به، والله حافظ وشهيد على كل شيء، ثم تقول له: انظر إليهم وقد سقط الأمر في أيديهم وقد حجهم القرآن، وهم يتهمونك بأنك اختلقته، فليأتوا هم بعشر سور مثله مفتريات كما يزعمون، وليستعينوا بجميع الكهنة والأعوان، واعلم بأنهم لن يقدروا على ذلك، وهم البلغاء، فتقوم الحجة عليهم، فقل لهم بأنه الحق والصدق الذي لا يأتي بمثله أحد، وأنه لا معبود بحق إلا الله تعالى، وأن عليهم أن يخضعوا ويسلموا بذلك.

كما عليهم أن يعلموا أن من يطلبوا البقاء في هذه الحياة الدنيا والتمتع بزينتها فإن الله تعالى يكافئهم على أي عمل بر يعملونه من صلة رحم أو صدقة بصحة الجسم وكثرة الرزق ولكن لن يعطوا أي حسنة على ذلك في الآخرة، وأن على المؤمنين أن يعلموا

ذلك فيجمعوا بين مكافأة الدنيا التي يسعى لها الكفار ويتميزوا عنهم بثواب الآخرة بسبب إيمانهم فتكون لهم الجنة ولأولئك النار بعد أن أفسدوا أعمالهم بكفرهم.

وقل لهم يا محمد: أفمن كان على بينة من ربه في اتباع النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ومعه من الذكر ما يتبيّن به هو كغيره ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها؟! فمن يتبع النبي عليه وآله وصحبه السلام هو الذي على بينة، وهو الذي يجد الشاهد وهو النبي عليه وآله وصحبه السلام من الله تعالى، وما يأتي به من بيان وبرهان وآيات من هذا القرآن ببلاغة نظمه وجزالة معانيه، وما يبينه (كتاب موسى) التوراة التي تصف النبي عليه وآله وصحبه السلام ﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ كما يصفه الإنجيل، فمن يؤمن بالتوراة والإنجيل دون تحريف ولا تبديل، ويؤمن بمحمد عليه وآله وصحبه السلام، فإنه مؤمن مسلم لأنه التزم البشارة، ولكن من لم يلتزم البشارة وكفر بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم من بني إسرائيل فموعدهم النار هم وقريش وحلفاؤهم بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام أيضاً «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»، ولذلك لا تكن يا محمد أنت وجميع المكلفين في شك بأن الكافر في النار.

وتعقب السورة مؤكدة بأنه لا أحد أظلم لنفسه ممن يفتري الكذب على الله تعالى لأنه يفعل ذلك، ولأنه أضاف كلامه تعالى إلى غيره، وزعم أن له شريكاً وولداً، وأن الأصنام شفعاؤه عند الله، وأنه لذلك سيحاسب على ذلك كله حساب الفضيحة والتشهير إذ يلعنه الأشهاد والملائكة الحفظة بالمناداة بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام «وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله» وما ذلك إلا لأنهم بالإضافة لكفرهم ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بصدهم لأنفسهم ولغيرهم عن الإيمان والطاعة، ويأخذون الناس إلى الشرك والمعاصي، ولا يخشون الحساب يوم الحساب، وهم لن ينقذهم شيء من عذاب الله في الدنيا لا من قدراتهم ولا من أنصارهم من دون الله، وأنهم سيجدون ضعف العذاب على قدر كفرهم ومعاصيهم، وبقدر إعراضهم عن سماع الحق وإبصاره، وأنهم هم الذين يخسرون أنفسهم بعد أن يضيع عنهم افتراؤهم ويجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام جزائهم يوم الحساب، هذا بينما يجد المؤمنون الصالحون المطيعون المخلصون الخاشعون أنفسهم في الجنة والخلود في نعيمها، فيظهر البون الشاسع بين هذين الفريقين: فريق العُمي عن رؤية الحق، والصم عن سماع الحق، وفريق البصير بالحق، السميع للحق، فهلا فكر ذوو الألباب بذلك

ورأوا الاستحالة في الجمع بينهما واتخذوا لأنفسهم موقفاً حاسماً قبل مجيء ساعة الندم ولات ساعة مندم!

وتنقلنا السورة هنا إلى قصص الأنبياء عليهم السلام لتضعها بين يدي المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم داعية له للصبر كما صبروا فتبدأ بقصة نوح عليه السلام فتقول:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ
ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ
﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا
وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ
لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾
قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا
يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ
ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ
إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ
فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم
مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا
نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ
ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ
رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ
ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ
ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى

مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ
يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ
مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ
أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ
وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ
أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

منبهة له عليه وآله وصحبه السلام لملازمة الصبر على أذى الكفار إلى أن يكفيه المولى عز وجل أمرهم، فتقول له أن انظر يا محمد إلى ما حصل مع أخيك نوح عليه السلام عندما أرسل إلى قومه وقال لهم بأنه نذير مبين لهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا به تعالى ويطيعوه ويعبدوه وحده ويتركوا أصنامهم، وأنه يخشى أن يحل بهم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ سواء كان الطوفان في الدنيا أو النار في الآخرة، فماذا أجابه قومه؟

لقد تصدى له رؤساؤهم الكفار بكبرهم، واستنكروا رسالته لكونه بشراً مثلهم، ولكون أتباعه عامة الناس وأراذلهم وضعفاءهم، وهم الذين، كما زعموا، اتبعوه دون إمعان نظر وإنما من أول ما ابتدأوا يسمعون كلامه، وأنهم ليس لهم في اتباعه أي فضل يميزهم عنهم، مما يشير إلى إنكار كفار مكة لنبوته صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وأن قوم نوح قد خاطبوه ومن آمن معه بأنهم يرونهم كاذبين، فرد عليهم نوح متسائلاً فيما سيكون عليه موقفهم لو كان على يقين من ربه، وأنزل عليه الرسالة والنبوة وبراهين الهداية للإيمان والإسلام، وأنهم هم لم يفهموها، وقال: فهل ألزمكم قبولها وأفرض عليكم المعرفة بها مع الكراهية لها؟ وقال بأنه لا يطلب أجراً منهم مقابل تبليغهم رسالة الله إليهم ودعوتهم إلى الإيمان به تعالى، لأن ذلك يثقل عليهم، ولأن ثوابه على الله في التبليغ.

وقال بأنه لن يستجيب لطلبهم ويطرد الأراذل الذين آمنوا به، كما طلبت ذلك قريش من النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أن يطرد الموالي والفقراء، كما تقدم بيانه في (سورة الأنعام)، ووضح لهم السبب بأنهم سيخاصمونه لو فعل ذلك عند الله فيجازيهم سبحانه على إيمانهم ويجازيه على طردهم، وبأنه يعتقد أن طلبهم هذا دليل

جهل لاسترذالهم لهم، وبأنه لن يجد أحداً يمنعه من عذاب الله إن طردهم بسبب إيمانهم، فعليهم أن يدركوا ذلك.

ثم أخبر قومه بتذلُّله وتواضعه لله عز وجل، وأنه لا يدعي ما ليس له من خزائن الله، وإنعامه على من يشاء من عباده، وأنه لا يعلم الغيب وإنما الله وحده الذي يعلمه، وأنه لا يدعي لنفسه منزلة الملائكة عند الناس، وأنه لا يمكن أن يقول لمن تحتقرهم عيونهم بأن احتقارهم لهم سبب إبطال ثوابهم عند الله أو النقص من ذلك، لأن الله تعالى وحده العالم بما في أنفسهم فيجازيهم عليه ويؤاخذهم به، ولذلك فإنه سيكون من الظالمين لنفسه ولغيره لو قال ذلك.

وتأتي السورة فوراً لتذكر دورهم في هذا الجدال بالرد عليه بأنه قد أطال الجدال والخصومة معهم، وأنه بإمكانه أن يدعو ربه لينزل عليهم ما يتوعدهم به من العذاب إذا كان صادقاً في قوله، فيرد عليهم بأن ذلك إلى الله وحده إذا قضى عليهم بالهلاك في عذاب معين، وأنهم لن يستطيعوا أن يفلتوا من ذلك، وأن نصحه لهم بمداومة هذا التبليغ لهم لن ينفعهم ما داموا يرفضونه، وما دام المولى سبحانه لم يقض عليهم بالضلال وإنما ترك لهم الاختيار بينه وبين الهدى، مما يؤكد وقوع الجزاء عليهم حقاً وعدلاً من ربهم الذي إليه الرجوع يوم الحساب بعد أن ينزل الهدى.. فلا تقولوا بأن نوحاً قد اختلق الوحي والرسالة، لأنه لو فعل ذلك فسيحل به العقاب بينما هو في الحقيقة بريء من ذلك ومن كل إجرام وكفر وتكذيب يقعون فيها.

وتخبرنا السورة في القصة بأن الله تعالى قد أعلم نوحاً بأن قومه قد جمدوا على الكفر، وأنهم لن يؤمن منهم أي فرد آخر، وأن عليه ألا يحزن ويأسف بسبب ذلك، بل عليه أن يبادر لصنع السفينة تحت رعاية الله تعالى وتوفيقه، وألا يطلب منه تعالى أن يمهلهم بعد أن قضى عليهم بالغرق.

ثم تذكرنا السورة هنا بقوم نوح وهم يسخرون منه كلما مروا به ورأوه يواصل صناعة السفينة في البر، وأنه يرد عليهم بأنهم سيرون ماذا سيحل بهم غداً من الغرق فيرون مردود سخريتهم مما سيحيق بهم من خزي الغرق، الغرق الذي لم يطل بهم انتظاره حتى بدأ بظهور فوران الماء من الأفران، وعندها أمره ربه تعالى أن يحمل في السفينة من كل جنس من المخلوقات ذكراً وأنثى، ليبقى أصل النسل بعد الطوفان، ويحمل أهله إلا ابنه (كنعان) وزوجه (واعلة) اللذين كانا كافرين، ويحمل من آمن به والذين لم يتجاوزوا كما قال ابن عباس الثمانون بمن فيهم بنوه الثلاثة: سام وحام ويافث وزوجاتهم.

وأمره تعالى أن يركبوا في السفينة باسم الله تعالى الذي يجريها ويرسيها بقدرته سبحانه، والتي أخذت تتلاطم بها الأمواج كالجبال من حولها، وعندها ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ كنعان الذي كان كافراً دون أن يعلم بذلك والده، وإنما كان يظنه مؤمناً، بأن يركب معهم في السفينة ولا يبقى مع الكافرين الذين سينتهون جميعاً إلى الغرق.

ولكن ابنه الذي أخذته العزة بالإثم رفض دعوة والده فرد عليه بأنه سينزل على جبل مرتفع يمنعه من الماء فلا يغرق، ورد عليه والده بأنه لا يوجد أي مانع في هذا اليوم من غرق الكفار، وانتهى الأمر أن فصل بينهما الموج وغرق الولد، وبعدها جرت بهم السفينة إلى أن انتهى الأمر، وصدر الأمر الإلهي إلى السماء فأمسكت ماءها وإلى الأرض فغاض ماؤها، واستقرت السفينة على جبل الجودي قرب مدينة الموصل في العراق، وأخذت تتآكل حتى القرون الأخيرة بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام «لقد بقي منها شيء أدركه أوائل هذه الأمة».

وعَوداً إلى قصة نوح عليه السلام نجده يدعو الله تعالى بأن ينقذ الله له ابنه من الغرق بوعده تعالى لأنه من أهله، وأنه تعالى وعده الصدق، وأنه عليه السلام كان قطعاً لا يعلم أن ابنه كافر ولذلك دعاه للركوب معهم في السفينة ولا يبقى خارجها فيغرق ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بمعنى ولا تكن مع من لست منهم.. وهنا جاءه الوحي بإعلامه بأن ابنه ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الذين وعده تعالى أن ينجيهم، وأنه ليس مؤمناً ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ من الكفر والتكذيب اللذين يبطنهما، ولذلك نهاه تعالى عن هذا الطلب، وحذره لئلا يكون أو كراهية أن يكون من الجاهلين الآثمين، الأمر الذي جعل نوحاً عليه السلام يستعيذ به تعالى متذللاً حتى لا يطلب ما لا يعلمه من حقه ولا يجوز له أن يطلبه، ويطلب المغفرة على ما فرط من السؤال، والرحمة بعد أن ابتلعت الماء وجفت، فنزل بسلامة وأمن ونعم، هذه السلامة والنعم عمت وتعم كل مؤمن إلى يوم القيامة لأنهم كلهم جاءوا من ذرية نوح ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ كما يخرج منها كل كافر إلى يوم القيامة ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وتنتهي قصة نوح بمخاطبة السورة للمصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بأن ذلك القصص من أنباء ما غاب عنه عليه وآله وصحبه السلام، وأن الله تعالى قد أوحى بها إليه ليقف عليها بعد أن كانوا هو وقومه غير عارفين بأمرها، لا من حيث ما فعله قوم نوح معه ولا من حيث نهايتهم بالغرق، وأنه تعالى يأمره بالصبر ﴿فَٱصْبِرْ﴾ على مشاق الرسالة وإذاية من يدعوهم كما صبر نوح، وواصل القيام بأمر الله وتبليغ رسالته، واعلم

أن عاقبة الدنيا هي الظفر للمتقين وعاقبة الآخرة هي الفوز لهم وهم الحريصون على تجنب الشرك والمعاصي.

وتنقلنا السورة لعرض جوانب من قصة أخرى، قصة عاد وأخيهم هود، فيزداد المصطفى عليه وآله وصحبه السلام ثباتاً بها على الثبات إذ تقول:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ
﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ
ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا
تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ
لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ
مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن
دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ
إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا
نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ
رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ
عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾

أن انظر يا محمد إلى قوم عاد عندما أرسلنا إليهم أخاهم هوداً، فدعاهم لترك عبادة الأوثان والإقبال على عبادة الله تعالى، لأنه سبحانه خالقهم ومعبودهم الواحد الأحد، وأنهم إن عبدوا غيره فهم كاذبون عليه جل وعز، وأكد لهم أنه لا يطلب منهم أي أجر مقابل تبليغ رسالة ربهم هذه إليهم لأن أجره وثوابه على الله تعالى خالقه، ولأنه حري بهم أن يعقلوا ما جرى على قوم نوح قبلهم عندما كذبوه، ودعاهم لطلب المغفرة من ربهم على خطاياهم، وبالتوبة إلى الله تعالى والإقلاع عن كل المعاصي، والإقبال على كل الطاعات، وعندها يرسل السماء بالمطر المتتابع عليهم يسقي بساتينهم وزروعهم التي كانت تملأ ما بين الشام واليمن، وليس هذا فحسب بل يزيدهم خصباً على خصب، وعزاً على عز، وولداً على ولد، وحذرهم من الإعراض عن ذلك والبقاء على الكفر.

فما كان منهم إلا أن أنكروا أنه جاءهم بحجة واضحة على ما يقول، وأنهم مصرون على الكفر بسبب ذلك وأنهم يعتبرون دعوته إليهم مجرد سوء، كجنون أصابه من

أصنامهم، فرد عليهم بأنه يشهد الله تعالى على نفسه، ويشهدهم ليعرفوا أنه بريء من عبادة تلك الأصنام التي يعبدونها، وأنه إن كان لديهم ولدى أصنامهم أي قدرة على إيقاع الضرر به فليفعلوا ذلك دون تأخير، مما يجزم بأنه كان على ثقة تامة بنصر الله تعالى له، وهذا القول تكرر مثله من المصطفى عليه وآله وصحبه السلام لقريش كما تكرر من نوح لقومه.

ثم يواصل قائلاً بأنه رضي بحكم ربه ووثق من نصره، وأنه لن يمكنهم الوصول إلى ضره ما دام سبحانه هو الآخذ بناصية كل دابة على الأرض، فالرزق والأجل بيده وحده فلا يملك أن يرد قضاءه وقدره أحد في ذلك ولا جلبه، إذ أنه سبحانه قد ألزم خلقه بمنهاج واضح محدد، لا خلل فيه ولا تفاوت، فلا يأخذ منهم أحداً إلا بالحق.. ثم يؤكد لهم بأنهم إن يتولوا ويعرضوا عما يدعوهم إليه فهو لا يتحمل مسئولية ذلك لأنه قد أدى مهمته كاملة عندما أبلغهم بما أرسل به إليهم بمنتهى البيان والتوضيح، وأفهمهم بأن عاقبة إعراضهم هو إهلاكهم وخلق من هو أطوع لله منهم في توحيده وعبادته، وأنهم لا يملكون القدرة على إلحاق الضر به سبحانه بهذا التولي والإعراض لأنه تعالى هو الحافظ لكل شيء والحافظ لرسله من أن ينالهم أي سوء.

وتأتي السورة سريعاً إلى عاقبة عاد عندما حل قضاء الله وقدره بهم بإنزال العذاب بهلاكهم، وأنه تعالى نجى هوداً ومن آمن معه برحمته سبحانه، لأن أحداً لا ينجو إلا برحمته تعالى مهما كانت أعماله صالحة حتى قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم عن نفسه عندما سأله الصحابة تعقيباً على قوله «لن ينجي أحداً منكم عمله»: ولا أنت يا رسول الله؟ فقال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه».. وأنه تعالى قد نجَّى هوداً وأتباعه من عذاب الريح العقيم في الدنيا والعذاب الشديد في الآخرة.

وتنتهي قصة هود عليه السلام وقومه عاد بالتنبيه إلى ما فعلوه من التكذيب بالمعجزات وإنكارها، وعصيانهم رسول الله إليهم، واتباعهم أوامر رؤسائهم العتاة المتجبرين المتكبرين الطغاة، والتنبيه إلى عاقبتهم إذ ألحقوا بلعنة في هذه الدنيا كما سيلحقون بلعنة أشد يوم القيامة بسبب كفرهم بربهم وبنعمه عليهم فكانوا مبعدين عن رحمة الله.

وتأتي السورة بعدها بالرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم إلى قوم ثمود وأخيهم صالح، وما فعلوه معه، وما انتهت إليه عاقبتهم فتقول:

﴿۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًاۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ

وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ (٦١) قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ
هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ (٦٢) قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن
كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ
تَخۡسِيرٖ (٦٣) وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا
بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ
مَكۡذُوبٖ (٦٥) فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ (٦٧)
كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ (٦٨)﴾

فتؤكد له عليه وآله وصحبه السلام وللكفار ممن يدعوهم إلى الإسلام بأن من يفعل فعلة تلك الأقوام السابقة يناله العذاب، فانظروا إلى قوم ثمود عندما أرسل إليهم أخوهم صالح ماذا قال لهم وماذا فعلوا به؟ وإلى ماذا انتهوا، واعتبروا قبل فوات الأوان:

فقد دعاهم صالح عليه السلام إلى الإيمان بالله وحده وعبادته وحده إذ هو سبحانه خالقهم من الأرض إذ خلق أباهم آدم أصلاً منها، وإذ جعلهم في هذه الأرض لعمارتها وسكنها فملأوها بالحرث والغرس وأنواع العمارة فأحسنوا العمل ونال الرجل الصالح منهم الذكر الجميل بعد موته بينما الرجل الفاجر لم يخلف إلا الذكر السيء، ثم دعاهم لطلب المغفرة منه تعالى من عبادة الأصنام، والتوبة والرجوع إلى عبادته تعالى وحده لأنه سبحانه قريب الإجابة لمن دعاه.. فماذا ردوا عليه؟

قالوا له بأنه كان مرجواً أن يكون فيهم قبل ذلك السيد المطاع، وأنهم يأملون أن يتخلى عن دعوته لهم بترك دينهم ويعود إليهم، ولكنهم انقطع رجاؤهم بإصراره على دعوتهم إلى الله، فاستنكروا عليه هذه الدعوة وترك ما يعبد آباؤهم، وأنهم أصلاً يشكون في ما يدعوهم إليه.. فرد عليهم كما رد إخوانه الرسل على أقوامهم المكذبين كما فعل نوح من قبل بأنه بما منحه الله من معجزة وحجة لا يمكنه أن يجد من ينصره منه إن عصاه، وأن ليس فيما يدعونه إليه من العودة إلى عبادة الأصنام، دين الآباء، إلا المزيد من الضلال والبعد من الخير.

ثم جاءتهم معجزة الناقة عندما أخرجها لهم من جبل، حسب طلبهم، مقابل دخولهم في الإيمان، فقال لهم ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ﴾ فدعوها تأكل في أرض الله

ولا حاجة بكم أن تتكفلوا بذلك، ولا بشربها، وإياكم أن توقعوا عليها أي سوء وإلا حل بكم عذاب قريب من وقت إيقاعه بها.

وبدلاً من الاستجابة لأمره عمدوا إلى عقرها فقال لهم تمتعوا بنعم الله عز وجل في داركم وبلدكم خلال ما يتبقى لكم في هذه الدنيا وهي ثلاثة أيام لا غير، فاصفرت واحمرت واسودت ألوانهم خلالها وهلكوا في اليوم الرابع بعد أن أكد عليه السلام لهم صدق هذا الموعد، وأنه بالفعل حل بهم في وقته المحدد ونجى الله تعالى صالحاً منه هو ومن آمن معه، نجاهم من الخزي في الدنيا، وأوقع عذاب الصيحة بالآخرين فماتوا جميعاً نتيجة تلك الصاعقة التي وقعت عليهم فسقطوا على وجوههم وطردوا من رحمة الله في الدنيا والآخرة.. فهل تريدون ذلك لأنفسكم يا كفار قريش ويا عرب؟!

وتنقل السورة النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ومن يدعوهم من مشركي العرب بالذات إلى قصة إبراهيم عليه السلام وما تقود إليه من قصة ابن عمه لوط عليه السلام، فتقول:

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾
فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةًۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ
﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠
عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ
وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا
فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ
وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا
يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى
هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا
لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾
قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ
إِلَّا ٱمْرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا
جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِىَ
مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

أن انظروا ماذا حصل مع الملائكة رسل الله تعالى عندما جاءوا إبراهيم عليه السلام فألقوا السلام فرد السلام ثم جاءهم بعجل مشوي إكراماً للضيف لأنه كان صاحب بقر، وكان كريماً، وكان مبادراً بالتكريم للضيف.

والضيافة في نظر الإسلام لثلاثة أيام بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام «الضيافة ثلاثة أيام وجائزته يوم وليلة فما كان وراء ذلك فهو صدقة»، وهي على الندب لا الوجوب، والسنة أن يبادر الضيف بالأكل ولذلك عندما قبضوا أيديهم خاف أن يكون وراءهم مكروه يقصدونه فطمأنته الملائكة بحقيقة أمرهم وأنهم مرسلون إلى قوم لوط لتنفيذ حكم الله فيهم، وكانت امرأته سارة قائمة تسمع وترى فضحكت متعجبة من خوف زوجها من الموقف وهم ثلاثة فقط، فبشرها الملائكة بإسحق وذلك بعد ولادة هاجر لإسماعيل وتمني سارة ولو كانت آيسة لكبر سنها، كما بشروها بيعقوب من إسحاق، فتعجبت كيف تلد وهي عجوز آيسة من ذلك، وزوجها طاعن في السن، فردوا عليها بأنه لا عجب في قدرة الله تعالى وقضائه وقدره، وأخبروها بتكريم الله عز وجل لأهل بيت إبراهيم بإنزال رحمته وبركاته عليهم، كيف لا وهو الحميد المجيد.

وما أن انتهى هذا المشهد حتى تنقلنا السورة إلى إبراهيم عليه السلام وهو مسرور بالبشرى وقد ذهب عنه الخوف وأخذ في الجدال معهم دفاعاً عن قوم لوط لأنه عليه السلام ﴿أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ﴾ أي كثير الأسى والرجوع إلى الله، كثير الأسى لفوات الإيمان والعمل الصالح على قوم لوط، الأمر الذي جعل الملائكة يظهرون وهم يدعونه أن يكف عن الجدال في قوم لوط لأن حكم الله تعالى قد صدر في حقهم بإنزال العذاب بهم ولن يقدر أحد على رده عنهم.

ثم يظهر في المشهد التالي لوط عليه السلام والملائكة عنده وهو يشعر بالضيق الشديد لمجيئهم ولخوفه عليهم من سوء قومه حتى قال ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ أي شديد الشر، ثم يظهر قومه وهم يسارعون إليه بعد أن أخبرتهم امرأة لوط الكافرة بمجيء فتية فائقي الجمال وأنهم نزلوا في ضيافة زوجها لوط، وأن تلك العادة المنكرة متأصلة فيهم إذ كانوا عليها قبل مجيء لوط إليهم، فعرض عليهم بناته أن ينكحوهن بالزواج المشروع، وأن لا يهينوه ويذلوه في ضيوفه، وليستحوا من الخزي الذي يجرونه عليه، فردوا عليه بأنهم لا حق لهم في بناته لأنه سبق أن رفض تزويجهن لهم كما كانت سنتهم وأنه يعرف ما يريدون.

وعندما رأى إصرارهم على غيهم وضعفه أمامهم تمنى لو وجد عوناً على ردهم فظهر وهو يتفجع ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً﴾ أي أنصاراً وأعواناً ليردوا أهل الفساد، أو أن

تكون له عشيرة قوية يلجأ إليها، فأمرته الملائكة أن يفتح لهم الباب فضربهم جبريل بجناحيه فطمس عيونهم فعموا وولوا هاربين على أعقابهم وهم يصرخون: النجاة النجاة، وطمأنته الملائكة بأنهم رسل الله، وأن قومه الفجار لن يصلوا إليه بمكروه، وأن عليه أن يخرج وأهله مع منتصف الليل ولا ينظر أحد منهم خلفه باستثناء امرأته الكافرة التي تلتفت فتهلك، وأن موعد نزول العذاب بهم مع الصبح، ويظهر لوط عليه السلام في المشهد التالي وهو خارج مسرعاً مع ابنتيه حتى وصلوا سالمين إلى إبراهيم، وحمل جبريل عليه السلام قرى لوط الخمسة بجناحيه ثم رفعها ونكسها وألقاها وانهمرت الحجارة بقدرته تعالى عليها، وكانت من الحجر والطين، وعليها علامات ولا تشبه حجارة الأرض، وقضت عليهم تماماً، وانتهت القصة بـ ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ مهددة ظالمي كل عهد ومخاطبة المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بأنها ليست ببعيدة من ظالمي قومه وأمته إلى يوم القيامة.

وتنقلنا السورة بعدها إلى قصة أخرى تضعها بين يدي الرسول عليه وآله وصحبه السلام وأمته والبشرية جمعاء، إنها قصة مدين وأخاهم شعيب، وهي تقول:

﴿۞وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ
ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوۡمِ
أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ
﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ
أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ
ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ
أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ
وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ
صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ
﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ
عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي
بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ
يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾

أن انظروا يا محمد وأمته من جديد إلى ما حصل مع شعيب عليه السلام عندما أرسل إلى مدين: فقد دعاهم إلى عبادة الله وحده، وإلى التوقف عن تطفيف الكيل والميزان، ولا سيما أنهم كانوا في سعة من الرزق وكثرة من النعم، ولأنه يخاف أن ينزل بهم عذاب شديد يحيط بهم ويقضي عليهم، وقد قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «ما أظهر قوم البخس في المكيال والميزان إلا ابتلاهم الله بالقحط والغلاء»..

كما دعاهم إلى الانتهاء عن الخيانة والإفساد في الأرض، وأن ما يبقيه الله تعالى لهم بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر بركة من التطفيف إذا صحبوا ذلك بالإيمان، وأنه عليه السلام ليس برقيب يرقب كيلهم ووزنهم وإنما هي الأمانة تفرض عليهم ذلك.. فماذا كان ردهم؟ لقد استهزءوا بكثرة صلاته وأنها تدعوهم لترك الكفر الذي ورثوه من آبائهم، أو أنها تنهاهم عن فعل ما يشاءون في أموالهم ولو كان بخساً ما دام بالتراضي، وسخروا من طلباته هذه منهم بقولهم له ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾، فعاد ونهاهم عن العبث بالدنانير والدراهم إذ كانوا يقرضون من أطرافها ليستفيدوا من القراضة ببيعها وزناً.

والإسلام يعتبر قرض العملة المعدنية من الإفساد في الأرض حتى كان القاضي ابن العربي المالكي يقطع يد فاعلها، علماً بأن القراضة هي نوع من تزييف العملة بالأخذ منها وإنقاص وزنها.

ونعود إلى شعيب عليه السلام فنجده يبين لقومه بأن ما لديه من بينة تبين حكم الله في تحريم التطفيف، وأنه تعالى قد أوسع عليه الرزق، يفرضان عليه ألا يرتكب مخالفة ما يأمرهم به بأن يستجيب لطلبهم ويوافقهم على التطفيف، وأنه عليه السلام لا يريد في أمرهم إلا فعل الإصلاح فيصلحوا دنياهم بالعدل وآخرتهم بالعبادة، وأن هذا هو جهده واستطاعته، وأن توفيقه في ذلك عائد إلى توفيق الله تعالى له لأنه يعتمد عليه سبحانه ويرجع إليه في كل ما ينزل به من نوائب كما يرجع إليه في الآخرة ويوم الحساب.

ثم يظهر وهو يواصل مخاطبتهم بأن لا تحملهم معاداتهم له لرفض الإيمان فيصيبهم ما أصاب الكفار قبلهم ولا سيما أن ما حل بقوم لوط ليس بعيداً عنهم، ثم يدعوهم لطلب المغفرة من ربهم والتوبة عن كفرهم ومعاصيهم وعندها سيجدون رحمة الله ومحبته شاملتين لكل ما فعلوه مهما استكثروه. ولكنهم زعموا أمام دعوتهم لذلك

أنهم لا يفهمون طلبه لأنه يتحدث عن البعث والنشور وهي أمور غائبة عنهم، ولذلك كانوا يعرضون عن سماع قوله ويحتقرون كلامه ولا سيما أنه كان ﴿ضَعِيفًا﴾ في بصره لفقدانه، وفي معرفته بالدنيا وسياستها، وأنه ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أي لولا عشيرته التي يستند إليها ويتقوى بها لقتلوه رجماً بالحجارة، ولن يستطيع أن يمتنع من ذلك.

وهنا يظهر عليه السلام وهو يجادلهم بقوله ﴿أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إذ رأيتم عشيرتي أعظم من الله تعالى مع أنه يملككم، فكيف تتخذون ما جئتكم به منه تعالى وراء ظهوركم وتمتنعون من قتلي في نفس الوقت مخافة قومي؟ واعلموا أن الله عالم بكل ما تعملونه من كفر ومعصية، وأترك لكم هذا الإصرار على الكفر والمعصية لتتحملوا وحدكم عاقبة ذلك بما ينتظركم من العذاب المخزي والمهين، وأنني سأواصل دعوتكم لترك ذلك ووضع الإيمان والطاعة محلها، وبعدها ستعلمون ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ منا لأنه سيذوق وبال أمره مهما أمهله الله العذاب الأكيد، ولأنني سأبقى أرقب وانتظر ذلك العذاب الذي سيحل بكم بينما النصر والرحمة التي أنتظرها لنفسي وللمؤمنين معي.

وتنتهي قصة شعيب وقومه مدين يظهرون وقد صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة خرجت بها أرواحهم من أجسادهم فسقطوا جاثمين على وجوههم تماماً كما حصل مع قوم صالح، ونجا شعيب والمؤمنون معه برحمة الله تعالى وفضله من ذلك.. وفي ذلك خطاب غير مباشر لكفار قريش والعرب ومن على شاكلتهم.

وتأتي السورة على نهاية ذكر القصص للرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بإشارة سريعة إلى موسى مع فرعون فتقول:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾

أن انظر يا محمد وأمتك والبشرية جميعاً إلى ما حصل مع موسى عليه السلام عندما أرسله تعالى إلى فرعون وأشراف قومه بالمعجزات والحجج البينة، فماذا فعلوا؟

لقد رفضوا الاستجابة لدعوته واتخذوا فرعون إلهاً وخالفوا أمر الله تعالى مع أن أمر فرعون ليس من الصواب في شيء وإلا فبأي عقل يعبد الإنسان إنساناً مثله؟وانظروا إلى عاقبة فرعون وهو يتقدم قومه إلى النار كما تقدمهم ورئسهم في الدنيا، فبئست هذه العاقبة كما بئست تلك الدنيا،كما وانظروا إليهم وهم يلعنون في هذه الدنيا وقد أخذهم

البحر كما سيلعنون في الآخرة، فبئست هذه الآنية التي يتجرعون فيها الشراب المحموم والمذموم معها في الآخرة كما تجرعوا مياه البحر المالحة مع الغرق في الدنيا.. فهل تنتظرون مثل ذلك يا كفار العرب!!

وتنهي السورة سرد تلك القصص بالتنبيه إلى العبرة منها فتقول:

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ١٠٠ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ
أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ
غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ١٠٣ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ
إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ١٠٤ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ
رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧ ۞وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا
كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ١٠٩ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ
فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١١٠ وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا
لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١١ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ
إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ
يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٥﴾

إن ذلك النبأ المتقدم من أنباء القرى نقصه عليك يا محمد، وأنتم تجدون منها القائم الخاوي على عروشه والحصيد الخرب الذي عفى عليه الزمن، وأن أحداً منهم لم يحل عليه العذاب في غير موضعه فلم نظلمهم ولكنهم ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي ورفض الدعوة لهم للإيمان والطاعة، وأن كل ما زعموه من آلهة كانوا يعبدونها لم تستطع أن تدفع عنهم شيئاً عندما نزل بهم العذاب بل على العكس كانوا ضغثاً على إبّالة إذ زادوهم خسارة على خسارة.

واعلم يا محمد بأنه كما أخذ الله هذه القرى التي كانت لنوح وعاد وثمود فإنه

تعالى يأخذ جميع القرى الظالمة، وأن عقوبته لأهل الشرك موجعة غليظة، والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول «إن الله تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، وأن في ذلك لعبرة وموعظة لكل من يخشى عذاب الآخرة حين يجمع كل البشر ويحشرون للحساب، وحين يقف الجميع من البر والفاجر من أهل الأرض، ومن الملائكة أهل السماء ليشهدوا ذلك اليوم الذي لا يؤخره تعالى إلا لوقت محدد حكم به سبحانه وقضاه، وأنه عندما يحل ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ فلا يتكلم فيه أحد بحجة ولا بشفاعة إلا بإذنه تعالى، وأن كلامهم كله مجرد إقرار بذنوبهم، ولوم بعضهم بعضاً، وطرح بعضهم الذنوب على بعض، وأن الناس في ذلك اليوم ينقسمون بين شقي وسعيد، فالشقي الذي اختار في دنياه الكفر والمعصية فينتهي به الأمر إلى النار حيث تتلاحق أنفاسه من شهيق وزفير لشدة الهول في العذاب، عذاب الخلود، باستثناء العصاة من المؤمنين وبعض الحالات، وذلك له تعالى وحده، وأما السعيد الذي اختار الإيمان والطاعة فإنه ينتهي إلى الخلود في الجنة، وأن ذلك عطاء منه تعالى دائم لا ينقطع.

فلا تكن يا محمد في شك من أن آلهتهم باطلة بمعنى قل لكل من شك أن الله عز وجل ما أمرهم به وإنما يعبدونها كما كان آباؤهم يفعلون تقليداً لهم، وأنهم سينالون كامل ما وعدوا به من خير، كالرزق في الدنيا، أو من شر، كالعذاب سواء في الدنيا والآخرة.

واعلم يا محمد بأن الله تعالى قد حكم أن يؤخر بني إسرائيل الذين اختلفوا حول كتاب التوراة الموحى به إلى موسى إلى يوم القيامة لما علم في ذلك من الصلاح، ولولا ذلك لقضى بينهم أجلهم بأن يثيب المؤمن ويعاقب الكافر دون تأخير بغض النظر عن تصديق بعضهم به وتكذيب البعض الآخر، كما هم عليه الآن بحقك يا محمد وبحق القرآن، وأنهم وكل تلك الأمم السابقة سيرون جزاء أعمالهم، وكذلك قومك يا محمد لأن الذي سيجازيهم على أعمالهم هو الخبير العالم المحيط بها كلها.

ولذلك عليكم أنت يا محمد والتائبين معك أن تقيموا على دين الله، وأن تحذروا من الطغيان وتجاوز حدود الشرع، فإن ربكم بصير بكل أعمالكم فيجازيكم عليها.. وهنا قال ابن عباس بأنه ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم آية هي أشد وأشق من هذه الآية، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: لقد أسرع إليك الشيب! فقال «شيبتني هود وأخواتها»، وعندما سئل عليه وآله وصحبه السلام: ما الذي شيبك منها؟ هل هي قصص الأنبياء وهلاك الأمم! قال: «لا ولكن قوله: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾».

ولم تكتف السورة بالأمر بالاستقامة وعدم التجبر على أحد وإنما أمرت أيضاً

بعدم الاعتماد والتودد والطاعة والميل والاسترضاء والمداهنة لأهل الشرك والعصيان، مما يدل على هجر أهل الكفر والمعاصي وإن كانت صحبة الظالم على التقيّة مستثناة من النهي في حال الاضطرار، وأن من يركن لأولئك دون اضطرار تحرقه النار.

ثم تأمر بإقامة الصلاة المفروضة في أوقاتها الخمسة، لأنها حسنات تزيل عن صاحبها ما ارتكب من سيئات دون الكبائر بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام «ما اجتنبت الكبائر»، وأن في هذا الالتزام بالقرآن موعظة وتوبة لمن اتعظ وتذكر.. ثم تأمر بالصبر على ما يلقاه عليه وآله وصحبه السلام هو ومن يتبعه من الأذى لأن في ذلك الإحسان الذي له طيب الجزاء وجزيل المثوبة.

وتصل السورة إلى خاتمتها فتوجز العبر من القصص السابقة، وتتهدد وتتوعد الكافرين، فتقول:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا
مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ
ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ
(١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ
(١١٩) وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ
لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ (١٢١) وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٢٢)
وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ (١٢٣)﴾

فهل كان في الأمم السابقة أصحاب دين وطاعة، وينهون قومهم عن الكفر والمعاصي؟ ولكن القليل منهم من نهى عن الفساد في الأرض فنجوا من العذاب من أمثال قوم يونس الذين آمنوا عندما رأوا علامات العذاب، لأنه لو وقع فعلاً لما رد عنهم إيمانهم ذاك العذاب، لأن كل ظالم مشرك عاص اشتغل بالمال والملذات على حساب العمل للآخرة كان مجرماً واستحق العذاب في الدنيا قبل الآخرة، كيف لا والله تعالى لا يوقع الهلاك بأي قرية بسبب الشرك فقط إذ لا بد أن يضاف إليه الفساد، كما حصل مع كل الأمم السابقة، بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام «إن الناس إذا رأوا الظالم

فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده»، وهل ما فيه أمة الإسلام اليوم إلا أكبر شاهد ودليل؟!

ولتعلموا أنت يا محمد وأمتك بأن الله تعالى قادر على جعل الناس أمة واحدة وعلى دين واحد بأن يجبرهم ويضطرهم للإيمان ولكنه أعطاهم الاختيار بين الإيمان والكفر فما زالوا بسبب ذلك مختلفين بين أنماط من الكفر اللهم إلا من أخذوا بهدى الله تعالى فإنهم اجتمعوا عليه دون اختلاف، وأن حكم الله تعالى في خلقه كان هكذا ولا راد لحكمه، وأن العاقبة أن جهنم ستملأ من الجن والإنس الذين اختاروا الكفر على الإيمان.

وأن هذه القصص يا محمد لا يخبرك بها ربك إلا بقصد تثبيت قلبك وتصبيرك على كل أذى ينالكم أنت وأمتك في سبيل الله، وأن في هذه السورة من العبر والموعظة والذكرى الحق اليقين فالتزموه، وقولوا متوعدين الكفار بأن يتحملوا مصير إصرارهم على الكفر والمعاصي، وسنرى نحن وهم ذلك يوم الحساب، وليعلموا أن ما غيبه الله عنهم من العذاب في الدنيا والآخرة معلوم محدود عنده تعالى، وسيرونه يوم القيامة، فاستمروا أنتم في طاعتكم لله والاعتماد عليه، وحذروا الكفار من علم الله المحيط بكل أعمالهم.

دليل سورة هود ـ ١١

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ١٢٣ آية وقال بصددها عليه وآله وصحبه السلام «شيبتني هود وأخواتها».

- تأمر بعبادة الله تعالى وحده ودوام الاستغفار والتوبة وإلا فلينتظروا العذاب مهما أمهلوا.

- تشير لطلب المشركين أن يأتيهم الرسول عليه وآله وصحبه السلام بكنز أو بملك أو يتوقف عن الهجوم على أصنامهم ليؤمنوا معه.

- التذكير بالفرق الكبير بين المؤمنين وأولئك المشركين.. مدللة على ذلك بجوانب من قصص الرسل السابقين مع رسلهم ليلازم عليه وآله وصحبه السلام الصبر.. فتذكر قصة نوح فهود فصالح فإبراهيم فلوط فشعيب فموسى.

- كما ليلازم المؤمنون معه الثبات على الحق مهما تعرضوا من أذى برجاء الأجر العظيم في الدنيا والآخرة.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ التأكيد على إحاطة الله تعالى بما يخفيه المشركون ويعلنونه من الكفر..

والتحذير من الاغترار بإمهالهم وتأخير العذاب عنهم سواء من حيث النعم أو النقم التي تنزل بهم.. مما يستدعي التفكر والتدبر والاعتبار قبل فوات الأوان ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

٢ ـ دعوة الرسول عليه وآله وصحبه السلام لكيلا يعير أي اهتمام لاتهام المشركين له بالسحر عندما يخوفهم بالبعث والحساب.. ولا يهتم بتظاهرهم بالاستعداد للإيمان لو حقق ما يطلبونه منه إذ هو فقط من باب التعجيز.. وليطمئن أن النار بانتظار من يستمر منهم على إصراره على الباطل بينما الجنة الخالدة بانتظار المؤمنين ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

٣ ـ والتأكيد على حال ومآل الكافرين وما ينتظرهم من مضاعفة العذاب لهم بقدر صدهم عن سبيل الله تعالى.. بينما أين أهل الجنة من ذلك! ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

٤ ـ التدليل على ذلك كله بما حدث مع الأقوام السابقين نتيجة إنكارهم لدعوات رسل الله تعالى اليهم بالتوحيد والعبودية.

٥ ـ إبراز موقف ابن نوح المشرك، وأن الأبوة لا تنفع أمام الشرك بشيء للنجاة من العذاب.

٦ ـ دعوة هود لقومه للاستغفار والتوبة كشرط للرزق الوفير والمنعة والقوة مما يلفت النظر لأهمية ذلك دائماً.

٧ ـ الإشارة إلى مهمة الأقوام والشعوب المتتالية في الأرض وخلق الله تعالى لهم بأنها لإعمار الأرض.

٨ ـ إشعار ذوي الحاجة بأن العقم لا يقف أمام قضاء الله تعالى في الرزق بالأولاد وذلك مما حصل مع زوجة ابراهيم العقيم.. فتلك رحمة الله وبركاته. ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾.

٩ ـ بيان أن صاحب الحق في دعوته ولو كان رسولاً بحاجة إلى القوة لتنصره على باطل قومه وذلك مما صدر عن لوط ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾.

١٠ ـ تحديد دور الدعاة في المرحلة المكية لكل رسول ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ كما قال شعيب لقومه.

١١ ـ التأكيد أن رؤساء الأقوام وزعماءهم هم أول من يدخل النار جزاء قيادتهم لغيرهم على الكفر والطغيان ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ مما ينتظر فرعون.

١٢ ـ التأكيد على أن قضاء الله تعالى ومشيئته في خلقه أن جعلهم أمماً مختلفة

ليحصل التدافع والإعمار فلا ينتظر غير ذلك، والمهم العمل لإقامة شرع الله في الأرض بغض النظر عن الاختلاف والتنوع بين البشر ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾.

سورة يوسف (١٢)

التقديم

فبعد الافتتاحية بالإشارة إلى ما اشتمل عليه القرآن من بيان باللغة العربية تخبر السورة الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بأن الله تعالى يخبره بقصة يوسف عليه السلام التي لم يكن يعلم منها شيئاً فيجد فيها الكثير من العبر له وللبشرية جمعاء وهي تدعو للإيمان بالله والإخلاص في الطاعة له بغض النظر عن سبب النزول.

ثم تأخذ السورة في سرد تلك القصة بشكل لم يعط لغيرها لا من حيث الكثير من التفصيلات ولا من حيث إفرادها في هذه السورة ودون تكرار شيء منها ولا الإشارة إلى أي جانب من جوانبها في أي سورة أخرى.

فتبدأ بذكر الرؤيا التي رآها يوسف عليه السلام وهو يقصها على أبيه يعقوب عليه السلام بأنه رأى أحد عشر كوكباً ومعها الشمس والقمر في حالة سجود له، ثم تذكر ما فعله والده من نهيه عن نقل ذلك إلى إخوته خوفاً من حسدهم ومكرهم ضده إذ فهم بأنه ووالدته مع إخوته سيقدمون له التبجيل والتقدير بعد أن يختاره الله تعالى للنبوة ويعلمه تعبير الرؤيا.

وبعدها تتسلسل الأحداث لتعطي قصة يوسف مع إخوته الإجابات الشافيات لكل أسئلة السائلين، فتبدأ بأول مشهد يظهر فيه الإخوة وهم يتآمرون فيما بينهم ليتخلصوا من أخيهم يوسف حسداً له لأنه الأثير عند والدهم دونهم، فينتهون إما لقتله أو إخفائه في أرض بعيدة لا يعود بعدها لأبيه، وعندها كما يظنون يخلص لهم أبوهم ويصلحون أمورهم بالتوبة من ذلك إلى الله تعالى فيصبحون ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ بعد ارتكاب هذه الجريمة، ويظهر أحدهم في المشهد وهو يرى عدم قتل يوسف والاكتفاء بإلقائه في بئر يأخذه منه بعض المسافرين المارين عندما يطلبون الماء فيأخذ الباقون برأيه.

وينتقل المشهد ليظهروا جميعاً وهم يراودون أباهم عنه ليسمح لهم بأخذه معهم في خروجهم لرعي ماشيتهم للبرية حيث يلعب تحت رعايتهم وحفظهم المزعومين.. فيرد

عليهم أبوهم بأنه يخشى أن يغفلوا عنه فيأكله الذئب فيلحقه أشد الحزن بسبب ذلك، فيعودوا لتأكيد حرصهم عليه لا كأفراد ولكن كجماعة.

ويظهرون في المشهد التالي وهم يسيئون المعاملة لأخيهم يوسف بعد أن انفردوا به وابتعدوا عن عيني أبيهم، ويأخذونه إلى البئر البعيدة في الصحراء والمنقطعة عن المارة، وهو يستعطفهم ألا يفعلوا به ذلك وهو فتى صغير ضعيف لا يقوى على تحمل السقوط في البئر، ولكن الوحي يطمئنه بأنه سيأتي اليوم الذي يذكّرهم فيه بموقفهم هذا حين يوبخهم عليه قبل أن يتذكروه، الأمر الذي اطمأن معه أنه لن يهلك في البئر ولن يطول بقاؤه فيها.

ويأتي المشهد التالي حين يظهرون أمام أبيهم يتباكون كذباً لفقدان أخيهم وهم ينقلون إليه الخبر بأنهم قد ذهبوا في تسابقهم بعيداً عنه وتركوه عند متاعهم، فرجعوا ليجدوه وقد أكله الذئب، وأنهم وجدوا قميصه ملطخاً بدمائه، فينظر أبوهم إلى القميص فيستغرب كيف يأكله الذئب وقميصه لم يتمزق ولم يتخرق مطلقاً، فيرددون وهم في شك من تصديق أبيهم لكذبهم بأنهم صادقون وأنه لن يصدقهم مهما صدقوا معه في قولهم.. ولكنه مع شكه بقولهم الواضح من قوله لهم ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ لم يملك إلا ترديد عبارة ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ وأنه لا يستعين إلا بالله تعالى على ما يزعمونه إذ هو سبحانه الكفيل ببيان الحقيقة مهما طال الزمن.

وينتقل المشهد إلى ظهور قافلة المسافرين وهي تتوقف قريباً من البئر ليرسلوا أحدهم ليأتيهم بالماء منه فيظهر يوسف وقد خرج متعلقاً بالرشا الذي نزل بالدلو ليحمل الماء، فيصرخ فرحاً بهذا الغلام الذي رأوا فيه مكسباً لا يعلم إلا الله تعالى حقيقته، إذ يحملونه معهم ليبيعوه في مصر بأي مبلغ كله ربح لأنهم لم يدفعوا فيه ثمناً أصلاً.

وفي المشهد التالي يظهر عزيز مصر الذي اشتراه وهو يقول لامرأته لأنه كان لا ينجب بأن تحسن تربيته برجاء أن ينتفعوا به عندما يكبر أو يتبنوه كابن لهم إذ كان التبني سائغاً في زمانهم. وهنا تعقب السورة بأن الله تعالى هو الذي يسر له ذلك ليأخذ مكانته الرفيعة في حكم مصر فيما بعد وقد علمه سبحانه تأويل الأحاديث وتفسير الرؤيا فتكون حاسمة قاصمة عندما ينقله تفسيره لرؤيا الملك من السجن إلى الحكم برعاية الله وتوفيقه.

ويأتي المشهد بعده ليظهر يوسف فيه وقد نضج كشاب قوي ووسيم في بيت العزيز مما جعل زوجة العزيز التي لم تنجب لأن زوجها عنين تفتتن به وتحاول الإيقاع به، فتقفل الأبواب وتدعوه لنفسها فيرفض ذلك لأنه لا يخون سيده زوجها صاحب البيت،

وهنا يظهر وهو يصر على رفض طلبها وعلى عدم الاستجابة لها، فيظهر وهو يدفعها عن نفسه بعد أن أراه الله تعالى آية من آياته مما جعله لا يتردد فيحسم موقفه بالرفض وهرب أمامها باتجاه الباب فتمسكه بقميصه من الخلف فيشق من حيث مسكته ليكون دليلاً على براءته من الفحشاء عندما فوجئ بزوجها يقف في الباب، فبادرت بالحيلة لإنقاذ نفسها مدعية أن يوسف قد أراد الزنى بها وأنه لذلك يستحق إما السجن أو العذاب بالضرب الشديد، الأمر الذي يفرض على يوسف أن يرد عن نفسه افتراءها فيخبر زوجها بالأمر وأنها هي التي راودته عن نفسه، فيشهد شاهد من أهلها على صدقه وكذبها من شق القميص من الخلف، وعندها يظهر زوجها ضعفه وفقدان غيرته أمامها وهو يقول ليوسف بتجنب مثل ذلك ثانية، ولزوجته بأن تعتذر عن خطئها وينتهي الأمر بكتمان الأمر وكأنه لم يحدث.

ولكن الخبر يظهر في المشهد التالي وقد تسرب وظهر نسوة من المدينة وهن يتحدثن حول امرأة العزيز وحبها ليوسف، وكيف أنها أرادت منعهن من التحدث بالأمر بأن أعدت لهن وليمة ومجلساً، وكيف أنهن جرحن أيديهن عندما رأين يوسف وقد أخرجته إليهن ففتن به ونسين السكاكين التي كن يقطعن بها الأترج فآذين أنفسهن وهن يرددن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، وعندها كشفت امرأة العزيز عن مكنون نفسها وأعلنت لهن بصراحة بأنها ستلاحقه المراودة حتى يستجيب وإلا فستأمر بسجنه وإذلاله حتى يلبي مطلبها رغماً عنه إذا لم يلبه باختياره.

ويظهر يوسف عليه السلام في المشهد التالي وهو يدعو الله تعالى أن يسجن بدلاً من تلبية طلبهن بالفاحشة، وأن دعاءه يستجاب فيزج به في السجن بعد أن تأكد للعزيز وأهل مشورته من علامات براءته الشيء الكثير، وذلك لمدة غير معلومة ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي حتى ينقطع الحديث حول هذا الأمر في المدينة.

وفي المشهد التالي يظهر يوسف عليه السلام في السجن ومعه شابان يسألانه عن تفسير ما رأياه في المنام بعد أن أحباه لإحسانه في معاملة السجناء، فسأله أحدهما عن معنى أنه رأى نفسه في المنام يعصر العنب خمراً، ورأى الآخر بأنه يحمل خبزاً فوق رأسه ورأى الطير تأكل منه.. فأكد لهما عليه السلام بأنه قد علمه ربه غيب ما يفعلانه كأن يخبرهما بما يأتيهما من طعام في الغد.. ثم أخذ يدعوهم للإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر لأنه هو مؤمن بذلك، ويبين لهما أن عبادة آلهة متعددين لا يمكن أن يكون أفضل من عبادة الله الواحد، لأن تلك الآلهة مجرد أسماء توارثها الأبناء عن الآباء لا تضر ولا تنفع بينما الله تعالى هو خالق كل شيء ومدبر كل شيء، مما يفرض عبادته دون غيره..

وبعد دعوته لهم للإيمان والطاعة والعبادة فسَّر لهما رؤياهما بأن الساقي يخرج من السجن ويعود لخدمة سيده وتقديم الشراب له، وأما الآخر فإنه سيصلب على فعلته ويقتل.

ويأتي المشهد التالي والساقي يهم بمغادرة السجن ويوسف يوصيه بأن يحدث سيده العزيز بأن يوسف مظلوم في السجن، ولكن السنين تمر ولا يتذكر الساقي هذه الوصية حتى تصل إلى سبع سنين.. وذلك عندما رأى الملك رؤيا بأن سبع بقرات سمان يخرجن من نهر جاف ويخرج في أثرهن سبع عجاف، وطلب من حاشيته أن يفسروا هذه الرؤيا، ولكنهم بدلاً من تفسيرها بادروا بوصفها بأنها مجرد أحلام وهمية لا تستحق أن يشغل ذهنه بها، وأنهم لا يحسنون تفسير مثل هذه الأحلام، ولكن الساقي تذكر وصية يوسف عليه السلام له فيظهر في المشهد وهو يتقدم للملك ويعرض استعداده أن يأتيهم بتفسيرها إذا وافقوا على إرساله للسجن واللقاء بيوسف الخبير بذلك.. ثم يظهر وقد وافقوا له على طلبه وهو يتحدث مع يوسف عليه السلام في السجن ويسأله عن تفسير رؤيا الملك ليرجع ويخبرهم به ليكونوا على علم بذلك.

ويظهر يوسف عليه السلام في المشهد التالي وهو يفسر الرؤيا للساقي الجالس بجانبه في السجن ويقول له بأنهم ستمر بهم في مصر سبع سنين متتالية مخصبة تماماً، فيجب عليهم أن يجمعوا الحبوب في سنابلها ليختزنوها في صوامع الغلال فيأكل الناس الحبوب ويقدم التبن للحيوانات، فيحرصون على ادخار قسم منها ولا يستهلكون إلا حاجتهم الضرورية مع توفير وجبة من الطعام اليومي لأنه سيتبع هذه السنين السبع الخصبة سبع سنين مجدبة لا يجدون طعاماً للناس والحيوانات إلا مما ادخروه، ثم تنتهي هذه السنون الجدبة ويعود الخصب في الحبوب والثمار.

وهنا ينقلب المشهد ليظهر الملك وهو يدعو رسوله ليذهب للسجن ويعود بيوسف، ولكن يوسف لم يبادر بالاستجابة لرسول الملك بل طلب منه أن يرجع للملك ويسأله عن قصة تلك النسوة اللائي جرحن أيديهن عندما رأينه، وهو بذلك يريد أن يبرئ ساحته من تهمة الفاحشة وسوء الظن الذي تحدث به الناس.. فيخرج وهو رافع الرأس لا ذليل النفس.

وبالفعل يستدعي الملك النسوة ويظهرن في المشهد التالي وهو يسألهن عن قصة مراودتهن ليوسف، فيعترفن بأنهن بالفعل لم يعلمن أي سوء وفاحشة عليه، وهنا تبادر امرأة العزيز للإقرار عن نفسها بأنها هي التي راودته عن نفسه، وأنه بريء مما اتهمته به وصادق في كل ما قال وفعل، وأنها تعترف بذلك أمام الملأ ليطمئن بأنها لم تخنه

بالكذب عليه، وأنها هي عندما راودته تتهم نفسها الأمارة بالسوء وأنها ترجو العفو والمغفرة من سيدها على فعلتها.

فيظهر رسول الملك وهو عائد ثانية إلى السجن ليعود بيوسف بعد أن يطمئنه على تبرئة ساحته بإقرار جميع النسوة ومنهن زوجة العزيز على أنفسهن ويؤكد له براءته وصدقه، ثم يخاطبه بأن يذهب معه إلى الملك لأنه يريد أن يستخدمه ليتولى بدلاً منه إدارة شؤون الدولة، وأنه بعد أن ثبت له صدقه وبراءته ودرايته وعلمه وأمانته وقدرته يوافق معه على طلبه بأن يجعله مسئولاً عن إدارة مالية الدولة كلها لأنه ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ بكل ما يلزم تلك الشؤون في الحاضر والمستقبل.

وهنا تعقب السورة على هذه النتيجة الطيبة ليوسف فتقول بأن المولى سبحانه قد وفق يوسف للحصول على محبة الملك وتفويض هذا كل أموره إليه ليتصرف بها كيف يشاء، لأن ذلك كله من رحمة الله بعباده المحسنين في الدنيا وأما في الآخرة فالثواب أفضل وأطيب من ذلك لكل مؤمن تقي.

وتعود المشاهد ليظهر فيها إخوة يوسف من جديد وقد اشتد عليهم في بلاد كنعان القحط فيأتون إلى مصر ليبتاعوا الغلال لأهليهم، فيعرفهم يوسف من أول ما وقعت عيناه عليهم لأنهم لم يتغيروا في سمتهم وأشكالهم كما تغير هو، إذ هم لم يتعرفوا عليه، ولكن ذلك لم يؤثر على حسن تصرفه معهم وعطفه عليهم رغم إساءتهم إليه إذ حاولوا قتله بإلقائه في البئر، فباعهم الميرة التي طلبوها وأحسن ضيافتهم وطلب منهم أن يؤكدوا له صدقهم في وصفهم لعائلتهم وعدد أفرادها بأن يأتوه في المرة القادمة معهم بأخيهم بنيامين، وهو أخ شقيق ليوسف ولكن من أب لبقية الإخوة، وأنهم إن لم يأتوه به فلن يبيعهم شيئاً، ويظهرون وهم يعاودون التفكير التآمري فيما بينهم لمراودة أبيهم ليدفعه إليهم، كما يظهرون وهم متأكدون من نجاح مسعاهم هذه المرة لدى أبيهم.

وفي المشهد التالي يظهر يوسف عليه السلام وهو يأمر عماله بأن يضعوا ثمن الميرة التي اشتروها في رحالهم لكي يتشجعوا في العودة ثانية عندما يجدوها متى وصلوا أهلهم.

وبعدها يظهرون في المشهد التالي وهم يحاولون إقناع أبيهم ليرسل معهم أخاهم (بنيامين) ليوافق عزيز مصر على البيع لهم، وأنهم سيحافظون عليه، ويظهر وهو يرد عليهم بأنه قد أمّنهم على أخيهم يوسف من قبل فماذا حصل؟! ولكنه والوحي من الله يطمئنه يوافق معهم ويطلب من بنيامين أن يصاحبهم.. ولكنهم قبل أن يتحرك موكبهم إلى مصر تبينوا بأن ثمن البضاعة السابقة قد ردت إليهم ولذلك فإنهم ليسوا بحاجة لثمن آخر

للبضاعة القادمة من أبيهم، وبه يمكنهم شراءها ويعودون بأخيهم (شمعون) المرتهن لدى يوسف حتى يصدقوه بالعودة بأخيه (بنيامين) الذي من أجله سيأخذون حمل بعير آخر لأن البيع حمل بعير لكل نفر في العائلة.

وبالرغم من موافقته على إرسال (بنيامين) معهم إلا أنه أي أبوهم أصر على أن يعطوه عهداً بأن يعيدوه إليه إلا إذا عجزوا عن الدفاع عنه حتى النهاية، وبالفعل أعطوه الموثق وتحرك موكبهم باتجاه مصر وبصحبتهم بنيامين وذلك بعد أن أوصاهم أبوهم دفعاً للحسد والعين والأذى ألا يدخلوا مصر من باب واحد بل يتفرقوا على أبوابها الأربعة أخذاً بالاحتياط مع التوكل على العلي القدير لأن القضاء والقدر لا ينفع معه الحذر.

ويطوي موكبهم البراري فيظهرون وهم يدخلون من أبواب متفرقة في المدينة، ثم يتوجهون إلى قصر العزيز ليدخلوا على يوسف الذي بادر بضم أخيه (بنيامين) إليه وتعريفه بنفسه بأنه أخوه يوسف وأن عليه ألا يحزن بما كان يفعلونه.. ويظهرون هم وقد اكتمل تجهيز جمالهم بالميرة، وحرص على إخفاء صاع الملك الذي تكتال به الميرة في حمل أخيه بنيامين لينفذ خطة رسمها في ذهنه، مما استدعى إعلان المنادي بأنهم قد سرقوا صاع الملك، وأن من يعيده للملك يكفل أن يعطى حمل بعير مقابله.

فيظهرون في المشهد التالي وهم يدافعون عن أنفسهم بأنهم لم يأتوا للإفساد ولا السرقة، وأنهم يرون وفق شريعتهم بأن يسترق من وجد في رحله كجزاء له على سرقته، ويظهر يوسف وهو يفتش رحالهم رحلاً رحلاً منتهياً برحل أخيه حتى لا يشكوا في خطته، ويستخرج الصاع من رحل أخيه فيقبل أن يأخذ أخاه مع أن شريعة الملك هو العقوبة بتغريم السارق ضعفي ما أخذ.

ويظهر إخوته في المشهد القادم وهم يصرحون بأنه ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ مما جعل يوسف يبتلع هذه الشتيمة له دون أن يتسرع في كشف الحقيقة، ومما جعلهم يعودون للاستعطاف بالطلب من يوسف أن يأخذ أياً منهم بدلاً منه بحجة أن أباه شيخ كبير السن والقدر، وأنه لا يقدر على تحمل مثل هذا الموقف عندما يصدم بغيابه.. فيظهر يوسف وهو يرفض طلبهم لأن في أخذ غير من وجد الصاع في رحله ظلماً كبيراً لا يقدر على فعله.

وبعد أن يئسوا من محاولاتهم في إقناع يوسف باستبداله بغيره منهم أخذوا يتهامسون فيما بينهم ويتذاكرون بالموثق الذي أعطوه لأبيهم بألا يرجعوا بدونه، وأن كبيرهم قد أصر على عدم العودة معهم حتى يأتيه الإذن بذلك من أبيه أو يوحى بذلك من الله تعالى الحاكم الخبير العادل، ويظهر هذا الكبير وهو يأمرهم بأن يعودوا إلى أبيهم

ويخبروه بأن ابنه بنيامين قد سرق، وأنهم حسب ما شهدته عيونهم يقولون ذلك، وأنهم لم يكونوا يعلمون الغيب بأن ذلك سيقع وإلا لما أخذوه معهم وأعطوا أباهم على إعادته عهداً.. واستشهدوا على صدقهم بأن طلبوا من أبيهم أن يسأل أهل المدينة التي كانوا فيها واشتروا منها الميرة، كما ليسأل أهل الجمال التي كانت في قافلتهم ورأوا وسمعوا بالخبر وأنهم لصادقون في كل ما يقولونه.

ويظهر أبوهم وهو يرد عليهم بأن مكيدة جديدة قد فعلوها، وأنه لا يملك أمامها إلا الصبر الجميل برجاء أن يردهم الله تعالى إليه الثلاثة معاً: يوسف وأخويه.. كما يظهر وهو يعرض عنهم وقد نكئ جرحه بيوسف وهو يردد التعبير عن أسفه وحزنه على غياب يوسف، ويظهر وعبراته تنهمر على خديه حتى انطفأ نور عينيه فلم يعد يبصر بهما شيئاً من شدة الحزن.

وفي المشهد التالي يظهرون وهم يستنكرون عليه هذا الحزن لأنه سينتهي به إلى الضعف الشديد والهلاك الأكيد، ولكنه يرد عليهم بأنه لا يشتكي إليهم في شيء وإنما يبث شكواه وحزنه إلى الله تعالى العالم بكل شيء، والذي يعلم هو منه ما لا يعلمونه هم.. مما يجعله يتلفت نحوهم ويدعوهم للعودة إلى مصر بالذات للبحث عن الغائبين، وألا ييئسوا من ذلك لأن رحمة الله تعالى لا ييئس منها إلا الكافر.

ويأتي المشهد التالي وهم يعودون إلى مصر للمرة الثالثة ويظهرون وهم يقفون أمام يوسف وهم يتذللون له ويستعطفونه ليزودهم بالميرة اللازمة لأهلهم بعد أن نفد كل زاد لديهم وأصبحوا بأمسِّ الحاجة ليس للكيل الوافي فقط بل للزيادة عليه.. وهنا يظهر يوسف وهو يسألهم عما فعلوه بأخيهم يوسف وأخيه (بنيامين) في فترة شبابهم وجهلهم، ويبتسم مع سؤاله مما يجعلهم يجيبون على سؤاله بسؤال آخر تقريري: ألست أنت يوسف؟ فيصرح لهم بأنه يوسف وأن بنيامين أخوه، وأن الله تعالى قد تفضل عليهما كما يتفضل على كل من يخشاه ويصبر على ابتلائه بالفضل العظيم الذي يرونه.. وعندها لا يملكون إلا الاعتراف بأن الله تعالى قد فضله عليهم، وأنهم أخطأوا في حقه وحق أبيهم بالطبع.. ويظهر يوسف وهو يعفو عنهم ويدعو لهم بالمغفرة والرحمة، ويطلب منهم أن يعودوا بقميصه إلى أبيهم ويلقوه على وجهه فيعود إليه بصره ويرجعوا بجميع أهلهم.

ويظهر المشهد التالي عيرهم وهي منطلقة من مصر إلى الشام، فتصل رائحة يوسف إلى أبيهم فيذكر شمه لها فيستنكر الموجودون من أولاده كثرة ترديده لذلك، ولكن لم يطل الوقت حتى تظهر القافلة وقد وصلت منازلهم فيسرع البشير ويلقي القميص

على وجه أبيه يعقوب عليه السلام فيعود إليه بصره، فيذكرهم بما طالما ردده عليهم بأنه يعلم من الله ما لا يعلمون، فيظهرون وهم يطلبون منه أن يطلب لهم المغفرة على ذنوبهم، فيعدهم بذلك، ومع السحر يدعو ويستغفر لهم.

وتصل المشاهد إلى آخرها وقد عاد يعقوب وأهله في موكب حافل ليستقبلوا الاستقبال الفخم من جميع أركان الدولة في مصر ومن قدر من أتباعهم ليرفع أبويه على العرش ويسجدوا له وإخوته الأحد عشر تكريماً وإجلالاً تحققاً للرؤيا التي وردت في أول السورة، وتنتهي الشحناء بين الإخوة فيضرع يوسف إلى المولى سبحانه أن يتوفاه مسلماً صالحاً بعد كل هذا الملك والعلم اللذين منحهما له.

ومع نهاية مشاهد سرد قصة يوسف عليه السلام مع إخوته في أرض الشام وأرض مصر تأتي السورة لإيراد العبر والعظات منها على مسامع الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ومن تبعه إلى يوم الدين فتقول بأن كل ما أوحيناه إليك يا محمد من أنباء الغيب لم تكن أنت على علم بشيء منه، وإخوة يوسف يدبرون مكيدتهم للتخلص منه لينفردوا حسب ظنهم بحب أبيهم.

ثم تخاطبه عليه وآله وصحبه السلام بأن عدم إيمان قومه بعد أن قص عليهم هذه القصة ليس بدعاً من الأمر لأن هذا ما كان يحصل مع الأقوام السابقين، فاطمئن يا محمد لذلك ولا تظن بأن حرصك على إيمانهم سيحققه حتماً، ثم اطمئن بأنك إذ تدعوهم دون طلب أجر مقابل ذلك إلا المثوبة من الله ستشجعهم على الدخول في الإيمان، فإن هذا لن يحصل ولو مع اعترافهم بأن الله تعالى هو خالق كل شيء لأنهم يشركون معه غيره في عبادتهم له سبحانه، ومع أنهم لن يأمنوا أن يحل عليهم عذاب الله في أي وقت أو تقوم القيامة عليهم فجأة فتضيع عليهم فرصة التوبة والمغفرة.

وتخاطبه عليه وآله وصحبه السلام فتدعوه ليقول لهم بأن سبيله ومنهاجه وطريقه هي الدعوة إلى الإيمان بالله أولاً وبشرط أن يكون هذا الإيمان عن دليل يقيني لا ظني، لأنه على بصيرة من العقل والحس، وأن هذه الطريق ليست له وحده بل لمن اتبعه إلى يوم القيامة، وأن من مقتضى هذا الإيمان بالله الإيمان والعمل بكل ما أمر به والاجتناب لكل ما نهى عنه، وتحليل ما يحلله سبحانه وتحريم ما يحرمه سبحانه وتنزيهه عن كل شريك تنزيهاً حقيقياً وحقاً.

ثم يؤكد المولى سبحانه لرسوله محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في الآيات الثلاثة الأخيرة من السورة بأنه لم يرسل من قبله في الأمم السابقة إلا رجالاً ليس فيهم امرأة ولا جني ولا ملك، وأن على من حولك يا محمد والبشرية جمعاء، إلى

يوم البعث، أن يعتبروا مما حصل مع تلك الأمم والأقوام في الدنيا، وليعلموا أن الجزاء في الآخرة هو الأشد للكفار والأطيب للمؤمنين، وأن نصر الله لا بد آت لرسوله مهما تأخر، وأن الهزيمة المنكرة ستحل بمن يصر على الكفر والإجرام.

وأن يدركوا تلك العبرة الواضحة لكل ذي عقل بأن مثل هذه القصص التي يقصها القرآن ليست بافتراء وإنما لتصدق ما حصل مع السابقين وتبين وتفصل كل حكم فيه خير ونفع للناس أجمعين، وكل أمر فيه هدى ورحمة للمؤمنين لا الكافرين، فليسارع ذوو الألباب لاستعمال عقولهم وبين أيديهم من الحجج والبراهين الدامغة ما لا حد له لينتقلوا من الكفر إلى الإيمان، ومن الشرك إلى الوحدانية، كما ينتقل العصاة من التردد والعصيان إلى الاطمئنان والطاعة المنتهية بالإحسان.

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

بعد افتتاحية السورة ﴿الٓر﴾ يشير المولى سبحانه إلى أنه منزل على رسوله المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم القرآن الواضح حلاله وحرامه، وحدوده وأحكامه، وهداه وبركته، والمشتمل على ما توعد به أهل الكتاب من الآيات، وأنه سبحانه منزله بالعربية ليسهل فهمه وقراءته بلغتكم يا معشر من كلفتم به أولاً كعرب، وأنه سبحانه يقص على المصطفى عليه وآله وصحبه السلام بهذه السورة أحسن القصص مما لم يكن يعرف عنها شيئاً، وأنها تتصف بأحسن القصص لما تتضمنه من العبر والحكم، وأن فيها حسن مجاوزة يوسف عن إخوته وصبره على أذاهم وعفوه عنهم، وأن عاقبة كل من ذكر فيها كان السعادة.

وفي عرض قصة يوسف عليه السلام تبدأ بيوسف وهو يخبر والده يعقوب عليه السلام برؤيا رآها بأن أحد عشر كوكباً رآهم له ساجدين مع الشمس والقمر، ويطلب منه أن يفسر له هذه الرؤيا، ولكن والده بدلاً من ذلك سارع لنهيه عن ذكر هذه الرؤيا لاخوته خوفاً من وسوسة الشيطان لهم فيكيدوا له لأنه فهم أن الكواكب إخوته والشمس والقمر أبواه وإن كانت أمه قد حلت محلها خالته إذ ماتت من قبل.

وهنا نقف مع الإمام القرطبي عند الرؤيا وتفسيرها من وجهة نظر الإسلام فنجده يذكر بأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام قال: «لم يبق بعدي من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة الصادقة يراها الرجل الصالح أو تُرى له» وقال: «أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً» وقال: «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان»، وأن صدق رؤيا غير المؤمن الصالح نادر لا حكم له ولا صلة له بجزئية النبوة، وأنها تقسم إلى ثلاثة منها أهاويل الشيطان يحزن ابن آدم، ومنها ما يهتم به الإنسان في يقظته فيراه في منامه، ومنها جزء من النبوة، كما قال عليه وآله وصحبه السلام، وأن يتجنب نقل الرؤيا لغير ناصح لا يحسن التأويل لأن الناصح قد يحذر أخاه المسلم ممن يخافه عليه كما حذر يعقوب ولده يوسف، ثم لقوله عليه وآله وصحبه السلام: «استعينوا على حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود».

ولما كان يعقوب عليه السلام يعلم حسد أولاده لأخيهم يوسف فقد حذره من إخبارهم بالرؤيا، ثم إن مثل هذه الرؤيا تنذر صاحبها ليحذر من غيره من جهة ويستعد لنزول البلاء قبل وقوعه من جهة أخرى، كما حصل أن رأى الشافعي رؤيا لأحمد بن حنبل تدل على محنته فكتب إليه بها ليستعد لذلك. وعلمنا الرسول عليه وآله وصحبه السلام عندما نرى رؤيا نكرهها أن يتحول المرء عن جنبه بعد أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ويبصق عن يساره ثلاثاً، وقال: «إذا رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل».

ثم نعود مع السورة فنجدها تذكر يعقوب عليه السلام وهو يقول لابنه يوسف بعد أن حذره من إخوته بأن الله تعالى كما أكرمه بالرؤيا فإنه يختاره ويحسن إليه بتحقيق الرؤيا، ويعلمه فهم كتب ودلائل التوحيد، ويتم عليه نعمته بالنبوة وبنجاته من كل مكروه في نفس الوقت كما أنجى إبراهيم من النار وأنعم عليه بالخلة كما أنعم على إسحاق بالنبوة، وطمأنه بأن ربه تعالى عليم بما يعطيه، وحكيم بما يفعله فيه.

وتبدأ السورة بعدها بذكر أول آية من قصة يوسف وإخوته وهي تآمرهم على قتله فتقول:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا
وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ
وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ
يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ١٠ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ
لَنَٰصِحُونَ ١١ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن
تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ١٣ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ
عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ١٤ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ
لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٥ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا
نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧
وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا
تَصِفُونَ ١٨﴾

مشيرة إلى أن في قصة يوسف هذه مع إخوته دلائل لكل من سأل عنهم لكثرة ما فيها من خير، وذلك عندما دفع اليهود أهل مكة لسؤال الرسول عليه وآله وصحبه السلام عن نبي أخرج ابنه إلى مصر فبكى عليه حتى عمي، فنزلت السورة دفعة واحدة اشتملت على أكثر مما في التوراة فكانت آية للنبي صلى الله عليه وآله وصحبه سلم، كما كان فيها الكثير من العبر الطيبة لكل إنسان معتبر، ذلك أن الإخوة العشرة قد حسدوا كلاً من يوسف وأخيه الشقيق بنيامين بحجة أنهما موضع حب لدى أبيهم أكثر منهم جميعاً، وأنه لذلك قد ابتعد عن الصواب، وأنهم لا بد من أن يقتلوا يوسف ليرتاحوا من الأمر نهائياً، أو يلقوه في أرض بعيدة بحيث لا يعود ثانية، وعندها يخلص لهم حب أبيهم ويصفو، ويعطيهم نفسه بكليته، ثم يتوبوا من فعلتهم فيقبلها الله منهم ويعيشوا مع أبيهم من غير أثرة ولا تفضيل.

ولكن أحدهم، ويقال أنه أكبرهم وهو (يهوذا)، أشار عليهم بعدم قتله وإنما بإلقائه في ظلمة البئر الذي يعرفونه بعيداً في الصحراء حيث تمر قوافل المسافرين متجهة إلى مصر فيخرجونه من البئر ويأخذونه معهم إلى مصر حيث يمكن أن يستقر فلا نراه ولا نعلم عنه شيئاً.

وبالفعل احتالوا على والدهم بأن يسمح له بالذهاب معهم في خروجهم مع

المواشي للرعي حيث يلعب ويلهو تحت رعايتهم وحفظهم، ولكن أباهم عبَّر عن حزنه لفراقه لابنه هذه المدة القصيرة وهي فترة النهار، وعن خوفه من أن يأكله الذئب كصبي صغير لا يستطيع الدفاع عن نفسه وهم غافلون منشغلون عنه، وعندها أكدوا لأبيهم أنهم كعصبة وجماعة لن يمكنوا الذئب ولا غيره من الوصول لإيقاع الأذى به.

وهنا يقف الإمام القرطبي رحمه الله عند ما يمكن أن يستنبط من هذه الآيات: أن الأنبياء لا يدبرون قتل مسلم وأخ مما يدل على أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء لا أولاً ولا آخراً بل كانوا مسلمين ارتكبوا معصية ثم تابوا، وأن طرح يوسف في الجب يدل على أنه كان غلاماً صغيراً حتى يلتقط وقبلها حتى يأكله الذئب،

وأن من أحكام اللقيط أنه حر في الأصل وأن ولاءه لجماعة المسلمين يرثونه ويعقلون عنه، وأنه مسلم ما دام في منطقة مسلمين ولا توجد عليه لا ملابس ولا علامات لغير المسلمين، وأن نفقته تطوعاً ممن التقطه إلا أن يعود على والده الذي جاء يطلبه، وأما اللقطة فهي في غير الحيوان، والضالة في الحيوان وعلى من يجدها أن يعرفها حولاً كاملاً وبعدها يتمتع بها إن لم يأت صاحبها، وأنه من الأفضل أخذها ما لم تكن إبلاً تحمي نفسها وتجد طعامها، وأن نفقتها على صاحبها إلا أن يتطوع الملتقط أو الآخذ.

ونعود لإخوة يوسف وهم يلحون على أبيهم في الإذن لهم باصطحاب أخيهم معهم، وأنه بالفعل قد سمح بذلك وهو حزين وخائف، ويروى أنهم ما إن اختفوا به عن أنظار أبيهم حتى أخذوا يمارسون عليه سوء المعاملة من قول وفعل من أنه يريد أن يكون الأثير لدى أبيهم ومن دفعهم له أرضاً، وأن الله تعالى، كما هو راجح، قد أوحى ليعقوب عليه السلام بأمر مكيدتهم ضد يوسف فعلم بها ولم يشعرهم بذلك لعلمه بأن الله تعالى سيجمعه أخيراً به على خير ما يكون.

ثم يظهر الإخوة وهم عائدون مع مواشيهم مساءً وهم يتظاهرون بالبكاء لأبيهم في مصابهم بأخيهم ويزعمون بأنهم قد ابتعدوا عنه في تسابقهم وتركوه عند متاعهم فرجعوا ليجدوه وقد أكله الذئب وأنه أي أبوهم لا يمكن أن يصدقهم في قولهم مهما كانوا صادقين.

ويعود الإمام القرطبي رحمه الله ويقف مع استنباطاته من ﴿نَسْتَبِقُ﴾: أن المسابقة مشروعة وهي تجمع بين كل ما يشبه النضال في السهام والرهان في الخيل لما في ذلك من التدريب على لوازم الجهاد، والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول: «لا سبق إلا في نصل أو خف أو حافر»، وبالطبع يقاس على ذلك كل أنواع عدة الحرب، والمراهنة

من طرف واحد جائزة تبعاً لهذا في هذه الثلاثة وما يقاس عليها فقط حتى لا يحصل القمار، وقال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: «من أدخل فرساً بين فرسين وهو لا يأمن أن يسبق فليس بقمار ومن أدخله وهو يأمن أن يسبق فهو قمار».

ونرجع لإخوة يوسف فنجدهم يقفون أمام أبيهم يتباكون وهم يحملون قميص يوسف وقد لطخوه بدم كذب من سخلة ذبحوها من مواشيهم، وها هو يسألهم مستنكراً عن هذا الذئب الذي أكل يوسف دون أن يشق أو يخرق قميصه الذي نظر إليه فوجده سليماً مما جعله يوجه إليهم تهمة الكذب فيقول ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾ ففعلتم غير ما تقولون، ولذلك أعلن تأكيده لصبره الجميل أمام هذا الابتلاء بحيث لا يشكو لأحد وإنما يستعين بالله تعالى فقط على الصبر.

وتواصل السورة عرض مشاهد هذه القصة فتقول:

﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾

فتظهر أمامنا قافلة من المسافرين إلى مصر، ويظهر أنهم ضلوا الطريق فنزلوا قريباً من البئر البعيدة في البادية عن العمران، وأنهم لحاجتهم للماء أرسلوا أحدهم للبئر ولكنه بدلاً من الماء خرج يوسف متعلقاً بالدلو ففوجئ رجلهم به وصرخ مبشراً لهم بغلام وجده في البئر، ولكنهم كتموا خبره عن التجار الآخرين حتى لا يشاركوهم فيه، وأخفوه معهم حتى وصلوا مصر، وهناك باعوه بثمن زهيد لأن كل همهم كان التخلص منه بسرعة والاحتفاظ بثمنه لأنفسهم.

وهناك في مصر يظهر عزيز مصر الذي اشتراه وهو يطلب من امرأته أن تتولى حسن تربيته على أمل أن يكفيهم بعض المهمات إذا بلغ أو يتبنوه لأن العزيز كان حصوراً لا يولد له، وأنه بذلك خطا أول خطوات مجد المستقبل محققاً له المولى سبحانه برعايته له التمكن من قلب العزيز كما مكنه من النجاة من البئر وموصلاً به للسيطرة على ملك مصر، ومانحاً له بعد استكمال القوة وبلوغ الحلم تلك السيطرة على الحكم

والوصول إلى النبوة وعلم الدين.. وأن ذلك عند الله تعالى هو من جزاء المؤمنين الصابرين على النوائب في الدنيا قبل الآخرة.

ثم تعرض السورة المشهد التالي من القصة فتقول:

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ
رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ
كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ
قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ
عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن
قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾
فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ
هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾

ها هي امرأة العزيز تطلب من يوسف أن يواقعها بعد أن أقفلت جميع الأبواب وأعدت سريراً مناسباً لذلك ودعته إليها، ولكنه استعاذ من الوقوع بالزنى بالله تعالى وقال بأنه من الخيانة والظلم أن يقابل حسن معاملة سيده بالوقوع في زوجته، وتظهر وهي تلح عليه بغوايتها وإغرائها وهو يرفض وقد عصمه الله كنبي من ذلك فلم يهمّ بها كما همت هي به، فصرفه المولى سبحانه عن الوقوع في الخطيئة وبقي همه بها مجرد خاطر نفسي لا ذنب فيه بل في تجنبه الحسنة بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام مخبراً عن ربه: «إذا همّ عبدي بسيئة فلم يعملها كتبت حسنة»، كيف لا وقد أثنى عليه ربه ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾.

وها هو يفر منها باتجاه الباب، وقميصه يتمزق من الخلف في يدها، فيفاجأ بزوجها لدى الباب فتسارع لتلفيق حجة تقلب بها الموقف على يوسف زاعمة أنه أراد الفحشاء بها وأنها ترى أن يسجن أو يعذب عذاباً أليماً.

ويظهر يوسف أمام هذا الافتراء الشنيع وهو يدفع التهمة عن نفسه بأنها هي التي بادرت بالإغراء، وأنه لم يستجب لها بل هرب منها، فتقدم أحد أفراد أهلها وشهد له شهادة الصدق بأن وضح للعزيز بأنها صادقة وهو كاذب إذا كان تمزيق قميصه من

الأمام، لأنه سيكون هو الذي يعالجها، وإن كان الأمر بالعكس فهو الصادق وهي الكاذبة.

وبالفعل يظهر العزيز وهو ينظر إلى قميص يوسف فيجده وقد شق من الخلف فيبرئ يوسف ويقول إن الأمر كله من كيد زوجته العظيم، وأن عليها أن تستغفر من زوجها لذنبها حتى لا يعاقبها على فعلتها لأنها ارتكبت خطأ في حقه بذلك، ويظهر زوجها في موقفه الهادئ العقلاني وهو فاقد الغيرة مما مرر الواقعة كلها بسهولة ولم يلحق بيوسف منها شيء من العار واكتفى بالطلب منه أن لا يذكر الأمر كله لأحد وأن يكتمه.

وفي المشهد التالي للقصة تقول السورة:

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾

ها هن العديد من نسوة مصر قد علمن بالخبر، وبالذات نساء الحاشية، وأخذن يتحدثن عنها بأنها هي التي تحاول إغراء فتاها ليقع بها، وأنها بسبب شدة حبها له قد ضلت الطريق.. وها هي تسمع بما يتردد بشأنها من طعن وذم فتسارع في دعوتهن إلى وليمة من طعام الأترج وبجانبه السكين اللازمة له، وجهزت لهن مجلساً مناسباً لذلك ثم أمرته بالظهور أمامهن فأخذهن العجب الشديد لما رأينه من جماله حتى نسين ما في أيديهن من سكاكين كن يقطعن بها الأترج فجرحن بها أيديهن وقلن بأنه لا يمكن أن يكون بهذا الحسن والجمال إلا ملكاً وليس إنساً.

وعندها تكشف عن نفسها فتهاجمهن لما صدر منهن من لوم ضدها بشأنه وتصرح بأنها بالفعل قد راودته وحاولت إغراءه ولكنه رفض، وأنه إذا أصر على الرفض والتمنع فستأمر بسجنه وإذلاله حتى يستجيب لها.

ويظهر في الصورة عليه السلام وهو يدعو ربه أن ينقذه من كيدهن حتى لا يستجيب لهن وأنه يفضل على ذلك السجن، وأنه بالفعل يتحقق له دعاؤه ويساق إلى السجن حيث يقضي بقرار من العزيز وأهل مشورته فترة وقد رأوا علامات براءته من قد القميص من الدبر، وشهادة الشاهد، وحز الأيدي، وقلة صبرهن عن لقائه، مما جعلهن يرون سجنه إلى مدة ينقطع معها ما شاع في المدينة من أخبار فتنة زوجة العزيز ومن حولها من النساء بيوسف.

ويتلو ذلك المشهد التالي من القصة وهو في السجن والذي تذكره السورة فيما يلي:

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ
فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ
تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ
بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن
نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨
يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ
أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ
إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا
فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ
٤١ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ
فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ٤٢﴾

مشيرة إليه وهو يحسن المعاملة لزملائه في السجن وللمسئولين فيحبونه جميعاً فيتقدم إليه اثنان من المسجونين أحدهما خباز الملك والآخر ساقيه، فيسألانه أن يفسر لهما الرؤيا التي رأياها من أن الساقي رأى نفسه يعصر العنب خمراً، ورأى الخباز أنه يحمل خبزاً فوق رأسه والطير تأكل منه.

ثم تشير السورة إلى يوسف وهو يخبرهما بأنه قادر من تعليم الله تعالى له أن يخبرهما بكل طعام يأتيهما في الغد، وأنه قد ترك دين قوم كافرين واتبع دين آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب الذين يرفضون الشرك بالله، وأن ذلك كله من فضل الله عليهم وعلى

الناس إذ بين لهم الهدى وأمرهم بترك الشرك ودعاه وآباءه أولئك لتبليغ رسالاته للناس ولكن الكثير من الناس لا يشكرون الله على نعمة التوحيد والإيمان.

ثم يواصل دعوتهما للإيمان بعد أن هيأ نفسيهما له بصدقه في تفسير الرؤيا بتعليم الله تعالى فيتساءل بحجة عقلية فيما إذا كان الله الواحد المسيطر على كل شيء والمالك لكل شيء هو الأفضل أن يؤمنا به أم هذه الآلهة الصنمية العديدة المتفرقة هي الأفضل، وأن ما يعبدونه من تلك الأصنام ما هي إلا حجارة لا تضر ولا تنفع وأنهم سموها بالآلهة والأرباب زوراً وبهتاناً هم وآباؤهم، وأنهم لا يملكون حجة تسند زعمهم، وأن عليهم أن يعلموا أن الحكم في هذا الوجود كله هو لمالكه خالق كل شيء، وأنه سبحانه يأمر ألا تعبدوا غيره أي معبود، وأن هذا هو الدين الحق وإن جهل أكثر الناس ذلك.

وبعد هذه الدعوة للإيمان يأتي لاستجابة طلبهما فيفسر لهما الرؤيا بأن الساقي سيخرج من السجن ويعود لخدمة سيده وتقديم الشراب له، وأما الآخر فيوضح له بأنه سيصلب ويقتل، وأنه لا مجال لهما غير ذلك.. ويظهر وهو يطلب من الساقي الذي سيغادر السجن أن يذكر للعزيز بأنه بريء، ولكنه لقضاء قضاه الله تعالى نسي هذا الساقي الحديث مع سيده العزيز بشأن يوسف مما جعله يبقى في السجن مدة أخرى عقوبة له على أنه لم يطلب العون من الله بدلاً من الساقي وعزيزه.. وروي أنه بقي سبع سنين فوق الخمسة السابقة فكان مجموع سجنه اثنتي عشرة سنة.

ويتبع هذا مشهد حديث الملك عن رؤيا يطلب تفسيرها فتقول السورة:

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

لقد رأى الملك بأن سبع بقرات سمان يخرجن من نهر جاف ويتبعهن سبع بقرات عجاف يقمن بأكل السمان، كما رأى سبع سنبلات خضر أقبل عليهن سبع يابسات فأكلنهن، فهالته الرؤيا، فطلب من أهل العلم والكهانة والسحر وأشراف قومه تفسير

ذلك، وكانت هذه الرؤيا بشير خروج يوسف من السجن بعد أن كانت رؤيا المسجونين بلاء وشدة عليه.

فماذا أجابه علماء قومه؟ أجابوه بأنهم يرون ذلك مجرد أحلام وهمية كاذبة وأنهم لا يعرفون لها تفسيراً وأنهم أرادوا محوها من صدر الملك حتى لا تشغل باله، فظن أنهم عجزوا عن التأويل فجاءته النجدة من الساقي الذي زامل يوسف في السجن ونسي توصيته وتذكرها الآن فطلب من الملك أن يأذن له باللقاء مع يوسف في السجن ليعرف منه ذلك ويعود إليهم بالبيان، وبالفعل أرسلوه فسأل الصديق عن الرؤيا ليعود ويخبر الملك وأصحابه بذلك.

فبادر عليه السلام بتأويل الرؤيا لأن الوحي قد أعلمه بالرؤيا وتأويلها وأنها ستكون مقدمة لخروجه الفوري من السجن، وأخبر الساقي بالتأويل قائلاً بأنهم يزرعون سبع سنين متتابعة، وأن عليهم أن يدعوا الحبوب في سنابلها حتى لا تتسوس ويطول بقاؤها ولا يأكلوا منها إلا حاجتهم اللازمة، ثم يأتي بعدها سبع سنين مجدبات فيأكل الناس فيها كل ما ادخروه لأجلهن إلا القليل مما يستبقوه للبذر، ثم يأتي بعدها عام كله خصب ومطر ويعصر الناس فيه العنب خمراً والسمسم دهناً.

ويأتي المشهد التالي من القصة بالملك وهو يطلب استدعاءه من السجن فيقول:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

ويظهر الرسول عائداً بالخبر للملك فيطلب إحضاره فوراً، ولكن يوسف يأبى أن يخرج إلا أن تظهر براءته للملك مما قذف به وأنه حبس بلا جرم، فيعيد مع الرسول سؤاله عن النسوة بما فيهن امرأة العزيز، فيستدعيهن الملك ويسألهن عن شأنهن مع

يوسف فيعلن براءته وأنهن لم يعلمن أي سوء وزنى منه، فتبادر امرأة العزيز قبل أن يشهدهن ضدها بالإقرار معهن، وأنها هي التي راودته وأنه من الصادقين، وأنها إذ تقر بالصدق إنما تريده أن يعلم بأنها لم تخنه بالكذب ضده، ولم تذكره بالسوء في غيابه بل صدقت وتجنبت الخيانة، وأن الحقيقة أنها هي التي حاولت إغراءه وغوايته لأنها لا تبرئ نفسها الأمارة بالسوء من رغبتها فيه بشدة، وأن مثل ذلك لا ينجو منه إلا من شملهم الله برحمته فعصمهم عن الزنا، وأنها ترجو من الله المغفرة لخطئها والرحمة بها.

وأمام هذه البراءة بادر الملك بطلب يوسف لإحضاره من السجن في الحال وذلك ليستخدمه في خاصة شؤونه، ولما حضر وعرض عليه ذلك طلب يوسف من الملك أن يجعله مسئولاً عن مالية الدولة لأنه قادر عليها بما لديه من حفظ وعلم بذلك، وأصبحت له المكانة الأولى في كل أمور الدولة فساسها بالعدل والإصلاح والحق، مما جعل زليخا امرأة العزيز التي كانت راودته، والتي مات زوجها ويوسف في السجن، وذهب مالها وعمي بصرها بكاء على يوسف، تقف في طريق موكبه وتذكره بما كان من رعايتها له وحبها، فتزوجها بعد أن رد عليها كما يروى كل ما فقدته من الشباب والجمال ووجدها عذراء وولدت له ولديه.

وفي الآيات دليل على جواز العمل لدى الفاجر، وجواز تولي العمل المؤهل له الإنسان، وجواز أن يصف الإنسان نفسه بما فيه من علم وفضل لا للتعالي والكبر وإنما للبيان لتحقيق الخير.

ونعود للآيات فنجدها تؤكد أن الله تعالى قد قضى وقدر ليوسف هذه المكانة في الأرض، وملك البلاد والعباد خلال السنين السبع العجاف ثم حررهم وأعاد إليهم أملاكهم بعد انقضاء الجدب وعودة الخصب.. وأن هذا كله أجر الدنيا فما بالك بأجر الأخرى؟!

وتأتي السورة بعدها بمشاهد تردد إخوة يوسف على مصر طلباً للمؤن، وما يداخل ذلك من مفارقات تنتهي بهم جميعاً نهاية سعيدة فتقول:

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ

ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾
وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ
إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ
حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ
وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ
مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ
أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ
لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ
أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ
ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا
تَفۡقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ
تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ
كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ
بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ
فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾
۞قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ
قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا
فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا
عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ
أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ
لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ
وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ
ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن
يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ

عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ
تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ
مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا
بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا
فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ
أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟
تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ
لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى
بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن
تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ
فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا
ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا
دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى
ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ
إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى
لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ
ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى
بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ۞

مبينة توالي هذه المشاهد بدءاً من مجيئهم إلى مصر بسبب القحط ليمتاروا بعد أن ذاع أمر يوسف عليه السلام في الآفاق، برأفته وعدله وحسن سيرته، حتى كان يبيعهم بعدد أفراد أسرتهم من الأحمال، وكيف أنه عرفهم فوراً لوضوح ملامحهم وملابسهم بينما هم لم يعرفوه لأنهم خلفوه صبياً ولم يخطر ببالهم أن العبد يصبح ملكاً. وكيف أنه بعد أن زودهم بالمؤن بحمولة الأحد عشر بعيراً التي أتوا بها أعلمهم بأنه لن يبيعهم ثانية إذا لم يأتوا بأخيهم الغائب الذي صحبوا بعيره ولم يصحبوه بحجة شدة حب أبيه له

ورفضه فراقه، ويقال بأنهم رهنوا عنده أخاهم (شمعون) وعادوا وقد وعدوه أن يحضروا أخاهم الآخر معهم وأنهم ضامنون ذلك لمعرفتهم بقدرتهم على الاحتيال على أبيهم.

وتبين السورة كيف أنه أمر عماله أن يضعوا ثمن المؤن التي باعها لهم في رحالهم لكي يتشجعوا ويعودوا ثانية عندما يكتشفون ذلك.. وكيف أنهم بادروا فور عودتهم بمراودة أبيهم ليسمح لأخيهم (بنيامين) بالذهاب معهم وإلا لن يباع لهم، وأكدوا لأبيهم أنهم سيحافظون على أخيهم، ولكنه بالرغم من طعنه في أمانتهم بعد أن فرطوا بيوسف من قبل وافق على إرساله معهم مطمئناً لما لديه من علم الله أنه سيحفظهم ويرحمهم في غيبتهم.

وتظهر السورة كيف أنهم عندما فتحوا رحالهم ووجدوا ثمن مؤنهم قد أعيدت إليهم طمأنوا أباهم بأنهم ليسوا بحاجة لثمن ما سيعودون لشرائه في هذه المرة الثانية وأنهم سيأتون بحمل إضافي لوجود أخيهم معهم الذي سيحافظون عليه بكل ما يقدرون.

وتذكر السورة كيف أن أباهم من باب التأكيد أصر عليهم إلا أن يعطوه العهد على المحافظة عليه وأنهم لن يفرطوا به حتى يهلكوا عن آخرهم، فأعطوه فأذن باصطحابهم له ولكنه طلب منهم أن يحرصوا على الدخول متفرقين من أبواب المدينة الأربعة وذلك من باب تجنب الحسد والعين.

والعين حقيقة لا شك فيها حتى قال صلى الله عليه وآله وصحبه سلم: «إن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر»، وأمر عليه وآله وصحبه السلام العائن الحاسد أن يتبرك بقوله: تبارك الله أحسن الخالقين! اللهم بارك فيه، وعندها لن يضره، وأما إذا وقع الضرر فلا بد أن يتوضأ أو يغتسل العائن ويمسح المصاب بماء وضوئه أو غسله على جميع جسمه فيصرف عنه الأذى الذي حل به.

ونعود إلى يعقوب عليه السلام فنجده يؤكد لأولاده بأنه لا يستطيع أن يغني عنهم من أي شيء يحذره عليهم من قضاء الله وقدره، ويوضح علة ذلك بقوله لأن الحكم لله وحده فكل قضاء بيده سبحانه ولذلك لا يجوز الاعتماد والتوكل إلا عليه وحده عز وجل.

وتنقلنا المشاهد إلى رؤية الإخوة وهم يدخلون من أبواب شتى عملاً بوصية أبيهم خوفاً عليهم من الحسد وغيره لأنه على علم من الله في أمور الدنيا أكثر من غيره.. ثم يظهرون وهم يدخلون على يوسف بعد وصولهم فيضم إليه أخاه (بنيامين) ويطمئنه على خفية عنهم بأنه أخوه ولذلك دعاه ألا يحزن بسبب كل ما عملوه، وأن بنيامين قد رغب أن يبقى معه ولا يعود معهم، الأمر الذي جعل يوسف يتدبر إخفاء الصاع في رحل أخيه

عندما جهز حمولتهم على الأحد عشر بعيراً ليستخدمه كوسيلة لإبقاء أخيه معه، ولذلك تم الإعلان عن وجود سرقة لصاع الملك وأن من يعيده له جعل حمل بعير مقابله.

وهنا يرى الإمام القرطبي في الآية دليلاً على جواز الجعل بقول: من فعل كذا فله كذا، ودليل على جواز الكفالة على الرجل بقول: أنا كافل أو ضامن لك، مما يشمل المال والنفس، وإن كان للطالب أن يأخذ ماله ممن شاء منهما. فجواز الجعل من شرعنا لا من شرع من قبلنا.

ونعود للسورة فنجد الإخوة وهم يدفعون عن أنفسهم تهمة السرقة بحرصهم على عدم الدخول على زرع أو مال أحد، وأنهم لا يمكن أن يأكلوا مال أحد ظلماً، وأنهم استعدوا أن يجعلوا أي واحد منهم وجد الصاع في رحله هو جزاؤه بأن يسترق ويستعبد، وأن ذلك هو الحكم عندهم في حق السارق وإن كان حكمه عند أهل مصر الغرامة بضعفي ما أخذ.

ونتيجة التفتيش في رحالهم يستخرج الصاع من رحل أخيه (بنيامين) فيحكم عليه باسترقاق العزيز له مع أن دين الملك لا يقر ذلك، ولكن الأمر كله تنفيذ لأمر الوحي في ذلك وهذا معنى ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾.

ثم يظهرون وقد نفذ الحكم في بنيامين وكأنهم شامتون به وهم يقولون ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ فأصابت الطعنة يوسف وأخاه معاً، فهمس يوسف في نفسه رداً عليهم بأن مثل هذا الوصف يلحقهم هم لأن أعمالهم كلها شر ضده وضد أخيه، ولأن ما يتهم هو به من السرقة هو تصرف من عمته عندما حزمته بحزام إسحاق لتبقيه عندها مما جعله يتعلم وضع الصاع من ذلك.

ثم يظهرون وهم يستعطفون العزيز ليخلي جانب أخيهم ويأخذ أحدهم بدلاً منه لتعلق والده الشيخ الكبير به، وأنهم يأملون أن يستجيب لطلبهم لأنه رجل محسن كثير العطف واضح العدل، ولكنه يرد عليهم بأن العدل يقتضي ألا يأخذ غير من سرق وإلا وقع الظلم.

ثم يظهرون وهم يتناجون فيما بينهم وقد يئسوا من تلبية طلبهم حول ما يمكن عمله لأخذ أخيهم تنفيذاً للعهد الذي قطعوه لأبيهم على أنفسهم، ويظهر كبيرهم وهو يذكرهم بالعهد الذي التزموا بموجبه بالمحافظة عليه ورده إلى أبيه، وأنه لا يجوز تكرار التفريط كما حصل مع يوسف، وأنه لن يسافر معهم إلى بلدهم بل سيبقى في مصر حتى يسمح له أبوه حياء منه بالعودة أو يحكم الله بمحاربة من أخذه واسترده بالسيف أو أن أعجز فأرجع معذوراً. وكان من صفاتهم إذا غضب أحدهم كثيراً وقف شعر جسمه حتى

رفع الملابس عنه، وكان يوسف أشدهم بطشاً فتهددهم بالقطع على السرقة فتضرعوا وبكوا وأظهروا التوبة، فعطف عليهم وبكى منهم وخلى سبيلهم إكراماً لأبيهم.

وأمام هذا الموقف لم يملكوا إلا التقهقر أمام يوسف، فأمرهم كبيرهم أن يعودوا إلى أبيهم ويخبروه بما شهدوا من سرقة أخيهم، وأنهم لم يكونوا يعلمون عندما أخذوه بأنه يسرق وإلا لما أخذوه منه، كما أمرهم أن يطلبوا من أبيهم أن يطمئنَّ لصدقهم بسؤال أهل القرية في مصر التي نزلوا بها وامتاروا منها، كما ليسأل أهل الجمال الذين كانوا بصحبتهم فيطمئن لصدقهم ولا يتهمهم بالكذب.

ويظهر يعقوب عليه السلام بالرغم من كل محاولات تبرئة ساحتهم وهو يتهمهم بتلفيق التهمة ضد ابنه بالسرقة، ويعود ويردد ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ بأنه لن يشتكي لأحد ألمه وحزنه إلا لله وحده، وأنه يرجو منه تعالى أن يجمعه بهم الثلاثة جميعاً لأنه سبحانه العالم بحاله الحكيم بتدبيره، ويعود ويعرض عنهم وقد اكتمل حزنه بغياب بنيامين وانفتحت على مصراعيها جروح مصيبته في يوسف القديمة، وأخذ يردد أسفه على يوسف وقد نسي (بنيامين) حتى عميت عيناه من شدة الحزن والألم والكمد.

ويظهرون وهم يستهجنون على أبيهم موقفه لأنه سيهلك نفسه بذلك أو على الأقل يذوي ويضعف كثيراً، فيرد عليهم بأنه ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وليس إليهم كونه عليه السلام يعلم من وحي الله ما لا يعلمونه هم، ولذلك نجده يطلب منهم أن يتجهوا إلى مصر بالذات ويسألوا عن يوسف وأخيه ولا ييأسوا من السؤال لأن رحمة الله قريبة ممن يحسن الظن بالله وبعيدة عمن يسيء الظن ويغرق في اليأس.

ويظهر الإخوة في بلاط عزيز مصر للمرة الثالثة وهم يعرضون عليه ما مسهم وأهليهم من الجوع والحاجة، وأنهم أتوا معهم بثمن ذلك، ولذلك فإنهم يرجونه أن يعطيهم الحمولة كاملة، وأن يزيد فيها، وله من الله الجزاء على ذلك.

ويظهر يوسف وهو يسألهم مذكراً وموبخاً عما فعلوه بيوسف وأخيه وهم متلبسون بأعمال الجهال، فيسألوه وقد مالت نفوسهم إلى الظن بأنه يوسف فيما إذا كان هو نفسه فيؤكد لهم ذلك، وأن الله تعالى قد تفضل عليه وعلى أخيه بالنجاة لأن هذا هو جزاء من يتقي الله ويصبر على المصائب وعن المعاصي، ولأنه تعالى لا يضيع أجر المحسنين بصبرهم في بلائه وقيامهم بطاعته.

ويظهرون وهم يقرون له بأن الله تعالى قد فضله عليهم بما أعطاه من العلم والحلم والعقل والملك، فيعلن العفو عنهم ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾، ويدعو الله تعالى لهم

بالمغفرة على خطاياهم.. ويظهر وهو يدفع إليهم قميصه ليحملوه معهم عائدين إلى أبيهم ويلقوا بالقميص على وجهه فيعود إليه بصره.. ثم يأتوا جميعاً إلى مصر.

ثم يظهرون والقافلة تنطلق من مصر عائدة إلى بلاد الشام فيفاجأ جلوس يعقوب به وهو يقول لهم بأنه يشم رائحة يوسف وإن قبحوا رأيه وكذبوه، فيتهموه بالإصرار على الخطأ، ولكن لم يطل بهم المقام حتى وصلت القافلة وأسرع البشير حاملاً القميص وألقاه على وجه أبيه فيعود إليه بصره في الحال بقدرة القادر على كل شيء، فيذكّرهم بما قاله لهم بأنه يعلم من الله ما لا يعلمون، وعندها يشعرون بالخجل ويرجون والدهم أن يستغفر لهم ربهم لأنه وحده الغفور للذنوب الرحيم بالعباد فيعدهم بالاستغفار ويؤجله للسحر حين ترجى الإجابة.

ويظهرون وهم يدخلون في موكب مهيب أعده لهم، يدخلون قصر يوسف فيضم إليه أبويه، أبوه وخالته بعد أن ماتت أمه في ولادة بنيامين، وهو يطمئنهم بالأمن من القحط، ثم يظهرون وهو يرفعهم على كرسي الحكم ثم ينزلهم ليسجدوا له سجود التحية والإكبار لا سجود العبادة المختص بها الكبير المتعال، ويذكرهم بأن هذا هو تأويل رؤياه التي حدث بها والده في مطلع القصة وأنها رؤيا حق، وأن من فضل الله عليه أن أخرجه هو من السجن وجاء بأهله من بادية الشام، وتنتهي وسوسة الشيطان من صدور إخوته وقد أقروا بخطئهم وفضله عليهم.

ويظهر يوسف عليه السلام وهو يتوجه إلى الله تعالى بالدعاء أن يكمل عليه فضله ونعمه بأن يتوفاه مسلماً صالحاً بعد أن آتاه كل هذا الملك في الدنيا وعلمه تأويل الرؤيا، وأنه سبحانه خالق السموات والأرض المستحق بالولاية والخضوع والطاعة في الدنيا والآخرة.

وبالفعل توفاه الله تعالى كما طلب طاهراً طيباً بمصر، ودفن في النيل في صندوق من رخام لتجنب تخاصم الناس ثم نقل تابوته لبيت المقدس بعد قرون عديدة يروى أنها أربعة، وكان عمره مائة وسبعة أعوام. ويقال بأنه دفن بوصية منه بجانب أبيه وأجداده في مدينة خليل الرحمن في فلسطين.

وتنتهي السورة بعرض العبر والعظات من هذه القصة فتقول للرسول محمد صلى الله عليه وآله وصحبه سلم:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ

لِلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾
وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ
تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠
وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ
إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ
كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي
قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

بأن الله قد أوحى لك يا محمد بهذه القصة مما كان في الغيب عنك وعن أمتك، وأنكم لم تكونوا معهم وهم يتآمرون على يوسف لتعرفوا منهم ذلك كله، واعلم يا محمد أنك مهما حرصت على إيمان الناس القريب والبعيد فسيبقى أكثرهم كافراً، ولو مهما حاولت إقناعهم بأنك لا تطلب على دعوتك لهم أي أجرة منهم وإنما تنتظر ذلك من الله وحده لأن القرآن هو التذكرة والعظة بما يقصه من قصص لكل الناس والجن معاً.

وانظر إليهم وهم لا يعتبرون من الآيات الكثيرات في السموات والأرض، وأن إيمانهم يخالطه الشرك عندما يعترفون بالله خالقاً لكل شيء ولكنهم يعبدون أو يطيعون غيره، وكأنهم أمنوا عذاب الله في الدنيا والآخرة، فقل لهم بأن هذه هي طريق دعوتك إلى الله بالإيمان به وبكل ما أمر به والتزام طاعته في كل أمر ونهي، وأن هذا هو الحق من الله الواحد المنزه عن كل شريك، وأن الله تعالى لم يرسل قبلك يا محمد إلا رجالاً للأمم السابقة، وأن على من تدعوه ويسمع بك وبدينك أن يعمل عقله في كل ما حصل بالسابقين، وأن الدنيا مهما امتلأت بالمباهج والزخارف فستبقى الآخرة أفضل منها لكل تقي طائع لله تعالى، وأن نصر الله تعالى كان مهما تأخر يوافي رسله تعالى حتى بعد أن يشتد الضيق بهم فينقذهم ويهلك أعداءهم المجرمين..فيا محمد، ويا أمة محمد، إن في قصص الرسل مع أقوامهم عبراً وأي عبر لكل ذي عقل، وأن الصدق كل الصدق في كل قصة يوسف، وأن في القرآن هذا الكتاب الخاتم تصديق الرسل السابقين وبيان ما يحتاجه العباد من حلال وحرام وشرائع وأحكام كما هو ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

دليل سورة يوسف ـ ١٢

– إنها سورة مكية، وأنزلت في ١١١ آية جواباً على سؤال اليهود عن قصة يوسف.

– انفردت هذه السورة بهذا التفصيل لقصة يوسف عليه السلام لتحج اليهود والمتأثرين بهم من العرب وكل البشرية حتى يوم الدين لما فيها من عبر ومواعظ.

– ذكرت حسد الإخوة لأخيهم الذي أوصلهم لمحاولة إهلاكه، ولجوئهم للكذب والاحتيال على أبيهم.

– ذكرت جانباً آخر من فجور النفس البشرية لدى امرأة العزيز وهي تحاول غواية يوسف وذكر كيف قاوم ذلك ونجح فيه.. وما ناله من مكافأة على ذلك في الدنيا قبل الآخرة.

– تفضيل يوسف عقوبة السجن على ارتكاب الفحشاء ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾.. وحرصه على إعلان تبرئة نفسه أمام الملأ قبل أن يقبل تسلم المنصب الذي عرض عليه.

– الحرص على الدعوة لله قبل الإجابة على سؤال السائل لتكون الواقعة سبيلاً لإيصال الحق للنفوس التي تتهيأ لاستقباله.. عندما تصدى يوسف لذلك وهو يفسر الأحلام للسجينين معه.

– بيان كيف عفا يوسف عن إخوته وأحسن معاملتهم وتزويدهم بالمؤن رغم سوء معاملتهم السابقة له.

– بيان استمرار حزن يعقوب عليه السلام على ابنه يوسف ثم أخيه بعد أن احتجزه يوسف لديه رغم علمه الرباني بأنه سيعود إليه مما يؤكد أنه كان علماً محدوداً وليس شاملاً لدقائق ذلك. .

– ذكر معجزة إعادة البصر ليعقوب بمجرد وضع قميص يوسف على وجهه.

– التأكيد في نهاية السورة على أن رسل الله تعالى كلهم من الرجال وليس النساء ولا الجن ولا الملائكة.

– لفت النظر لذوي العقول ليروا أن الحق لابد منتصر مهما صادف من عقبات مادام له عاملون صادقون.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ أن كيد المرء ضد غيره صفة بشرية تأتي استجابة للأعمال الشيطانية المصاحبة

لخاصية استعداد النفس البشرية لذلك ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥﴾.

٢ ـ دعوة يعقوب لابنه يوسف لإخفاء رؤياه عن أخوته خوفاً من الحسد والكيد مما يظهر معنى «فإن كل ذي نعمة محسود» ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ﴾

٣ ـ مصاحبة الخصائص البشرية ليوسف وإخوته وأبيهم من خوف وحسد وحزن مما يؤكد أن ذلك لا يبعد عن الأنبياء وأسرهم كغيرهم من الناس ﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

٤ ـ تعليم دعاة الحق لاستغلال كل فرصة تستعد فيها النفوس لتلقي كلمات الحق إذ السائل يستمع لكل ما يسبق الإجابة على سؤاله ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ﴾

٥ ـ دعوة الإنسان المؤمن للأخذ بالتقوى والفضيلة مهما تعرض من مغريات الدنيا سواء مع النساء أو غيرهن.

٦ ـ بيان كيف يفعل العفو عن المذنب عند القدرة على العقوبة فعله في التأثير على النفوس لتقبل ما تدعى إليه، وهذا ما حصل من يوسف مع أخوته وتكرر مع الرسول عليه وآله وصحبه السلام وأهل مكة عند الفتح.

٧ ـ التأكيد على أن قضاء الله وقدره لابد من وقوعه في حينه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.. مما يطمئن النفوس المؤمنة بوعده تعالى بالنصر مهما تأخر وسبقته من تضحيات.

٨ ـ قبول يوسف لوزارة المالية لدى عزيز مصر جزء من شرع من قبلنا وليس شرعنا ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ﴾.

سورة الرعد (١٣)

التقديم

بعد الإشارة إلى القرآن بأنه نزل بالحق دلل سبحانه على قدرته في إنزال هذا الحق بالإشارة إلى ما خلق من السموات، وجعلها مرفوعة دون عمد مرئية، وخلق فيها الشمس والقمر يجريان لأجل مسمى، وإلى ما خلق من الأرض، وجعلها ممدودة ومثبتة بالجبال وعامرة بالأنهار والثمار، ويتعاقب عليها الليل والنهار، وجعل فيها القطع

المتجاورة بأشجار وثمار مختلفة مع أنها تسقى بماء واحد، مما يفرض التدبر لكل ذي عقل وإدراك ليتأكد من وجود و تدبير خالقها الواحد القادر.

وتخاطب الرسول محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بعدها بأنه إن عجب من إنكارهم الإعادة يوم القيامة وتكذيبهم له، مع إقرارهم بأن الله خالق كل شيء من السموات والأرض والثمار المتنوعة في أرض واحدة، فهذا القول منهم هو بالحق موضع العجب لأن من يملك ابتداء الخلق يملك إعادته كما يريد ومتى يريد.

ثم تقول له أن انظر إليهم لشدة تكذيبهم له فإنهم يستعجلون العذاب وكأنهم غير مصدقين بما وقع بمن قبلهم، فأعلمهم يا محمد بأن الله تعالى قضى بحكمه ألا يتعجل لهم العذاب وهو قادر على ذلك بالرغم من شركهم.

ثم انظر إليهم وهو يطلبون إنزال آية عليك من ربك، فأعلمهم بأن ذلك بيد الله وحده وأنك نذير لهم من وقوع العذاب بهم من قادر على ذلك، وأنك تدعوهم للهدى كما دعا الرسل السابقون أقوامهم.

ثم أعلمهم بأن الله تعالى محيط بكل أعمالهم بل يعلم الغيب مما لا يعلمونه كما يعلم الحاضر، فهو سبحانه المحيط بما تحمل كل أنثى في رحمها من ذكر وأنثى، ويعلم أحوال هذا المحمول ومدى ما يحمل من الشهور، وأنه سبحانه المنفرد بعلم الغيب هذا وأمثاله من مثل ما يسره أحدكم في نفسه أو يجهر به، أو مثل أن يقوم بأي عمل في الليل أو في النهار على خفية من الناس، ذلك أنه سبحانه قد أوكل بكل إنسان ملائكة يتعاقبون عليه بالليل والنهار، كما يتولون حفظه من خلفه ومن أمامه، ومن يمينه ومن شماله.

ثم أعلمهم يا محمد بأن الله تعالى لا يغير حال أي قوم مما هم فيه من الخير والهناء والسعادة إلى عكسها من الشر والتعاسة والشقاء إلا بعد أن يغيّروا ما في نفوسهم من الآراء والمعتقدات، وعندها تتغير تصرفاتهم ومعاملاتهم فتتغير أحوالهم، وأن هذه هي سنة الله في خلقه، وأنه سبحانه عندما يقضي ويقدر أن يحل بأي قوم السوء والعذاب جزاء أفعالهم فإن أحداً لن يستطيع أن يمنع من ذلك أو يرده، فليفهموا ذلك وليقبلوا على الإيمان والطاعة قبل فوات الأوان.

وليعلموا أن هذا الذي يرونه من البرق والرعد، وما يصاحبهما من السحاب والمطر، أنه كله جزء من النظام الكوني الذي اقتضى بحكمه تعالى في تدبير هذا الكون أن يكون فكان، وأنه سبحانه يرسل الصواعق من تلك البروق الهائلة عندما يحل قضاؤه بإصابة أي شيء به من إنسان أو حيوان أو غيرهما، وأن ذلك كله يجري منه تعالى

القادر على كل شيء والذي يستدعي كل هذا النظام الكوني البديع من تدبير التوقف عن الجدال حوله لكل ذي عقل وتدبر وبصيرة.

وليعلموا تبعاً لذلك، ولتدبيره تعالى لجميع مخلوقاته، أن لله سبحانه وحده يُدعى، وأن هذه الدعوة له تعالى وحده هي وحدها دعوة الحق والصدق لأن كل ما يدعى له من غيره لا يستجاب لدعوتهم بشيء، وأنهم في دعوتهم كمن يطلب أن يصل الماء إلى فمه بيديه المفتوحتي الكفين، مما يستحيل وصوله ومما يجزم بخطأ مثل هذا الدعاء لغير الله تعالى.. كما عليهم أن يعلموا أن لله وحده المستحق للعبادة السجود طوعاً ممن يؤمن به وكرهاً ممن لا يؤمن به، وأن ظلال الخلق تظهر مع ظهور الشمس وغروبها.

وتأتي السورة بعدها لدعوة الرسول عليه وآله وصحبه السلام للمواصلة في جدالهم بالحق فتأمره بأن يسألهم عدة أسئلة بدهية الإجابة وهم يقرون بها ليلزموا الحجة وهي: من هو رب السموات والأرض؟ ولم يستعينون بغيره ما داموا يقرون به رباً وغيره لا يضر ولا ينفع حتى نفسه؟ ولماذا جعلوا الأعمى بمستوى البصير والظلمات بمستوى النور؟ ولماذا تشابه الخلق عليهم عندما جعلوا لله شركاء؟؟

وتأمره عليه وآله وصحبه السلام في نهاية الأسئلة أن يؤكد لهم بأن الله تعالى وحده هو خالق كل شيء ومدبر كل شيء، وهو سبحانه الذي ينزل المطر من السماء فيثير الزبد على جانبي الوادي، مثلما هم يرون الزبد عند تسخين المعادن لدرجة حرارة عالية، وأن هذا الزبد وغيره لا قيمة له بجانب ما يصفو لهم من المعدن بعد طرد الزبد وشوائبه، وبجانب الماء الذي يتسرب في الأرض فيحيي الله به الأرض بعد موتها، وأن من يستجيب لدعوة الله فيؤمن به ويلتزم طاعته هو الذي يأخذ بالحق والصواب وأما من يعرض عن ذلك فهو مع الخطأ والزبد والسراب، وأن للمستجيب الجزاء الحسن في جنة الخلد في الآخرة، وللمعرض الجزاء السيء في جحيم النار.

وأن عليهم أن يتذكروا أن من العقل والإدراك السليمين العلم اليقيني بأن الله تعالى هو منزل القرآن إليك، وأن من ينكر ذلك هو الأعمى عن الحق والصواب، وأن من يقر بذلك هم الموفون بعهد الله والملتزمون بطاعته، وهم هم الذين يصلون الأرحام ولا يقطعونها ويحرصون على طاعة الله في الأمور كلها سواء بالصبر على كل أذى يعترضهم في سبيل الله، أو بالمداومة على إقامة الصلاة أو بالإنفاق لوجه الله في السر والعلن أو بحسن الخلق مع الآخرين برد السيئة بالحسنة لا بمقابلة الشتيمة بمثلها، وأن جزاء هؤلاء جنات عدن لهم وللصالح من آبائهم وأزواجهم وأبنائهم، وأما أولئك الذين ينقضون العهد والميثاق مع الله بإنكاره خالقاً ومدبراً، ويقطعون الأرحام، ويسيئون

للآخرين في جميع معاملاتهم، فإنهم مطرودون من رحمة الله وجهنم بانتظارهم.. وعليهم أن يذكروا أن الله تعالى وحده هو الذي يكثر الرزق على الناس أو يقلله، فلا يفرحوا بما بين أيديهم من الأرزاق الكثيرة والمتع الوفيرة في هذه الحياة الدنيا لأنها كلها زائلة في الحياة الآخرة.

وتعود السورة وتذكر الرسول عليه وآله وصحبه السلام بما يقول له أولئك المشركون إذ يطلبون منه أن تنزل عليه آية من ربه، وأن عليهم أن يعلموا أن الله تعالى قد أنزل الوحي بالهدى لهم ولكل البشر، وأن عليهم أن يقبلوا على الهدى وترك الضلال، وأن الله تعالى قد هداهم بما وضع في عقولهم من إدراك طريقي الهدى والضلال ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝١٠﴾، وأن إرادة الله تعالى ومشيئته تفسح لهم بالاختيار، وتيسر سبيل الهدى لمن يختاره، كما عليهم أن يعلموا أن من يختار الهدى هو المؤمن الذي استجاب لفطرته فاطمأن قلبه بإيمانه وبذكر ربه الذي آمن به، وهو المؤمن الذي ينال جزاء طيباً عندما يصحب إيمانه بالطاعات والأعمال الصالحات.

وبعد تنبيه الرسول عليه وآله وصحبه السلام إلى أن الله تعالى قد أنعم على البشرية جمعاء بإرسال محمد ورسالة القرآن إليهم جميعاً كما كان ينعم على الأمم السابقة بإرسال رسل إليهم، يأمره سبحانه بأن يدعوهم لترك الكفر بالرحمن، وأنه سبحانه هو ربه الذي لا إله إلا هو، وأنه يعتمد عليه وحده ويرجع إليه وحده، وأنه هو الله لا إله غيره ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾.

ثم تعود السورة وتدعو الرسول عليه وآله وصحبه السلام ليخاطب مشركي مكة الذين يطلبون تسيير الجبال بعيداً عن مكة أو تسخير الرياح لهم لينتقلوا سريعاً عليها من مكان لآخر أو أن يحيي لهم الموتى ليكلموهم، يخاطبهم ويخبرهم بأن هذه الأمور كلها وغيرها ملك لله تعالى الذي إذا قضى أمراً ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، ويخاطب المؤمنين ليطمئنهم بالمقابل بأن عليهم أن يعلموا أن الله تعالى لو أراد بقضائه وقدره أن يجعل جميع البشر على الهدى، كما جعل الملائكة، فإنه سبحانه قادر على ذلك، ولكنه جل وعز قضى بحكمه الاختيار للبشر، وأن الإنسان الذي يختار الكفر بإرادته يتحمل مسئولية ذلك فيحل به ما يحل من المصائب فيلمسها في نفسه أو في جاره حتى يوافيه الأجل ويتبعه البعث والحساب الحتميين القطعيين لأن ﴿ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾.

واعلم يا محمد بأن الكثير من الرسل من قبلك قد هزئ منهم أقوامهم، وأن الله تعالى قد مد في أعمار تلك الأقوام وأعمالهم ليلزمهم الحجة ثم أخذهم بما يستحقونه من العقاب، فذكر المشركين بذلك يا محمد وذكرهم بالفرق الكبير بين من يخلق الخلق

ويتولى أمورهم وبين من لا يفعل من ذلك شيئاً، فكيف تسمح لهم عقولهم بجعل شركاء له سبحانه مهما أعطوها من أسماء، وكيف يتصورون أن ذلك لا يعلمه الله المحيط علمه بجميع الخلق، فليكفوا عن ذلك وليدعوا المكر ضده وصد الناس عن الإيمان، وليعلموا أن الله تعالى لو قضى وقدر كفر إنسان فلن يهديه أحد، وأنهم عندما يختارون الكفر بمحض إرادتهم فلهم أصناف من عذاب الدنيا والتي تقل شدة ومشقة عما ينتظرهم في الآخرة من العذاب الشديد.

كما وأعلمهم يا محمد بأن الجنة التي أعدها الله للمؤمنين المتقين تشبه، وإن اختلفت كثيراً، البستان الذي تجري من تحت أشجاره الأنهار، والذي يكثر فيه الأشجار دائمة الثمار والظلال وليس كبساتين الدنيا سريعة الزوال، وأنها مآل المتقين بينما النار مآل الكافرين، فماذا يختارون؟!

وتواصل السورة مخاطبة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن يقول لأحزاب الكفر والشرك في مكة وما حولها بأن الله قد أمره أن يعبده وحده ولا يشرك به شيئاً كما يفعلون، وأنه يدعو إلى الإيمان به وحده، وأنه سيعود إليه تعالى يوم القيامة يوم الجزاء.. ومع هذا القول للكفار تخبره عليه وآله وصحبه السلام بأن المؤمنين من أهل الكتاب يفرحون بكل ما ينزل إليه وإن كانت تلك الأحزاب الكافرة تنكر بعضه لإيمانهم ببعض الأنبياء والكفر بالآخرين.

وليعلموا أن الله تعالى قد أنزل القرآن باللغة العربية مما يقطع عليهم الحجة بعدم الفهم، وأن عليك يا محمد ألا تسايرهم في القبلة ولا في العبادة وإلا لن تجد الله ناصراً لك ولا مانعاً عنك العذاب، فقل هذا لأمتك، كما قل لهم ولليهود الذين عابوا عليك الزواج بأن الله أرسل الرسل من قبلك وكانت لهم الزوجات والأولاد، فلم يعيبون ذلك عليك؟! ثم ليكفوا عن طلب أي آية منك لأن ذلك كله إلى الله وحده وأن موعده كله عنده وحده تعالى فلا يستعجلوا بشيء.

وليعلموا أن الله تعالى يمحو ما يشاء مما في علمه، كما أنه تعالى يثبت ذلك الشيء ولا يمحوه، فيزيد في الرزق أو يبقيه كما هو، ويزيد في العمر أو يبقيه كما هو.. فذلك له تعالى وحده، واعلم وليعلم كل من يصله دينك أن الله لو أراد أن يريك بعض ما يعدهم من العذاب في الدنيا لفعل في حياتك أو بعد وفاتك.

والمهم أن تعلم يا محمد أن مهمتك هي تبليغ ما يوحى إليك، وأن على الله حسابهم.. ولينظروا إلى آية أخرى من آيات الله في خلقه، إنها الأرض وما يصيبها من

نقص سواء في ذاتها بتقلصها أو في موت الفقهاء والعلماء والمخلصين منها، وأن ذلك كله إلى حكم الله وحده كما أن حكمه في الحساب لا معقب عليه من سرعته الفائقة.

واعلم يا محمد أيضاً بأن مصير مكر من سبقهم من الأمم ضد رسل الله انتهى إلى حساب الله وعقابه، كيف لا وهو سبحانه العالم بكل ما يفعله الإنسان، وأن على الكفار حولك ومن بعدك أن يعلموا أن العاقبة الطيبة لن تكون للكفار، وقل لمن كفر برسالتك وبكونك رسولاً بأنك تكتفي بالله شهيداً بينك وبينهم وهو سبحانه العالم بكل شيء.. فليكفوا عن المكر والكفر لتكون لهم العاقبة الطيبة.

التفسير

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٤ ۞وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾

فبعد الافتتاح بـ ﴿الٓمٓرۚ﴾ يذكر المولى سبحانه لرسوله المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بأن هذه الآيات التي وردت في الكتب السابقة بالمعجزات البينات للرسل السابقين، وهذا القرآن الذي ينزل إليك من ربك، كلها تنزل من عند الله وليس كما يدعي المشركون أنك تأتي بالقرآن من نفسك، كيف لا والله تعالى قادر على ذلك إذ هو قادر على كل شيء.

وهو سبحانه الذي بقدرته الكاملة يلفت النظر إلى عظيم مخلوقاته وبديع مصنوعاته والتي يظهر في طليعتها هذه السموات التي رفعها بغير عمد ترونها، سواء كانت هذه

العمد سنة الله تعالى في نظام الكون الذي أوجد فيه تلك القوة المغناطيسية الهائلة بين النجوم والكواكب والشهب، أو غير ذلك.

كما تظهر بهذه القدرة الكاملة في سيطرته سبحانه على مخلوقاته سيطرة صاحب العرش في حكمه، ولله المثل الأعلى، ويظهر منها تسخير الشمس والقمر تسخيراً مباشراً للبشر بما جعل فيهما وفي حركتهما سواء حول الذات أو حول الأخرى من النجوم والكواكب من المنافع العظمى عندما جعلها كلها تجري كل في فلكه ومساره إلى وقت معلوم هو وقت فناء الدنيا وقيام الساعة، وأنه سبحانه بذلك وبأمثاله يضع نظاماً لهذا الكون يدبر به أمره، كما يضع نظاماً للبشر وينزله في القرآن مفصلاً في آيات تبين الأحكام والأنظمة اللازمة لجميع علاقات الحياة البشرية الأمر الذي يستدعي التفكر والتدبر المؤديان لليقين القطعي بالبعث والحساب والجنة والنار، اليقين باللقاء مع حساب الله بالجنة أو النار.

هذا في السماء وأما في الأرض، فقد بسطها سبحانه حتى تبدو كما لو أنها للناظر عن قرب في وضعية منبسطة لا استدارة لها، ولكنها ما أن يبعد الناظر بصره حتى يراه، حتى على سطح البحر الأشد استواء من اليابسة، إذ ينقطع كلما تقدم الإنسان نحو الأفق ليؤكد استدارتها وإن كان أمر استدارتها أو بيضاويتها لم يعد موضع شك أو تساؤل في الوقت الحاضر بعد أن عرضتها الأقمار الصناعية كالكرة السابحة في الفضاء، ثم ها هي الجبال الضاربة في أعماق الأرض لتعطيها استقراراً وثباتاً وتوازناً، وها هي الأنهار التي تجري في ربوعها من مكان إلى آخر حيث تنتشر مع ضفافها، قرباً وبعداً، البساتين بجميع أنواع الثمار، وها هي تقلبات الليل والنهار لتعطي السكون والراحة في الليل والحركة والنشاط في النهار، وكل ذلك يستثير تفكير المتفكر، وها هي قطع الأرض المتجاورة بما تنتصب فيها من أشجار الفواكه والزروع والنخيل المتنوعة الأصناف بالرغم من أنها تسقى بماء واحد، ويجرى التفضيل في طعومها بين صنف وآخر، مما يستثير العقل والتدبر لذوي العقول المتفكرة بعمق واستنارة.

واعلم يا محمد أنك إن تعجب من تكذيبهم لك وأنت المعروف منذ صغرك عندهم بالصادق الأمين فالعجب الأكبر من تكذيبهم بالبعث ولا سيما وهم الذي يقرون بالله خالقاً لهذه السموات والأرض والثمار المختلفة في الأرض الواحدة، فأعلمهم بأن هؤلاء وأمثالهم سيطوقون في رقابهم بالأغلال وهم يكتوون في نار جهنم.

وتتابع السورة ذكر ما عليه المشركون من التعنت ضد الرسول عليه وآله وصحبه السلام واستخفافهم بما ينذرهم به من العذاب فتقول:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ
عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا
أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ
وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ
أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ
وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ
بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا
وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ
الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ
يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا
فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾

وانظر يا محمد إلى هؤلاء المشركين وهم لفرط إنكارهم وتكذيبهم لله يستخفون بإنذارك لهم بالعذاب الشديد فيطلبونه قبل أن يطلبوا العافية مع أن الله تعالى قد حكم بتأخير العقوبة عن هذه الأمة إلى يوم القيامة، ومع أنهم يعلمون بما حل بأمثالهم من الأمم السابقة من العذاب، ولكن لا بد أن يعلموا أنه تعالى يتجاوز عنهم إذا آمنوا كما يتجاوز عن المذنبين إذا تابوا وإن كان عقابه شديداً إذا أصروا على الكفر.

وانظر يا محمد إليهم وهم يطلبون نزول آية عليك من ربك، فأعلمهم بأنك منذر لهم من عذاب شديد لكفرهم، ومبشر لهم بالنعيم الكبير عند إيمانهم، وأنك نبي يدعوهم إلى الله. ومتى آمنوا وأطاعوا فقد اهتدوا باختيارهم فاستحقوا الثواب الطيب على أعمالهم.

وعليهم أن يعلموا أن الله تعالى يعلم بما تحمله كل أنثى من نسائهم، أكان ذكراً أو أنثى، وسيماً أو قبيحاً، صالحاً أو طالحاً، وأن هذا الغيب ينفرد به هو سبحانه، كما يعلم فيما إذا كانت تلك الحامل ستسقط جنينها قبل اكتمال نموه أو تزيد في حمله أكثر من المعتاد.

وليعلموا أن ذلك وغيره محكوم بقضائه وقدره سبحانه بحيث لا يتجاوز المقدار المحدد له، قل أو كثر، فهو سبحانه عالم الغيب سواء كان يزيد الحمل أو ينقص،

وعالم الشهادة والواقع الذي يجري بين الناس بنفس المستوى، كما أنه سبحانه الكبير الذي دونه كل شيء، والمتعال بقدرته وقهره على كل شيء، كما أنه سبحانه يحيط علمه بسري القول وجهره على حد سواء، وبمن يتحرك في جنح الظلام لارتكاب الأعمال السيئة أو القيام بالأعمال الطيبة علماً مماثلاً بمن يرتكب ذلك أو يقوم به في وضح النهار أو خفيته.

وليعلموا أنه سبحانه من لطيف تدبيره لخلقه أنه جعل لكل إنسان ملائكة يتابعونه من خلفه وآخرين يلازمونه من أمامه وآخرين من شماله وآخرين من يمينه، وذلك كله لحفظه من الأذى الذي ما أكثر ما يتعرض له في حياته سواء من الإنس أو الجن، ويلاحظ أن يداً خفية تنقذه من كثير من ذلك.

وبالنتيجة ليعلم المشركون بعد المؤمنين بأن الله تعالى قد قضى وحكم في تدبيره لخلقه بأن التغيير في أحوال العباد من الخير إلى الشر أو بالعكس لا يمكن أن يتحقق إلا على أثر تغيير يحدثونه هم في أنفسهم بتغيير أفكارهم ومعتقداتهم وبالتالي تصرفاتهم ومعاملاتهم بحيث يصبح المرء شريراً في سلوكياته مع نفسه وربه والناس عندما يرتد عن الفكر الإسلامي الحق ويتبع فكراً إلحادياً باطلاً مثلاً، وبالعكس يصبح خيراً إذا اعتنق الفكر الإسلامي الملتزم بدلاً من الإلحادي المنحل مثلاً.

وليعلموا أن الله تعالى قد أعطى للإنسان قدرة الفهم والإدراك للخير والشر، وأعطاه قدرة الاختيار بينهما ولذلك جعل فيه قدرة التغيير لما في نفسه من الأفكار والقناعات وبالتالي تغيير الأعمال والتصرفات وبناء الجديد من العلاقات.. كما ليعلموا أن الله تعالى إذا أراد أن ينزل قضاءه وقدره في حق أي فرد أو جماعة بإنزال العذاب عليه أو عليهم فلن يملك أحد رده أو منعه من الوقوع، ولن يجد أو يجدوا ناصراً ولا معيناً يستطيع أن يقف دون ذلك.

وقل لهم يا محمد أن الله تعالى هو الذي يريهم جانباً من جوانب قدرته في خلقه عندما يرون البرق ويسمعون الرعد، فيشعرون بالخوف من البرق واحتمال ما يصحبه من الصواعق، كما يطمعون بما تحمله إليهم السحب من أمطار تحيي الأرض بعد موتها، وعليهم أن يعلموا أن في صوت الرعد تسبيحاً لله تعالى بدلالة قدرته تعالى الفائقة لكل ذلك، كما أن الملائكة تسبحه سبحانه خوفاً منه عز وجل، فأين هي عقولهم التي تغيب عنها العبرة من ذلك،وأين قدرتهم بجانب البرق والرعد والملائكة؟

ولينظروا إلى الصواعق وهي تنزل بقضائه سبحانه فتصيب من قضى عليه بذلك، من أمثال بعض طواغيت العرب واليهود من مثل عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة اللذين

تآمرا لقتل الرسول عليه وآله وصحبه السلام فنزلت الصاعقة على أربد وهو يهم بضرب الرسول عليه وآله وصحبه السلام أثناء مشاغلة عامر له بالجدال، وأن للمشركين في ذلك العبرة من قدرة الله تعالى التي لا تحدها حدود لأنه ﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾.

وقل لهم يا محمد أن الدعوة إلى الله تعالى هي الدعوة الحق، وأنه سبحانه يستجيب لمن يدعوه بحق، بينما لن يستجيب غيره سبحانه لمن يدعونه بشيء إلا كما يستجيب الماء لمن يطلب منه الوصول لفمه بكفيه المبسوطتين، فليتوجهوا بالدعاء إلى الله تعالى صادقين مخلصين من كل شرك حتى ينقذوا أنفسهم من حالة دعاء الكفار الضالة عندما يقبلون على عبادة وطلب الخير من الأصنام التي هي أعجز من أن تنفع نفسها.

وليعلموا أنهم عندما يقبلون على دعاء الله بصدق وإخلاص فإنهم سيكونون من بين من يسجد ويطيع ويدعو الله برضاه وأما إذا استمروا على كفرهم وعبادة أصنامهم فإنهم سيفعلون ذلك كرهاً وبحد السيف ما داموا من العرب، وأما غير العرب فسيجدون عند بقاء كفرهم الكره والتصنع عند السجود كالمنافقين لمن لا تقتنع به عقولهم ولا تستجيب له فطرهم.

وتأمر السورة بعدها الرسول عليه وآله وصحبه السلام بطرح مجموعة من الأسئلة في جداله الحق على أولئك المشركين، ثم تقارن كجزء من هذا الجدال بين المشركين وعاقبتهم والمؤمنين وعاقبتهم، فتقول:

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّاۚ قُلْ
هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ
عَلَيْهِمْۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ
ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ
وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾
لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ
مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ
إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ
﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟
ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ

عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن
كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ
وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ
يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾

فاسأل المشركين يا محمد ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؟ وأجبهم أنه الله لتلزمهم الحجة إن لم يقولوا ذلك وجهلوا من هو، ولكنهم يعترفون بأن الله هو الخالق، ثم يأمره ثانية بأن يسألهم فيما إذا كانوا قد اتخذوا غير الله ناصراً لهم وهم لا يستطيعون نفع أنفسهم ولا دفع الضر عنها، فإذا اعترفتم أيها المشركون بالله خالقاً فلم تعبدون غيره مع أن هذا الغير لا ينفع ولا يضر؟

ثم انظروا هل يتماثل الأعمى الذي لا يرى الحق ولا يتبعه مع البصير الذي يراه ويتبعه، وهل تتماثل ظلمات الشرك مع نور الإيمان؟؟ ماذا حصل بكم وبعقولكم حتى تصورتم أن شركاءكم مع الله قد خلقوا خلقاً تشابه مع خلق الله فلم تعودوا تميزوا بينهما؟فقل لهم يا محمد ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ فيجب أن يعبدوه دون غيره، وأنه سبحانه الواحد قبل كل شيء، القهار الغالب لكل شيء ولا مريد يغلب مراده.

وانظروا أيها المشركون إلى الحق والباطل، والإيمان والكفر، فإنهما يشبهان الماء والزبد الذي يظهر فوقه والذي يستقر على جنبات الوادي فتأخذه الرياح ويضمحل، وهكذا الكفر والباطل بينما الماء هو الذي يجري ويجري ليتسرب في الأرض ويحييها بعد موتها، وهكذا الإيمان والحق، وكذلك الزبد الذي يظهر عند صهر المعادن فهو شوائب تطرح جانباً ويبقى المعدن النقي.

ولتعلموا أيها المشركون أن النهاية الحسنة بالنصر في الدنيا والنعيم المقيم في الأخرى لمن يستجيب لدعوة الله فيؤمن به ويلتزم طاعته، وأما من يصرون على الكفر فإنهم على استعداد لو كانوا يملكون أموال الأرض وضعفها أن يقدموها فدية لأنفسهم من عذاب يوم القيامة، وأنها لن تقبل منهم ولن تأتيهم بجنة ولا يتجاوز لهم بها عن سيئة، وينتهون إلى جهنم.

وانظروا إلى الفرق بين من يعلم أن القرآن حق فيؤمن به ويتبعه على بصيرة وبين من يقفل عينيه وعقله عن ذلك ويصر على الجهل، مع أن في ذلك ما يستدعي إثارة التذكر والتفكر لكل عاقل، والعاقل من صفته الوفاء بعهد الله في طاعته بكل أمره ونهيه، وفي عدم نقض أي ميثاق عقده في طاعة الله كتلك البيعة على عبادة الله وتوحيده وإقامة الصلاة والسمع والطاعة وأمثالها التي كثيراً ما بايع عليها الصحابة رضوان الله عليهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

كما أن من صفة ذوي الألباب، بالإضافة للوفاء بالعهود والعقود، أنهم يصلون الرحم ويقومون بجميع الطاعات ويجتنبون جميع المعاصي، ويخشون الله في ذلك كله، ويخافون سوء الحساب بالتخلي عن شيء منها، كما أن من صفاتهم أنهم يصبرون على طاعة الله وعن معصيته، كما يصبرون على المصائب والنوائب، ويؤدون الصلاة بفروضها وخشوعها في مواقيتها، ويدفعون الزكاة المفروضة وغيرها من الصدقات في سبيل الله، ويدفعون السيء من الأعمال بالصالح منها لأنهم يعلمون ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، «وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»، وأن عاقبتهم يوم القيامة الخلود في جنات عدن هم ومن آمن وصلح من آبائهم وأزواجهم وأولادهم حيث تحف بهم الملائكة بالهدايا مكرمة لهم وهم يحيونهم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ إذ قد سلموا من الآفات والمحق في دار السلامة جزاء إيمانهم وصالح أعمالهم وصبرهم عن اتباع الشهوات وعلى التزام الطاعات.

وأما أولئك الذين لا يوفون بعهد الله ولا ميثاقه، بترك التدبر الموصل للإيمان، ويقطعون الأرحام ويرفضون الإيمان بالأنبياء، ويفسدون في الأرض بالكفر والمعاصي، فإن عاقبتهم الطرد والإبعاد من رحمة الله والانتهاء إلى جهنم مستقراً لهم.

هذه هي عاقبة المؤمن وعاقبة الكافر، ولكن ليتذكر كل ذي لب أن سعة الرزق وضيقه هما بيد الله وحده، وأنه تعالى إذا بسطه في الدنيا على الكافر فليس ذلك دليل تكريم ورضا، وإذا ضيقه على المؤمن فليس ذلك دليل إذلال وسخط، لأن الدنيا دار ابتلاء وامتحان، ولذلك عليكم أيها المشركون ألا تفرحوا بهذه الحياة الدنيا لأنها بجانب الآخرة ليست بأكثر من الأمتعة الزائلة، وأنها للمؤمن زاد للآخرة.

والآن انظر يا محمد من جديد إلى ما يقوله الكفار لك من اقتراح بإنزال آية من ربك، فإن ذلك دليل جهل منهم، وقل لهم بأن الله قد وهب الواحد منكم من العقل واللب ما يقدر أن يعرف به الهدى والضلال، ودعاكم للهدى وترك الضلال، وضرب لكم من الأمثال وأورد من البراهين والدلالات ما يبين الهدى من الضلال، وجعل لكم

الاختيار بعد هذا التدبر بين الهدى والضلال فلماذا اخترتم الضلال وأعرضتم عن الهدى؟! ولتعلموا بأن من يختار الهدى والإيمان هو الذي يستجيب لفطرته فيطمئن قلبه بذكر الله والتزام طاعته والرضا بقضائه، وبأن لأولئك المؤمنين الصالحين الخير والنعمى والحسنى في جنات النعيم.

وتواصل السورة مخاطبة الرسول عليه وآله وصحبه السلام لدعوة المشركين للإيمان والتزام القرآن ولعدم الالتفات لسخريتهم، وتذكريهم بجنة المتقين، فتقول:

﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۢ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٣٤﴾ ۞مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

فقد أرسلك ربك يا محمد كما أرسل الأنبياء من قبلك، أرسلك لتبلغ القرآن إلى قوم يكفرون بالرحمن بحجة أنهم لا يعرفون إلا آلهتهم وهي (اللهم)، كما قالوا للرسول عليه وآله وصحبه السلام في صلح الحديبية، وقل لهم يا محمد بأن الرحمن هو ربك الذي لا معبود سواه، وهو واحد في ذاته وإن اختلفت أسماء صفاته، وأنك تعتمد عليه وتثق به وحده، وأنه مرجعك غداً، فترضى بقضائه وتسلم لأمره، وأنه سبحانه الرحمن والرحيم.. وله الأسماء الحسنى ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾.

وأما أنتما يا أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية، وأمثالكما، فاعلموا أنكم عندما تزعمون أنكم ستتبعون الرسول عليه وآله وصحبه السلام إذا سير جبال مكة بالقرآن لتنفسح عنكم الأرض الضيقة وتكثر فيها العيون والأنهار، وإذا سخر لكم الريح لتقضوا

عليها حوائجكم من الشام، وإذا أحيا لكم قصياً أو غيره من موتاكم لتسألوه عن أحقية دعوة محمد عليه وآله وصحبه السلام، فاعلموا لو أن قرآناً يفعل به ذلك كله لكان هذا القرآن لا غير، وأن جميع الأمور لله تعالى وحده القادر على كل شيء والمالك لكل شيء.

وأما أنتم أيها المؤمنون، أفلم تعلموا وتتبينوا أنه لو شاء الله بقضائه وقدره أن يهدي الناس جميعاً لفعل من غير أن يشاهدوا شيئاً من هذه الآيات، فاطمئنوا بأنه لا أمل في إيمان هؤلاء الكفار وقد أصروا على رفض اختيار الهدى وعلى اختيار الضلال، واعلموا أن هؤلاء الكفار سيبقون معرّضين لنزول الدواهي المهلكة عليهم من أمثال صاعقة أربد أو من قتل وأسر وقحط وغيرها كما حل برؤساء المشركين، كما سيبقون معرّضين لنزولكم بساحتهم أو بالقرب منهم حتى يحين موعد فتح مكة.

وانظر يا محمد ومن معك إلى إملاء الله تعالى لمن هزئوا بالرسل من قبلك من الكفار ثم أخذتهم عقوبته بعد أن آمن من آمن وأصر الباقون على الكفر والفساد في الأرض، وأن مثل ذلك ليس ببعيد عن مشركي قومك.

وليعلم هؤلاء المشركون أنه لا يمكن أن يكون من يحافظ على كل نفس من الخلق ولا يغفل عن ذلك كمن يغفل ولا يحافظ حتى على نفسه، فبأي عقل يهزءون منك ويجعلون لله شركاء من أصنام؟! فقل لهم يا محمد بأن يبينوا أسماء أصنامهم، وكأنهم يتصورون أن الله تعالى لا يعلم ما هي عليه أصنامهم حتى يخبروه بما لا يعلمه من خفي العلم أو ظاهره.. وليعلموا بأن الله العليم ليس له شريك وإن ادعوا هم ذلك.. ودعك من هذا يا محمد! بل زين للذين كفروا مكرهم وقد اختاروا الكفر والشرك والأصنام وصد الآخرين عن الإيمان.

وليعلموا أنهم وقد اختاروا الضلال فلن يوفقوا للهدى، وأن الله تعالى سينزل العذاب من قتل وسبي وأسر بهم في هذه الحياة الدنيا، وأن ما ينتظرهم من عذاب في الآخرة سيكون أشد وأقسى، وأنهم لن يمنعهم من ذلك العذاب مانع ولا دافع.

وليعلم أولئك المشركون الصادون عن سبيل الله أن مثل الجنة التي وعد الله بها المؤمنين المتقين هو مثل الجنان التي تجري من تحت أشجارها الأنهار، وأنها دائمة الثمار والظلال، وأنها مآل أولئك المتقين بينما مآل من يصر على الكفر والباطل إلى النار وبئس القرار.

وتصل السورة إلى نهايتها وهي ترد على المشركين طعنهم في الرسول عليه وآله وصحبه السلام وفي رسالته فتقول:

﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ
أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ
أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ
وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُواْ
ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ
فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا
مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا
تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ
كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

وانظر يا محمد إلى أن من أهل الكتاب، وبخاصة المؤمنين منهم، من يفرح بالقرآن ولا سيما بعد ذكر الرحمن فيه، وأنه بالمقابل من مشركي العرب وغيرهم من ينكر بعض القرآن لعدم اعترافهم ببعض الأنبياء وإن اعترفوا بأن الله خالق السموات والأرض، فقل لهم يا محمد بأنك أمرت بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وأنك تدعو الناس لذلك، وأنك ترجع جميع أمورك إليه وحده.. وأنك كما تفعل ذلك بالرغم من إنكار بعضه فإن الله تعالى قد أنزله عليك بالعربية بكل ما فيه من أوامر ونواه مما تلزمهم الحجة لقدرتهم على فهمه، ومما يفرض على كل أمتك عدم مراعاة أهواء المشركين في عبادتهم ما دون الله وفي التوجه إلى غير الكعبة ولا سيما بعد أن أصبح بين الأيدي العلم اليقين بحقيقة ذلك، وأنك وأمتك لو سايرتموهم لن تجد الله ناصراً لك ولا مانعاً من وقوع العذاب بأمتك.

واعلم يا محمد أن طعن اليهود بزواجك مردود عليهم لأن ذلك تم لداود وسليمان عليهما السلام وغيرهما لأنهم بشر لهم الحلال من شهوات الدنيا بالزواج وإنجاب الأولاد، وليس لأحد أن يمنع ذلك لأن المنع مخالف للفطرة بل يندب للإكثار من الزواج «تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم».

كما أن الاستجابة لطلبهم بالإتيان بآية ليس لك ولا لأي رسول يا محمد إلا إذا قضى الله تعالى بذلك، وأنه متى قضي وحكم بذلك فقد حلت سنة الله بإنزال العقاب إذا أصرت الأمة على الإعراض والإفساد.

هذا وقد رفع العقاب المهلك عن أمتك يا محمد في الدنيا فلا يبقى إلا العقاب الذي يحمل الامتحان والابتلاء، إما للتذكير وإما لمزيد الثواب سواء للفرد المؤمن أو الجماعة، وما ذلك إلا لأن الله تعالى يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء مما في حكمه وقضائه حتى قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه»، فزيادة الرزق والأجل قضاء ربطه عليه وآله وصحبه السلام بصلة الرحم.

وأما قوله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ﴾ [الأنعام: ٢] فإنه يعني بأن الله تعالى قد جعل للعبد أجلين أجل الحياة حتى الموت وأجل البرزخ حتى البعث، فالطاعات تزيد في أجل الحياة من أجل البرزخ وبالمعاصي بالعكس، وكل هذا رأي ليس له دليل قطعي، والراجح أن الثواب والعقاب هما اللذان يزيدان وينقصان بالطاعات والمعاصي بدليل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ [الفرقان: ٧٠].

واعلم يا محمد أننا إن أريناك بعض ما وعدناهم من العذاب أو نتوفاك قبل ذلك فليس عليك إلا التبليغ وعلينا الجزاء والعقوبة، ولينظر أهل مكة إلى الأرض كيف نقصها من أطرافها بتقلصها أو بجدبها أو بموت علمائها وصلحائها، ولكن ليعلموا أن تأخير العقاب عنهم ليس عن عجز فليحذروا الجور والظلم، فإنها تخرب البلاد وترفع البركة من الأرض، ويبقى حكم الله وقضاؤه قائماً دون نقص ولا تغيير.

وليعلموا أن مكر أو كفر الأمم السابقة الذي جلب العذاب لهم في الدنيا سيجلب أشد منه في الآخرة لأنه معلوم لدى علّام الغيوب الذي يعلم ما يقوله لك مشركو مكة من إنكار أنك رسول، فقل لهم يا محمد: كفى بالله ﴿شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ كما يشهد عليكم جبريل عليه السلام الذي يعلم ذلك، كما يشهد بذلك جميع المؤمنين.

دليل سورة الرعد ـ ١٣

- إنها سورة مكية في الراجح، وأنزلت في ٤٣ آية.

- تبدأ بالتدليل على أحقية القرآن بقدرته تعالى على ذلك وقد خلق السموات دون عمد مرئية كما خلق غيرها بمواصفاتها المعينة.

- تذكر استغراب تعجبهم من البعث وقد سبقه الخلق وهو أصعب منه.

- تشير لعلمه تعالى المحيط بكل شيء من الغيب كالحاضر لتدعو الكفار للإيمان به تعالى.

- بيان أن تغيير ما بقوم من حال سيئة أو حسنة إلى نقيضها مرتبط بسنة الله تعالى في خلقه: فإن غيروا ما في نفوسهم من معتقدات وآراء إلى نقيضها تغير حالهم تبعاً لها.

- لفت النظر إلى هذا النظام الكوني البديع من بروق ورعود تصاحبها الأمطار والصواعق فتصيب بقضائه تعالى وقدره من تصيب من الخير أو الشر.

- الطلب من الرسول عليه وآله وصحبه السلام لمواصلة الجدال مع الكافرين بأسلوب سليم يبدأ بطرح الأمور المسلم بها بين الطرفين ثم بربطها بما يتصل بها للوصول للقناعة والإقرار.

- تكرار جزاء المعاندين في الباطل والمستجيبين للحق مع لفت النظر بأن الأرزاق الوفيرة ليس دليل رضا كما أن قلتها ليس دليل سخط وإنما هو بلاء وابتلاء.

- تكرار التأكيد أن صفة الاختيار بين الحق والباطل هي طريق الحساب بين الجنة والنار.

- رفض حجة المشركين لعدم فهم ما في القرآن بعد أن أنزل بلغتهم العربية وهم العرب المكلفون بالإيمان به وحمله رسالة للبشر كافة.

- بيان أن لله تعالى وحده زيادة الرزق أو العمر ونقصانهما تبعاً لحال المرء وطاعته وعصيانه.

- التأكيد للرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن مهمته في المرحلة المكية هي التبليغ فقط.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ إشارة إلى معجزة رفع السموات دون عمد مرئية مما فيه من طاقات مغناطيسية وكهربية لم تعرف إلا حديثاً. .﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾.

٢ ـ إن التأكيد على قاعدة تغيير أحوال الأمم والشعوب تعطي دعاة التغيير القاعدة الذهبية لذلك، فلا يظنوا أن غير ذلك من الممكن أن يحقق التغيير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

٣ ـ بيان أسلوب الجدال الناجع مع الآخرين بالبدء بالمسلمات بين الطرفين سَبق النظريات الحديثة وأكد الأسلوب السليم في الدعوة للحق.

٤ ـ مفهوم خلق ميزة الاختيار للإنسان بين الحق والباطل يؤكد مسئولية الإنسان عن اختياره ولا علاقة له بالجبر والقضاء والقدر وإلا لانتفى الحق والعدل في الحساب.

٥ ـ ليس بالضرورة أن زيادة الرزق أو العمر تكون بالكمية والمدة، وإن كان ذلك ليس بمستبعد، ولكنه أيضاً قد يكون بالبركة والنماء ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾

٦ ـ التأكيد على أن مهمة حملة الدعوة الإسلامية في المرحلة المكية هي تبليغ الإسلام بأفكاره وأحكامه، مما يدل على أن التطبيق المادي وحماية الشريعة يأتي في مرحلة تالية كما حصل بعد إقامة الدولة في المدينة.

سورة إبراهيم (١٤)

التقديم

سورة إبراهيم مكية كلها إلا آيتين أو ثلاث نزلت في من حاربوا الله ورسوله من ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرًا﴾ إلى ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، وتشتمل الموضوعات التالية في اثنين وخمسين آية:

تبدأ بمخاطبة الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم مبينة له بأن القرآن الذي أنزل إليه قصده نقل الناس من الكفر إلى الإيمان، وأن ذلك أمر من الله تعالى مالك كل شيء للبشر جميعا، وأن من رفضوا الإيمان لهم العذاب الشديد لتفضيلهم الدنيا على الآخرة وصدهم للناس عن الإيمان، وأن الله تعالى لم يرسل قبلك يا محمد أي رسول إلا بلغة قومه ليلزمهم الحجة، وأنه تعالى قد أرسل موسى عليه السلام بالمعجزات التسع لبني إسرائيل ليخرجهم من الكفر إلى الإيمان ويذكّرهم بما حل في الأقوام السابقين الذين أعرضوا عن الإيمان ليعتبروا ويقبلوا على الإيمان بصبر وشكر مهما تعرضوا في سبيل ذلك من فتن، وأن موسى عليه السلام قد ذكرهم بنعم الله الكثيرة عليهم إذ أنقذهم من الغرق مع آل فرعون الذين كانوا يعذبونهم ويستعبدونهم ويقتلون أطفالهم.

كما حذّرهم من الكفر وذكّرهم بما حل بقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم عندما رفضوا الإيمان مع رسلهم الذين جادلوهم باستنكار شكهم بخالق السموات والأرض حسب اعترافهم والذي يغفر للمؤمنين منهم ذنوبهم السابقة بعد أن يفسح لهم المجال الكافي للإيمان، وكيف أنهم رفضوا الاستجابة لهم بحجة أنهم بشر مثلهم وأنهم يسعون لإبعادهم عن دين آبائهم، وكيف أن رسلهم كانوا يقرون لهم بواقع أنهم فعلاً بشر مثلهم ولكن الله تعالى تفضل عليهم باختيارهم لتبليغ رسالاته لهم، وأنهم لا يوردون لهم أية معجزة إلا بإذن الله تعالى الذي أنزل الهدى عليهم وأمرهم بالصبر على الأذى في سبيله والتوكل والاعتماد عليه وحده، وكيف أن الكفار كانوا يتهددون رسلهم بالطرد من

بلادهم إذا لم يعودوا لدينهم، وأن الله تعالى قد بلغ رسله بأنه يهلك الكافرين المعاندين ويحل المؤمنين محلهم، وكيف أن المعاندين الجبابرة قد آذوا الرسل حتى أذن لهم الله أن يدعوا عليهم بالهلاك فيستجيب تعالى لهم بالعقوبة في الدنيا وبما ينتظرهم من جهنم في الآخرة حيث يتجرعون أصنافاً من العذاب فيها.

وبعد هذه الإشارات إلى مصائر الأقوام السابقين مع رسلهم تضرب السورة المثل للمشركين والكفار بأن أعمالهم مهما ظهر فيها من خير فهي كالرماد الذي تذروه الرياح، وأنها لن تنفعهم في شيء يوم الحساب ما داموا يموتون على كفرهم بخالق السموات والأرض والقادر على إفنائهم والإتيان بخلق مطيعين له بدلاً منهم ولكنه سبحانه يعطيهم فرصة.

ثم تصور السورة حال الكفار يوم الحساب وكيف أن الأتباع يطلبون من الرؤساء أن يتحملوا عنهم شيئاً من العذاب، فيردوا عليهم بالكذب على الله تعالى بأنه لم ينزل عليهم الهدى ليتبعوه ويجعلوهم يتبعونه معهم، فيحاولوا الصبر على العذاب حيناً والجزع حيناً آخر فلا ينتفعون بشيء من تخفيف العذاب عنهم بذلك، وكيف أن الشيطان المرافق لهم في العذاب يذكرهم بأن الله وعدهم بالحق بأن يدخل المؤمن منهم الجنة والكافر النار، وأما هو فقد وعدهم بنفي ذلك كله ولكنه لم يحقق لهم من وعده شيئاً، وأن المسئولية في ذلك كله عليهم لأنه ليس بمتسلط ولا مكره لهم على الكفر، وأن كل ما فعله هو أن وسوس لهم الكفر وزين لهم بإغرائه أعمال الباطل فاتبعوه، ولذلك لا لوم عليه وإنما اللوم كله عليهم هم أنفسهم، وأنه لا يملك أن يغيثهم كما لا يملكون هم أن يغيثوه من العذاب الذي يقاسيه وأنه لا علاقة له بشركهم.

وبعد هذا التصوير لأعمال الكفار وعذابهم تشير السورة إلى المؤمنين الصالحين وراحتهم في الجنان بما يجري من تحت منازلها من الأنهار، وبما يعيشونه من أمن وسلام من ابتلاءات الدنيا وآفاتها.

ثم تضرب مثلاً بالمؤمن بأقواله وأفعاله وأنه كالشجرة الدائمة الخضرة كالنخلة مثلاً فهو في إيمانه الثابت كجذورها وفي طاعاته كفروعها الحاملة لثمارها الطيبة في كل وقت وعلى مدار السنة، بينما مثل الكافر بكفره وأعماله كالشجرة الخبيثة المرة، كالحنظلة مثلاً التي لا جذور لها ضاربة في الأرض كالنخلة وإنما هي زاحفة على سطح الأرض فلا ثبات لها ولا استقرار إذ ما أسرع ما تقتلع من الأرض.

وتعقب السورة بعدها بالتنبيه على الإنسان كل إنسان بأن من يؤمن فهو الذي يجد

الثبات والاستقرار في الدنيا والآخرة سواء بما يناله من ثواب في الآخرة أو سعادة في الدنيا بقدر إيمانه ورضاه بقضاء الله وابتلائه.

وتعود السورة لمخاطبة الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة السلام مذكرة له بما فعله كفار قريش عندما خاضوا معركة بدر ضده، فأهلكوا أنفسهم وقومهم عندما رفضوا الدخول في نعمة الإسلام وأصروا على الشرك، وأنهم إلى جهنم يوم الحساب إذ أشركوا بالله وأضلوا الآخرين بشركهم، وأنهم وأمثالهم إلى النار بعد هذا التمتع القصير في الدنيا.

وتعود لتأمره عليه وآله وصحبه السلام بأن يأمر المؤمنين بإقامة الصلاة والحرص عليها وعلى الإنفاق بإخراج الزكاة المفروضة والنافلة علانية وسراً لأن ذلك هو الزاد ليوم الحساب بين يدي رب العباد الذي لا تعد نعمه عليهم ولا تحصى بدءاً من خلق السموات والأرض، وإنزال المطر من السماء وإخراج النباتات وغيرهما من الأرض، إلى تسخيره المياه لسير السفن بخيراتها من قطر إلى آخر، ولسقي المزروعات، مع الاختلاف بين أهمية ومنافع المياه المالحة عن المياه الحلوة، ثم تسخيره الشمس والقمر والليل والنهار لمنافع كثيرة للإنسان.

وتأتي السورة بعدها بالتذكير بقصة إبراهيم عليه السلام منذ حل بمكة بزوجه هاجر وولدها إسماعيل.. وبما دعا به ربه سبحانه أن يجعل مكة بلداً آمناً، وأن يبعده هو وأبناؤه عن عبادة الأصنام والثبات على التوحيد، وأن يحبب الناس المؤمنين بمكة ويخصب أرزاقها، وأن يديمهم على إقامة الصلاة هو وذريته، وأن يتقبل دعواتهم وعبادتهم، وأن يغفر لهم ولوالديهم المؤمنين ولجميع المؤمنين، وله الثناء سبحانه وله الشكر على ما أنعم عليه على الكبر بإسماعيل وإسحاق.

وتأتي السورة بعدها لدعوة الرسول عليه وآله وصحبه السلام للصبر كما صبر إبراهيم وللعلم بأن تأخير العذاب عن المشركين ليس بسبب الرضا بأفعالهم وإنما هي سنته تعالى في إمهال العصاة مدة، فاذكر ذلك يا محمد وأن الله تعالى يؤخرهم لذلك اليوم الذي تشخص فيه الأبصار فلا تغمض من هول ما تراه، وتجد الظالمين فيه مسرعين برفع رؤوسهم مع إدامة النظر إلى السماء فلا ينظر أحد إلى أحد، وتجد أفئدتهم هواء من شدة الخوف.

ولذلك عليك يا محمد أن تنذر أهل مكة من عذاب يوم القيامة، إذ يطلب المشركون التأخير عن الحساب إلى مدة قريبة ليجيبوا دعوة رسوله عليه وآله وصحبه السلام ويؤمنوا بالرسل من قبله فيأتيهم الرد باستنكار مطلبهم لأنهم هم أنفسهم كانوا قد

أقسموا البقاء في الدنيا للموت فقط دون بعث ولا حساب فكيف يطلبون ذلك الآن؟! ثم يحجهم المولى سبحانه بأن مطلبهم ذلك مجرد زعم كاذب لأنهم توارثوا مساكن المشركين من قبلهم ورأوا ما سبق أن حل بهم ولكنهم لم يعتبروا بل على العكس مكروا وتآمروا ضد الرسول عليه وآله وصحبه السلام لقتله وإيقاع الأذى بالمؤمنين.

وتأتي السورة في النهاية إلى التأكيد للرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ولأمته من بعده بأن الله تعالى لا يمكن أن يخلف رسله فيما وعدهم به من النصر في الدنيا والعذاب لمعاديهم في الآخرة ناهيك عن عقوبة الدنيا، وليتذكر عليه وآله وصحبه السلام أن يوم الحساب هو ذلك اليوم الذي تبدل معه السموات والأرض بغيرها، ويساق الخلق كلهم فيه للحساب على أعمالهم بين يدي الواحد الذي لا شريك له والقهار الذي لا يفلت من عقوبته ظالم ولا عاص، وترى فيه المشركين وهم مشدودون بالأغلال والقيود في أعناقهم وأرجلهم وأيديهم، وترى أي ملابس يلبسون:

إن قمصهم التي يلبسونها من القطران الذي ما أسرع ما تشتعل فيه النيران! وما أشد ما يكون عليه حريقها! وأما وجوههم فإنها تشتعل بالنيران! وأن ذلك كله جزاء ما ينتظر كل نفس مشركة بالله تعالى على أعمالها لأن الله تعالى بعد أن أخر إيقاع العذاب عنهم في الدنيا لمدة يلزمهم بها الحجة سريع الحساب في إعطاء الجزاء في الآخرة، فليستعد لذلك هؤلاء المشركون الذين يعرضون عن الإيمان ويصرون على الكفر.

وأخيراً تضع السورة هذا البيان للناس بعامة ولمشركي مكة ومن حولها بخاصة كبلاغ وإنذار وإعلام من الله تعالى بأن الله تعالى خالق الخلق كلهم إله واحد يجب عليهم أن يفردوه بالعبادة.. وأن يتذكر ذلك ذوو العقول منهم من الآن وقبل ذهاب فرصة الإمهال المعطاة لهم.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾

فبعد الافتتاح بحروف (الر) يخاطب المولى سبحانه في هذه السورة رسوله المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بأنه قد أنزل إليه هذا الكتاب القرآن وذلك لكي يخرج بدعوته إليه جميع الناس الكافرين من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم الحق، إلى الطريق الذي يأمر به العزيز الذي لا يغلبه غالب، والحميد المحمود في كل زمان ومكان معلوم وغير معلوم للإنسان، وأن ذلك كله بأمر منه تعالى، كيف لا وهو سبحانه المالك والخالق لكل ما في السموات والأرض، والمدبر لها كلها بنظامه البديع المتقن، والذي بالإيمان به وطاعته ينعم الإنسان بعظيم النعيم، وأما الكافر به فيخلد في شديد العذاب، وذلك لأنه فضّل الحياة الدنيا، وهي زائلة ومتاعها قليل، على الحياة الأخرى الباقية ذات المتاع الكثير، كما أنه يصد الآخرين عن الإيمان بالله وطاعته والتزام أمره وتجنب نهيه، ويسعى لجعلهم يسيرون وفق هواه وحاجته وغرضه الشخصي الدنيوي العابر، وأن مثل ذلك هو المؤدي بصاحبه للذهاب بعيداً عن الحق.

وتخاطب بعدها السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بالإشارة إلى إخوانه من الرسل السابقين من حيث اللغة التي أرسل بها كل منهم فتقول:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤﴾

فاذكر يا محمد بأن الله تعالى لم يرسل قبلك أي رسول إلا بلغة قومه وذلك ليتمكن من بيان أمر دينهم لهم بسهولة، وأن العجم والأجانب عن اللسان العربي كلهم لا حجة لهم في هذه الآية، لأن كل من يترجم له ما جئت به ترجمة مفهومة لزمته الحجة، بدليل أولاً قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨] وقوله عليه وآله وصحبه السلام ثانياً: «أرسل كل نبي إلى أمته بلسانها وأرسلني الله إلى كل أحمر وأسود من خلقه» وقوله عليه وآله وصحبه السلام أخيراً: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار».. م«من هذه الأمة» أي تفهم لغة الإسلام العربية أولاً وتترجم إلى لغتها أحكامه وشريعته ثانياً وأخيراً.

ومع هذا التحول للعالم إلى قرية صغيرة في إطار ثورة المعلومات التي تتقدم بسرعة مذهلة لم يعد لأحد لا من الأمم ولا من الأفراد إلا وصله السماع بالمصطفى المختار ورسالته.

وأما الضلال والهدى المنسوبان للمشيئة الإلهية فقد جاءتا بعد بيان كل رسول

لرسالته بلغة قومه إلى قومه، وبيان الرسول محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم الإسلام لجميع البشرية التي كانت في عهده، مما يعني أن الهدى المتمثل في الإيمان بالإسلام والتزام أوامره ونواهيه قد توفر بين أيدي كل فرد يسمع بهذا الرسول ورسالته سماعاً يستثير فكره وتدبره، ولم يبق عليه إلا أن يؤمن به ويلتزم رسالته وإلا كان ضالاً، وبالتأكيد لن يكون هذا الضلال وذلك الهدى إلا باختيار الفرد نفسه ودون أي إكراه ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وأن المولى سبحانه بقدرته المحيطة بكل شيء قد أعطى هذه الفرصة للاختيار لكل إنسان ليلزمه الحجة فكان اختياره للهدى أو الضلال بمشيئته تعالى لا رغماً عنه وهو سبحانه القادر في كل لحظة للتدخل بقضائه وقدره ويمنع من هذا أو ذاك أو يفرض هذا أو ذاك.

ولولا أهمية هذا المفهوم لما لزم الوقوف عنده مجدداً ولا سيما لكثرة التباسه في الماضي والحاضر على الأفهام بشكل مخل في الإيمان.

ونعود للسورة فنجدها تورد جانباً من قصة موسى عليه السلام لأخيه محمد عليه وآله وصحبه السلام فتقول بما يناسب مساق السورة نفسها:

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم
بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٥﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ
نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ
وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٦﴾ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن
شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ
جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَۛ
وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ
وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٩﴾ ۞قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي
ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ
مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ
مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ
عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا
لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ

﴿١٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ
لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾
وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾
يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ
عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

انظر يا محمد وتعزّى بما جرى مع أخيك في النبوة موسى عندما أرسله الله تعالى بالحجج والبراهين، وبالآيات التسع: الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد والسنين ونقص الثمرات، إلى بني إسرائيل وهم في وسط آل فرعون، وذلك من أجل أن يخرجهم من ظلمات الكفر والجهل بحقائق الحياة ونظام الكون البديع إلى نور الإيمان والعلم بذلك كله الموصل للإقرار بالحق والوحدانية، ومن أجل أن يذكّرهم بالوقائع سواء منها نعم الله أو عقوباته التي كانت تنزل أو تحل بالأقوام السابقين تبعاً لمعاملاتهم مع رسلهم، ولأن في هذا التذكير ما فيه من الدلالات لكل صابر على طاعة الله وعن معاصيه، وشاكر لنعم الله وذلك بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام «الإيمان نصفان، نصف صبر ونصف شكر..».

واذكر يا محمد عندما باشر موسى بتذكيرهم بنعم الله عليهم عندما أنقذهم من آل فرعون بما كانوا يوقعون عليهم من العذاب والقهر ويقتلون أبناءهم الذكور، ويسترقون نساءهم، مما فيه من بلاء عظيم كانوا يمتحنون به ليظهر صدق إيمانهم وصبرهم على الشدائد.

واذكر يا محمد إذ قال ربك لئن شكرتم إنعامي ووحدتم وأطعتم لأزيدنكم من فضلي وثوابي، وأما إذا جحدتم حقي ونعمي فإنه سينزل بكم العذاب الشديد.

كما واذكر يا محمد قول موسى لقومه بأنهم لو كفروا هم ومن في الأرض كلهم جميعاً فلن يؤثر ذلك على ملك الله تعالى شيئاً لغناه سبحانه عنهم ولكنه لا يرضى لهم الكفر، وسؤاله لهم بالاستنكار عما إذا لم يعلموا بما وقع مع قوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم، ممن لا يعلمهم إلا الله، عندما أرسل الله إليهم الرسل فأعرضوا عنهم وأعلنوا لهم بتعنت بأنهم كافرون بما أرسلوا إليهم به، وأنهم يشكون ويرتابون بكل ما قالوه لهم.

واذكر يا محمد ما ردت به عليهم رسلهم بأنهم يستنكرون شكهم بوجود خالق السموات والأرض وتدبيره لها ولكل ما ومن فيها، وأنه تعالى يدعوهم إلى طاعته

بالرسل والكتب ليغفر لهم ذنوبهم ويؤخر العذاب عنهم في الدنيا، ولكن بدلاً من الاستجابة لرسلهم أعرضوا عنهم بحجة أنهم بشر مثلهم في الأكل والشرب وليسوا بملائكة، وبحجة أنهم يريدون أن يبعدوهم عن الأصنام والأوثان التي عبدها آباؤهم، وأنهم طالبوهم بمعجزات ظاهرة غير ما كانوا يأتونهم به.

واذكر يا محمد ما ردت به الرسل على أقوامهم بأنهم بالفعل بشر مثلهم ولكن الله تعالى تفضل بالنبوة عليهم ليحملوا الهداية لأقوامهم، وأنهم ما كانوا ليأتوا بأي حجة وآية إلا بقضاء وحكم من الله تعالى وليس بناء على طلبهم، وأنهم مؤمنون بالله معتمدون عليه وحده، وهذا ما يفرضه عليهم كونه سبحانه قد هداهم الطريق القويم بما أرسل إليهم من وحي، وأنهم صابرون على ما يوقعونه عليهم من أذى ومن إهانة وضرب وتكذيب وقتل وذلك لأنهم يثقون بالله بأنه كافيهم ومثيبهم ومعينهم وناصرهم.

واذكر يا محمد ما قاله الذين كفروا من تلك الأقوام لرسلهم عندما تهددوهم بالطرد من بلادهم إذا لم يعودوا لملة الكفر التي كانوا عليها، ولكن الله تعالى أنقذ رسله من أولئك الكفار عندما طمأنهم بأنه سيهلك أقوامهم ما داموا على إصرارهم على الكفر والأذى، وأنه سيجعلهم والمؤمنين معهم سكان الأرض بعد إهلاكهم، وأن مثل هذه العاقبة للرسل والمؤمنين هي لكل من خاف من عذاب الله وخاف وعيده وزواجره الواردة في القرآن.

واذكر يا محمد ما فعله كل جبار متكبر من تلك الأقوام عندما استنصروا وطلبوا إنزال العقاب عليهم من باب الاستخفاف فأذن الله تعالى لرسله بسبب كفرهم وغطرستهم بالدعاء عليهم فحل العذاب عليهم في الدنيا وسيجدون في الآخرة جهنم بانتظارهم حيث يتجرعون الماء الصديد الذي لا تطيقه النفس، وحيث يأتي الواحد منهم الموت من كل صنف من العذاب، وما أكثرها! وهيهات له أن يموت مما ينتظر جزاء كفره وسوء عمله من الخلود في العذاب الغليظ.

وبعدها تضرب السورة مثلاً للكفار وأعمالهم وما يجري من جدال بينهم وبين رؤسائهم غداً في جهنم، ومثلاً بالمقابل للمؤمنين وأعمالهم فتقول:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍۚ قَالُواْ

لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا
قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ
أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى
كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ
كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ
أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ
خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾

فانظروا إلى قيمة أعمال الكفار، إنها مثل الرماد في يوم شديد الرياح تعصف بها في كل مكان فلا يبقى يرى منها شيء، وهكذا أعمال الكفار فإن الله يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف، فلا يقدر أصحابها الكفار على الحصول على أي مثوبة جزاء ما عملوا من البر في الدنيا لأنهم أحبطوها بكفرهم الأمر الذي يوقعهم في الخسران الكبير، وذلك لأن الإيمان أساس الأعمال والكفر يهدمها.

وانظر يا محمد بعقلك إلى السموات والأرض لترى أن الله تعالى قد خلقهما بالحق، وبهما يستدل على قدرته سبحانه، ولينظر أتباعك ليروا ذلك ويعلموا أن الله تعالى قادر على إفنائهم كما أوجدهم، فليحذروا من العصيان لأنه قادر على المجيء بخلق جديد بدلاً منهم ويكونون أفضل منهم وأطوع.

ثم انظروا إلى هذا الحوار في جهنم بين الرؤساء المتكبرين على الإيمان بالله وطاعته وبين أتباعهم وهم يسألونهم فيما إذا كان من الممكن لهم أن يريحوهم من شيء من عذاب الله بعد أن تبعوهم في الدنيا، فيردوا عليهم بالكذب والافتراء على الله بأنه لو هداهم لهدوهم! وكأنهم يزعمون أن الله يجبرهم على الهدى أو لأنهم لا يرون أن الهدى في الإسلام والقرآن الموجود بين أيديهم ويريدون هدى آخر.

وانظروا إليهم وهم يحاولون أن يلجأوا إلى الصبر على عذاب الله أو الجزع منه على رجاء أن يخفف الله تعالى شيئاً منه بذلك فلا يخفف فيقولون بأن الأمر سيان وليس لهم من مهرب من العذاب بأي حال كانوا عليها.

وانظروا إليهم وهم يتحاورون مع رفيقهم في جهنم، مع الشيطان، وهو يقول لهم

بأن الله قد وعدهم الوعد الحق بأن يجزي بالجنة من يؤمن ويطيع وبالنار من يستمر على الكفر والعصيان، بينما هو قد وعدهم بأن شيئاً من ذلك لن يقع وإنما هي الحياة الدنيا، وها هو قد وقع وعد الله ولم يقع وعده هو لأنه كاذب مخلف الميعاد، ولكن لماذا استجابوا له وهو الذي لا يملك أن يلزمهم بالكفر وترك الإيمان ولديهم القدرة على الاختيار لهما، والمسئولية لذلك كل المسئولية تقع عليهم لأنهم بمجرد دعوته لهم استجابوا له فرأوا في تزيينه للدنيا ومتاعها هو الحق ولا حق بعده ولذلك فليس من حقهم أن يلوموه لاختيارهم ذلك وإنما عليهم أن يلوموا أنفسهم، وأنه لا يملك أن ينقذهم مما هم فيه من العذاب كما لا يملكون هم أن ينقذوه من عذاب الله، وأنه في هذا الموقف الذي حسم فيه الأمر ونال كل منهم جزاءه لا يملك هذا الشيطان إلا إنكار كل شرك بالله استجابوا به له ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣] وجزاء الظالمين العذاب الأليم.

هذا هو مصير الكفار، أهل النار، وأما المؤمنون الصالحون فقد أدخلهم الله تعالى جنات تسير الأنهار من تحت أشجارها ومنازلها، وهم يتمتعون بهذا النعيم الخالد جزاء من ربهم الذي وعدهم بذلك، وأنهم يعيشون فيها في أمن وسلام من كل المحن والآفات ويتبادلون تحية الإسلام فيما بينهم.

وانظر يا محمد أنه كما أن أعمال الكفار كرماد يوم عاصف فإن مثل أعمال المؤمنين كالشجرة الطيبة، شجرة النخلة الدائمة الخضرة والثمرة، وجذورها ضاربة بثبات في الأرض، وفروعها متطاولة في السماء، فهي ثابتة لا تتأثر بعواصف الرياح بل على العكس تستفيد من الرياح بحركة وانتقال اللقاح فتعطي الثمار على مدار السنة بهذه السنَّة الإلهية في خلقها، فشتان بين هذه الشجرة وثبوتها الدائم وثمارها الحلوة الدائمة وبين الكفر والكفار المتمثلين في الشجرة الخبيثة، شجرة الحنظل، ومر طعمها ومؤقت ثمارها وفقدانها للجذور الثابتة والفروع الباسقة، وإنما هي نبتة على وجه الأرض زاحفة!!

فاذكروا أيها الناس من المؤمنين والكافرين أن الله تعالى يثبّت الذين آمنوا بالله ورسوله والتزموا طاعته بالقول الثابت في أول مرحلة بين الحياة الدنيا والآخرة، إنها القبر وما يجري فيه من حساب كما تقول الأحاديث الصحيحة والتي يصدق وصفها وإن لم يصل إلى حد التواتر المطلوب في الأيمان والاعتقاد الجازم، والتي تتحدث عن سؤال القبر عمن رب هذا الميت وعن دينه، وأنه إن كان مؤمناً يقول بأن ربه الله وأن دينه الإسلام.. وأما لو كان كافراً فإنه يقول: لا أدري، فيقال له لا دريت ولا تليت،

وأنه يضرب بمقامع من حديد بعدها، ويستمر على هذا الحال طيلة الحياة البرزخية إلى يوم البعث.

وهكذا فإن المؤمن في الدنيا يثبت على الإيمان في القبر والكافر يثبت على الكفر والضلال.. وتلك سنة الله في خلقه ومصير الخلق المرتبط بحكمه وقضائه.

وتأتي السورة بعدها للآيات الثلاث المدنية التي تتحدث عن مشركي قريش وقتالهم للرسول عليه وآله وصحبه السلام في بدر فتقول:

﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

مخاطبة الرسول عليه وآله وصحبه السلام ومنبهة له لشنيع فعل مشركي قريش الذين رفضوا نعمة الإسلام والإيمان المنزلة عليهم وأصروا على الكفر فكان تكذيبهم لمحمد عليه وآله وصحبه السلام تبديلاً للنعمة بعد أن بعثه الله منهم وفيهم فكفروا، ومشيرة إلى ما انتهت إليه أفعالهم المنكرة بمقاتلة محمد عليه وآله وصحبه السلام والمؤمنين معه يوم بدر عندما حل ما حل بقومهم من البوار والهلاك والقتل والسبي والأسر، فكان ما كان بهم في الدنيا وسيكون لهم جهنم يوم الحساب ليستقروا في بؤس المستقر، ومبينة أن فعلتهم لم تقف عند القتال وآثاره في الدنيا بل أصروا مع ذلك كله على مواصلة اتخاذ الأصنام شركاء لله تعالى مع أنهم رأوها أنها لا تضر ولا تنفع لا في سلم ولا حرب ولكنه التقليد الأعمى للآباء والذي لشدة عنادهم في باطله جعلهم يمنعون الناس عن الإيمان بالله ورسوله وكتابه، ولذلك أمر رسوله عليه وآله وصحبه السلام أن يخبرهم بأن هذه هي متعتهم الزائلة بمقدار هذه الحياة الدنيا وأن مصيرهم في الآخرة إلى النار وبئس القرار.

وبالمقابل تأمر السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بما على المؤمنين أن يعملوه ويتدبروه فتقول:

﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ٣٣ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ٣٤﴾

فقل يا محمد لمن آمن وحقق عبوديته بعد أن بدل أهل مكة نعمة الله بالكفر أن يقيموا الصلوات الخمس، وأن ينفقوا ما يجب عليهم من الزكاة علانية وما لا يجب سراً وإن كان ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ﴾ [البقرة: ٢٧١] شاملة للزكاة المفروضة والتطوع، وأن يحرصوا على هذا الإنفاق لينالوا الجزاء الطيب من الله يوم القيامة، يوم لا مجال فيه لبيع ولا شراء ولا إنفاق وإنما فقط هناك الجزاء على كل ما وقع في الدنيا دار التكليف.

وانظروا أيها المؤمنون إلى ما أنعمه عليكم ربكم سبحانه من النعم، فهو جل وعز عندما أبدع وخلق السموات والأرض على غير مثال سبق فإنه أنزل من السماء وسحبها الأمطار التي تحيي الأرض بعد موتها بما يخرج منها من الأشجار المثمرة وغير المثمرة التي يتحقق لكم بها الرزق الكثير، وهو سبحانه قد سخر لكم تلك البحار لتحمل السفن متنقلة بكم وببضائعكم بين الآفاق، وسخر لكم الأنهار الجارية من موقع إلى آخر على سطح الأرض حاملة المياه العذبة وما فيها من خيرات في الشرب والسقي كما في المياه المالحة في البحار الكثير من الخيرات الأخرى.

وهو سبحانه قد سخر لكم الشمس والقمر يجريان إلى أجل معلوم عنده سبحانه حين تقوم الساعة كما يجريان حول الذات وحول بعضهما وغيرهما فتأتي الفصول الأربعة بدوران الأرض حول الشمس ويأتي الليل والنهار بدوران الأرض حول نفسها ويأتي القمر في منازله حتى البدر ثم المحاق مع دورانه حول الأرض، ويأتي الخسوف والكسوف باعتراض الأرض بين الشمس والقمر، وباعتراض القمر بين الأرض والشمس، وهو سبحانه قد سخر لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتعملوا فيه.

وهو سبحانه الذي آتاكم من كل ما سألتموه وما لم تسألوه إذ هو سبحانه الذي ابتدأكم بالشمس والقمر وكثير من النعم دون سؤالها، وأنتم لن تستطيعوا أن تحصروا نعم الله عليكم بدءاً مما في أنفسكم وأجسامكم ومحيطكم وانتهاء بعالمي الآفاق الأرضية والسماوية، ولكن الإنسان بالرغم من ذلك كله في كثير من البشر يبقى ظالماً لنفسه بالشرك مع الله وكافراً بنعم الله لإنكاره لها إذ يظنها كما يتوهم خياله الجامح لا عقله الراجح أنها من صنع الصدفة أو ما يحلو له أن يسميه بالطبيعة، وأي طبيعة هذه؟!

وهنا تأتي السورة إلى تذكير الرسول عليه وآله وصحبه السلام بالجانب الختامي من قصة إبراهيم عليه السلام فتقول:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ
أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ
مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ
تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى
عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ
(٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)﴾

فتقول اذكر يا محمد ما قاله أبوك إبراهيم عليه السلام عندما توجه إلى ربه وقد وصل مكة بزوجه هاجر وابنه إسماعيل وأخذ يدعوه سبحانه أن يبعده عن عبادة الأصنام كما يبعد بنيه، أي الذين من صلبه الثمانية، عن ذلك، فلا يقع أحد منهم في عبادتها كما عبدها أبوه وقومه، وذلك لأنهن كن سبباً في إضلال من عبدها عندما اختاروا عبادة ما وجدوه منها أمامهم تقليداً لآبائهم فضلوا.

ويواصل إبراهيم عليه السلام دعاءه بالمغفرة والرحمة لمن أصر على الشرك من قومه وذلك قبل أن يعرّفه الله تعالى ألا مغفرة ولا رحمة لمشرك ولا دعاء له، كما يدعوه تعالى أن يجعل قلوب المؤمنين من الناس تهوي وترغب وتحب الذهاب إلى مكة حيث أسكن من ذريته ولده إسماعيل وأمه هاجر، وحيث لا زرع، وحيث بيته تعالى المحرم الذي يقيمون فيه الصلاة، وأن يرزقهم من الثمرات والخيرات في تلك البقاع ما يمكّنهم من أداء طاعته وعبادته وشكره..

ويروى أن قبيلة جرهم قد جاءت ونزلت بالمكان لوجود الماء وتزوج إسماعيل منهم بعد أن شب وماتت أمه.

وتعود السورة وتنقل بقية دعاء إبراهيم عليه السلام وهو يبتهل إلى الله تعالى بأنه العالم بكل ما يخفيه المرء ويعلنه، وأنه تعالى لا يخفى عليه شيء في السماء ولا في الأرض، وأنه تعالى له الحمد والثناء والمنة إذ وهب له بعد كل هذا التقدم في العمر إسماعيل ثم إسحاق، وأنه تعالى مجيب الدعاء، وأنه تعالى معين له ليواصل إقامة

الصلاة هو وذريته وأن يستجيب لهم كل دعاء وطاعة ويغفر له ولوالديه وللمؤمنين عند الحساب يوم القيامة.

ودعاؤه عليه السلام لوالديه لا شك أنه قبل أن يثبت له أنهما عدوان لله وطمعاً في إيمانها.

وترجع السورة لمخاطبة الرسول عليه وآله وصحبه السلام مسلية له ومطمئنة فتقول:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾
مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ
ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟
أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ
لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ
وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ
ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى
ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾
لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ
وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

فتقول له عليه وآله وصحبه السلام بأن عليه أن يصبر كما صبر إبراهيم وأن يُعلم المشركين بأن تأخير العذاب عنهم ليس من باب الرضا بأفعالهم مهما كان في ظاهرها من البر، وإنما هي سنة الله في إمهال العصاة إلى مدة محددة عنده تعالى في حكمه وقضائه.

وأنه عليه وآله وصحبه السلام عليه أن يطمئن لذلك ويعلم بأن الله تعالى محيط بكل ما يعمله أولئك المشركون، وأنه تعالى يمهلهم إلى يوم القيامة، يوم الحساب الذي لا يستطيع المرء عنده أن يغمض عينيه من هول ما يراه، وتجده يتحرك مسرعاً وهو رافع رأسه إلى السماء ومحدق بصره من شدة الخوف، وترى وجوه الناس يومئذ مشدودة إلى السماء حين لا ينظر أحد إلى أحد، وحين يسيطر الذهول عليهم ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

وتقول بعدها للرسول عليه وآله وصحبه السلام: وجه الإنذار إلى أهل مكة يا محمد بأنه متى يحين نزول العذاب بهم وذلك يوم القيامة فإن الظالمين المشركين منهم سيبادرون لطلب تأخير حسابهم وعذابهم إلى أي وقت قريب، بزعم أنهم عندها سيجيبون دعوتك يا محمد التي تدعوهم بها الآن إلى الإيمان والإسلام وأنهم سيؤمنون بالله ورسله ويتبعونك في كل ما تأمرهم به حتى الإيمان بالرسل السابقين، فقل لهم بأن الرد سيأتيهم على طلبهم هذا بأنهم كاذبون لأنهم سبق أن أقسموا وهم أحياء في الدنيا بأنهم لن يبعثوا يوم القيامة وإنما هي مجرد هذه الحياة والموت فقط، فهل ما يرونه يوم الحساب هو ما أقسموا عليه؟!

وتعود السورة وتدعو الرسول عليه وآله وصحبه السلام ليقول لمشركي مكة: ألا ترون بأن المشركين السابقين الذين حل بهم ما حل من العذاب، وأورد لكم القرآن قصصهم كأمثال لتعتبروا بها، ألا ترون أنكم قد ورثتم مواضع سكناهم بعد أن أهلكهم الله بعذابه جزاء كفرهم واستكبارهم؟!

ألا تذكرون ما مكروا به من الشرك بالله وتكذيب الرسل والمعاندة في ذلك، وسواء كان هذا المكر منهم ضعيفاً هزيلاً لا يؤثر على جبل ولا تل مما خلق الله فكيف يؤثر عليه سبحانه ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾، أو كان هذا المكر منهم قوياً يظنون أنهم يستطيعون به إبطال الإسلام ورسالته، فإن الله تعالى قد تكفّل بحفظ رسوله ورسالته مهما تكبروا وتغطرسوا وكان مكرهم ﴿مَكْرًا كُبَّارًا﴾.

فاطمئن يا محمد بأن الله تعالى لا يمكن أن يخلف وعده لأي رسول من رسله، وأنه سبحانه عزيز فلا يقف أحد في طريق انتقامه من أمثال هؤلاء الطغاة المستكبرين..

واذكر يا محمد يوم يُبدل الله سبحانه وتعالى الأرض ليس فقط في صفاتها وتسوية آكامها ونسف جبالها ومد أرضها، وإنما يخلق أرضاً أخرى بطبيعة أخرى، وكذلك السموات، بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقى ليس فيها علم لأحد» فتكون كالطحين الأبيض الذي لا أثر لأحد فيه.. وأن ذلك كله يوم القيامة حين ترى المجرمين المشركين مشدودين في القيود والأغلال، وترى قمصهم من القطران الذي يزداد حراً بمجرد قرب النار منه، فكيف عندما تشتعل فيه؟! وترى وجوههم وقد غشيتها وغطتها النيران، والعياذ بالله، وكل ذلك جزاء أعمالهم وحساباً سريعاً على أفعالهم.

وقل يا محمد للناس جميعاً بأن هذا إعلان وتبليغ لهم ليحذروا عذاب الله تعالى ويخافوا منه قبل أن يحيق بهم، وليعلموا بأن الله تعالى واحد لا شريك له وقد أقام لهم

الكثير من الحجج والبراهين على ذلك، مما يفرض على ذوي العقول والألباب التذكر والاتعاظ قبل فوات الأوان.

دليل سورة إبراهيم ـ ١٤

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٥٢ آية، وهي كغيرها من السور المكية تبدأ غالباً بالإشارة إلى القرآن ودعوة الناس للإيمان به والإنذار لمن يكفر بالعذاب الشديد والتبشير لمن يؤمن بالنعيم الكبير.. مع التذكير بما حصل مع الأقوام السابقين.

- والتذكير بعلم الله تعالى المحيط بهم وقدرته عليهم وحثهم على عدم المعاندة والتكبر عن الإيمان.

- وتضرب للمشركين مثلاً بأن أعمالهم كالرماد أمام الرياح مهما كان ظاهرها خيّراً، وأنها لن تنفعهم يوم الحساب.

- حوار الرؤساء وأتباعهم في الكفر ليتحملوا شيئاً من العذاب عنهم وتدخل الشيطان في ذلك من أنه لا يكره أحداً على الكفر بوسوسته وغوايته ولذلك لا يلام على كفرهم وعصيانهم.. وبالمقابل حال المؤمنين ومآلهم.

- وتضرب بالمؤمنين مثلاً كالشجرة المخضرة دائماً وثمارها الطيبة دائماً بينما المشركين كالحنظلة المرة.

- وتستنكر على الكفار عنادهم وقتالهم الفاشل ضد الإسلام وأهله كما وقع في بدر، وتنذرهم بما ينتظرهم يوم الحساب من شديد العذاب.. مؤكدة قدرته تعالى على ذلك بالكثير من الأدلة في الخلق والتدبير.

- وتشير لدعاء إبراهيم عليه السلام بجعل مكة بلداً آمناً ويبعد أهله عن عبادة الأصنام ويوفر عليهم الرزق.. ودعوة الرسول عليه وآله وصحبه السلام للصبر كما صبر إبراهيم ولإنذار أهل مكة من عذاب يوم القيامة.

- وتؤكد للرسول عليه وآله وصحبه السلام النصر في الدنيا كما نصر رسله والعذاب لأعدائهم بعد الهزائم في دنياهم، وعليهم أن يستعدوا لذلك.

فتبرز الأمور التالية :

١ ـ تبدأ بالإخبار أن القرآن قد أنزل على محمد عليه وآله وصحبه السلام لينقذ الناس وليس العرب فقط من الظلمات إلى النور، وأنه وإن أنزل بالعربية لأن الرسول عربي ليسهل به البيان لهم كأول من يدعى إليه ويطالب بتطبيقه وحمله في الأرض إلا أنه بذلك موجه ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

٢ ـ ثم تؤكد أن عملية الإخراج من الظلمات إلى النور كانت أيضاً مهمة الرسل والأنبياء من قبل لأقوامهم، وهذا ما فعله موسى ومن قبله نوح وعاد وثمود ومن بعدهم، وأنهم جميعاً قد لاقوا من عنت وطغيان أقوامهم الشيء الكثير.. فاصبر يا محمد كما صبر إخوانك الرسل من قبلك.

٣ ـ ثم تعلم المؤمنين أن أسلوب الحوار يجري حتى بعد الحساب بين الرؤساء وأتباعهم وليس فقط في الدنيا كوسيلة لدفاع الإنسان عن نفسه ومحاولة الحصول على حقه.

٤ ـ وبعدها تؤكد أن الشيطان سيتخلى بعد الحساب عن كل من استجاب لوسوسته وغوايته، مؤكداً عدم قدرته على إكراه أحد لاتباعه ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾.

٥ ـ التأكيد بأن الثبات على الحق يأتي للمؤمنين تبعاً لاختيارهم الإيمان، وبأن البعد عن ذلك يأتي تبعاً لاختيار الضلال.. وأن ذلك كله يجري في إطار المشيئة الربانية ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾.

٦ ـ حرمة مكة ومسجدها قد جاءت بدعوة إبراهيم ربه وأما المدينة فقد حرمها الرسول عليه وآله وصحبه السلام.

٧ ـ التأكيد على جزاء كل انسان بأعماله ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ وأن هذا هو البلاغ للناس كافة فليحسنوا العمل ليحسن الجزاء.

سورة الحجر (١٥)

التقديم

تخاطب السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن ما يأتي في هذه السورة من آيات الكتاب أي القرآن الواضح كلها من البين لكل ذي بصر وبصيرة، وتعلمه بأن الذين كفروا يودون لو كانوا مسلمين وذلك عندما يرون يوم القيامة وما فيه المسلمون من النعيم وما هم عليه من العذاب.. ثم تدعوه مهددة لهم ليذرهم في ما هم فيه الآن في الدنيا من الأكل والتمتع وطول الأمل الكاذب، وأنهم لن يكونوا غير تلك الأقوام التي هلكت في وقت محدد لها في قضاء الله وقدره دون زيادة ولا نقصان.

وانظر إليهم وهم يهزءون بالرسول عليه وآله وصحبه السلام باتهامه بالجنون

ويطلبون منه المجيء بالملائكة كعلامة على صدقه فيرد عليهم المولى بأن الملائكة لا تنزل إلا برسالة سواء كانت رسالة نعمة أو رسالة نقمة وهي رسالة حق، وعليهم أن يدركوا أنها متى نزلت بإهلاكهم فلن يكون لهم أي إمهال ولا تأخير.

ثم تطمئنه عليه وآله وصحبه السلام بأن المولى سبحانه قد أنزل القرآن وأنه سبحانه حافظ له من الزيادة أو النقصان وليس كما كانت تنزل الكتب السابقة فيطلب من الرسل الحفاظ عليها فيعبث بها البشر من بعدهم بدلالة قوله تعالى: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾.

كما تعزيه عليه وآله وصحبه السلام وتسليه عن تلك المواقف السيئة التي وقفها منه قومه بما حصل مع إخوانه من الرسل السابقين إذ كانوا يسخرون منهم ويعذبونهم، وكانوا يصرون على اختيار الضلال والكفر بفعل ذلك كما يصر الكثير من قومه عليه وآله وصحبه السلام.

كما تؤكد له بأن لا يتأثر باقتراحاتهم أن تنزل عليهم آيات ليؤمنوا لأنهم حتى لو صعدوا هم أنفسهم إلى السماء وشاهدوا عجائب خلق الله ودلائل وحدانيته لزعموا أن عيونهم مسحورة ولا ترى إلا وهماً، مع أن السماء قد ملئت بالآيات من بروج الأفلاك والنجوم وازدانت بالكثير من المجرات وحيل بينها وبين الشياطين المطرودة إلا لاستراق السمع مع أنه قد جعل لمن يسترق السمع منهم شهاب يحرقه، أماته أم لم يمته.

فلهؤلاء الكفار الكثير من الآيات فيها كما لهم في الأرض الكثير الكثير: فها هي وقد بسطها المولى سبحانه لسهولة عيش الخلق عليها، وجعل فيها الجبال الثابتة لحمايتها من اختلال التوازن، وها هي الأصناف من النباتات التي تنبت فيها بكل ثمر موزون مما يستطيع البشر على الانتفاع به بالأكل والشرب واللباس وغيرها، ناهيك عما خلق عليها من الدواب والأنعام والطيور التي يرزقها خالقها مما تنبت الأرض نفسها.

وليعلم هؤلاء أن خزائن كل أرزاق هذه المخلوقات كلها بما فيها هم أنفسهم عند الله وحده، فبالمطر النازل يخرج النبات الصاعد، وبالرياح الملقحة للنباتات تظهر الأنواع الطيبة من الثمرات، وبالسحب المثارة يسقون المياه النقيات، وبالإحياء والإماتة يرثهم رب الأرض والسموات، وبالعلم المطلق يحيط ربهم بالمتقدم منهم والمتأخر من الأموات، وبالحشر يوم الحساب ينال كل منهم جزاءه الوفاق.

وتتحدث بعدها السورة عن خلق الإنسان أصلاً من صلصال أي طين يابس غُير بقدرته تعالى حتى اتخذ شكل الصورة المعينة لآدم، وعن خلق الجان وأنه جاء من نار السموم أو الريح الشديدة الحرارة كما قال ابن عباس، وأنه تعالى أمر الملائكة المخلوقة

من النور أن تسجد لآدم بعد أن خلقه وصوره من الصلصال ونفخ فيه الروح سجود تحية وتكريم لا عبادة، وأن الملائكة قد سجدوا جميعاً تنفيذاً وطاعة لأمر الله، وأن إبليس الذي خلق بين الجن استكبر حسداً ورفض السجود بحجة أنه لا يسجد لبشر خلق من الصلصال، وأن الله تعالى قد طرده من السماء وعاقبه بلعنته سبحانه إلى يوم الحساب، وأنه عز وجل استجاب لطلبه الإمهال إلى يوم فناء الخلق، وأنه أي إبليس قد أعلن ما يعلمه الله سراً من أنه سيستغل هذا الإمهال في إغواء بني آدم ثأراً منهم، وأنه لن يستطيع إغواء المخلصين من عباد الله عز وجل لأنه لا يملك القدرة على التأثير الحاسم على العقول الصادقة الإيمان والقلوب العامرة بالإيمان.

وأن الله تعالى قد أعلمهم بالمقابل أنهم هم وجميع من يغويهم بالكفر سيكونون بمقرهم يوم الحساب في جهنم المقسمة إلى سبع دركات لكل درك منها جزء منهم حسب كفرهم وطغيانهم، وأن المؤمنين المتقين الصالحين لهم بالمقابل جنات تملؤها الأنهار والعيون، ويعيشون فيها بسلام وأمن من كل الآفات والمحن، ويلتقون فيها فيما بينهم دون حقد ولا حسد، وهم يتكئون على سرر يقابل بعضهم بعضاً، ولا يمس أحدهم أي تعب ولا نصب مما كان في دار التكليف، وأنهم خالدون فيها، وأن عليهم هم وأولئك العصاة أن يعلموا الآن وقبل مجيء الموت والحساب بأن الله تعالى غفور رحيم بعباده المخلصين الطائعين الصالحين، وشديد العذاب لأولئك الكفار العصاة المتمردين، فليختر كل منهم ممن يكون وأين يكون.

وتواصل السورة الإيعاز للرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن يخبر كل من يصله التبليغ بدعوته ورسالته بقصة الملائكة الذين نزلوا ضيوفاً على إبراهيم الخليل عليه السلام، فخاف منهم لأنهم رفضوا طعامه فطمأنوه بأنهم جاءوه بالبشرى بأن الله سيهبه غلاماً عليماً هو إسحاق فاستغرب ذلك مع كبر السن، فنهوه عن اليأس مع رحمة الله تعالى، فعرف منهم بأنهم رسل الله تعالى المرسلون لقوم لوط المجرمين لإهلاكهم جميعاً إلا من آمن منهم، وأنهم طمأنوا لوطاً عندما نزلوا عنده بما كان قومه يشكّون فيه من العذاب المناسب لهم، وأن عليه أن يغادر المنطقة ليلاً ويصحب أهله إلا زوجه الكافرة ويسرع بهم إلى الشام ليلحق بإبراهيم هناك، وأن أهل مدينته المجرمين قد هُرعوا إليه عندما علموا بوصول ضيوف غرباء لارتكاب الفاحشة، وأنه رجاهم عدم إلحاق الخزي به لسوء مطلبهم بأن يتزوجوا من بناته، وأنهم وقد أصروا على الفحشاء والمنكر قد أخذتهم الصيحة مع الشروق بعد أن جعلت الملائكة قراهم عاليها سافلها وأمطرتهم بحجارة من سجيل.. لتكون عبرة لكل عاقل متدبر متبصر.

فهلّا كنتم يا مشركي العرب ومن حولهم ممن يعتبر ولا سيما أن قراهم تقع على طريق سفركم إلى الشام، وأن فيها بالفعل عبرة لكل معتبر.. كما أن في أصحاب الأيكة، المجاورين لقوم شعيب، أصحاب الشجر والثمر، عبرة أخرى وهم أيضاً قريبون منكم إذ حل بهم العذاب والهلاك الشديدان جزاء كفرهم وعتوهم.. كما أن في أصحاب الحجر، ديار ثمود الواقعة بين مكة وتبوك، وهم قوم صالح، عبرة أخرى إذ كذبوا صالحاً ولم يبالوا بالآيات الكثيرة التي صاحبت الناقة، واستمروا على نحت البيوت في الجبال أملاً أن يأمنوا بها من عذاب أو عدو، ولكن عذاب الله بالصيحة قد نزل بهم مع الصبح فلم تنقذهم بيوتهم ولا حصونهم من ذلك شيئاً.

وتعقب السورة على ذلك لتدعو الرسول عليه وآله وصحبه السلام للصفح والعفو الحسن عن أذى قومه ضده، وأن يعرض عنهم لأن الله تعالى الذي خلق السموات والأرض وما بينهما ليجزي كلاً بعمله يعلم حالهم وأعمالهم وما ينتهي إليه كل منهم سواء من الإيمان أو إنجاب المؤمنين، وأن يوم الحساب قادم لا محالة لينال كل منهم جزاءه، فاطمئن يا محمد بأن ربك سبحانه القادر على كل شيء هو المقدر للخلق كلهم وعلى هذا الحال والعالم بكل منهم من الإيمان والكفر.

وها قد أنزل الله تعالى إليك يا محمد سورة الفاتحة التي يسميها سبحانه بالسبع المثاني لكثرة ما تتكرر تلاوتها في الصلاة ولاشتمالها على ما يتعلق بأصول الإسلام كما أنزل القرآن كله، وأنه سبحانه قد أغناك بالقرآن عما في أيدي الناس وما في الدنيا من زخارف فلا حاجة بك للتطلع إلى ما في ملك الناس من أملاك مهما حسنت وكثرت، كما أنه سبحانه يدعوك لترك الحزن لعدم إيمان المشركين ولكثرة ما لديهم من متاع الدنيا لأن لك الآخرة وهي أفضل من الدنيا وما فيها، كما يدعوك سبحانه ليكون جانبك لمن آمن بك، وأن تقول للناس كافة بأنك النذير لجميع البشر المبين لما ينتظر المعرضين عن الإيمان من العذاب، وأن يدرك ذلك كفار قريش ومن على شاكلتهم ممن قسموا كتاب الله إلى شعر وسحر وكهانة وأساطير، كما يدرك ذلك أهل الكتاب ممن كفروا ببعضه وآمنوا ببعضه، ففرقوه في نظرهم إلى ما يؤخذ وما يترك.

ولذلك أعلمهم يا محمد بأن الله سيحاسبهم على ما عملوا في الدنيا وعلى ما قالوا.

وعليك يا محمد أن تصدع وتجهر بما ينزله الله تعالى عليك من الوحي، وألا تبالي بما يقوله ويفعله المشركون، وبذلك تقوم عليهم الحجة جميعاً، وهذا ما يفرض على المسلمين في كل زمان ومكان بأن يقوموا به دون تقصير حتى تتحقق فيهم صفة أن

يكونوا شهداء على الناس يوم القيامة كما كان الرسول عليه وآله وصحبه السلام عليهم شهيداً عندما بلغهم، كما عليك أن تعلم بأن الله كافيك أذاهم كما كفاك المستهزئين الذين يشركون بالله سبحانه بما يعبدونه من معبودات، وألا يستمر منك ضيق الصدر بسبب تكذيبهم لك ورفضهم لقولك وأذاهم لك ولأصحابك، وأنك ستجد في الصلاة التي تفزع إليها عندما تشعر بالضيق خير مزيل لهذا الضيق، لما فيها من تسبيح وتنزيه لله تعالى عما يصفونه به سبحانه، وأن تعبد الله ربك طيلة حياتك وحتى يوافيك الأجل.

وأن هذا هو المطلوب من كل مسلم مؤمن بالله ورسوله وعندها ينطبق عليه بحق وصف المتأسي برسول الله تعالى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم .

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾

فبعد الافتتاح بـ ﴿الٓر﴾ تشير السورة إلى أن هذه الآيات هنا هي من كتاب القرآن الكريم الواضحة البينة لكل ذي عقل ولب، والتي تبدأ بالحديث مع الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بشأن ملاحظة هذه الآيات حتى يتمنى المشركون في الدنيا أن يكونوا مسلمين وهم يرون الفرق بين الهدى والضلالة، كما يتمنون ذلك أشد عندما يرون المسلمين وقد دخلوا الجنة في الآخرة ولم يدخلوا معهم النار.

الأمر الذي تنقل الحديث فيه السورة من دفع المشركين للتفكير إلى تهديدهم إذا أصروا على البقاء على الشرك فتقول للرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن يدعهم منهمكين في الأكل والتمتع بملذات هذه الحياة الدنيا والاستغراق في طول الأمل الذي يبعدهم عن سليم العمل لله تعالى ويوقعهم في الحرص على الدنيا والإعراض عن الآخرة، ولذلك قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: «أربعة من الشقاء: جمود العين، وقساوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا» وقال: «نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخرها بالبخل والأمل».

ثم تذكّر السورة بما وقع مع الأمم السابقة عندما عاشت على تلك الحال من الهلاك والدمار في وقت محدد لما لم تستطع تجاوزه بالرغم مما وصلت إليه من الرقي المادي الدنيوي، مؤكدة لمشركي العرب ومن على شاكلتهم إلى يوم الدين بأن أي أمة، كما أي فرد، لن يستطيعوا تجاوز الأجل المحدد لكل منهم حتى لا يصاب أحد بالغرور أو الكبر فيرى الواقع على غير حقيقته.

وتنقلنا السورة إلى حديث آخر مع الرسول عليه وآله وصحبه السلام عما يقوله المشركون فتقول:

﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ (٦) لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ
لَحَٰفِظُونَ (٩) وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسۡتَهۡزِءُونَ (١١) كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ (١٢) لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ (١٣)
وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ (١٤) لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ
مَّسۡحُورُونَ (١٥) وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ (١٦) وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ
(١٧) إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ (١٨) وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا
مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ (١٩) وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ (٢٠) وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا
عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ (٢١) وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ
فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ (٢٣) وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا
ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ (٢٥)﴾

مبينة أولاً ما يقولونه عن التنزيل وأنهم يهزؤون منه عليه وآله وصحبه السلام بقذفه بالجنون ثم بطلبهم منه الإتيان بالملائكة كدلالة على صدقه، وما هم في الحقيقة إلا باحثين عن مبررات لرفضهم الاستجابة له عليه وآله وصحبه السلام، ولذلك ترد عليهم السورة بأن الله تعالى لاينزل الملائكة بطلب أحد إلا بعذاب للمشركين الطغاة سواء في الحرب أو في السلم، وسواء استجابة فورية لطلب رسول الله تعالى إليهم، أو في الأجل المحدد لهم بعد إمهالهم، والمهم أنه سبحانه لا يمهلهم متى نزلت الملائكة لإيقاع العقوبة ولا يقبل منهم التوبة..

فاعلموا ذلك يا مشركون واحذروا طلب الملائكة، واعلموا أن الله تعالى قد أنزل

هذا القرآن ولم يأت به غيره، وأن الله تعالى الذي أنزله على محمد هو الذي يتولى حفظه من أن يزاد فيه أو ينقص منه بينما كان قد أوكل حفظ الكتب السابقة لمن أنزلت إليهم بدلالة قوله: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ﴾ فبدّلوا وغيّروا..

ولذلك عليهم أن يكفوا عن تكذيب الرسول والرسالة، وليذكروا أن الله قد أرسل رسلاً قبل محمد عليه وآله وصحبه السلام لأقوامهم، وأنهم قد سخروا منهم، فلا تلتفت يا محمد لسخريتهم، وليذكروا هم ما حلّ بالأقوام السابقين لسوء مواقفهم وإصرارهم على الضلال والإجرام اللذين كانوا يختارونهما، وكيف مضت بإهلاكهم سنة الله فيهم وليحذروا نفس المصير وهم يقتدون بهم..

وانظر إليهم يا محمد وهم لشدة عنادهم في الباطل يزعمون أن ما يرونه من بديع خلق الله تعالى في السماء لو فتح لهم باباً فيها، ويسر لهم التنقل في أرجائها، أن عيونهم مقفلة لا ترى إلا الوهم وأنهم مسحورون ولا يرون أي واقع حقيقي! وكأن في هذه الإشارة إلى ما يجري اليوم من تنقل المركبات في أجواز الفضاء بين الكواكب... فهل لمشرك أو كافر أن يعتبر بعظمة صنع الله تعالى لهذا الكون وبديع تنظيمه؟!

ولينظر أولئك المشركون وهؤلاء إلى ما خلقه الله تعالى في هذه السماء من نجوم وكواكب ومساراتها وتجاذباتها في نظام لا يدرك عظمته إلا المتدبر العاقل العالم وهو يرى هذا المهرجان الهائل من الزينات في عالم السموات.. هذا العالم الذي حفظه المولى سبحانه من الشياطين بعد مبعث محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم إذ جعل الشهب حراساً له، ولم يسمح لمن يقترب منه إلا لاستراق السمع فقط وجعل لمن يفعل ذلك شهاباً يتولى ردعه عن ذلك إذ ينقض عليه فيجرحه ويحرقه ويخبله ولكن لا يقتله أحياناً أو في الغالب..

ولينظروا إلى ما خلق الله عز وجل في الأرض، فقد بسطها ليسهل المشي عليها وثبتها بجبال تحفظها من الاختلال في حركتها حول نفسها وحول غيرها، وأنبت فيها من النباتات ذوات الأوزان والمكاييل في ثمارها ما لا حصر له من الأصناف والأنواع، وحقق فيها من المطاعم والمشارب والملابس لكل حي يعيش عليها من إنسان ودواب وأنعام وطيور وغيرها، وأن ذلك كله عنده تعالى خزائنه، فبأمره تعالى يكون الشيء الحقير أو الكبير فيها وبأمره سبحانه لا يكون، وأن المطر المنزل من السماء مبعث كل هذه الأرزاق أو الميسر لها بأمره تعالى ينزل بقدر محدود هنا أو هناك وفي هذا الوقت أو ذاك، وأن الرياح اللواقح سواء للأزهار أو السحاب بالرطوبة يرسلها المولى الرزاق الكريم فتسوق السحاب وتلقح الأزهار فتنزل الأمطار ويشرب الإنسان وكل حي، هذه

الرياح تقوم بمهامها بأمره تعالى الذي بيده حياة الأحياء وموتهم، وهو بالتالي سبحانه الوارث لهم يوم ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧].

وهو سبحانه المحيط بعلمه بكل من سبقوا في الخلق والحياة والطاعات وبكل من تأخروا بعدهم فيجازي كلاً بعمله وبمقدار عمله وبصدق عمله، وهو سبحانه الذي يبعث الخلق يوم القيامة ويسوقهم للحساب فلا يفوت منهم إنسان الجزاء الأوفى من الحكيم الذي يعطي كل فرد حقه والعليم الذي لا تخفى عليه ذرة من عمل الإنسان.

وتوقفنا السورة بعدها مع خلق الإنسان والجان ومصير الطالح والصالح منهما فتقول:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ۝٢٩ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ۝٣١ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ۝٣٢ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٣٣ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٣٥ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝٤٢ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ۝٤٤ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٤٥ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ۝٤٧ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ۝٤٨ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾

وانظروا إلى عجيب خلقه تعالى عندما خلق هذا الإنسان بلحمه ودمه وعظمه من طين يابس، وعندما خلق الجن وعلى رأسهم الجان إبليس من نار السموم أي الريح الحارة القاتلة كما قال ابن عباس بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم» فخلق الجان من

مارج من نار أي نار لا دخان لها... وأودع سبحانه في الإنسان والجن تلك القوى النفسية والعقلية والجسدية العديدة المتشابهة في الاسم المختلفة في الوصف..

وانظروا إلى تكريم الله تعالى الخالق المدبر لهذا الإنسان المخلوق من الطين، عندما أمر سبحانه الملائكة المخلوقة من نور للسجود له تكريماً وتحية بعد أن سوّى خلقه وصورته في أحسن تقويم وبعد أن بث فيه الروح، فكيف جعل للطين اليابس كما قد يقال هذا التكريم على النور والنار، وهما ما هما بالنسبة للطين؟ إنه الخالق سبحانه الذي يفضل من يريد على من يريد، وقد فضّل الأنبياء على الملائكة، كما فضّل أوقاتاً على أوقات وأماكن على أماكن... وأنه سبحانه المختبر المبتلي لخلقه قد جعل لمن جعل منهم الخيار في الطاعة أو المعصية، وجعل في القوى العقلية التي منحها لكل منهم القدرة على معرفة ما يختاره أو يرفضه، فيتحمل بعد ذلك مسئولية اختياره بالثواب الجزيل عند الطاعة والعقاب الشديد عند المعصية..

وأما الملائكة فلا اختيار لها لأنها خلقت للعبادة ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ولذلك بادرت بتنفيذ الأمر بالسجود لآدم عليه السلام، أما إبليس الذي أمر مع الملائكة بالسجود، بدلالة المحاسبة على الرفض، فإنه امتنع عنه، لأنه سبحانه قد خلق فيه قدرة الاختيار كالإنسان، كما خلق فيه، بدلالة الأمر والنهي الموجهة إليه والطاعة والعصيان الصادرة منه، القدرة على معرفة الخير من الشر والهدى من الضلال، كالإنسان مع أنه خلقه من نار والإنسان من طين، وكأن في هذا دلالة على أن الأرض وما فيها من نيران تلتقي مع نار الجن السموم، ولكن للنار نوراً وللأرض بانعكاس النور عنها نور، وله عز وجل خالق كل شيء، ومقدّر كل شيء، أن يقدر في هذه المادة تلك الخاصيات ولا يقدرها في غيرها..

وها هو إبليس وهو يُسأل عن سبب رفضه السجود يجيب بأن البشر المخلوق من الطين اليابس لا يستحق منه السجود، وهو بذلك يعترض على أمر خالق الطرفين ويرفضه ويعلن سبب الرفض غيرة وحسداً، مما يشعر كل عاقل بأن للمأمور حدوداً مع الآمر يجب ألا يتجاوزها وألا يقع بيديه في التهلكة، هذه التهلكة التي بدأت مع إبليس بالطرد من السماء والحرق بالشهب، واللعنة والشؤم حتى يوم الفناء عند النفخة الأولى.

وانظروا إلى قضاء المولى سبحانه وتدبيره في خلقه وهو يستجيب لطلب إبليس بالإمهال فلا يموت طيلة الحياة الدنيا، وانظروا وتفكروا في قدرة إبليس على الاختيار بين الطاعة والرفض وهو يشتط في الرفض والعصيان فيعلن بأنه مقابل ما خلق على قدرة الرفض والطاعة فاختار بميول تلك القدرة الملتصقة بالدنيا من الكبر والحسد لمن يرى

نفسه كنار أفضل من الطين لأنها تأكله، اختار تلك الميول التي وصفها بالغواية أن يقوم بنفس الشكل بغواية البشر وذلك بتزيين المتع الدنيوية لهم وتفضيلها على الجزء الأخروي، ولكنه لعنه الله تعالى لم ينس أن سيطرته وتأثيره في الوسوسة محصورة في غير المخلصين لله تعالى من البشر، ولذلك صرّح باستثنائهم من قدرته على الغواية، وعندها أفهم بأن من يتبع الصراط القويم الذي يوصل صاحبه إلى الجنة بالطاعة بعد الإيمان المبنية على الحجة والدليل والبرهان هو على الدين الحق عند الله، وأن من يسير على ذلك هم عباد الله المخلصون الذين ليس لإبليس من تأثير عليهم وإنما يبقى تأثيره محصوراً في كل من يختار الصراط الأعوج ويسير وراء إبليس في عصيان الله والخروج عن الإيمان به والتزام الطاعة، وأن جزاء هؤلاء جميعاً الخلود في جهنم، جهنم التي لها سبع دركات حيث يوزع أتباع إبليس عليها وفقاً لعمل كل منهم في الكفر والنفاق والعصيان والفجور والطغيان، وأنه قد رجح أن دركاتها تبدأ بأعلاها وهي جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم سعير، ثم سقر، ثم الجحيم، وأخيراً الهاوية حيث يستقر المنافقون ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

والآن بالمقابل انظروا إلى المؤمنين المتقين الصالحين أين يستقر بهم المقام يوم الحساب! إنهم خالدون في جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار والعيون، وإنهم يتبادلون فيما بينهم تحية السلام والأمن من كل آفة ومحنة، وإنهم يعيشون هناك خالدين بأمن من العذاب والزوال، ويتمتعون فيما بينهم بعلاقات الأخوة الصافية من كل حقد وحسد وكره، ويتنادمون فيما بينهم وهم جالسون على أسرّة يواجهون بعضهم بعضاً ولا يلحقهم أي نوع من أنواع النصب والتعب وهم خالدون على هذه الحال التي يفترض بأصحاب العقول الواعية المستنيرة أن تقارن بينها وبين حال أصحاب الجحيم لتفرض العمل لها ولها فقط، كيف لا وأمامهم مهما ارتكبوا من الشرك والباطل فسحة مديدة من رب غفور رحيم لكل تائب عائد إلى ربه ليعجّلوا هذه التوبة والأوبة فينقذوا أنفسهم من العذاب الأليم الذي ينتظر العصاة المشركين.

ثم تنقلنا السورة إلى الحديث عن ضيف إبراهيم وما حلّ بقوم لوط، وقوم شعيب، وأصحاب الحجر، فتقول:

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا

خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ
أَجۡمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ
إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا
لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ
تُؤۡمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ
يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ
عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ
ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ
لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ
لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ
ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ
﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٤﴾

انظروا أيها المشركون بعقل وتدبر إلى ما حصل لضيف إبراهيم عليه السلام من الملائكة عندما دخلوا عليه بصفة شباب من البشر فألقوا عليه تحية السلام فقال لهم بأنه خائف منهم لأنهم غرباء عن أهل هذه البلاد الذين لا يعرفون تحية السلام، فطمأنوه وعرفوه بأنهم رسل الله تعالى الذين ليس لها في طعام البشر شيء، وبشروه بولد عليم تنجبه منه زوجه سارة وهو إسحق، فاستغرب هذه البشارة وقد كبر هو وزوجته لسن لا إنجاب معه، فأكدوا له البشارة الحق التي لا خلف في تحقيقها ولا مجال معها لليأس، وعندها أكد لهم أن الضلال يأتي مع اليأس من رحمة الله تعالى مهما تقدمت السن، ثم سألهم عن هدفهم من الزيارة فأخبروه بأنهم مرسلون إلى قوم لوط المجرمين لتنفيذ أمر الله فيهم بإهلاكهم، إلا آل لوط المؤمنين ومن آمن معه ولا يستثنى من آله إلا زوجه الكافرة التي ستهلك معهم.

وانظروا إلى مدى إجرام قوم لوط بعد أن طمأنه الملائكة أنهم مرسلون بالهلاك لقومه من رب العالمين، وأن عليه ألا يخشى من قبح تصرفاتهم إذ الهلاك سيحل بهم مع الصبح، فقد جاء قومه يطلبون ضيوفه لارتكاب الفاحشة، فعرض عليهم بناته للزواج إذا رغبوا ذلك ولا يفضحوه مع ضيوفه ويلحقوا به الخزي والعار أمامهم، فذكّروه بأنهم

لا حق لهم في بناته إذ رفضهم من قبل، فأمروه ألا يستضيف غريباً من الناس عنده وإلا ارتكبوا به الفاحشة. . . . إنهم سادرون في غيّهم، مصرّون على منكرهم مما جعل المولى سبحانه يقسم بحياة محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تشريفاً له بأن قومه من قريش في سكرتهم وحيرتهم يترددون تماماً كما كان حال قوم لوط المجرمين. .

وماذا كانت عاقبة أولئك يا مشركي قريش؟ لقد أهلكوا بالصيحة مع الصبح وجعلت قراهم عاليها سافلها وأمطرت بحجارة من سجيل. . . فهل تريدون نفس المصير؟! فاعتبروا بذلك لأن فيه العبرة القويّة لكل عاقل متدبر متفكر. . . وانظروا يا مشركي مكة إلى آثار قراهم على طريقكم وأنتم في الذهاب والعودة من الشام.

وانظروا إلى أصحاب الأيكة، مجاوري قوم شعيب أصحاب الرياض والشجر المثمر، وماذا حلّ بهم عندما أصرّوا على الشرك وتكذيب شعيب عليه السلام، فأهلكهم الله تعالى ودمّر عليهم كل مساكنهم ومزارعهم، إنها أيضاً في طريقكم يا مشركي مكة بشكل واضح وفيها لكم إذا مررتم بها العبرة، وأيّ عبرة!

وانظروا أيضاً إلى أصحاب الحجر، قوم ثمود، عندما كذّبوا رسول الله إليهم صالحاً، ولم يرعووا من عقر الناقة التي طلبوها آية بأنفسهم، وكانوا يقيمون بين مكة وتبوك في وادي ثمود، فأهلكوا بالصيحة مثل قوم شعيب عليه السلام.

وهنا يُذكر كيف حثّ الرسول عليه وآله وصحبه السلام من كان معه في غزوة تبوك بعدم دخول مساكنهم ولا الشرب من آبارهم خوفاً من أن تلحقهم اللعنة، فقد كانت بيوتهم كالحصون منحوتة في الصخور ظناً منهم أن ذلك يحميهم من العذاب أو الأعداء أو الاثنين معاً، ولكن الصيحة أخذتهم وأهلكتهم ودمّرت بيوتهم مع الصبح. .

فهلّا اعتبرتم يا مشركي كل مكان وزمان من قدرة الله تعالى على كل متكبر جبار، وأنه تعالى إن أمهلكم ببركة محمد عليه وآله وصحبه السلام من الهلاك التام في الدنيا فلن تفلتوا منه في الآخرة.

وتتحدث السورة مع الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بأمور عديدة تؤكد قدرة الله تعالى على الظالم والعفو عن التائب فتقول:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ
(٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ (٨٦) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ
عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا
ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ (٨٩) كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ

لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

وانظر يا محمد، بل انظروا أيها الناس جميعاً إلى السموات والأرض وما بينهما، وكم هي من القوة والدقة والاتساع في ذاتها وفي نظامها الكوني البديع، واعلموا أن الله قد خلقها بالحق أي إلى الزوال والفناء وليس الخلود والبقاء، وأن أحداً من خلقه تعالى لا يفوته الجزاء بالإحسان للمحسن وبالنار للمسيء، وذلك عندما يحين موعد الساعة وتقوم القيامة التي لا ريب فيها، ويحين موعد الحساب.

ولكن عليك يا محمد أن تتجاوز عمن أساء إليك في حق نفسك وتعرض عنه حتى لا يظن ظن العصبية الجاهلية بأن الأمر أمر شخصي وليس ربّاني لأنه غداً لن يكون هناك صفح عن أحد تعدّى على الإسلام والمسلمين بل كما قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: «لقد جئتكم بالذبح، وبعثت بالجهاد، ولم أبعث بالزراعة» في موضع بيان الفرق العظيم بينهما!.

واعلموا أن الله تعالى هو الخلّاق المقدر للخلق وقابلياتهم وخصائصهم المميزة لهم كبشر وكأفراد، كبشر عن غيرهم من المخلوقات، وكأفراد فيما بينهم بما يمتازون به من الفروق الفردية، واعلموا أنه تعالى هو العليم بأهل الوفاق والنفاق..

واذكر يا محمد أن ربك سبحانه قد أنزل إليك القرآن العظيم بما فيه السبع المثاني وهي سورة الفاتحة، بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام: «الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني» وأنها سميت بالمثاني لما فيها من العبر والأحكام والحدود ولتثنيتها وتكرار تلاوتها في الصلاة وفي كل ركعة من ركعاتها بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام: «لا صلاة بلا فاتحة الكتاب» والركعة الواحدة تعتبر صلاة.

وتأكد يا محمد بأن الله تعالى قد أغناك بالقرآن الذي أنزله عليك عما في أيدي الناس، وأنه ليس لك ولا لأحد من المسلمين إلا أن يغتني بما عنده من القرآن مما يجعله لا يطمح بصره إلى زخارف الدنيا وعنده معارف المولى، بدلالة قوله عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام: «ليس منّا من لم يتغن بالقرآن» أي من لم يستغن به لا أن يغنّي به غناء وينشده نشيداً كما رأى ابن عيينة.

فعليك يا محمد ألا تبالي بما عند الأغنياء من النعم التي أنعمها ربك عليهم ولا تتشوّق إلى متاع الدنيا بشكل دائم وأقبل على عبادة مولاك وطاعته.

إنه الأمر لأمة محمد عليه وآله وصحبه السلام إلى يوم القيامة من خلال الأمر له وهو عليه وآله وصحبه السلام الذي لم يتشوّق في يوم من أيام دعوته بل حياته للدنيا ومتاعها، وإن كان كما قال حصر تمتعه في هذه الحياة الدنيا بأمرين اثنين هما كما قال عليه وآله وصحبه السلام: «حبب إليّ من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرّة عيني في الصلاة»، ومنع من الرهبانية وقال للمسلمين: «لا رهبانية في الإسلام»، فلا انقطاع للعبادة وإنما إحسان العمل في جميع مجالات الحياة وإتقانه ابتغاء مرضاة الله هو جزء من العبادة بمعناها الواسع.

وعليك يا محمد ألا تحزن أنت ومن معك على المشركين إن لم يؤمنوا، ولا يسبب وفرة ما في أيديهم من متاع وقلة ما بين أيديكم أي حزن لكم، فالآخرة خير وأبقى، وغداً إن أتتكم الدنيا فاحذروا أن تجعلوها في قلوبكم فتستعبدكم من دون الله وإنما لتكن في أيديكم تتصرفون بها وفقاً لشرع الله.

كما عليك يا محمد أن تلين جانبك وتتسامح وتتلطف بمن معك من المسلمين، وأعلن لهم وللبشرية جمعاء بأنك النذير الذي يبين ما ينتظر الكفرة والمشركين والمنافقين من العذاب الشديد، والذي ينذر المقتسمين الذين قسموا الخير فجعلوه لهم والشر فجعلوه لك، والذين قسموا القرآن بين شعر وسحر وكهانة وأساطير، والذين آمنوا كأهل الكتاب ببعضه وكفروا ببعضه، والذين كانوا يسخرون من الرسول عليه وآله وصحبه السلام، فهم بذلك قد حرفوا كأهل الكتاب كتابهم وفرقوه وبددوه.

فتأكد يا محمد بأن ربك سيحاسبهم كلهم على كل ما عملوه في الدنيا ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ مما يشمل القول والفعل بدلالة قوله عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام: «من قال لا إله إلَّا الله مخلصاً دخل الجنة» وعندما سئل: يا رسول الله، وما إخلاصها؟ أجاب: «أن تحجزه عن محارم الله»، وبدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام: «إن الله عهد إلي ألا يأتيني أحد من أمتي بلا إله إلا الله لا يخلط بها شيئاً إلا وجبت له الجنة» فقالوا: يا رسول الله، وما الذي يخلط بلا إله إلا الله؟ فقال: «حرصاً على الدنيا وجمعاً لها ومنعاً لها، يقولون قول الأنبياء ويعملون أعمال الجبابرة».

واعلم يا محمد أن ربك سيسأل الكافر والمؤمن ويحاسبهم إلا من دخل الجنة بغير حساب ذلك لأن في القيامة مواطن مختلفة موطن فيه سؤال وكلام وموطن لا سؤال ولا كلام فيه، وأنه سبحانه لا يسأل سؤال استعلام لأنه عالم بكل شيء وإنما سؤال تقريع وتوبيخ، ولذلك عليك يا محمد أن تجهر بما أنزل عليك من الوحي، وتبلغ رسالة

ربك إلى جميع الخلق لتقوم عليهم الحجة، وأن تعرض عن المشركين فلا تبال لما يلحقونه بك وبأتباعك من الأذى بالقول أو بالفعل.

واطمئن يا محمد أن ربك قد تولى عقوبة المستهزئين وإهلاكهم، فقد كانوا خمسة من رؤساء مكة هم الوليد بن المغيرة، وكان رأسهم، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارس بن الطلاطلة، إذ أهلكهم الله تعالى جميعاً يوم بدر في يوم واحد فاطمئن يا محمد لرعاية ربك لك..

ذلك أنه عندما أمره سبحانه بالنقلة من الدعوة في مرحلة الابتداء المحصورة بالتركيز على البناء الفكري الفردي والخطاب الجماعي، نقلها إلى مرحلة الكفاح السياسي والصراع الفكري بالخطاب الجماعي العريض والتحدي المكشوف عندما أضيف للتثقيف الفردي والجماعي عملان آخران هما التصدي للكفار المشركين بشكل مكشوف وبيان ما في الوحي من بديل حق لباطل عيشهم الظالم، مما نسميه في لغة العصر الحاضر: كشف خطط الكفار المتآمرين على الإسلام وبلاده وأهله، ومعه تبني مصالح الأمة ببيان الأحكام الشرعية التي تعالجها العلاج الحق.

وهذا الانتقال قد أدى بالدعوة المعاصرة إلى الكفاح ضد الكفار من خلال الصدام مع أتباعهم من حكام البلاد الإسلامية، كما أدى إلى الصراع ضد فكر جميع الكتل والأحزاب المخالف للإسلام وأفكاره ومفاهيمه في البلاد الإسلامية وغيرها، فكانت آية ﴿فَٱصۡدَعۡ﴾ هذه هي بداية هذه المرحلة الثانية التي بادر الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام تنفيذها في السنة الرابعة من الدعوة في العهد المكي، واستمرت حتى السنة الثالثة عشرة حين انتهى العهد المكي بالبيعة، بيعة العقبة الكبرى، بيعة القتال، التي أعقبتها مباشرة الهجرة إلى المدينة فبدأ العهد المدني، عهد نقلة الدعوة إلى الدولة، عهد قيام الدولة الإسلامية الأولى، عهد التطبيق للأحكام الإسلامية في الأرض، بدءاً من المدينة وما حولها وانتهاءً بما وصلت إليه في عهد الخلفاء الراشدين الأربعة وما تبعهم من الفتوح، عهد رفع راية الإسلام فوق جميع الرايات وحملها فوق رؤوس الجيوش الإسلامية المنطلقة للجهاد في سبيل الله في جميع الآفاق..

والسؤال الذي يفرض نفسه على المسلمين أفراداً وجماعات: هل ما رسمه رب العالمين لرسوله في حمل دعوته ورسالته للناس خاص به ولا علاقة للعمل الإسلامي اليوم وفي كل زمان لإعادة الإسلام وشريعته للأرض به؟ أم أن الأمة الإسلامية تعيش اليوم في العهد المكي المتطلع للعهد المدني وما فعله الرسول عليه وآله وصحبه السلام

يجب الاقتداء والتأسي به؟ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

ونعود للسورة فنجدها تصف أولئك الساخرين المستهزئين بالرسول عليه وآله وصحبه السلام الذين كفاه شرهم بل وجودهم بأنهم ممن يجعلون لله أنداداً، وأنهم لذلك سيعلمون ما ينتظرهم يوم القيامة من العذاب الشديد.

ثم تخاطبه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بأن ربه سبحانه يعلم ما في قلبه من الشعور بالضيق بسبب ما يسمعه من أولئك المشركين من التكذيب والرفض لرسالته... وأن عليه أن يفزع إلى الصلاة ﴿فَسَبِّحْ﴾ لأنها غاية التسبيح ونهاية التقديس، ولأن ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ هي غاية القرب من الله تعالى في الصلاة، بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام: «أقرب ما يكون العبد لربه وهو ساجد فاخلصوا الدعاء». وفي هذا الفزع إلى الصلاة راحة لنفسه من هذا الضيق منهم، ولا سيما أنها تنتهي بالأمر إلى العبادة ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ وإن كانت العبادة بمفهومها العام شاملة لكل أمر ونهي نزل من عند الله تعالى، وأن هذه العبادة لابد أن تستمر مدى الحياة وحتى ينتهي الأجل ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ فلا تفارقها حتى الموت..

فلا تنتهي العبادة الفردية بالنقلة من العهد المكي، عهد الدعوة، إلى العهد المدني، عهد الدولة، بل تتسع لتشمل مع الفردية العبادة الجماعية سواء في صلاة الجماعة والعيدين وغيرهما أو في الجهاد في سبيل الله وهو سنام الإسلام وذروته و«ما ترك قوم الجهاد إلا ذلّوا» كما قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم مما يفرض وجود الدولة الإسلامية التي تحمل راية الجهاد الحقّة كما يفرض الجهاد تحت راية كل حاكم برّاً كان أو فاجراً ما دامت راية جهاد..

دليل سورة الحجر ـ ١٥

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٩٩ آية.

- تبدأ أيضاً بالإشارة للقرآن وأن ما تذكره هذه السورة منه هو من البيان الواضح مبشراً المؤمنين به بالنعيم ومنذراً الكافرين بالعذاب الأليم.

- ثم تذكر نموذجاً من تكذيب المشركين باتهام الرسول عليه وآله وصحبه السلام بالجنون فيكذبهم المولى ويؤكد بأنه رسالة الحق التي لن يلحقها التحريف والتبديل.

- ثم تؤكد أن كفرهم مجرد عناد في الباطل وليس بحثاً عن أدلة وآيات وإلا

فالسماء قد ملئت بالآيات المعجزات من بروج ونجوم وأفلاك.. كما أن في الأرض الكثير من ذلك من حيوانات ونباتات.

- ثم تقف مع خلق الإنسان وتجلي قدرته تعالى على الخلق.. وتحذر البشر من غواية إبليس ليكونوا من المتقين الصالحين لا العصاة الغاوين.

- ثم تذكّر المشركين واليهود بقصة إبراهيم عليه السلام مع الملائكة المرسلين لقوم لوط، وكأن ما ظهر من موقف إبراهيم دفاعاً عن لوط ما يعطي الحق في الدفاع عمن يراه على الحق.

- وأصحاب الحجر، وهم ثمود قوم صالح، لم تحمهم بيوتهم المنحوتة في الجبال من عقاب الله جزاء كفرهم وعنتهم فكانت صاعقة الصيحة قد صحبتهم فأتت على آخرهم.. ولكن المولى سبحانه يدعو رسوله عليه وآله وصحبه السلام للصفح والعفو عن أذى قومه.. وكأن في ذلك ما ينبئ بما ينتظر منهم من الإيمان ونصرة الحق.

- ثم يخص سورة الفاتحة بالذكر هنا ويسميها السبع المثاني إشارة إلى تكرار تلاوتها في الصلاة.. وأن فيها وفي القرآن كله الغنى عن كل متاع الدنيا.

- وأخيراً تطلب من الرسول عليه وآله وصحبه السلام الجهر بالدعوة إلى الإيمان والوحدانية، والاطمئنان إلى أن الله تعالى كافيه أذى المشركين، والى أن له في الصلاة خير مطمئن لنفسه كما له في التسبيح والدعاء خير معين على الصبر.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ تشير السورة بالرد على اتهام المشركين للرسول عليه وآله وصحبه السلام بالجنون، وتكذيبهم وحماية رسالته من التحريف والتبديل، إلى أنه تعالى يحميه ويحمي رسالته من كل أذى وعبث ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾.

٢ ـ من تأكيدها أن غواية إبليس محصورة بمن يستجيب له بإرادته واختياره تؤكد مسؤولية الإنسان عن أعماله ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

٣ ـ في أمره تعالى لرسوله عليه وآله وصحبه السلام بالجهر في التبليغ دليل على ما يجب من رجال الدعوات الإسلامية من لزوم ذلك ليلتف الناس حول الدعوة قبل انتقالها للتطبيق، ودليل على أن في ذلك تحقيق ما نسميه بتحقيق الرأي العام الواعي الذي تلزم مساندته لنقلة الرسالة من الدعوة إلى الدولة ولحمايتها عند التطبيق والنشر في الأرض للشعوب والأمم الأخرى﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

سورة النحل (١٦)

التقديم

سورة النحل مكية كلها باستثناء ثلاث آيات نزلت بعد مقتل حمزة رضي الله عنه وهي ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ إلى ﴿بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، ونزلت في مائة وثمان وعشرين آية، وتشتمل على الأمور التالية:

لقد سميت هذه السورة بسورة النعم لكثرة ما ورد فيها من نعمه تعالى على عباده. فقد بدأت بمخاطبة المشركين ألا يستعجلوا وقوع العذاب لأن قيام الساعة قريب في عمر الزمن، والمؤكد يكون وقوعه قريباً مهما طال، فعليكم أن تكفّوا عن الشرك قبل قيامها، وعليكم أن تعلموا أن الله تعالى يأمر الملائكة بإنزال الوحي على من يختار من الأنبياء لينذروا البشر بأنه لا إله ولا معبود بحق غير الله، مما يجب عبادته والخوف منه وحده سبحانه، كيف لا وقد خلق السموات والأرض لا للبقاء وإنما للفناء، وللدلالة على قدرته لمن سخرها لهم من البشر فيقبلوا على طاعته وحده سبحانه، كما خلق الإنسان من ضعف ولكنه سبحانه خلق فيه القدرة على الاختيار، فلم يحسن الاختيار إذ كان أكثر جنسه غير مؤمن فكان خصيماً بيّن الخصومة، فلينظر في نفسه ولما حوله لينتهي من الباطل إلى الحق.

وتنقلنا السورة بعد ذكر خلق الإنسان إلى تعداد النعم الكثيرة التي أنعمها المولى سبحانه عليه لعله يحسن الاختيار ويكون شاكراً:

فقد خلق له الأنعام من إبل وبقر وغنم وما فيها من دفء ومنافع كثيرة منها المنظر الجميل سواء عند المسكن أو المرعى، وفيها حمل الأثقال، كما خلق له الخيل والبغال والحمير لاستخدامها للركوب والزينة، وأن في هذا دلالة على الطريق الحق بدلاً من الطريق الباطل، كما أنزل المطر من السماء ليتوفر لكم منه الشرب والسقي للأشجار والمواشي، كما ينبت منه الكثير من الزروع والأشجار، فأين عقولكم للتفكير بذلك والاهتداء به إلى الخالق القادر المدبّر؟؟!

كما جعل الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرة لكم بنظام كوني بديع سيّرها كلها وفقاً له، فأين عقولكم لتعقل ذلك؟! كما خلق فوائد أخرى كثيرة من المخلوقات المنتشرة في جميع أنحاء الأرض، فأين عقولكم لتتعظ وتعتبر؟! كما جعل البحر مسخّراً لكم لتحصلوا منه على اللحم الطري والحلية للزينة ولتسيير السفن، فأين عقولكم لتؤدي شكر ذلك؟!

كما خلق في الأرض جبالاً تثبتها حتى لا تتحرك فيختل توازنها، وخلق فيها أنهاراً وطرقاً تصلوا بها إلى منافعكم، كما خلق في السموات النجوم لتهتدوا بها في الليل كما تهتدوا بالطرق البرية والبحرية والأنهار، فأين عقولكم لترى الفرق بين من يخلق ذلك كله وبين تلك الأصنام المعبودة التي لا تخلق شيئاً؟؟!

إنكم إن تعدوا ما أنعم الله عليكم من النعم فلن تستطيعوا أن تحصوها، واعلموا أن الله على إحاطة تامة بكل ما تخفونه وما تعلنون به، كما انظروا إلى أصنامكم لتجدوها ليست فقط لا تخلق شيئاً وإنما أيضاً هي مخلوقة وهي جمادات لا حياة فيها ولا شعور ولا إحساس فكيف تشركونها بالله تعالى؟!

واعلموا أن خالقكم هو المعبود الواحد الذي لا شريك له، وأن المستكبر هو الذي ينكر الإيمان بالآخرة مع ما بين يديه من البراهين الحسية على قيمتها، وهو الذي يزعم أن ما أنزله الله تعالى هو من قصص الأقوام السابقة، وأنه بذلك يحمل إثمه وإثم من اتبعه على الضلال إلى يوم القيامة، وأنه وأمثاله يجب ألا ينسوا أن من قبلهم من الأمم السابقة قد كادوا لرسل الله فأهلكهم الله تعالى وأحبط كيدهم وأبطل مكرهم من حيث ظنوا أنهم في أمان، وأنهم بانتظار الخزي والعار يوم القيامة، يوم يسقط في أيديهم عندما يسألون عن شركهم بالله فلا يجدون إلا الخزي والعذاب بانتظارهم وقد أدخلوا جهنم من أبوابها المتعددة بعدد أصناف كفرهم وشركهم وطغيانهم ليخلدوا فيها جزاء استكبارهم..

إنهم أولئك الذين نزعت الملائكة أرواحهم وهم على شركهم وظلمهم لأنفسهم، إنهم الذين يزعمون أنهم لم يكونوا يقترفون الأعمال السيئة.. وكأن شركهم وكفرهم واستسلامهم وخضوعهم يوم القيامة سينجيهم مما اقترفوه من كفر وتكبر على الإيمان.

أما أولئك المؤمنون الصالحون فإنهم بالمقابل يرون الخير في كل أحكام الله وتشريعه لخلقه، وأنهم يحوزون الجنة بما عملوا من طاعة لربهم بعد أن نصرهم الله في الدنيا، وأن لهم من النعيم الخالد في جنات عدن بحيث يتمتعون بما يشاءون جزاء تقواهم وتتوفّاهم ملائكة الموت وهم طيبون بأعمالهم وأقوالهم، ونفوسهم طيبة واثقة بما ينتظرهم من ثواب الله والملائكة تبشرهم بالجنة حينما تلقي عليهم السلام ثم تدخلهم الجنة جزاء أعمالهم.

ثم تتساءل بحق المشركين عما ينتظرونه غير أن تقبض الملائكة أرواحهم مع ظلمهم لأنفسهم أو أن يحلّ بهم العذاب سواء من القتل يوم بدر أو الخسف في الدنيا كما حصل مع غيرهم من قبل وهم مصرّون على ظلمهم لأنفسهم.

وانظروا إليهم وهم يرددون ما قاله المشركون من قبلهم من إسنادهم لشركهم وتحريمهم للأشياء إلى الله تعالى ومشيئته، وكأن مشيئة الله تعالى تفرض عليهم الكفر والحرام، ولا تدعوهم لتركهما، فليعلموا أن الرسول ليس عليه إلا التبليغ لهم لأمر الله ونهيه وهم أنفسهم أصحاب الخيار بين الإيمان والكفر والحلال والحرام، كما ليعلموا أن الله تعالى قد بعث في كل أمة من الأمم الرسول الذي قام بتبليغهم وأمرهم بعبادة الله تعالى وحده وأن يجتنبوا كل حرام، ولكنهم منهم من اختار الهداية ومنهم من اختار الضلال، ولو سار مشركو العرب في الأرض لرأوا آثار ما جرى لأولئك المكذبين من العذاب. .

واعلم يا محمد أنك مهما حرصت على أن يختاروا الهدى فلن تستطيع أن تفرض عليهم إلا أن يختاروه بأنفسهم وعندها سيهتدون وإلا سيبقون على ضلالهم ولن يجدوا معه أي ناصر ولا معين لهم عند وقوع العذاب. .

ثم ادعهم لترك الأيمان وتأكيدها بأنه لا بعث بعد الموت بل أكد لهم عكس ما يقولون بغض النظر عن جهلهم بذلك، وأنهم سيبعثون ليروا حقيقة إنكارهم البعث وعاقبة تكذيبهم به، وأن الأمر كله مجرد ﴿كُن﴾ ليكون من رب العالمين القادر على كل شيء.

وتعود السورة لتشير للمؤمنين الذين هاجروا ظلماً سواء للحبشة أولاً ثم ليثرب، وأن جزاءهم في الدنيا حسنة النصر والغنائم وفي الآخرة أكبر من ذلك، إنها الجنة وخلودها، فاعلموا أيها الظالمون ذلك، وأن ذلك هو جزاء صبرهم على الظلم وجزاء إيمانهم واعتمادهم وثقتهم بربهم. .

وليعلم مشركو مكة المنكرون للنبوّة بأن الله تعالى لم يرسل في الأمم السابقة إلا رسلاً من الرجال فلا حاجة بهم أن يطلبوا رسولاً من الملائكة، وليسألوا أهل العلم من اليهود والنصارى ليعلموا ذلك إن كانوا يجهلونه، كما ليعلموا أن القرآن المنزل إليك يا محمد فيه بيان كل شيء ولا ينقصهم إلا التفكير بذلك والاتعاظ به، وليكفّوا عن محاولاتهم إبطال الإسلام، حتى لا تخسف بهم الأرض كما خسفت بقارون أو ينزل بهم عذاب من السماء كما نزل بقوم لوط وغيرهم أو أن يحلّ بهم العذاب أثناء سفرهم أو أن يكون بما يلحق أموالهم ومواشيهم وزروعهم من نقص أو جدب. . . فليخشوا عذاب الله أن يأتيهم من حيث لا يشعرون إذا استمروا في غيّهم. .

ولينظروا وليعتبروا من خلق الله تعالى وظلالها تلقي بها عن يمينها وشمالها بمرور شمس النهار بها وهي ترى ساجدة خاضعة لله تعالى لا تعصي له أمراً عندما خلقها على هذا الحال. . . وما ذلك إلا لأن كل شيء في السموات والأرض من ملائكة ودواب

ترى وهي تسجد لله تعالى بكل خضوع وطاعة خوفاً منه تعالى وتنفيذاً لأمره، فكيف يتكبر هؤلاء عن السجود له سبحانه؟!

وها هو سبحانه يأمرهم بتوحيده وعدم الزعم بإلهين اثنين وليخشوه سبحانه وهو تعالى المالك لما في السموات والأرض، والمستحق بالتالي للعبادة من دون من لا يملك من ذلك شيئاً، وأنه المستحق للطاعة والخشية وحده سبحانه.

ولو استعرض هؤلاء المشركون ما بهم من نعم فلن يجدوا نعمة من غير الله، وليذكروا أنهم لا يدعون أحداً غير الله عندما يصيبهم أي ضر، ولكن ما أسرع ما يشرك بالله فريق منهم بعد كشف الضر عنهم، فيعودون للكفر بنعم الله عليهم وللكفر بجعل قسم من نعم الله ورزقه لهم لأصنامهم.. فأي جهالة هذه؟! وأي زعم هذا الذي ينسبون به الملائكة كبنات لله سبحانه بينما ينسبون الذكور لأنفسهم؟!

إنها حياتهم المترعة بالجهالات والتي فيها يسودّ وجه الواحد منهم إذا أنجبت له زوجه أنثى حتى يختفي عن أعين الناس مما يظنه أشد السوء وقعاً، فيأخذ بالتفكير إما أن يبقيها حية لديه على ذل وهوان بين قومه أو يئدها في التراب ويرتاح من ذلك!!

فما أشد جهالتهم وهم ينسبون لله تعالى البنات بدافع جهلهم وكفرهم بالله تعالى بينما ينسبون لأنفسهم الذكور وكان الأولى بالعقول لو صح حكمها أن تصفه تعالى بما يليق به من الإخلاص والتوحيد..

فعليهم والحالة هذه أن يتأكدوا أن الله تعالى لو جعل لهم العقوبة بهذا الشرك منهم وحاسبهم هم وغيرهم من الناس على ما يقع منهم من شرك ومعصية لما بقي مخلوق على الأرض، ولكنه جل وعز قد اقتضى حكمه وقضاؤه أن يؤخرهم إلى يوم الحساب، يوم لا يتأخر منهم أحد عنه وقد ماتوا جميعاً وبعثوا جميعاً.. فهلّا إرعووا من نسبة ما يكرهونه لأنفسهم لله سبحانه وافترائهم بأن لهم البنين ولله سبحانه البنات، فليعلموا أن جزاءهم على ذلك النار بكل تأكيد حيث يخلدون..

وتأكد يا محمد أن الله تعالى قد أرسل في الأمم السابقة الرسل فزينت لهم أنفسهم وشياطينهم أعمالهم الشريرة وجهالاتهم المشابهة لما يقع فيه قومك فحق عليهم ما استحقوا من العذاب..

كما أن الله تعالى لم ينزل عليك يا محمد القرآن إلا لتبين كل حق، ولتقيم عليهم الحجة، وليكون الهدى والرحمة باتباعه والعيش عليه لكل من يؤمن به ويلتزمه، وليتأكدوا أن نزول ذلك القرآن إليهم هو أعظم من نعمة نزول المطر عليهم من السماء لتدب به الحياة في الأرض بعد جفافها وموتها، وأن في ذلك لأعظم دلالة على قدرة الله

على نزول النعم من السماء بأنواعها لكل من يستمع للقرآن ويتدبر آياته وأحكامه... ولا يبعد الاعتبار في ذلك عما يضعه بين أيديهم من النعم على الأرض من الأنعام التي بقدرة الله تعالى تسقيهم اللبن الخالص بعد إفرازه من بين الفرث والدم أي من تحويل الطعام بعد هضمه إلى دم من جهة وإلى حليب من جهة أخرى حسب مهام الخلايا المنوطة في الضرع بذلك..

فهلا فكروا بذلك كما فكروا بالنطفة التي تخرج من الذكر منهم لتستقر في رحم الزوجة فتشكل بالتزاوج بين الحيوان المنوي والبويضة الجنين الذي بدأت رحلته من بين الصلب والترائب وانتهت إلى رحم المرأة؟!

ولينظروا إلى هذه الثمار من النخيل والأعناب التي يصنعون منها أطايب الطعام كما يصنعون الخمور والمسكرات، تبعاً لاختياراتهم، فهلا فكروا بهذه الآية وعقلوها؟!

ولينظروا إلى هذه النحلة التي ألهمها الله تعالى خالقها أن تتخذ من حفر الجبال وتجاويف الأشجار ومعرشات البيوت بيوتاً لها، وأن تمتص رحيق كل الثمار حيثما وجدت الأشجار في الجبال والسهول، وأن تفرز من بطونها شراباً من العسل المتنوع الألوان المحقق لشفاء الناس من الأمراض، فهلا تفكروا بهذه الآية؟!

واذكروا أن الله تعالى خلقكم ثم يميتكم بعد أن يكبر بعضكم حتى أرذل العمر حين لا يعلمون مما كانوا يعلمونه شيئاً، فهلا اعتبرتم من ذلك؟

وليذكروا كيف أن الله تعالى ميّز فيما بينهم في الرزق، فجعل بعضهم غنياً وبعضهم فقيراً، واذكروا في هذا المجال أن المولى لا يمكن أن يعطي من رزقه ما يجعل ما ملكت يمينه مساوياً له في المال، فكيف ترضون لله ما لا ترضونه لأنفسكم إذ تجعلون له ولداً من عبيده؟!

وانظروا إلى ما خلقه الله تعالى من الأزواج لكم من أنفسكم بدءاً من آدم وحواء وانتهاءً بكم وأنتم تزوّجون بعضكم بنات بعض، وإلى ما جعل لكم من أزواجكم من البنين والأحفاد، وإلى الطيبات من الرزق التي وفّرها بين أيديكم، فكيف تؤمنون بأصنام لا تخلق ولا ترزق وتكفرون بالخالق الرزاق؟! وكيف تشبهون به تعالى هذه الجمادات التي لا تقدر على شيء؟!

وانظروا في هذا المثل الذي يضربه الله تعالى لكم بالمقارنة بين عبد مملوك لا يملك من أمره شيئاً وبين رجل حر رزق رزقاً حسناً فهل يستويان؟ فإن أصنامكم تشبه الواحد منها هذا المملوك وهذا الرجل الحر يشبه المولى سبحانه، ولله المثل الأعلى، فهلا تدبرتم هذا المثل لتروا البون الشاسع فتقر عقولكم بالحق؟!

وانظروا في هذا المثل الآخر الذي يضربه الله تعالى لكم في رجلين أحدهما أبكم والآخر يأمر بالعدل، فهل بينهما من شبه في أداء العمل، إذ الأول لا يقدر على شيء والآخر يقدر على العدل كله، فهل الوثن الأبكم فيه أدنى شبه مع الله تعالى؟! فهلّا أحسنتم التفكير والحكم؟؟!

فهل خالق السموات والأرض والعالم بكل ما يتصل بهما من غيوب، والذي بيّن للبشر الحلال والحرام، والذي يعلم العواقب كلها والمصالح كلها هو كمن لم يفعل من ذلك كله شيئاً كما هي حالكم أيها المشركون؟! فانتظروا مجيء الساعة ويوم الحساب حيث تجازون فيه بأعمالكم والذي يأتيكم فجأة كأسرع من البصر إن لم تقلعوا عن الشرك وسوء النظر والتدبر.

وانظروا في نعمة أخرى من نعم الله تعالى عليكم أيها المشركون عندما أخرجكم من بطون أمهاتكم كالأطفال لا علم لكم بشيء، ثم جعل لكم النمو المتكامل للجسم ومعه السمع والأبصار والأفئدة، وما لكل منها من المهام اللازمة للإنسان، فهلّا تفكرتم في ذلك كله وشكرتم الله تعالى الذي جعل ذلك كله لكم بإفراده في العبادة والطاعة؟!

وانظروا إلى الطيور وهي تطير في الأجواء من مكان إلى آخر، ومن قطر إلى آخر، وهي بسنة الله في خلقه تنضبط في قدرتها على الطيران بدوافع الجو وضغطه والجاذبية وفاعليتها... فهلّا تدبّرتم هذه الآيات التي لا يعتبر أو يتعظ منها إلا المؤمنون؟!

وانظروا إلى بيوتكم التي جعلها الله سكناً وراحة لكم من متاعب الليل والنهار، وجعل من جلود الحيوانات بيوتاً تصنعونها منها وتستخدمونها أثناء تنقلكم وإقامتكم، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها تصنعون أثاثاً وفرشاً تستمتعون بها من وقت إلى آخر... فهلّا فكّرتم بذلك وبما يحلّ بكم لو لم ييسّر ذلك لكم؟!

وانظروا إلى نعمة أخرى أنعمها الله عليكم من جعله تعالى الظلال من كل ما خلق من البيوت والأشجار والأكنان التي تحفظكم من المطر والريح في الجبال، والقمص والدروع التي تقيكم أثناء الحروب.. فهلّا فكرتم بهذه النعم وأثرها عليكم لتروا أنها وكثير غيرها تقودكم لمعرفة الله وشكره؟!

وعليكم أن تعلموا أن الإعراض عاقبته عليكم لأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام ليس عليه إلا البلاغ المبين وعليكم أنتم وحدكم اختيار الهدى والضلال لتتحملوا مسئولية ذلك بالجنة والنار، وأنكم باختياركم الضلال دون الهدى إذ تنكرون نسبة النعم إلى الله تعالى خالقها وجاعلها فإنكم تكفرون.

واعلموا أن في يوم القيامة يشهد على كل أمة من الأمم شاهد يؤكد التبليغ لهم وتوليهم عن المبلغ لهم وعندها لا يسمح للكفار بالاعتذار ولا بالكلام ولا ينالون أي رضا عن أعمالهم في الدنيا. . . كما أنه لا يخفف عنهم شيئاً من العذاب ولا يمهلون للتوبة عندما يحلّ بهم العذاب عقوبة على كفرهم وطغيانهم. .

كما أن إسناد الشرك إلى الأصنام والأوثان فإن هذه تكذبهم يوم الحساب، الأمر الذي يجعلهم يستسلمون لعذاب الله تعالى ولا يجدون معيناً لهم من أصنامهم وشياطينهم، إنهم أولئك الكفار المضلون لغيرهم والذين يستحقون بإفسادهم مضاعفة العذاب، والذين سيشهد عليهم الرسول عليه وآله وصحبه السلام أنه بلّغهم رسالة ربهم كما بلغ كل رسول رسالة الله تعالى إلى قومه، ويشهد عليهم أن القرآن الكريم قد جاء مبيناً لكل شيء من الحلال والحرام بالإضافة لكونه هدى للحق والإيمان ورحمة بأحكامه وبشرى بالجنان لكل المسلمين الصالحين.

واعلموا أيها الناس أن الله تعالى لا يأمر فقط بالعدل والإنصاف وإنما أيضاً بالإحسان والتفاضل، كما يأمر بإعطاء اليتامى من المال وينهى عن كل قبيح من قول أو فعل، ويأمر بالوفاء بكل ما يعقد باللسان من عهد أو قسم مهما كانت الدوافع الطيبة لذلك، لأن جزاء الملتزم بعهده ويمينه أفضل يوم القيامة من كل ما يرجى في الدنيا.

واعلموا أن الله تعالى لو شاء بقضائه وقدره أن يجعل الناس كلهم أمةً واحدة لفعل بكلمة كن فيكون، وهو سبحانه القادر على ذلك، ولكنه سبحانه قضى بقضائه وسنته في خلقه أن يجعل للواحد منكم قدرة الاختيار بين الهدى والضلال فيتحمل عاقبة ذلك بكامل التحمل، وإن كان سبحانه قادر في كل لحظة من اختيار الإنسان أن يتدخل فيكرهه على الهدى أو على الضلال، ولكنه عزّ وجلّ إذ خلق الجنة والنار جزاء الاختيار فإنه سبحانه لا يمكن أن يكره أحداً على ذلك ولذلك ختم قوله سبحانه ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وهذا يعني أنه لا يمكن أن يسأل إلا من اختار وليس من أُكره، وإلا كان الظلم والعياذ بالله سبحانه وتعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

كما أنه سبحانه يؤكد للناس كافة بأن المؤمن الصالح بأعماله، سواء كان ذكراً أو أنثى، هو الذي يحيا الحياة الطيبة في الدنيا والأفضل منها في الآخرة وذلك مقابل جزاء عمله واختياره.

واعلم يا محمد، ويا كل مؤمن بالإسلام، أنك عندما تجلس لتلاوة القرآن الكريم الذي أنزل ببيان كل شيء عليك أن تبدأ بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ثم تأخذ في التلاوة. . . واعلموا أنه ليس للشيطان أي تأثير بالإغواء والكفر على أحد من المؤمنين

المعتمدين بثقة على الله تعالى، وإنما تأثيره على الذين يعيشون باختيارهم على الغواية والمعاصي فيتبعون الشيطان ويشركون بالرحمن.

واعلموا أن الله تعالى الذي أنزل القرآن هو وحده الذي يبدّل أو ينسخ أي آية منه بآية أخرى، لأنه سبحانه العالم بما أنزل وما يحققه من خير الإنسان في الدنيا على مدى قصر أو طول الحياة، وفي الآخرة.

وإياكم أيها المشركون من التسرع باتهام الرسول عليه وآله وصحبه السلام بالكذب على الله تعالى عندما يخبركم بالتبديل والنسخ، واعلموا أن جبريل عليه السلام قد أنزله بأمر الله تعالى ليثبت المؤمنين بما فيه من حجج ويوفر الهداية والطمأنينة للمسلمين.

واعلم يا محمد أن ربك محيط بما يتهمونك به من أنك تأخذ القرآن من أحد الناس، فغريب أمرهم وهم يرون أن هذا الشخص الذي يتهمونك بالتعلم عنه أعجمي اللسان لا عربيه بينما هذا القرآن عربي اللغة وفصيحها! فكيف يتهمونك بذلك؟! إنهم في الحقيقة قد ضلّوا السبيل ولهم أليم العذاب بسبب ما يفترونه من كذب على الله ورسوله.

واعلموا أيها المؤمنون أن من ارتد عن الإيمان دون إكراه وترك للكفر أن يحتل موضع اعتقاده فقد حلّ عليه غضب الله تعالى وبانتظاره عظيم العذاب، وأما من أكره على الكفر الإكراه الملجئ فلا إثم عليه.. فليحذر أي مؤمن من الردّة لأنه لا يقدم عليها إلا من فضّل الدنيا الفانية على الآخرة الباقية، ومن شطب إدراكه للحق وسماعه للحق وإبصاره للحق فقد أصبح من الغافلين الخاسرين.... وأما من فتن بالإكراه عن الإيمان ثم هاجر ابتغاء مرضاة الله وشارك في الجهاد في سبيل الله وصبر على الابتلاء فإن الله تعالى يتولاه بمغفرته ورحمته.

وذكّرهم يا محمد يوم تدافع كل نفس عن نفسها كأنها لم ترتكب فعل كذا أو كذا مختارة، وأن كل شخص سيحصل على كامل ما عمل دون نقصان ولا زيادة..

وذكّر المشركين بخاصة بما حصل بتلك القرية لقوم مضر عندما كان يأتيها رزقها من البرّ والبحر وفيراً ولكنها بدلاً من شكر النعمة والإيمان بالمنعم أنكرت المنعم فدعا عليها رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بالقحط فحلّ بها الجوع والخوف جزاء كفرهم ومعاصيهم وتكذيبهم لرسول الله وظلمهم لأنفسهم..

واذكروا ذلك يا معشر المسلمين وتمتعوا بحلال رزق الله عليكم من الغنائم، كما اذكروا ذلك أيها المشركون وما حلّ بكم من قحط وجوع، وتذكروا أيها المسلمون أن المحرّم عليكم هو الميتة والدم ولحم الخنزير والمذكى لغير الله إلا المضطر لتناول شيء من ذلك اضطراراً ملجئاً فلا إثم عليه..

وإياكم أن تلجأوا في التحليل والتحريم إلى أحكام العقل واللسان دون الاحتكام إلى الله، لأن في هذا كذب عليه تعالى لن ينال صاحبه إلا المتاع القليل في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة. . .

واذكروا أن الله تعالى قد حرّم على اليهود بعض الأشياء من الأنعام والحرث وأحلّها لكم، وتاب على الذين أشركوا ثم تابوا وأصلحوا. . . واذكروا صدق إيمان إبراهيم وشكره لنعم الله وأمر الله تعالى لنبيه محمد عليه وآله وصحبه السلام باتباعه في التبرؤ من الأوثان والتزام الإسلام. . . واعلموا أن السبت لم يكن من شرع إبراهيم وإنما هو تغليظ اليهود على أنفسهم. .

وادع يا محمد ومن اتبعك إلى الإسلام والإيمان بالحكمة والبرهان العقلي لكل عالم، وبالموعظة الحسنة دون خروج عن ذلك لعامة المسلمين، وبالجدال العقلاني المنضبط الحسن لكل مشرك أو مرتاب.. والتزموا في إنزال العقوبة بالمثلية والصبر أفضل، ولذلك تحلّوا به محتسبين لله، ولا تحزنوا على قتلى أحد فإنهم ذهبوا إلى رحمة الله، ولا يضيق صدرك يا محمد من مكر من كفر منهم لأن العاقبة ستكون لكم أنتم أيها الأتقياء المحسنون.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

تبدأ السورة بمخاطبة المشركين من أهل مكة وغيرهم بأن أمر الله وعقابه في الدنيا جزاء الكفر والإفساد لابد أن يحلّ بمن يستحقونه، فلا حاجة بهم للاستعجال استخفافاً وسخرية وتكذيباً من إنذار الرسول عليه وآله وصحبه السلام لهم به، وعليهم أن يعلموا

بأن الله تعالى منزّه عمّا يصفونه به من أنه لا يقدر على قيام الساعة ولا بعث الأموات، وأن عقابه لهم يوم الحساب لا بد واقع بهم فلا حاجة لأمثالك يا النضر بن الحارث من أن تستعجل عذاب الدنيا أو تستخف به وتستبعد عذاب الآخرة بقولك ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] مستعجلاً العذاب..

واعلموا أن الله تعالى هو الذي يوحي بالنبوّة إلى من يصطفي من الأنبياء والرسل ليحملوا للبشر الهداية والرشاد وخير الدنيا والآخرة بما ينذرونهم به من أن المعبود بحق هو الله وحده لا شريك له وأن عليهم أن يتقوه ويخشوا عقابه في الدنيا والآخرة..

واعلموا أنه سبحانه وتعالى قد خلق السموات والأرض بكل تأكيد لا لتبقى وتخلد وإنما للزوال والفناء، وفيها أعظم الدلالة على قدرته لذوي الألباب، كما أن في استبدال الأرض يوم القيامة بغيرها، والسموات بغيرها، ما يكفي لكل مؤمن أن يرى هذه القدرة الربّانية التي لا يستحق العبادة إلا صاحبها، وأنه سبحانه وتعالى بريء من كل ما تشركون به أيها المشركون من الأصنام العاجزة عن خلق أي شيء..

فانظروا إلى خلقه سبحانه وتعالى للإنسان الذي تعترفون به، وأنه خلقه في البدء من تراب ثم أخذ الخلق يتتالى من النطف الخارجة من بين الصلب والترائب، فماذا يفعل الإنسان هذا أمام خلقه هذا؟! إنه يخاصم الله تعالى في قدرته ويحاربه في معصيته، ويجهر بذلك دون عظة ولا اعتبار بما حلّ بالآخرين من المشركين المتغطرسين!!

وانظروا إلى قائمة النعم والأفضال التي تفضّل بها سبحانه عليكم أيها البشر بعد أن خلقكم من ذلك الحال من الضعف والهوان لتشكروه وتعبدوه..

فهاهي الأنعام من إبل وبقر وغنم التي خلقها وتجدون فيها لكم من الدفء بأصوافها وأوبارها وأشعارها، سواءً بالملابس أو البيوت، كما تجدون فيها المنافع الكثيرة من نسلها وركوبها والحمل عليها وألبانها ولحومها، كما تجدون من أكل لحومها كأهم منفعة لها... فهلّا أديتم شكر هذه النعمة نحو المنعم المتفضّل؟! وهل نسيتم ما تستمتعون به من جمالها وحسن ركوبها سواء في ذهابها للمراعي أو عودتها منها؟! وهل نسيتم ما تقدمه لكم من خدمات في حمل أثقالكم من بلد لآخر من الصعب عليكم القيام به بدونها؟!

وهل نسيتم تلك الخيل والبغال والحمير بما توفره لكم من وسيلة للركوب والزينة في مختلف مناسباتكم سواء باستخدامها وأنتم تملكونها أو باستئجارها الذي أباحه المولى لكم إذ كنتم لا تملكونها وإنما يملكها غيركم؟! واذكروا أنه إذا سمح لكم بأكل

بعضها كالأنعام والخيول فإنه لم يسمح بأكل لحوم البعض الآخر كالحمير والبغال لخبثها، كما اذكروا أنه ليس هناك من زكاة فيها إلا في النعم فقط من إبل وبقر وغنم. .

ثم تشير السورة إلى مجموعة أخرى من نعم الله تعالى على الإنسان بعد أن تذكر أن بيان الهدى والضلال إلى الله تعالى وحده فتقول:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ
وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ
ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى
ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ
رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَـٰمَـٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾
أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا
وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ
إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

مبينة أن الله عزّ وجلّ وحده هو الذي يبين سبيل الحق، سبيل الإسلام، للناس ويدلل عليه بالحجج والبراهين ليعملوا عقولهم ويختاروه من دون السبيل الباطل، سبيل الظلم والجور والعدوان، وهو سبحانه قد جعل للبشر الاختيار بين هذا وذاك، وأنه لو قضى بحكمه أن يفرض الهدى عليهم دون الضلال لفعل ولكنه الاختيار ومسئوليته.

وانظروا إليه تعالى وهو الذي بما خلق من نظام كوني بديع يجعل الرياح تسوق السحاب حاملاً من الرطوبة ما ينزلها تحت الأجواء الباردة مياهاً يشرب منها البشر ودوابهم وأشجارهم وزروعهم التي تأتي بكل الثمار من زيتون ونخيل وأعناب

وغيرها... فأين عقولكم المفكّرة بالتفكير السليم الموصل لخالق ذلك كله والمدبّر له والمستحق للعبادة والطاعة وحده؟!

انظروا إلى تسخيره تعالى لكم الليل لتناموا وترتاحوا من عناء العمل في النهار، والنهار لتكدّوا وتعملوا وتجنوا ما قدّره لكم من أرزاق، والشمس والقمر والنجوم وما فيها من منافع للحياة الدنيا أكثر من أن تعد، فأين العقول المتدبرة بهذه الآيات الدالات على قدرة وعظمة ووحدانية العزيز الحكيم؟!

وانظروا إلى ما سخّره تعالى لكم في الأرض من المخلوقات الحية والجامدة والسائلة والغازية، مما ترونه وما لا ترونه بأعينكم، فأين ذاكرتكم التي علمت الكثير من ذلك ورأت عجيب الصنع وبديع الخلق لتعي وتتدبر وتعتبر؟!

وانظروا إلى البحر الذي سخّره بما فيه من لحوم طرية شهية لمأكولاتكم الكثيرة، وما فيه من حليّ تشمل اللؤلؤ والمرجان، ناهيك عن المعادن الثمينة الأخرى، وما له من قدرة على حمل السفن بمختلف أحجامها وأغراضها والتي تمخر عبابه لتأتيكم من فضله تعالى بالكثير من الأرزاق، فأين شكركم للمنعم على ذلك كله وأنتم الذين تشكرون من ينعم عليكم من البشر بأقل من ذلك بل بما لا يقارن بشيء منه؟؟!

وانظروا إلى هذه الأرض التي تغدون وتروحون على سطحها وفوق بحرها وفي أجوائها... كيف ثبتها القادر الحكيم سبحانه بجبال ثابتات تحول بينها وبين اختلال توازنها سواء أثناء دورانها حول نفسها أو دورانها في المجموعة الشمسية حول شمسها... وكيف أجرى فيها من الأنهار بما تساقط من سمائها من الأمطار، وكيف يسّر من طرق السير والاتصال فيها بما يوفر لكم الاهتداء إلى مقاصدكم؟! فأين هي العقول والأفهام الموصلة للإيمان والطاعة لرب الأنام؟!

وانظروا إلى تلك العلامات التي تهتدون بها في النهار والليل على طول الطرق التي تسلكونها في أسفاركم القريبة والبعيدة، وإلى هذه النجوم التي تملأ الفضاء فتوفر في الليل بالذات أسباب الهدى وبخاصة في الأسفار البعيدة وفي معرفة القبلة ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ فأين هو النظر والتفكير والاهتداء للإيمان والطاعة لرب السماء؟!

وانظروا إلى هذه الأصنام التي تعبدونها، والتي تحتاج إليكم حتى توجد، فهل مثل هذا المخلوق المصنوع بنفس أيديكم يقارن بالله تعالى القادر الخالق المدبّر... فضعوا ذلك أمام أعين أبصاركم وبصائركم واحكموا على أنفسكم بصدق المقارنة ونزاهتها..

وتأكدوا يقيناً لا يقين بعده أن نعم الله تعالى مهما حاولتم تعدادها فلن تستطيعوا

إحصاءها، سواء في أنفسكم أو خارجها، وتأكدوا أنه لولا أن الله تعالى غفور رحيم محيط بالسر والعلن لما تبطنونه وما تظهرونه لما تمكن أحد منكم مهما تاب عن ذنوبه أن يفلت من عقابه لعظم تعنتكم وإنكاركم لنعمه تعالى..

وهل أصنامكم التي تعبدونها من دون الله تعالى إلا مخلوقات لا تستطيع خلق شيء؟ وهل هي إلا جمادات لا حياة فيها ولا شعور ولا إدراك؟! فعليكم بشيء من إعمال عقولكم أن تكفّوا عن عبادتها والعودة إلى فطرة الله تعالى التي خلقكم عليها من الاحتياج إلى الخالق المدبّر لأنه سبحانه واحد لا شريك له وقد خلق فيكم من العقل والتفكير ما يعينكم على الوصول لذلك، واعلموا أن من يكابر ويتعنت منكم عن الإيمان بالبعث وهو يرى كيف يحيي الله الأرض بعد موتها مع مرور كل عام لهو المتكبر عن الحق، المتعالي على العقل.

واعلموا أن الله تعالى يحيط بكل ما تسرّه أفئدتكم وتبديه ألسنتكم، وأنه تعالى يكره كل متكبر عن الحق وكل فاقد للإدراك السليم..

وتنقلنا السورة بعدها إلى المقارنة بين موقف المشركين والمؤمنين مما أنزله الله على رسوله فتقول:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۙ
وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا
يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْۚ قَالَ ٱلَّذِينَ
أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْۖ فَأَلْقَوُاْ
ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ
أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۙ
يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ
يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾
فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾

وانظروا إلى أولئك المشركين الذين ينكرون البعث ويوم القيامة من أمثال النضر بن الحارث والذي كان يشتري قصة كليلة ودمنة ويقرؤها على قريش ليقول لهم بأن ما أنزل على محمد هو مثلها أساطير الأولين وليس من لدن رب العالمين، وهو وأمثاله يحملون بذلك ذنوب تكذيبهم وتكذيب من يتبعهم ويصدقهم في ذلك الضلال..

وليعلموا أنهم بشنيع فعلهم هذا قد سبقهم بالكفر أقوام آخرون فأنقذ الله تعالى رسله إليهم وأوقع بهم كما أوقع بالنمروذ بن كنعان وقومه ما أوقعه من العذاب الشديد والخسف والهدم لما زعموا أنه صرح يتطاولون فيه إلى الله تعالى، فأهلكهم جلّ وعزّ أشد الهلاك وأحبط أعمالهم وأبطل مكرهم وجاءهم بالعذاب من حيث ظنوا أنهم في أمان إذ أهلك نمروذ بالبعوضة التي دخلت في أنفه فكان لا يرتاح حتى يضرب بالنعال على رأسه..

فهل تريدون نفس الحال يا مشركي مكة؟! وهل تريدون ما ينتظر نمروذ وقومه من العذاب والخزي والذلّ يوم القيامة حيث يطلب منهم إحضار شركائهم مع الله تعالى فيقع الأمر في أيديهم ويلحقهم ما يلحقهم من الإهانة والعذاب بعد أن قبضت ملائكة الموت أرواحهم وهم على شركهم وظلمهم لأنفسهم مثلما أنتم عليه، وبعد أن استسلموا وخضعوا لأمر الله فيهم وظنوا أن دفاعهم عن أنفسهم بأنهم لم يرتكبوا الكفر سينفعهم، وكأن الله تعالى العالم بكل أعمالهم لا يعلم بكفرهم... فاعلموا يا مشركي مكة ومن على شاكلتهم ذلك إلى يوم الدين! واعلموا أنهم سيخلدون في جهنم حيث يستقر كل متكبر عن الإيمان والطاعة لله تعالى.

وانظروا بالمقارنة مع أولئك المشركين وعاقبتهم إلى المؤمنين المتقين الذين يقولون عما أنزله الله تعالى على رسوله بأنه خير الدنيا والآخرة، وأن لهم جزاء ذلك الحسنى في الدنيا والجنة في الآخرة، جنة عدن حيث يتمتعون فيها بكل ما تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم وذلك بعد أن تتولى ملائكة الموت تقبل أرواحهم من أجسادهم بالأمن والسلام فتخرج زكية طيبة منها لطيب أقوالهم وأفعالهم في حياتهم..

فهلّا وجدتم الفرق الكبير أيها المشركون بين حالكم وحال المؤمنين؟! فماذا تنتظرون لتعودوا إلى وعيكم ورشدكم؟! هل تنتظرون الموت وملائكته تنزع أرواحكم فتموتون على شرككم وظلمكم لأنفسكم؟! أو تنتظرون عذاب القتل (مما حلّ بهم يوم بدر)، أو الزلزلة والخسف في الدنيا كما حلّ بمن قبلكم؟! فتأكدوا أن الله تعالى لم يظلم من قبلكم ولكن بإصرارهم على شركهم وتعنتهم قد ظلموا أنفسهم فحقّ عليهم الجزاء المناسب لهم ولأعمالهم وسخريتهم بالرسول وبمن آمن معه... فاحذروا ذلك!

وتواصل السورة بيان مواقف المشركين بمختلف الأزمان من الرسل إليهم ومقارنتهم بالمؤمنين المهاجرين في الله تعالى فتقول:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

وانظروا إلى أولئك المشركين وهم يهزؤون من الإيمان والمؤمنين بالهزء من مشيئة الله تعالى، لأنهم لو كانوا بقولهم هذا لا يسخرون لكانوا مؤمنين، فبمشيئة الله تعالى وبقضائه وقدره يتدخل أو يفرض الإيمان عليهم ويفرض الطاعة لأوامره ونواهيه، حاشا لله، ولكنه سبحانه وتعالى قد خلق لهم القدرة على الاختيار فساروا على أثر آبائهم في الشرك والمعصية، فلم يكن لرسل الله تعالى إلا دعوتهم لترك اختيارهم الباطل والأخذ بما يدعونهم إليه من الاختيار الحق بما يبلغونهم بكل وضوح وتأثير من إيمان وطاعة... فبئس ما اختاروا ويختار كل مشرك وكافر من التقليد لآبائه على الباطل دون إعمال عقل ولا تدبر ولا تفكير سليم!!

فانظروا أيها المشركون لعاقبة من سبقكم من المشركين عندما رفضوا الاستجابة لرسلهم بعبادة الله تعالى وترك المعاصي في أكثريتهم وإصرارهم على التكذيب ولم يؤمن منهم ويتبع الرسول إلا القليل!!

وتأكد يا محمد أنك مهما حرصت بكل جهودك على هداهم ليختاروا الهدى على الضلال فإنك لا تملك أن تفرض الهدى على أحد منهم ولا تكرهه عليه، والله تعالى قادر على ذلك ولكنه سبحانه وقد اقتضت سنته في خلقه أن يعطيهم الاختيار فليتحملوا عاقبة اختيارهم للضلال كيف لا والله تعالى يقول: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾

[البقرة: ٢٨٦] و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٧] فعليهم عاقبة سوء اختيارهم ولهم العذاب الأليم جزاء ذلك ولن يجدوا معيناً ولا ناصراً يحول بينهم وبين هذا الجزاء يوم الدين.

فاحذروا ذلك أيها المشركون وكفّوا عن عجيب تصرفكم من الحلف المشدد بالله تعالى بأنه تعالى لن يبعث من يموت فتقسمون به وتعجزونه عن بعث الأموات... كيف؟! فعليكم أن تتأكدوا أن البعث لكل الأموات سيحصل، وأن ذلك وعد قطعي من الله تعالى لخلقه جميعاً ليعجلوا في دخول حظيرة الإيمان والطاعة، ودعكم من هذا الجهل والتجاهل للبعث والحساب، فاعلموه ولا تكونوا من الجاهلين والمتجاهلين الكثر لذلك! وتأكدوا أنكم برؤيتكم البعث وخروج الموتى ستعلمون كذبكم فيما أقسمتم عليه لأن الخالق للوجود كله والمدبّر له قادر على ذلك بمجرد أن يقول لذلك كن فإنه يكون بكل تأكيد.

وانظروا بالمقابل إلى أولئك المؤمنين الذين هاجروا عن أوطانهم وتركوا الأهل والقرابة في الله وفي دين الله، وتركوا السيئات بعد أن لحقهم من العذاب في الله الشيء الكثير، وكان أبرزهم صهيب وبلال وخباب وعمار، انظروا إليهم لتروا نتيجة ظلمكم لهم أيها المشركون إذ اضطررتموهم للخروج سواء إلى الحبشة أولاً ثم يثرب دار الهجرة أخيراً... فماذا حصل لهم؟

لقد بوأهم الله تعالى دار الهجرة المدينة المنورة وجعل لهم أنصاراً فيها من المؤمنين، فكانت لهم في الدنيا حسنة بالنزول في هذه الدار وبما أنعم الله عليهم من الرزق الحسن والنصر على عدوهم والثناء العاطر من بعدهم، كما ينتظرهم الأجر الأكبر في الآخرة، فاعلموا ذلك أيها المشركون الظالمون وارجعوا عن غيّكم، واطمئنوا بذلك أيها المهاجرون المؤمنون، فإنه جزاء إيمانكم وصبركم واعتمادكم على بارئكم.

وتخاطب السورة بعدها الرسول عليه وآله وصحبه السلام بالرد على منكري نبوّته، وبالتهديد لهم، وبالتذكير لهم ولغيرهم بقدرته تعالى وبالتالي وجوب التزام طاعته وعبادته وحده فتقول:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾
بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ
مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ
فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ

مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا
فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ
﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ
ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ
﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُواْ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

فانظر إليهم يا محمد وهم بشركهم ينكرون نبوّتك ويقولون بأن الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، وأنه قادر على أن يبعث إليهم ملكاً، فقل لهم بأن الله تعالى لم يرسل من قبلك ملائكة بالنبوات والرسالات وإنما أرسل رجالاً آدميين، ولهم في رد مؤمني أهل الكتاب على سؤالهم عن ذلك خير جواب إذ يعلمون أن من أرسل من قبلك بالبينات والكتب هم كذلك، فلماذا يكابرون بهذا الطلب؟!

واعلم يا محمد أن الله تعالى قد أنزل إليك القرآن لتبين للناس الأحكام والوعد والوعيد بقولك وفعلك، وأن في ذلك ما يستدعي تفكيرهم واعتبارهم.. وإلا فهل أمن هؤلاء المشركون الذين يمكرون ضد الإسلام ويحتالون لإبطاله أن يحل بهم الخسف كما حلّ بقارون، أو أن يحلّ بهم عذاب قوم لوط الذي لم يتصوروا مصدره، أو أن يصيبهم العذاب أثناء أسفارهم وتصرفاتهم، أو أن تجتاح أموالهم وأنفسهم وزروعهم وثمارهم الجوائح التي يخافون وقوعها بهم؟! وليتأكدوا أن ربهم رءوف رحيم إذ لا يعاجلهم بالعقوبة وإنما يمهلهم، فهلا اعتبروا؟!

ولينظروا في عظمة الله تعالى وقدرته في خلقه كله، وفي ما يخلق لهم من ظلال لكل شيء يتفيؤونها في غدوهم ورواحهم ليروا نعمته هذه عليهم، وليروا أن في ذلك خضوعاً لله تعالى إذ يتحقق بما أودع في نظام كونه، وإذ يتحقق ذلك من كل ما خلق الله سبحانه في السموات والأرض من دواب وملائكة، وأنهم كلهم لا يستكبرون عن عبادته وطاعته، ويخافون عقوبته وينفذون أمره ونهيه، فكيف تشذون أيها المشركون عن ذلك كله، فلماذا لم تستعملوا عقولكم وتدبركم لتقلعوا عن شرككم وتقبلوا على طاعة ربكم، ربكم الذي يأمركم أن تكفوا عن الزعم بتعدد الآلهة وأن تلتزموا توحيده سبحانه في العبادة والطاعة، لأن له وحده سبحانه ملك كل ما في السموات والأرض من

مخلوقات، وبالتالي له وحده الاستحقاق بالعبادة والطاعة والإخلاص... كيف لا وهو وحده صاحب كل نعمة يتمتع بها الواحد منكم؟!

وانظروا بالرغم من ذلك إلى رأفته بكم وإمهاله لكم فإن الضر والأذى والقحط لو حلّ بكم لبادرتم باللجوء إليه تعالى والدعاء ليكشفه عنكم، وأنتم ما أن يكشفه عنكم حتى يعود فريق منكم إلى الشرك والكفر بنعم الله... فلتتمتعوا في دنياكم الفانية وستعلمون عاقبة أمركم يوم الحساب!

وتنقلنا السورة بعدها إلى الإشارة لمجموعة من جهالاتهم بشركهم، وتهديد الله عزّ وجلّ لهم، وتسلية الرسول عليه وآله وصحبه السلام عن كفرهم بمن سبقوهم، وتذكيره تعالى لهم ببعض نعمه عليهم فتقول:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ
سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ
مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ
بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا
يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ
لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ
وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ
وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا
سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً
لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

فانظروا إلى جهالات المشركين عندما يجعلون للأصنام التي يعلمون أنها لا تضرّ ولا تنفع إلا من باب الظن الكاذب شيئاً من أموالهم يتقربون به إليها، ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ﴾ [الأنعام: ١٣٦] وليتأكدوا أنهم سيحاسبون على ما يختلقونه من أكاذيب على الله سبحانه وتعالى من أنه أمرهم بهذا!!

وانظروا إلى نمط آخر من جهالاتهم، وبالذات خزاعة وكنانة منهم، وهم يزعمون أن الملائكة بنات الله سبحانه، فكانوا يقولون الحقوا البنات بالبنات، وفي نفس الوقت يجعلون لأنفسهم البنين، ويأنفون من البنات حتى أن أحدهم عندما يخبر بولادة بنت له فإن وجهه يتغير ويكسوه الغم والهم، ويأخذ في التفكير في كيفية التخلص منها إلى درجة أنه يختفي من همّه، ويتغيب عن رؤية الناس لشعوره بالحزن والعار والخجل مما يلحقه بسبب البنت، فيفكر تارة بالإبقاء عليها مع الشعور بالمهانة أو بوأدها ودفنها حية وبذلك يتخلص منها ومن المهانة التي لحقته بها..

لا شك أن هذا مما حذّر الإسلام منه وجعل الرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول: «من ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهن كنّ له ستراً من النار» ويقول: «من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو» وضم أصابعه، ويقول: «من كانت له بنت فأدّبها فأحسن أدبها وعلّمها فأحسن تعليمها وأسبغ عليها من نعم الله التي أسبغ عليه كانت له ستراً أو حجاباً من النار»..

وليعلم أولئك المشركون أنهم بإضافة البنات إلى خالقهم وإضافة البنين إليهم يقعون في سوء الحكم وجائره، فليكفّوا عن ذلك الوصف السيء لأنه من الجهل والكفر ولأن لله الوصف الأعلى من الإخلاص والتوحيد وليس مثل هذا الوصف السيء..

وليتأكدوا أن الله تعالى لو يؤاخذهم بكفرهم وكذبهم لعاجلهم بالعقوبة ولقضى على كل كافر يدب من أمثالهم على الأرض، ولكنه جلّ وعزّ يؤجلهم إلى يوم القيامة، ذلك اليوم الذي يبعثون فيه من بعد موتهم ليحاسبوا على كل صغيرة وكبيرة من أقوالهم وأفعالهم، موتهم الذي ما أن يحين أجله حتى يحلّ دون تأخير لحظة ولا تقديم لحظة... فليتوقعوا ذلك وليخشوا الحساب الشديد بعده ولينتهوا عن نسبة البنات المكروهة عندهم لله سبحانه، ولينتهوا عن نسبة البنين لأنفسهم، وأن لهم في الآخرة الجزاء الحسن بهذا الوصف كما يزعمون، وليتأكدوا أن لهم النار حقاً وعدلاً على كذبهم وافترائهم وتفريطهم في أمر الله تعالى وطاعته..

واطمئن يا محمد لأن مثل هذه الافتراءات من مشركي قومك قد وقعت في الأمم السابقة عندما أقدموا عليها مع رسل الله إليهم، وأنهم كانوا بذلك يتبعون الشيطان في تزيينه لهم سوء أعمالهم، وأنهم جميعاً سيحلّ بهم العذاب الأليم يوم الدين..

واطمئن أن الله تعالى قد أنزل عليك القرآن لتحسم هذه الاختلافات فيما بينهم بصدد الدين والأحكام مما يلزمهم الحجة ببيانك لهم، وأنهم سيجدون فيه كل رشد وهدى ورحمة لمن آمن به..

وليأخذوا من إحياء الأرض بالمطر النازل من السماء بعد موتها دليلاً على النعم عليهم، وعلى كمال قدرة الله تعالى على بعثهم للحساب يوم الحساب، كما ليأخذوا عبرة وأي عبرة على قدرة الله تعالى من الحليب الخالص السائغ للشرب الذي يخرج من بين الفرث عندما تهضمه المعدة والأمعاء فيتحول إلى دم ويتحول في الغدد اللبنية إلى هذا الحليب، وهي الحالة المشابهة بشكل آخر من خلق الإنسان المكرم من المني والبويضة التي تخرج من بين الصلب والترائب.

كما ليأخذوا آية تستثير كل عقل مفكر متدبر من هذه الأرزاق الحسنة والمسكرات السيئة التي يحصلون عليها من ثمار النخيل والأعناب، وأنهم بصنع أيديهم يصنعون من ثمارها الطيبة الشهية الأنواع العديدة من الحلويات والمربيات، والأنواع الكثيرة من المسكرات، فيتحملون وزر ما صنعوا إن شراً وأجر ماصنعوا إن خيراً، والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول: «كل شراب أسكر فهو حرام» ويقول: «كل مسكر خمر وكل مسكر حرام» ويقول: «ما أسكر كثيره فقليله حرام».

وتأتي السورة بعدها إلى خلق من خلق الله، إلى النحل والعبرة منه فتقول:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

فانظروا إلى هذه الحشرة الطائرة التي تتجول عبر الحقول بحثاً عن الأزهار لترشف من رحيقها، فمن الذي جعل لها هذا الدافع؟ إنه إلهام الله تعالى لها لتتخذ من كهوف الجبال وتجاويف الأشجار ومعروشات البيوت بيوتاً لها تبني فيها خلاياها، وتجعلها بإلهامه تعالى بهذا الشكل المثمن الذي يتكامل بعضه مع بعض، وتأتي إليه بما جمعته من رحيق الأزهار لتفرغه في تلك الفراغات الشمعية التي صنعتها خصيصاً لهذه الغاية، بعد أن تكون قد دارت دورتها النهارية على كل الأزهار وعادت به شراباً مختلف الألوان تبعاً لألوان الزهور التي جمعته منها، ووفرت به هذا الدواء المحقق الشفاء لأمراض لا تعد ولا تحصى من أمراض الناس..

فهلا تفكرتم في ذلك ورأيتم هذا الإعجاز من هذه الحشرة المسخرة بهذا الشراب لشفاء أمراضكم الكثيرة؟!

وتتحدث السورة بعدها عن جانب آخر من نعم الله تعالى على الإنسان، إنها عن الإنسان نفسه وخلقه ورزقه وصنعته... فتقول:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ
﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم
مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾
وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا
تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ
شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ
كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ
صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ
أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ
شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

فانظر أيها الإنسان إلى ما أنت عليه، فقد خلقك الله تعالى من ضعف ثم يتوفاك بعد كبر وضعف، وبعد أن يفقد من يتقدم في العمر كثيراً من المعلومات التي علمها في ما سبق ليعود إلى حالة الطفولة، فكيف تنكر بعثك بعد موتك والقادر على خلقك لا شك أنه قادر على بعثك؟!

وانظر إلى تفضيل الله تعالى بين شخص وآخر منكم في كمية الرزق ونوعه، فلا يقبل الغني أن يرد من ماله على الفقير ليصبح غنياً مثله، كما لا يقبل المولى أن يسوّى بالمملوك، فكيف تقبلون أن تسوّى عبيد الله تعالى به سبحانه؟!

وانظروا إلى ما جعل الله إليكم من أنفسكم بدءاً بآدم عليه السلام وانتهاء بأقرب أب من أزواج، وإلى ما جعله الله تعالى لكم من أزواجكم من البنين والأحفاد، وإلى ما رزقكم من الطيبات، من الثمار والحبوب والحيوان، فكيف تؤمنون بالأصنام الباطلة، والتي لا تسدي لكم معروفاً ولا تقدم نعمة ولا تزيل ضرراً، وتكفرون بنعمة الله الإسلام التي تأتي لكم بخير الدنيا والآخرة، فأين عقولكم ووعيكم؟! وما الذي يدعوكم لعبادة

الأصنام من دون الله تعالى وهي التي لا تستطيع أن تأتيكم بشيء من أرزاق السموات والأرض؟! فاحذروا تشبيه الله تعالى بهذه الجمادات التي لا تملك حتى لنفسها نفعاً ولا ضراً. .

وانظروا في هذا المثل الآخر الذي يضربه تعالى لكم بالعبد المملوك الذي لا يستوي عندكم وهو لا يقدر من أمره على شيء بالمقارنة مع الرجل الحر الذي رزق رزقاً حسناً، وهذا ما يشبه الله تعالى، وله المثل الأعلى، وهذه الأصنام، فكيف تسوون بين العبد المسخر لإرادة سيده وبين سيده الذي يتصرف به كجزء من أملاكه؟!

فاعلموا أن الله تعالى وحده هو المستحق للحمد والثناء دون ما تعبدون من دونه، إذ لا نعمة للأصنام عليكم تحمد عليها إنما الحمد كله لله تعالى لأنه المنعم الخالق المدبّر، فاعلموا ذلك وتوجهوا له سبحانه بالحمد والعبادة والطاعة.

وانظروا في هذا المثل الآخر أيضاً الذي يورده الله تعالى لكم برجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء كما هي حال الصنم، والآخر يأمر بالعدل كما هي حال الله تعالى سبحانه، فكيف تسوّون بين الله تعالى الذي يأمر بالعدل على الصراط المستقيم وبين هذا الأبكم الذي لا يملك لنفسه، ناهيك عن غيره، نفعاً، بل أكثر من ذلك إنه عبء على مولاه ووليه؟!

فاعلموا أن الله تعالى وحده الرزاق القادر على كل شيء والعالم بما غاب وظهر في السموات والأرض، وهو سبحانه الذي شرع لكم كل ما فيه نفعكم وخيركم بالتحليل والتحريم، وأما أنتم فلا تعلمون ذلك فلم تتحكمون؟! وتأكدوا أن يوم الجزاء قريب بل أقرب مما تتصورون لقدرته تعالى على ذلك حين تدعون ليعطى كل منكم جزاء ما عمل من تفريط وإفراط.

وانظروا ثانية إلى حالكم من البداية عندما أنعم الله تعالى عليكم بالخروج من بطون أمهاتكم أطفالاً لا علم لكم بشيء من علوم تنفعكم في الدنيا والآخرة، ثم هو سبحانه قد جعل لكم السمع لتسمعوا به الأمر والنهي، فتعرفوا ما ينفعكم وما يضركم، وجعل لكم الأبصار لتبصروا بها آثار صنع الله تعالى، فتقبلوا على حمده وشكر نعمه وطاعته، وجعل لكم الأفئدة والعقول لتصلوا بها إلى معرفته، فهلّا أقبلتم على شكره وتقدير نعمته؟!

وبعد التنبيه على قدرة الله تعالى بمثال جديد تذكر السورة بعض النعم الأخرى، وموقف المشركين منها، وما ينتظرهم يوم القيامة. .. فتقول:

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ
يُؤۡمِنُونَ (٧٩) وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ
ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ (٨٠) وَٱللَّهُ جَعَلَ
لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ
وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ (٨١) فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا
عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ (٨٢) يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ (٨٣) وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ
مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ
ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ
شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ (٨٦) وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ
يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ (٨٧) ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا
فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ (٨٨) وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ
شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ (٨٩)﴾

فانظروا إلى السماء لتروا الطيور السابحة في أجواء الفضاء، تطير من مكان إلى آخر، وهي مذللات لمنافعكم بما أودع فيها تعالى من منافع اللحوم والريش، وكيف أنها تستطيع الطيران بما مكّنها الله تعالى من قدرة باستخدام أجنحتها وتفوق ما تحدثه بضرباتها من ضغط يرفعها ويدفعها على ضغط ثقلها بدافع الجاذبية الأرضية... أليس في ذلك علامة وعبرة ودلالة لمن يؤمن بالله وما جاءت به رسله؟!

وانظروا إلى السكن والراحة التي تتوفر لكم من بيوتكم، وإلى البيوت الخفيفة في حملها عليكم في الترحال والإقامة والتي تحصلون عليها من جلود الأنعام التي سخرها لمنافعكم، وإلى الأثاث والمتاع من بسط وسجاد وغيرها التي تتوفر لكم من أصواف تلك الأنعام وأوبارها وأشعارها، فالأغنام تقدم الأصواف، والإبل تقدم الأوبار، والماعز تقدم الأشعار... فهلّا شكرتم هذا المنعم المتفضل عليكم؟!

وانظروا إلى هذه الظلال التي جعلها الله تعالى لكم من البيوت والأشجار وغيرها، وإلى تلك الأكنان التي تحفظكم في الجبال من المطر والريح وغيرها من الأخطار، وإلى هذه القمص والدروع التي تقيكم الحر وأذى الحرب، مما يزيد من نعمه تعالى عليكم نعماً تفرض عليكم حمده وشكره عليها، فهلّا تدبّرتم وأقررتم وشكرتم؟!

واعلموا أنكم إن أعرضتم عن النظر في ذلك كله، والاستدلال منه على وجود وقدرة الخالق المدبّر، والإيمان والطاعة له سبحانه فإن الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام لا يملك إلا التبليغ لكم، وأما الهداية فهي منوطة باختياركم ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٣]. فقد أنزل الله تعالى الهداية إليكم وعليكم الأخذ بها والشكر عليها، إن اخترتم ذلك، وإلا عليكم مسئولية إنكاركم لها وكفركم بها، فأنتم تعرفون أنها من عند الله ولكنكم بإنكاركم لها عندما تزعمون أن النعم قد ورثتموها عن آبائكم تقعون في الكفر، وهذا هو حال الكثيرين منكم..

فهلّا تذكرتم يوم الحساب عندما يبعث الله تعالى بشهيد من كل أمة يشهد عليهم أن بلّغهم وأحسن التبليغ وتحمّل ما تحمّل من الأذى في التبليغ، وبعدها يحال بين الكافرين منهم وبين التوبة والاعتذار والاسترضاء لأن دار التكليف قد انتهت مع انتهاء الدنيا وفي الآخرة دار الجزاء، اذكروا ذلك واستعدوا له بالإيمان لا بالكفر، وتأكدوا أنه متى تحقق للمشرك رؤية العذاب يوم القيامة بالدخول في جهنم فإنه لا يمهل أي لا توبة له ولا يخفف عنه من عذابها شيئاً..

كما واذكروا أن المشركين عندما يرون شركاءهم معهم في النار يشتكون عليهم إلى الله تعالى بالإشارة إليهم، ولكن شركاءهم يردون قولهم فتنطق الأصنام بقدرة الله تعالى وتكذب من عبدها بأنها لم تكن آلهة ولا أمرتهم بعبادتها وعندها يلحقهم الخزي والفضيحة فيعودون ليستسلموا للعذاب وينقادوا لحكم الله تعالى فيهم بعد أن ينتهي عنهم ما ظنوه من الشيطان وأمّلوه من شفاعة آلهتهم، فيضاعف لمن كفر منهم وصد غيره عن الإيمان بالله وطاعته العذاب جزاء كفره وإفساده..

كما واذكروا يوم الحساب عندما يبعث الله تعالى الشهيد في كل أمة من الأنبياء الذين بلّغوهم وحي الله تعالى، وكانوا أفراداً منهم ولكنهم أنكروا عليهم التبليغ، فاذكروا أيها المشركون ذلك، واذكروا أن الله تعالى سيأتي بمحمد ليشهد عليكم بالتبليغ بما أنزله الله عليه من القرآن الذي ذكر ذلك وحمل إليكم بيان كل شيء من الأوامر والنواهي، من الحلال والحرام مما فيه نفعكم ودفع الضر عنكم، ومما فيه من الهدى والرحمة والبشرى لكل من آمن به وانقاد لطاعة ربه.

وتأتي السورة بعدها للإشارة لمجموعة من أوامر الله ونواهيه مما يتعلق بالعدل والمنكر، وبالوفاء بالعهود والأيمان، ولما لذلك من جزاء، فتقول:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ

يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ
تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى
نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ
أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ
لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾
وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ
وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

واعلموا أن الله تعالى عندما يأمركم بالعدل والإنصاف، وبالإحسان والتفضل، وبالتصدق على ذوي القربى، فإنه ينهاكم عن الفحش وكل قبيح من أقوالكم وأعمالكم من زنى وغيره من الرذائل والدناءات، ومن الشرك والبغي والكبر والظلم والحقد والتعدي، واذكروا: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ﴾ [يونس: ٢٣] بما يعود عليكم من الجزاء في الدنيا والآخرة، بنصر من بُغي عليه في الدنيا وبعذاب الجحيم في الآخرة..

والتزموا بالوفاء بكل عهد قطعتموه على أنفسكم مما يقره الله ورسوله من أمثال حلف الفضول، الذي قال عنه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «لو أُدعى به في الإسلام لأجبت»، واحذروا نقض أي قسم أكدّتموه وشدّدتموه وأشهدتم الله تعالى عليكم فيه، وإن فعلتم ذلك ونقضتموه كنتم كمن أحسنت غزلها وشدته ثم نقضته، وإياكم أن تستخدموا الأيمان للخديعة والغش وللغدر بالآخرين سواء لكثرتهم وقلتكم أو العكس.

واعلموا أن الله تعالى قد ابتلى عباده بالتحاسد فيما بينهم، وطلب بعضهم الظهور على بعض، واختبرهم بذلك ليظهر منهم من يجاهد نفسه فيخالفها ممن يتبعها ويسير على هواها، وعندها ترون يوم القيامة عاقبة ذلك وما تختلفون فيه من البعث وغيره.

واعلموا أن الله تعالى لو شاء بقضائه وقدره لجعلكم على ملّة واحدة ولا اختلاف بينكم، ولكنه تعالى قضى بحكمه وسنته في خلقه أن يخلق فيكم قدرة الاختيار بين الهدى والضلال ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا

﴿٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾ [الشمس: ٨ ـ ١٠] فعليكم باختيار الهدى لا الضلال، واعلموا أنه تعالى قادر أن يكرهكم على الهدى لا الضلال، ولكنه سبحانه بقدرتكم على الاختيار سيحاسبكم عن كل عمل أقدمتم عليه ﴿وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، فاحذروا الضلال والزموا الهدى... وتجنبوا الرشا وأخذ الأموال على نقض العهد، فتكونوا ممن ينقض عهده لعرض قليل من الدنيا مهما كثر لأنه زائل قطعاً.

واذكروا أن ما عند الله تعالى من نعيم الجزاء هو الباقي الذي لا نفاد له وبخاصة لأولئك الذين صبروا على الإسلام والطاعات وعن المعاصي، وأن ذلك ليس بخاص لذكر دون أنثى ولا بالعكس بل لكل منهما ما دام يقوم بذلك بإيمان صادق واحتساب مخلص، وعندها سيعيش في الدنيا الحياة الطيبة وهو يستشعر حلاوة الإيمان والطاعات مع الاستغناء عن الخلق والافتقار إلى الحق وحده، وبعدها يعيش في الآخرة على أفضل مما كان في الدنيا من نعيم جنات الخلود.

وتعود السورة للإشارة لقراءة القرآن والاستعاذة بالله من الشيطان عندها، وما لهذا الشيطان وما ليس له من سلطان على الآخرين كفار ومؤمنين، وما له سبحانه من نسخ وتبديل في آياته، وموقف الكفار من النسخ والتبديل فتقول:

﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ١٠٠ وَإِذَا
بَدَّلۡنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ
١٠١ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ
لِلۡمُسۡلِمِينَ ١٠٢ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ
أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ١٠٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤ إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٠٥﴾

مبينة أنه ما دام ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النحل: ٨٩] عليكم بمداومة الصلة به بشرط أن يبدأ بالاستعاذة بالله عند القراءة من الشيطان الرجيم أي ترجون من الله أن يجنبكم الشيطان الذي يصدكم عن تدبره والعمل بما فيه، وتأكدوا أن الشيطان ليس له أي قدرة على إغواء أو كفر أحد من المؤمنين ولا حجة له في ذلك لأن الله تعالى صرف سلطانه عنهم ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] وحصر سلطانه فيمن يتبعه من العصاة الغاوين ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] و﴿إِنَّمَا

سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ فيطيعونه ويتبعونه ويقترفون جريمة الشرك بالله رب العالمين. .

واعلموا أن الله تعالى عندما يبدل شريعة سابقة بشريعة لاحقة، وعندما يرفع آية ويجعل موضعها غيرها، وعندما ينسخ آية بآية أشد منها عليهم فإنه عز وجل هو العالم وحده بما ينزله أولاً وأخيراً، وقل لهم يا محمد بأن جبريل عليه السلام هو الذي أنزل عليك القرآن كله ناسخه ومنسوخه، وأنه ليس لهم، أي كفار قريش، أن يتهموك بالكذب والاختلاق بحجة تبديل الحكم لأنهم لا يعلمون أن الله شرع الأحكام ويبدل البعض بالبعض، فعليهم أن يعلموا أن جبريل قد أنزله عليك من ربك لا من لدن غيره سبحانه، وأنه نزّله لتثبيت المؤمنين بما فيه من الحجج والآيات، وهو هدى وبشرى للمسلمين. .

وليعلم هؤلاء المشركون الذين يجدفون بحق القرآن والرسول بقولهم بأن شخصاً من البشر هو الغلام النصراني (جبر) هو الذي يعلّمه للرسول عليه وآله وصحبه السلام، ليعلموا أن الله تعالى محيط بكفرهم هذا، فأعلمهم يا محمد بتهافت حجتهم وبطلانها لأن لغة هذا الغلام الذي ينسبون إليه التعليم أعجمية أجنبية وليست بعربية فكيف يتأتى له أن يعلمك هذا القرآن الذي ينزل عليك باللغة العربية الفصحى؟!

وليعلموا بأن من لا يؤمن منهم بالقرآن فإنه لن يجد الطريق إلى هدى الله، وأن العذاب الأليم بانتظاره، وأنه مفتر كاذب على الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، والرسول يقول «من كذب علي عامداً متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

وتأتي السورة بعدها لمشكلة الردة بعد الإيمان فتقول مبينة حال المرتدين وعاقبتهم:

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ
بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ
ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ
عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ
ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٠٩ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ
إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٠ ۞يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ
كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١١١﴾

محذرة من الكفر والارتداد من بعد الإيمان، لما في ذلك من غضب الله تعالى، كما حصل من بعض المسلمين، ومستثنية من ذلك من يكره على الكفر الإكراه الملجئ، كما حصل من عمار بن ياسر و قد رأى أمه وأباه يقتلان أمام عينيه لإيمانهما فأعطى المشركين بلسانه ما أرادوا من الكفر، وشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم فسأله «كيف تجد قلبك؟» فقال: مطمئن بالإيمان، فقال له عليه وآله وصحبه السلام: «فإن عادوا فعد».

وكما يجوز ذلك في الإيمان يجوز في فروع الشريعة كلها لقوله عليه وآله وصحبه السلام: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» سواء في القول أو الفعل وإن قالت جماعة من الفقهاء بأن الرخصة في القول دون الفعل، وقالت جماعة أخرى أن الرخصة تشمل الفعل والقول إذا أسرّ الإيمان، وأجمع العلماء على عدم الرخصة عند الإكراه على قتل الغير أو انتهاك حرمته بجلد أو غيره، واختلف في الزنى بحيث قال من رأى الرخصة فيه أنه لا حد عليه، وكذلك اختلف في طلاق المكره وعتاقه، ورجح الشافعي وغيره أنه لا شيء في ذلك، وكذلك بيع المكره غير جائز، ونكاح المكره باطل في قول سحنون من المالكية ولكن إن وطئها المكره دون إكراه على الوطء لزمه النكاح وإن أكره على الإثنين فلا حد، وإن استكرهت المرأة على الزنى فلا حد عليها، ولها صداق مثلها على الراجح، وكذلك يمين المكره فغير لازمة على الراجح سواء كان الإكراه على البدن أو المال أو غيرهما، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب في الإكراه القولي، ولكن أجمع العلماء على أن من اختار القتل عند الإكراه فله أجر أعظم ممن اختار الرخصة، وللمكره أن يأخذ بالرخصة إذا حلّفه سلطان ظالم على نفسه أو أن يدله على رجل أو مال رجل.

وأما حد الإكراه فقد اختلف فيه فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ليس الرجل آمناً على نفسه إذا أخفته أو أوثقته أو ضربته، وقال ابن مسعود: ما كلام يدرأ عني سوطين إلا كنت متكلماً به، وقال الحسن: التقية جائزة للمؤمن إلى يوم القيامة، وقال النخعي: القيد إكراه، والسجن إكراه، وهو قول مالك الذي قال: والوعيد المخوّف إكراه وإن لم يقع إذا تحقق ظلم المتعدي.

واذكروا أن غضب الله تعالى يحلّ بمن يختارون الحياة الدنيا على الآخرة، وأنهم بذلك وقعوا في الكفر والضلال والبعد عن هدى الله وفهم المواعظ والاستجابة لكلام الله تعالى، والنظر في الآيات، ووقعوا في الغفلة عما يراد بهم وانتهوا إلى الخسران في الآخرة.

وأما أولئك الذين فتنوا في إيمانهم وطاعتهم لربهم، كعمار بن ياسر، وصبروا على ذلك كله، فإن الله تعالى يغفر لهم ما صدر عنهم ويشملهم برحمته وذلك يوم تحاول كل نفس أن تخاصم وتحاج عن نفسها حتى تخاصم الروح الجسد، كما قال ابن عباس، وأنه لولا جوارح الجسد وعقله لما فعلت من الحرام شيئاً، فيرد الجسد بأنه لولا الروح لما كانت له حياة تمكنه من عمل ما عمل، فيضرب لهما مثلاً بأعمى ومقعد دخلا بستاناً للسرقة، فتعاونا فأخذا ما أخذا فكان عليهما معاً العذاب.

ثم تتحدث السورة عن المشركين وكفرهم بنعم الله وتكذيبهم لرسوله وأمرهم بأكل الحلال وشكر النعمة وتجنب الكذب على الله فتقول:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١٧﴾﴾

فانظروا أيها المشركون في هذا المثل الذي ضربه الله تعالى لكم في قرية كان أهلها يعيشون في أمن واطمئنان ورغد من العيش، ولكنهم بدلاً من شكر الله تعالى على نعمه هذه كفروا بها وأنكروا نسبتها إلى الله تعالى ونسبوها إلى أصنامهم وشركائهم، فماذا كانت عاقبتهم؟

لقد أنزل الله تعالى بهم أسباب الجوع والخوف من القحط والعدو وغيرهما جزاء أفعالهم، فهّلا ارتدعتم يا مشركي قريش قبل أن يحيق بكم ما حل بهم؟! إنهم سدروا في غيّهم وإفسادهم وصدهم عن سبيل الله فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وقال «اللهم أشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف» فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام، فأرسل إليهم الرسول عليه وآله وصحبه السلام الطعام وفرق فيهم.

فيا مشركي مكة، انظروا كيف أن الله تعالى قد جاءكم برسول منكم تعرفونه حق المعرفة، وأنكم عاندتم وكذبتم، فماذا حل بكم؟ لقد أخذكم الله بعذابه من الجوع الذي وقع بكم والشدائد العديدة التي حلت بكم.. فهّلا ارعويتم وارتدعتم؟

وها هو رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وقد عطف عليكم على أثر ما أصابكم فأرسل إليكم بطعام عّله يخفف عنكم جوع السنين السبع وما جهدكم بسببه من الألم حتى قلت يا أبا سفيان مناشداً له عليه وآله وصحبه السلام: يا محمد، إنك جئت تأمر بصلة الرحم والعفو، وإن قومك قد هلكوا، فادع الله لهم، فدعا وأذن للناس بحمل الطعام إليهم وهم على شركهم.. فخاطبهم المولى سبحانه بأن يقبلوا على أكل هذا الرزق الحلال الطيب الذي رزقكم به الله وأن يشكروا نعمته ويقبلوا على عبادته وطاعته.

واعلموا أيها المؤمنون أن الله تعالى لم يحرم عليكم من المأكولات غير الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح لغير الله تعالى إلا ما اضطررتم لأكله منها دون تجاوز لحد قيام الأود والوصول لمواطن الحلال الوفير.

واحذروا أيها المشركون مما يصدر عنكم من قول الكذب أن هذا الطعام حلال وهذا الطعام حرام مما تراه عقولكم وأهواؤكم من مثل تحريم البحائر والسوائب وتحليل ما في بطون الأنعام ولو كان ميتة، وتأكدوا أن الخيبة والفشل في الدنيا والآخرة لمن يكذب على الله، وأن ما يتمتع به من ذلك متاع قليل مهما كثر لأنه من نعيم الدنيا الزائل ثم تردون إلى عذاب أليم.. واعلموا أن التحليل والتحريم إنما هما لله عز وجل وحده، وليس لأحد أن يصرح بهذا دون الله تعالى.

وتشير بعدها السورة إلى ما حرم على اليهود، وعلى المشركين، وما وصف به تعالى إبراهيم عليه السلام وما يتصل بذلك.. فتقول:

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ
إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ
رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ
ٱجۡتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ
أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى
ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

مبينة أن الأنعام والحرث حلال لأمة المسلمين حرام منها أشياء لليهود، كما سبق ذكره في سورة (الأنعام)، وأنه تعالى لم يظلمهم بتحريم ما حرم عليهم ولكنهم ظلموا أنفسهم فحرم تلك الأشياء عقوبة لهم، كما ورد في سورة (النساء)، وأما المشركون

الذي آمنوا وتابوا وأصلحوا فإن الله يغفر لهم ويرحمهم ما سلف من شركهم بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام أيضاً «الإسلام يجُبُّ ما قبله».

واعلموا أيها المشركون أن أباكم إبراهيم عليه السلام كان أمة أي رجلاً جامعاً للخير، وكان خاشعاً لله ملتزماً صراطه المستقيم لا الصراط المعوج صراط المشركين.. فعليكم بالاقتداء به وهو الذي كان شاكراً نعم الله تعالى، وهو الذي اختاره سبحانه وأنزل عليه بيان الصراط القويم ووهبه في الدنيا حسنة الولد الطيب والثناء الحسن والنبوة ويحشره في الآخرة مع الصالحين.

فعليك يا محمد أن تتبع ملة إبراهيم في توحيده وجميع العقائد دون الفروع لقوله تعالى ﴿لِكُلٍّ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةً وَمِنۡهَاجًاۚ﴾ [المائدة: ٤٨] وتدعو أمتك لذلك، مما يدل على أن شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا.

واعلم يا محمد أن السبت لم يكن في شرع إبراهيم ولا في دينه وإنما كان تغليظاً على اليهود لرفضهم الأعمال الحلال وترك التبسط في المعاش وأصروا على موسى اختيار السبت فقال تعالى له «دعهم وما اختاروه لأنفسهم» باجتهادهم، وعيّنت النصارى بعدهم يوم الأحد أيضاً باجتهادهم، فألزموا به، وعين الله تعالى يوم الجمعة لهذه الأمة ولم يكلهم لاجتهادهم فضلاً منه ونعمة، فكانت خير أمة بين الأمم حتى قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «إن الله كتب الجمعة على من كان قبلنا فاختلفوا فيه وهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع»، وسيحسم تعالى هذا الاختلاف فيه يوم القيامة.

وأخيراً توضح السورة أساليب الدعوة إلى الله، والتزام المثلية في العقوبة، وتفضيل الصبر والعفو على العقاب.. فتقول:

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

فيجب أن يعظ بل يدعوا المسلمون بهذه الأساليب الثلاثة: فالعلماء منهم يُدعون بالحكمة والبرهان، وعامة الناس بالموعظة واللطف والإحسان، وأصحاب الرأي الآخر والمخالف بالجدال الحسن دون مهاترة ولا طعان.

وعند إيقاع العقوبة على الفعل من قبل الدولة الإسلامية، دولة الخلافة، تكون

العقوبة بالمثل فيكون الجزاء من نوع العمل ودون مخالفة شرعية «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك» كما قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «فمن قتل بحديدة يقتل بها، ومن قتل بحجر يقتل به» ومن قتل بالرصاص يقتل بمثله، ولكن الصبر بالعفو عن المعاقبة له أعظم الأجر ما دام فيه خير للإسلام والمسلمين فلا يُمثّل بقتلاهم كما مثّلوا بقتلانا، وفي ذلك المزيد من الصبر والاحتساب لله تعالى والإحسان في العمل.

دليل سورة النحل ـ ١٦

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ١٢٨ آية وسميت بسورة النعم لكثرة ما ذكرته من نعم المولى على عباده.

- تبدأ بدعوة المشركين لعدم استعجال العذاب لأنه مهما طال قريب، وبالتأكيد لهم بأن لله تعالى وحده اختيار من ينزل إليه الوحي، وأن عليهم أن يستجيبوا لدعوتهم للإيمان ويكفوا عن العصيان وهم على اختيار في ذلك.

- ثم تعدد الكثير من النعم على الإنسان التي تفرض عليه شكر المنعم وليس كفره، وعبادته وليس جحوده وإلا فلن يجدوا ناصراً يوم الحساب بينما يجد المؤمنون ذلك من أعمالهم وأقوالهم.

- تؤكد للمشركين في هذه المرحلة بأن مهمة الرسول محصورة بتبليغ أمر الله ونهيه، وأنهم المسئولون عن الاختيار بين الإيمان والكفر، بين الحلال والحرام.. وأن أحداً لا يملك فرض الهداية عليهم ما دام المولى سبحانه قد جعل الاختيار لهم وحدهم.

- وتؤكد ثانية بأنه لا حاجة للمشركين أن يطلبوا رسلاً من الملائكة لأن الرسل هم رجال تعرفهم أقوامهم، فعليهم أن يدركوا حقيقة رسالة القرآن ويكفوا عن تكذيبه وإلا حل بهم من العذاب ما حل بمن سبقوهم من الأقوام المكذبين لرسلهم.

- وتذكّر بالنعم الكثيرة في نفوسهم ومن حولهم مما يجب الاعتراف به في حالات الراحة والضيق معاً وليس الضيق فقط، وأن في إنزال القرآن إليهم أعظم نعمة تستحق الاعتراف والالتزام.

- وتذكّر أن في خلق الإنسان من نطفة، وإخراج الثمار من أشجارها، والعسل من النحل لأكبر شواهد على قدرة الله وعظمته ومنته على خلقه.

- وتستثير العقول بما يلمسه الإنسان على نفسه والآخرين من النمو في أطوار، وبما يهبه تعالى من البنين والبنات، وبالمقارنة بين الإنسان الحر والإنسان العبد، وبين

الإنسان الأبكم والإنسان المتكلم بالخير، وبتنقل الطيور من مكان لآخر، وفي.. وفي.. تستثير العقول لتفكر وتعقل فتؤمن.

- وتكرر تأكيد أن الأخذ بالهدى أو الضلال ميزة اختيار لا إجبار يجرى عليها الحساب ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

- وتأمر بالاستعاذة قبل البدء في تلاوة القرآن.. كما تأمر بالحذر من الردة برضا واختيار وإلا فلا حساب على الاكراه في ذلك.

- وأخيراً تحدد أسلوب الدعوة للإسلام بالحكمة والدليل لكل عالم، وبالموعظة الحسنة لعامة المسلمين، وبالجدال العقلاني الحسن لكل مشرك أو مرتاب.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ تكرار وتعداد النعم الكثيرة لاستثارة العقول للإيمان والالتزام.

٢ ـ تأكيد مسئولية الإنسان عن اختيار الهدى أو الضلال وبالتالي دخول الجنة أو النار.

٣ ـ وتأكيد أن مسئولية الإنسان المؤمن تسقط عند إجباره على الردة والكفر.

٤ ـ وحصر أسلوب الدعوة في العهد المكي بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال الحسن، وأن هذا الأسلوب يستمر مع العهد المدني للأفراد والأحزاب الإسلامية ولكنه يتغير للدولة وتطبيقها وحمل رسالتها بالجهاد والدعوة والدعاية.. وإلا فالعقاب ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ فهو جزء من عمل الدولة في العهد المدني وإن كان الصبر فيه يبقى جزءاً من أهمية ذلك لما تقتضيه مصلحة الإسلام ودعوته.

سورة الإسراء (١٧)

التقديم

سورة الإسراء مكية إلا ثلاث آيات ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ و﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ و﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾، وتقع في مائة وإحدى عشرة آية، وتشتمل على الأمور التالية:

تبدأ السورة بتنزيه المولى سبحانه لنفسه من كل نقص وسوء عندما أسرى بعبده محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس حيث بارك بلاد الشام كلها من حوله، وأن الإسراء كان على دابة البراق، وأنه عليه وآله وصحبه السلام بعد أن صلّى بمن جمع له من النبيين عرج به إلى السماء، وكل

ذلك بروحه وجسده لا بروحه فقط لأن النص ﴿أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ وإن قال بعضهم بالروح فقط، وأن ذلك قد تم في ليلة سبع وعشرين من ربيع الآخرة قبل الهجرة بسنة واحدة.

وأنه سبحانه كما كرم رسوله محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بالإسراء والمعراج كرم موسى عليه السلام بكتاب التوراة الذي كان هدى لبني إسرائيل، الذين جاءوا من ذرية نوح عليه السلام، والذين على علم بأن أجدادهم قد أفسدوا في الأرض مرتين، فعانت بلاد الشام وبيت المقدس بالذات من أذاهم وبغيهم وطغيانهم، فقضى عليهم (بختنصر) البابلي في المرة الأولى، ولما تابوا ورجعوا لطاعة الله تعالى نصرهم الله عندما قتل داود عليه السلام جالوت، ولكنهم عادوا للإفساد ثانية وقتلوا من قتلوا من الأنبياء، كما فعلوا في المرة الأولى، فسلط الله عليهم ملك الروم قيصر فسباهم وقتلهم وأخذ أموالهم ونساءهم، ثم تابوا فجعل الله منهم الملوك وكثر عددهم، وتوعّدهم بأنهم إن عادوا ثالثة للفساد والإفساد فسيأتيهم بالعقاب، وبالفعل عادوا فأرسل محمداً صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لا لعقابهم ولكن لإنقاذ الإنسانية كافة من شرورهم وشرور الطغيان القيصري والكسروي وأمثالهما من الأرض، فكان ما كان بينهم وبين المصطفى محمد عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام.

ثم تؤكد السورة لليهود ولمشركي العرب وللناس كافة أن القرآن المنزل على محمد عليه وآله وصحبه السلام هو كتاب الهدى والبشارة للمؤمنين به الصالحين بينما العذاب الشديد للكافرين به، وأن على الإنسان أن يتوجه بالعبادة والدعاء لله تعالى وحده ليكون على الخير كله وألا يتعجل بالدعاء والعبادة فيقع بالكفر، وما دعاء الإنسان على نفسه وولده عند الضجر إلا نموذج من التعجل، فليقبل على طاعة ربه وعبادته، وليذكر أن الله تعالى قد وضع بين يديه علامتين من الليل والنهار على وحدانيته وكمال قدرته وعلمه عندما جعل النهار منيراً ليسهل عليه السعي طلباً للرزق وجعل الليل مظلماً ليسكن للراحة من وعثاء الكد والعمل في النهار، وأن بتتابعهما يتمكن الإنسان من معرفة عدد السنين وحساب منافعه ومصالحه.

كما ليذكر أن الإنسان محاسب يوم القيامة على أعماله في الدنيا، وأنه إذا اتبع الهدى فخير ذلك لنفسه، وإذا سار على الضلال فشر ذلك على نفسه، وأن أحداً لا يحمل إثم أحد، وأن الله تعالى لا يعذب أمة دون أن يرسل إليها رسالة ورسولاً فتعرض وتفسد فيحل عليها العذاب جزاء وفاقاً.

كما ليذكر أن مثل هذا العذاب لا يحل بأمة إلا بعد أن يتسلط عليها شرارها ويعيثوا في الأرض فساداً، وعندها يحل بها الدمار، وأن هذه هي سنة الله تعالى في

خلقه منذ عهد نوح عليه السلام، فاذكروا ذلك يا كفار مكة وخافوا عذاب ربكم قبل أن يحيق بكم.

واذكروا أن من قصر همه على الدنيا فإن الله تعالى وسع على من يشاء منهم رزقه وانتهى به إلى جهنم في الآخرة، وأما من قصد الآخرة وأعد لها كل الأعمال المناسبة من إيمان وطاعات، فإنه ينتهي إلى الجنة، فالمولى عز وجل يعطي طلاب الدنيا كما يعطي طلاب الآخرة، مع التفضيل فيما بينهم والتأكيد لهم بأن نعيم الآخرة أكبر وأفضل مهما توفر لهم منه في الدنيا، فعليهم أن يعملوا له بتوحيد الله تعالى وطاعته.

وتعقب السورة على الأمر بالإيمان والطاعة بأول أمر توجبه على المؤمنين ألا وهو الإحسان للوالدين مع عبادة الله وحده، وأن يتذكروا أن هذا الإحسان تشتد حاجة الوالدين إليه عندما يكبران فتثقل مسئولية رعايتهما على أولادهما، فتنبههم للحذر الشديد من الضجر منهما مهما تكلفا في ذلك من مشاق، وأن يحرصوا على مخاطبتهما باللين واللطف ويتجنبوا النهر والعنف، وأن يواصلوا الدعاء إلى الله تعالى لهما بالرحمة جزاء التربية السليمة في الصغر، وأن يستحضروا في نفوسهم إحاطة علم الله تعالى بما فيها من صدق النية في برهما والدعاء لهما.

ويلي الوالدين صلة الرحم ثم التصدق على المساكين وأبناء السبيل بشرط عدم الإنفاق تبذيراً في غير حق، وأنه إذا عجز المسلم عن الصلة والتصدق بماله فلا يترك من يستحق ذلك دون تطمينه بأن الإعراض عنه ليس لاستهانة ولا لتكبر وإنما لعجز، وأنك بالقول الحسن وبسط العذر ترضي النفوس.

ولكن من ناحية أخرى إياك أيها المؤمن المسلم من البخل إذا فتح الله عليك من رزقه فأعط كل ذي حق حقه، كما إياك من الإنفاق دون حق، وبالخروج إلى الحرام، وبعدم الاقتصاد والادخار المعلوم، لئلا تندم.

واعلم أن ربك سبحانه يوسع الرزق أو يضيقه بقضائه وقدره على عباده، وهو أعلم بهم، ولذلك إياكم أن ترتكبوا جريمة قتل أولادكم بحجة الفقر والخوف منه، فهو سبحانه يرزقهم كما يرزقكم.

كما إياكم أن تقتربوا من جريمة الزنى مهما كان المبرر، ومن جريمة قتل الإنسان دون حق، واعلموا أن لولي المقتول الحق بقتل من قتله.

كما إياكم أن تقتربوا من جريمة أكل مال اليتيم دون حق حتى يبلغ الرشد، فإذا بلغه فادفعوا إليه ماله دون إفراط ولا تفريط، كما إياكم أن تنقصوا الكيل والوزن إذا كلتم أو وزنتم، وإياكم أن تتبعوا ما لا علم لكم به ولا يعنيكم أمره سواء باستخدام الحدس

والظن أو غيره لأنكم مسئولون يوم القيامة عن كل ما قصدتم سمعه ورؤيته ووعيه، وإياكم والكبر في المشي في غير الحرب.

واعلموا أن هذه الأوامر والنواهي هي كلها مما أوحى الله تعالى به إلى رسوله محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ليبلغه لكم لتلتزموا به، فاستجيبوا له وأقبلوا على توحيد الله تعالى في الإيمان والعبادة والطاعة، وتذكروا أن ربكم عز وجل لم يعط لكم البنين من دونه ولم يجعل البنات مشتركة بينكم وبينه كما تزعمون فتقعون في الإثم العظيم.

واذكروا أيضاً أن الله تعالى قد كرر بيان الأمثال والعبر والأحكام في القرآن لتحفظوها وتعملوا بها وليس لتنفروا منها وتبتعدوا عنها.

وهنا تعقب السورة بدعوة الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام ليحتج على أولئك المشركين وأمثالهم إلى يوم الدين بأنه لو تعدد الآلهة كما يزعمون فكان هناك آلهة أخرى غير الله سبحانه فإنهم سينازعونه ملكه، والله تعالى بريء من هذا الإفك المبين.. كيف لا والسموات السبع والأرض ومن فيهن يسبحن له تعالى وينزهنه عن هذا الزعم كله، كما ينزهه عن ذلك كل شيء وإن كان البشر لا يعلمون كيفية هذا التنزيه والتسبيح.

ثم تخبر السورة أمته عليه وآله وصحبه السلام إذ تخبره أن الله تعالى يحجبه عمن يريد إيقاع الأذى به من المشركين عندما يقرأ القرآن عليهم، وأنهم بإصرارهم على الكفر لا يحاولون إدراك معاني القرآن ولا الاستماع الواعي له ولا مجرد الإقبال عليه عندما يسمعون ذكر الله في آية من آياته، وأنهم في استماعهم لك يا محمد يتغامزون فيما بينهم بالطعن بك أنك مجنون وأنك ساحر بل إنك مسحور وذلك لينفروا الناس منك وعنك، فانظر إلى مزاعمهم الكاذبة وإلى إصرارهم على الضلال وبعدهم عن سبيل الحق.

وانظر إلى قولهم وهم ينكرون البعث بعد أن تكون أجسامهم قد بليت وانتهت إلى شيء من العظام والتراب، فقل لهم يا محمد بأن يكونوا حجارة أو حديداً إن استطاعوا، وليعلموا بأنهم حتى لو كانوا كذلك فإن الله سيبعثهم يوم القيامة بعد أن خلقهم أولاً، وسترى كيف يسخرون منك وهم يستبعدون وقت حدوثه، ولذلك أكد لهم بأنه حتماً سيقع فهو قريب، وذلك عندما تدعون إلى المحشر بالصيحة الثانية فتلبون النداء وفي ظنكم أنكم قضيتم فترة قصيرة بين النفخة الأولى والثانية ولكنها أربعون عاماً.

ولذلك قل يا محمد لعباد الله المخلصين أن يردوا الشتم والأذى باللطف لا العنف، وليذكروا أن الإفساد من عمل الشيطان فلا يستجيبوا لنوازعه، كما ليعلم أولئك المشركون بأن الله تعالى عالم بما يطوون وما يظهرون من الشرك والإفساد، وأنه

تعالى قادر إن شاء بقضائه وقدره أن يوفقهم للدخول في الإسلام وشمولهم برحمته كما هو قادر على إيقاع العذاب بهم مع استمرارهم على الشرك والأذى، ولكنه سبحانه اقتضت سنته في خلقه وقد وهبهم قدرة الاختيار لتحمل مسئولية ذلك، وأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام لا يملك أن يمنعهم من الكفر ولا يفرض عليهم الإيمان.

وأنه جل وعز أعلم بهم هم وكل من في السموات والأرض وقد خلقهم مختلفين في صورهم وأرزاقهم وآجالهم، كما أنه تعالى قد فضل بعض الأنبياء على البعض الآخر، وأنه تعالى قد فضل داود عليه السلام بكتاب الزبور الذي أنزله عليه عمن لم يعط كتباً من الأنبياء.

وقل يا محمد لقريش التي ابتليت بالقحط أن يدعوا من يعبدونهم من دون الله تعالى ليكشفوا عنهم القحط، وأن عليهم أن يتأكدوا بأن هذه الآلهة المزعومة لا تملك كشف هذا الضر عنهم ولا تحويلهم من الفقر إلى الغنى، وأن عليهم أن يعلموا بأن هذه الآلهة المزعومة، سواء كانت ملائكة أو جناً، هي تبتغي التقرب إلى ربهم ويحذرون منه ويخافون عذابه.

وأعلمهم يا محمد بأن كل أمة من الأمم صالحة كانت أو طالحة ستهلك قبل يوم القيامة، فالصالحة بالموت والطالحة بالعذاب، فليتق هؤلاء المشركون مثل هذا العذاب قبل أن يحل بهم، وأعلمهم أيضاً أن المانع من إرسال الآيات التي اقترحوها هو التأكد من تكذيبهم بها، وعندها سيحل بهم الهلاك كما فعل بمن كان قبلهم، وسنة الله تعالى قد اقتضت تأجيل العذاب المدمر إلى يوم القيامة، وليذكروا أن ثمود، قوم صالح عليه السلام، قد اقترحوا آية أو طلبوها فجاءتهم فعقروها فظلموا أنفسهم فحق عليهم العذاب، فليحذر كفار قريش ذلك وليكفهم عبرة تخوفهم بما حل بمن كان قبلهم من الدمار والهلاك.

وتواصل السورة مخاطبة الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام فتخبره بأن الله سيهلك أهل مكة، سواء بما حصل بالفعل يوم بدر ويوم الفتح أو بما يعلمه منهم ويقدر عليهم، ولكن سنته اقتضت عدم إهلاكهم إلا بقدر، كما اقتضى أمره حماية وعصمة الرسول عليه وآله وصحبه السلام منهم.

واعلمهم يا محمد بأن رؤية العين التي أريتها ليلة أُسري بك إلى بيت المقدس قد جعلت اختباراً للناس، ولذلك ارتد قوم كانوا أسلموا حين أخبروا بالإسراء، كما أن ذكر شجرة الزقوم الملعونة قد جعل فتنة لأولئك المشركين الذين أخذوا يهزءون من الزقوم

بأنهم لا يعرفونه إلا التمر والزبد، وأن عليهم أن يخافوا من ذلك لا أن يزدادوا كفراً على كفر.

وذكرهم يا محمد بقصة إبليس اللعين عندما أمره ربه تعالى بالسجود لآدم مع الملائكة ولكنه رفض مدعياً بأن خلقه من نار أفضل من خلق آدم من التراب، مع أن هذه الجواهر كلها متماثلة، ولكن هذا اللعين قد تمادى في غيّه، وقد خلقه تعالى قادراً على الاختيار كما هي حال البشر، وأعلن بإصرار على الكيد لآدم وذريته من بعده وإغوائهم وإضلالهم إلا عباد الله المخلصين والذين اختاروا الهدى ورفضوا الضلال فإنه لا يملك القدرة على إغوائهم وإضلالهم.

وذكّرهم بحكم الله تعالى في إبليس اللعين ومن تبعه من البشر على الكفر والضلال بأن مصيرهم إلى جهنم جزاء محقاً مهما استطاع من استفزازهم وإضلالهم وغوايتهم بصوت كل داع إلى المعصية، وبوسوسته في تسهيل المتع والشهوات المحرمة، وبحشد كل ما يمكنه من المكائد لكل راكب وماش، ومشاركته لهم في إنفاق الأموال في المعاصي، وفي إنجاب الأولاد بالزنى أو بعدم ذكر الله عند الجماع، وفي التغرير بهم بالأماني والوعود الكاذبة.

وأعلمهم أن إبليس اللعين ليس له أي تأثير على المؤمنين إذ يحفظهم الله من كيده وسوء مكره.. وذكّرهم بنعمة أخرى من نعم الله تعالى عليهم عندما يسوق السفن في البحر بالريح اللينة فيصلوا بها إلى مطلبهم من فضل الله من التجارات المتنوعة.. وذكرّهم بما يصدر عنهم من الإعراض عن ربهم الذي ينجيهم من الغرق في البحر بعد أن ينجيهم، وبأن الله تعالى قادر على أن يخسف بهم البر الذي يصعدون إليه بعد النجاة من البحر أو أن يهلكهم بريح ترميهم بحجارة صغيرة تقضي عليهم، وبأنه تعالى قادر على أن يثير الريح الشديدة عليهم عندما يعودون إلى البحر في رحلة أخرى فيغرقهم بكفرهم دون أن يجدوا ما يمنعهم من ذلك.

واذكروا يا بني آدم ما أنعم الله تعالى به عليكم عندما منّ عليكم بتكريمه لكم على سائر مخلوقاته على الأرض ويسّر لكم سهولة الحركة والتنقل في البحر والبر، كما خصكم بأنواع شتى من طيب الأرزاق، وفضلكم على الكثير ممن خلق بالنطق والتمييز بالذات وسخر لكم سائر المخلوقات.

واذكروا يوم يدعو المولى عز وجل كل أمة منكم يوم القيامة بنبيّهم وكتابهم فيأتي حملة الكتب بأيمانهم وهم مستبشرون وهم يقرؤون كتبهم وقد وجد كل منهم كامل ما عمل دون أن يلحقه أدنى ظلم أو نقص، بينما يأتي حملة الكتب بشمائلهم وهم عمي عن

رؤية ما في كتبهم لأنهم أصروا على عدم رؤية الحق في الدنيا فكانوا كذلك في الأخرى.

واذكر يا محمد ما حاوله كفار قريش عندما منعوك من استلام الحجر الأسود أثناء طوافك إلا أن تلم بآلهتهم فحدثتك نفسك بذلك فأبى عليك ربك ذلك، وطلبوا منك أشياء أخرى ظننت ألا شيء فيها إذا استجابوا لدعوتك فمنعك منها كلها ربك لأنهم كانوا سيفتنونك بها عن حكم القرآن فتقع في مخالفته وتختلق على ربك غير ما أوحى به إليك، ولكن ربك قد ثبتك على الحق وعصمك من موافقتهم مع أنك كدت تميل إليهم ميلاً قليلاً، مما يشير إلى لزوم المسلمين لكامل أحكام الإسلام، ومما يشير إلى أن مسئولية الرسول عليه وآله وصحبه السلام المضاعفة كرسول تجر عليه مضاعفة العقاب.

كما واذكر أنهم دعوك لترك مكة واللحاق بأرض الشام، أرض النبوات، عندما قال لك أهل مكة واليهود بالخروج إليها فيؤمنوا لك، ولكن الله تعالى أمرك بالهجرة فخرجت ليثرب لا إلى الشام، ولو خرجت منها إلى الشام لأنزل الله بهم عقابه بعدك فوراً وقد أخرجوك ولم يؤمنوا لك، وأن هذه هي سنة الله تعالى في كل من سبقك من الأقوام وهي السنة التي لا تتبدل ولا تتغير.

فعليك يا محمد أن تصبر على مكائد المشركين والكفار جميعاً وتحافظ على الصلاة بفروضها الخمسة: الظهر والعصر والمغرب والعشاء، مما تشمله فترة الدلوك أي زوال الشمس إلى عتمة الليل، وصلاة الفجر التي خصها بالذكر بقرآن الفجر لكثرة ما يقرأ فيها منه، كما عليك بالتهجد في الليل بصلاة نافلة زائدة لك عن المفروضة لأن في ذلك جزاء المقام المحمود، مقام الشفاعة للناس يوم القيامة، لك من دون غيرك من النبيين، كما عليك بدعاء ربك أن يميتك إماتة صدق ويبعثك يوم القيامة مبعث صدق، كما يكرمك بكل ما يرضاه لك في المدخل والمخرج، وفي كل الأمور، وأن يجعل لك الحجة الثابتة والنصر الأكيد، كما عليك أن تعلن بملء فيك بأن الاسلام والقرآن والنصر كلها قد جاءت، وأن هزيمة الشرك والشيطان وأعوانه كلها قد بات حقاً وصدقاً، وأن ما ينزله تعالى من القرآن يحقق شفاء المؤمنين به من الأمراض كلها البدنية والنفسية والاجتماعية إذ يحقق لهم الرحمة والعدل والخير في جميع جوانب حياتهم الفردية والمجتمعية، وأنه لايزيد المشركين والكافرين إلا خسارة لتكذيبهم به وإصرارهم على الباطل.

وانظر إليهم وهم يعرضون عن تدبر آياته ويكفرون بنعمه وأنهم عندما تحل بهم شدة من فقر أو سقم يسيطر عليهم اليأس، فقل لهم ليعمل كل منهم على ما يشاكله ويراه

أولى بالصواب، فالكافر على كفره والمؤمن على إيمانه، ولن يغيب شيء من ذلك عن ربهم العالم بالمتبع للهدى من السائر على الضلال.

واذكر يا محمد وهم يسألونك بدافع من اليهود عن الروح، عن سر الحياة، لا طلباً للإيمان وإنما للتعجيز، فأجبهم لترى صدق موقفهم بأن الروح سر من أسرار ربك وأنه تعالى لم يعطه لأحد من خلقه، واعلم يا محمد بأن الله تعالى لو أراد أن ينزع منك كل ما أوحى به إليك من القرآن لفعل وبعدها لن تجد معيناً يرده إليك، وأن رحمة ربك وفضله الكبير عليك من جعلك سيد ولد آدم هو الذي يبقيه عليك ويمنحك ذلك كله.

وقل لكفار مكة ومن على شاكلتهم إلى يوم القيامة من المكذبين المعرضين عن الإيمان بأنهم لو اجتمعوا هم وكل البشر مع كل الجن لكي يأتوا بما يماثل هذا القرآن فإنهم لن يستطيعوا ذلك أبداً مهما تعاونوا وتساندوا على ذلك، وليعلموا أن المولى عز وجل قد ضمّن القرآن كل قول فيه الاعتبار من الآيات والأحكام والقصص وغيرها ولكن أكثرهم أبوا إلا الكفر به واتباع أهوائهم وكفر آبائهم.

وانظر يا محمد إلى عنادهم وإصرارهم على الباطل وهم يرفضون الإيمان بالقرآن، والدخول في الإسلام إلا إذا حققت لهم مطالبهم من تفجير الينابيع والعيون في أراضيهم، ومن أن يكون لك ما يدل على فضلك وتميزك من بساتين النخيل والعنب مع الأنهار الجارية فيها، ومن أن تسقط عليهم قطعاً من السماء بالعذاب الذي تهددهم به، ومن أن يروا بأعينهم المولى سبحانه وجموع الملائكة ينزلون عليهم، ومن أن يكون لك بيت مزخرف مزين لا أن تكون فقيراً، ومن أن تصعد إلى السماء لتنزل إليهم بكتاب يقرؤونه.

فرد عليهم وعلى كل مطالبهم يا محمد بأن الله تعالى لا يعجزه شيء من مطالبهم ولا غيرها، وأنه لا يعترض عليه في فعل، وقل لهم بأنك ما أنت إلا بشر رسول تتبع ما يوحى إليك من ربك، وأنه تعالى يفعل ما يشاء، والتدبير تدبيره والأمر أمره.

واعلم يا محمد أن المانع لهؤلاء المشركين من الإيمان ما هو إلا زعمهم بأن الله سبحانه أجلّ من أن يكون رسوله من البشر، وتجاهلوا أن الملائكة لو كان منهم على الأرض لأرسل الله إليهم ملكاً رسولاً، فالرسل من نوعية من يرسلون إليهم، وقل لهؤلاء الكفار الذين يطلبون منك شاهداً على رسالتك بأن الله شاهدك وكافيك وهو الخبير البصير بكل خلقه، وهو القادر أن يكره الناس على الهدى والضلال ولكنه سبحانه جعل لهم الاختيار وقدرهم عليه، وأنه لذلك سيحشر من يختار الضلال ويرفض رؤية الهدى واتباعه على ما يستحقونه من العمى والبكم والصمم وفي جهنم وسعيرها المتزايد، وأن

ذلك جزاء كفرهم وإنكارهم البعث يوم القيامة وتجاهلهم أن خالق السموات والأرض قادر على خلق أمثالهم، وأن عليهم أن يعلموا بأن موتهم وبعثهم لا شك فيهما مهما أبوا وكفروا بذلك.

وقل لهم بأنهم لو ملكوا خزائن الأرزاق والنعم لبخلوا عن الإنفاق منها لشدة تمسكهم وتعلقهم في الدنيا، وأن هذا هو ديدن المشركين بخاصة والناس بعامة.

واسأل يا محمد بني إسرائيل عندما جاءهم موسى بالآيات التسع: العصا واليد والسنين والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ماذا فعلوا، فلعل المجاورين يعرفون صحة ما تقوله لهم، وأخبرهم كيف رد فرعون على موسى بأنه ساحر، وحصل ما حصل، وقال له موسى نتيجة لذلك كله بأنك يا فرعون قد علمت بأن الله تعالى رب السموات والأرض هو وحده الذي أنزل كل هذه الآيات التي تدل على قدرته ووحدانيته، وأنك يا فرعون ستهلك لإصرارك على الإنكار والاستكبار، وكيف أن فرعون تصدى بعدها لموسى وقومه ليخرجهم من أرض مصر فأهلكه الله عز وجل بالغرق وأسكن قوم موسى في أرض الشام ومصر، وأخبرهم بأنه متى حان مجيء يوم القيامة بعثوا من قبورهم مختلطين مع غيرهم من كل موضع.

فأعلمهم يا محمد، وأعلم مشركي وكفار كل زمان، بأن القرآن الذي ننزله عليك قد أنزلناه بالحق والصدق واليقين وأن ما فيه هو الحق والصدق واليقين، وأنك تبشر المؤمنين منهم بالجنة ونعيمها وتنذر الكافرين منهم بالنار وجحيمها.. وأن المولى عز وجل قد أنزله عليك طيلة الثلاث والعشرين سنة منجماً مفرقاً لتبلغه للناس على مهل وطيلة هذه المدة ليثبت في العقول والنفوس ويلتزموا بجميع أحكامه.

فقل لهم يا محمد، وقل للبشرية جمعاء، عليكم بالإيمان بهذا القرآن، فهو خير لكم في الدنيا والآخرة، والأمر إليكم، فإن لم تؤمنوا فذلك عائد عليكم، وتأكدوا بأن من لديه العلم بكتب الله من قبل نزول القرآن، وظهور النبي محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وبالذات من مؤمني أهل الكتاب، فإنهم ما أن يتلى عليهم هذا القرآن حتى يسجدوا وهم يرددون التسبيح لله تعالى، والإقرار بأن وعد الله عز وجل بالبعث والحشر والحساب والجنة والنار هو وعد لاشك فيه.. وأنهم لا يكتفون بالسجود والتسبيح والإقرار وإنما أيضاً يستغرقون مع الخشوع والضراعة في البكاء.

فقل لهم يا محمد، وبالذات لمشركي قومك، بأن يدعوا الرحمن أو الرحيم أو غيرهما من أسمائه الحسنى، فكلها أسماء لمسمّى واحد، واحرص يا محمد في صلاتك

على ألا ترفع صوتك جهورياً ولا أن تخفضه خفوتياً واجعله بين الأمرين حيث تسمع نفسك ومن حولك فقط حتى تتجنب تعرضهم لك بالشتم والطعن.

وقل يا محمد لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، ولمشركي العرب، بأنك تحمده تعالى الذي لا ولد له، كما يزعمون، وأنه لا شريك له في ملكه ولا في عبادته، كما يدعون، وأنه تعالى لم يمالئ أحداً ولا ابتغى نصر أحد لا من اليهود ولا النصارى ولا من غيرهم، وأن تعلن وتتابع تكبيره تعالى على كل شيء في صلاتك وعبادتك وسائر طاعاتك.. فالله تعالى لا يحتاج عون أحد لأنه القادر على كل شيء، وهو سبحانه لا يطلب النصر من أحد بل الكل يطلب النصر منه.. فاللهم نصرك.. نصرك.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾

بدأت السورة بتنزيه الله تعالى وتبرئته من كل نقص بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام رداً على معنى (سبحان الله) إذ قال: «تنزيه الله من كل سوء»، ثم أشارت لقدرته تعالى على كل شيء ومنها الإسراء بعبده محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ببدنه وروحه ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ لا بروحه فقط، كما قال بعضهم، بأن صحبه جبريل عليه السلام في ليلة السابع والعشرين من شهر ربيع الآخرة قبل الهجرة بسنة واحدة، صحبه على البراق «دابة أبيض.. ركبته حتى أتيت بيت المقدس» كما قال عليه وآله وصحبه السلام «ثم دخلت المسجد وصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال: اخترت الفطرة.. ثم عرج بنا إلى السماء..» الحديث.

فبعد الإسراء لبيت المقدس والصلاة فيه عرج به عليه وآله وصحبه السلام بصحبة جبريل عليه السلام إلى السماء حيث فرضت عليه الصلوات الخمس عدداً والخمسين أجراً، فكان بيت المقدس مباركاً ليس بمسجده فقط ولكن بما حوله، أي بلاد الشام كلها بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام «يقول الله تعالى يا شام أنت صفوتي من بلادي وأنا سائق إليك صفوتي من عبادي»، وكان أن أراه الله تعالى في إسرائه الكثير من

العجائب التي أخبر بها الناس، وأراه الكثير من الأنبياء في معراجه ممن وصفهم واحداً واحداً.

ثم تنقلنا السورة لربط تكريم محمد عليه وآله وصحبه السلام بما كرم به سبحانه وتعالى رسوله موسى عليه السلام وما فعله قومه اليهود من الإفساد في الأرض فتقول:

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾

مبينة أن المولى عز وجل قد كرّم محمداً صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بالإسراء والمعراج كما كرم موسى عليه السلام بكتاب التوراة الذي أنزله هدى لبني إسرائيل وذلك لكي لا يتخذوا غير الله تعالى كفيلاً يتولاهم ويكفيهم، وأنهم جاءوا من ذرية نوح عليه السلام الذين نجوا معه من الطوفان مما يفرض عليهم ألا يشركوا بالله ويلتزموا الإيمان كما التزم من كان مع نوح عليه السلام الذي كان عبداً صادق العبودية لله، وكثير الشكر لأنعمه عليه، مما يجعلكم يا بني إسرائيل أحق بالاقتداء به دون آبائكم الجهال.

ثم تخبر السورة المصطفى محمداً صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بما كان من بني إسرائيل من الإفساد مرتين واستكبارهم عندما خرجوا عن تعاليم التوراة وحرفوا وبدلوا في أحكامها لتتناسب مع أهوائهم، وعانت أرض الشام وبيت المقدس من إفسادهم الشيء الكثير عدما تكبّروا وبغوا في الأرض ومارسوا من الطغيان والتعالي والعدوان على الناس الشيء الكثير، وأن الله تعالى قد حذرهم من عاقبة ذلك الطغيان والإفساد ولكنهم لم يرعووا ولم يحذروا فبعث عليهم أهل بابل بقيادة بختنصر بعد إفسادهم في المرة الأولى، فطاف البابليون ديارهم قتلاً وسلباً وتدميراً مما استحقوه من الخزي والعقاب لمدة طويلة حتى أنقذهم (قوروش) ملك فارس المجوسي وأعادهم إلى بيت المقدس.

ومع عودتهم إلى الله تعالى بعدها وقتل داود عليه السلام لجالوت وتوبتهم فقد أمدهم تعالى بالأموال والبنين وكثّر عددهم حتى فاقوا أعداد عدوهم فصلحت أحوالهم جزاء من الله تعالى لهم على عودهم إلى الطاعة.

ثم بيّن لهم المولى عز وجل أن من يحسن في أعماله وطاعته فإنه يحسن لنفسه وأن من يسيء في ذلك فإنما يسيء لنفسه إذ عاقبة الأمرين عائد عليه، وبالرغم من ذلك عادوا إلى الفساد والإفساد فسلط الله عليهم ملك الروم قيصر فغزاهم في البر والبحر، وسباهم وقتلهم وأخذ أموالهم ونساءهم، وأخذ حلي بيت المقدس التي كان (قوروش) قد أعادها من البابليين، إن صدق التاريخ، فكانت نتيجة المرة الثانية من إفسادهم إعادة السبي والقتل لهم.

وتتحول السورة فوراً هنا لمخاطبة اليهود والمشركين في زمن النبي محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم إذ تتحدث عما كان من شأن آبائهم مع أنبيائهم فتقول لهم بأن الله تعالى بكل تأكيد يرحمهم إذا عادوا للطاعة وأحسنوا التوبة، وأنهم إن عادوا للإفساد كالمرتين السابقتين فإن الله سيعود لعقابهم، وبالفعل فقد بعث تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وانتهى الأمر بهم إلى قتل وتشريد بعضهم وإلزام بعضهم الآخر بدفع الجزية بصغار مقابل الاستكبار الذي مارسوه على عباد الله من قبل، وأن ما ينتظرهم يوم الحساب من عذاب جهنم وافتراش حصير لهيبها الشي الكثير من بعدئذ.. ولكن هل إفسادهم وعقابهم محصور في مرتين أو ثلاثة فقط؟ بالتأكيد لا بدلالة قوله تعالى هنا ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ وبدلالة ما يجري اليوم في فلسطين.. فاحذروا أنتم يا يهود ويا مشركي العرب ذلك.

وتعود السورة لتواصل الحديث عن القرآن وأهله وجزائهم، وغير أهله وجزائهم فتقول:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾

موضحة أن كتاب القرآن الذي أنزله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم فيه الهدى للطريقة الصائبة من توحيد الله والإيمان برسله، وأنه يحمل

البشارة للمؤمنين الصالحين بالأجر الكبير في الجنة والرضوان بينما يحمل الإنذار للكافرين بالعذاب الأليم.

ثم تبين أن الإنسان المشرك سواء كان النضر بن الحارث الذي كان يقول متعجلاً مستهتراً ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢] من باب الاستخفاف والإنكار، أو كان أي إنسان يتعجل فيدعو في طلب المحظور كما يدعو في طلب المباح، أو يدعو على نفسه وولده عند الضجر بما لا يحب أن يستجاب له من مثل: اللهم أهلكه.. فلفظ الإنسان عام يستغرق كل الناس، وأن هذه العجلة هي من طبيعة خلق الإنسان فيعجل بسؤال الشر كما يعجل بسؤال الخير، ولولا أن رسول الله عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام قد ادخر عند الله تعالى عهداً بقوله «.. فأيما مؤمن آذيته أو سببته أو جلدته فاجعلها له كفارة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة» كما طلب من ربه ألا يستجيب دعاء الحبيب على حبيبه، لولا ذلك لما فات أحد من الدعاء على أحد مهما كان قريباً.. وبذلك تحذر السورة من مثل هذه العجلة وتنبه إلى ضرورة الاستغفار والتوبة عندما تقع منه.

وتأتي السورة بعدها لذكر آيات الليل والنهار، وما فيهما من خير للإنسان، وتحذير هذا الإنسان من عاقبة أعماله فتقول:

﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ
وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا (١٢) وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي
عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا (١٣) ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا (١٤)
مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ
حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا (١٥) وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا
تَدۡمِيرٗا (١٦) وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا (١٧) مَّن كَانَ
يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا (١٨)
وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا (١٩) كُلّٗا نُّمِدُّ
هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا (٢٠) ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ
وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا (٢١) لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا (٢٢)﴾

مبينة أن الله تعالى قد جعل الليل والنهار علامتين على وحدانيته ووجوده وكمال

قدرته وعلمه عندما جعل أحدهما يزيد بنقصان الآخر، وبالعكس، وجعل ضوء النهار ليسهل طلب فضل الله ورزقه، وجعل ظلمة الليل ليسهل طلب النوم والراحة والسكون، وليتحقق من تتابعهما قدرة الإنسان على حساب الأزمان، وبين كل شيء مرتبط بذلك من أحكام التكليف من صلوات وحج وزكاة وغيرها، ثم ربط مصير كل إنسان بعمله الذي لايغيب عن الله تعالى منه شيء مهما قل بحيث يقدم له يوم القيامة في كتاب يكفيه به شاهداً عليه ومحاسباً له.

ثم تنبه وتحذر كل إنسان من عمله بأنه إن اختار الهدى فإنما اختار الخير كله لنفسه، وإن اختار الضلال فإنه إنما اختار الشر كله لنفسه، وأن أحداً لن يحمل من آثامه وذنوبه شيئاً، وأن عذاب الله تعالى لن يلحق بأي فرد ولا بأي أمة إلا بعد أن يرسل إليهم رسالة ورسولاً يبلغهم فيعرضوا فيستحقوا العذاب.

وفي هذا دليل على أن الأحكام لاتثبت إلا بالشرع وأن من لم تبلغه الدعوة كمجاهل أفريقية فهو غير مستحق للعذاب.. وأن عذابه وتحقيق وعده بحق الفرد أو الأمة التي أعرضت عن الإيمان والطاعة ما كان ليحصل إلا بعد أن يتولى أمرها وقيادها من سبيله الفسق والظلم من المتسلطين الأشرار فيتبعوا سبل العصيان والطغيان وعندها يهلكهم العزيز الجبار، وأن هذه هي سنة الله في إحلال العقوبة بأمثال هؤلاء من الأقوام التي جاءت بعد قوم نوح عليه السلام، والتي يكفيك يا محمد ربك الخبير بكل ما يصدر عن العباد من أقوال وأعمال والبصير بكل ما تطويه نفوسهم من معتقدات عندما يخبرك بهم وبأنه يعجل ما يريد لمن يريد ممن يطلب الحياة الدنيا ثم يحاسبه على كل أعماله وتكون عاقبته نار جهنم وهو مطرود مبعد من رحمة الله كما هي حال المنافقين الفاسقين والمرائين المداجين، وأما من يطلب الآخرة ويعمل لها بالأعمال اللازمة من العبادات والطاعات وذلك بإيمان صادق فإنه سيقبل عمله كله ويضاعف حسناته.

واعلم يا محمد، ولتعلم البشرية كلها، بأن الله تعالى لا يقصر رزقه في الحياة الدنيا على المؤمنين بل يعطي منه الكافرين أيضاً سواء بسواء، لأن عطاءه ليس ممنوعاً على أحد ممن خلقه، وانظروا كيف فضّل بعض الأشخاص في الرزق، فمنهم المقل ومنهم المكثر، ولكن تبقى الآخرة وما فيها من عطاء أكبر درجات في الجنة وأكبر تفضيلاً عما في الدنيا بحيث لو وسع على الكافر مرة في الدنيا وضيق على المؤمن مرة فالآخرة لا تقسم إلا مرة واحدة حسب أعمالهم، فمن فاته شيء منها لم يستدركه كالدنيا، وعليه فاحذروا أن يجعل أحدكم لله شريكاً وعندها سيبقى لا ناصر له ولا ولياً.

وتأتي السورة بعدها لبر الوالدين وتربط بينه وبين عبادة الله لعظم مكانته عند الله فتقول:

﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾

موضحة أن الله تعالى قد أمرنا وألزمنا ببر الوالدين، وجعله مقروناً بعبادته وتوحيده، وبدليل جعله عليه وآله وصحبه السلام بعد الصلاة، أعظم دعائم الإسلام، وقبل الجهاد في سبيل الله، عندما سئل: أي العمل أحب إلى الله عز وجل؟ فقال «الصلاة على وقتها» ثم «بر الوالدين» ثم «الجهاد في سبيل الله» مع تكرار السؤال: ثم أي؟ وأن من البر بهما ألا يتعرض لسبهما بأن يسب والدي غيره فيسب والديه، ومن البر بهما ألا يعقهما، والعقوق هو مخالفتهما في أمورهما الجائزة لهما إذ البر موافقتهما في ذلك، بحيث تكون محبة الأم والشفقة عليها ثلاثة أمثالهما للأب لبيان ذلك في حديث الرسول عليه وآله وصحبه السلام «أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك» لمن كرر هذا السؤال، إذ لها منزلة الحمل والوضع والرضاع مع التربية بينما الأب يشاركها بشيء من التربية مع الإنفاق، وبحيث لا يقف البر عند الأبوين المسلمين بل حتى لو كانا كافرين إذا كان لهما عهد، وبحيث لا يذهب للجهاد إذا لم يتعين إلا بإذنهما حتى قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لمن أراد الجهاد وعنده والدان «ففيهما فجاهد» وقال له عندما علم أنه أبكاهما: «إذهب فأضحكهما كما أبكيتهما»، وإن كان لا يستأذنهما للجهاد إذا كانا مشركين، وبحيث لا يجوز أن ينسى أن من تمام برهما صلة أهل ودهما بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام «إن من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولّي».

فمتى كبر الوالدان ثقلت مسئولية رعايتهما على أولادهما فاحتُمل وقوع الضجر من ذلك فأمروا بحفظ كرامتهما بعدم التأفف عند طلب حاجة لأي منهما، حتى قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «رغم أنفه، رغم أنفه، رغم أنفه» قيل: من يا رسول الله؟ قال «من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة»، وبحيث لا يضجر الولد ولا يتأفف لمطلب غرض لوالديه، ولا يصدر منه أي قول لهما فيه زجر وغلظة، وأن يكون كلامه معهما كله لين ولطف بمثل: يا أبتاه، يا أماه.. دون تسمية ولا

تكنية.. وأن يحرص على التعامل معهما بشفقة ورحمة وتذلل حتى لا تصدر منه نظرة شزر أو غضب نحوهما، وبحيث يتذكر الولد أنه لا يجزي والده إلا إذا وجده مملوكاً فاشتراه وأعتقه، كما قال عليه وآله وصحبه السلام، وبحيث يدرك الولد معنى أن المولى سبحانه وتعالى قد خص التربية بالذكر ليتذكر شفقة أبويه وتعبهما في التربية، فيزيده ذلك إشفاقاً وحناناً عليهما.

وهذا إذا كانا مؤمنين وأما إذا كانا مشركين فلا يجوز الاستغفار لهما إذا كانا أمواتاً، وأما إذا كانا أحياءً ويرجو إيمانهما فإنه يدعو لهما بالهداية والتوفيق، وبحيث يذكر حديث الرسول عليه وآله وصحبه السلام للولد في مجال الإنفاق على والديه، وضرورة عدم التقصير في ذلك إذا لم يكن لديهما مال «أنت ومالك لأبيك».

ثم تختم السورة هذا الأمر ببر الوالدين بالتنبيه على الأولاد بأن الله تعالى عالم بما تطويه نفوسهم من اعتقاد الرحمة بهما والحنو عليهما أو من جعل ظاهر برهما رياء، وأنهم إذا كانوا صادقين في نية البر بهما فإن الله تعالى يغفر أي فلتة سوء تصرف أو تكلم لأنه تعالى قد وعد بالغفران مع شرط الصلاح والأوبة المتكررة إلى طاعة الله سبحانه وتعالى، فلا يذنب حتى يسارع للتوبة مهما تكرر الذنب والتوبة.

وتواصل السورة التنبيه على العطاء لغير الوالدين من المستحقين لذلك دون إفراط ولا تفريط فتقول:

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ
ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ
قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾
إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ
إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾

فكما راعيتم أيها الأبناء حق الآباء فعليكم بصلة الرحم ثم التصدق على المساكين وابن السبيل بشرط عدم الإنفاق في غير حق، لأنه يكون تبذيراً، ولا تبذير في عمل الخير، كما قال الإمام الشافعي رضي الله عنه، وإنما التبذير والإسراف هو الإنفاق في الحرام ولو لدرهم واحد.

ولكن إياكم أيها الأبناء أن تعرضوا عن الآباء أو أحد ممن ذكر من باب الاستهانة وأنتم أغنياء وقادرون فتحرموهم ولكن يجوز أن تعرضوا عند عجز أو عائق طارئ وأنتم

ترجون من الله تعالى فتح باب الخير الذي تصلون به إلى مواساة السائل أو المحتاج للعون، وبشرط إذا عجزتم تماماً عن ذلك أن تقولوا لهم قولاً ميسوراً مثل: يرزقنا الله وإياكم من فضله.

وإياكم أيها الأبناء، بل كل من لديه قدرة مالية على حد سواء، أن تبخلوا في الإنفاق في حق من الحقوق، ولكن بشرط أن تتجنبوا الإفراط في الإنفاق حتى ينفد ما يملكه أحدكم من المال، وليكن هناك اقتصاد أو ادخار، كما كان الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام يفعل عندما كان يدخر لسنة قادمة لنفقة بيته، كما يشمل النهي عن البسط بحيث يتجاوز المباح إلى المحرم فيقع في التفريط والإسراف، وعندها يتلف ماله بالإفراط ويرتكب الإثم بالتفريط، فيصبح محسوراً منقطعاً عن النفقة والتصرف، من جهة، أو منغمساً في المحرمات، نادماً على ما سلف منه، من جهة أخرى.

واعلم يا محمد بأن الله تعالى يوسع رزقه لمن يشاء من عباده، ويقلله على من يشاء منهم، لأنه سبحانه الخبير بعباده وبما يصلحهم من سعة الرزق أو ضيقه وبما يفسدهم من ذلك، وأنه سبحانه البصير بتدبيرهم ورعايتهم، ولذلك ما عليك أنت ومن تبعك من عباد الله تعالى إلا أن تعطوا صاحب الحق حقه، وتنتهوا عن البسط والصرف الزائد في غير حقه لأن ربكم الذي يأمركم بذلك هو أعلم بمصالح العباد منكم وأبصر بتدبيرهم.

ومن ناحية أخرى إياكم أن تسوّل لكم نفوسكم أيها المؤمنون بالإقدام على جريمة قتل أولادكم خوفاً من الفقر، لأن الله تعالى الذي خلقهم يتولى رزقهم كما يتولى رزقكم معاً، وليس رزقهم عليكم، ولأن مثل هذا القتل فعل متعمد وذنبه كبير.

وتتابع السورة النهي عن منكرات أخرى لها صلة بشكل من الأشكال بالمال وإنفاقه أو الحصول عليه فتقول:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ
وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟
مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟
ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ
عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن

تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾

واحذروا الاقتراب من فاحشة الزنا لأنها طريق إلى النار، كما احذروا ارتكاب جريمة قتل أي إنسان محرم قتله ما دام لا يوجد للقاتل حق في ذلك، لأن المقتول ظلماً لوليه ومستحق دمه الحق في دم القاتل، فله أن يقتل، وله أن يعفو، وله أخذ الدية، والمهم لا يجوز له تجاوز ذلك وقتل غير القاتل، ولا قتل اثنين بدلاً من واحد، ولا التمثيل في القتل، لأن الله تعالى قد نصره بإعطائه هذا الحق كما على وليّ الأمر أن ييسر له الحصول على حقه.

كما احذروا الاقتراب من مال اليتيم إلا باستثماره لمنفعته وعدم الأخذ منه إلا بحقه حتى يبلغ اليتيم أشده ويصبح قادراً رشيداً ومتصرفاً بإحسان في تدبير ماله، وأن ذلك من أمر الله ونهيه الذي يجب أن يلتزم المسلم بالعمل به وإلا سيحاسب عليه في الدنيا أمام ولي الأمر وفي الآخرة أمام الدّيان سبحانه وتعالى، كما عليكم بوفاء الكيل والميزان ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥، هود: ٨٥، الشعراء: ١٨٣]، لأن ذلك خير وأبرك عند الله تعالى.

واحذروا أيضاً ما لا علم لكم به ولا يعنيكم من الأمور باستخدام الحدس والظن بل لابد من الحكم إما بالعلم اليقين أو غلبة الظن وليس مجرد الشك أو الظن الذي يستوي مع غيره، وذلك لأن كل إنسان يسأل يوم القيامة عما اكتسب، فالعقل يسأل عما افتكر به واعتقده، والسمع والبصر عما رأى من ذلك وسمع ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، واحذروا من الخيلاء في المشي والبطر لأنكم مهما فعلتم من ذلك فلن تبلغوا طول الجبال وأنتم عبيد أذلاء ضعاف فلا يليق بكم التكبر المكروه عند الله تعالى.

واذكروا أن هذه الآداب والقصص والأحكام التي نزل بها جبريل عليه السلام هي من محاسن الأخلاق وفضائل الأعمال ومحكم المعاني المطالبين بالتزامها والعمل بها من الله تعالى الواجب عليكم إفراده بالعبودية وإلا فينتهي الواحد منكم إلى جهنم مذموماً مهاناً.

وتتابع السورة هذه الدعوة بتوحيد المعبود بالمزيد من البراهين والحجج فتقول:

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا

ﭐلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ﴿٤١﴾ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ
سَبِيلٗا ﴿٤٢﴾ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن
شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾

فهل أخلص الله تعالى لكم البنين وجعل البنات مشتركة بينكم وبينه؟! فإن قولكم هذا يلحق بكم الإثم عند الله عز وجل فكفوا عنه واذكروا أنه سبحانه قد بين لكم الكثير من البيان والتكرار، وعلى أشكال وأساليب متعددة في القرآن من الأمثال والعبر والحكم والمواعظ والأحكام والإعلام وذلك بقصد استثارة تدبركم، فماذا فعلتم؟ لقد إزددتم بعداً عن الحق وغفلة عن النظر والاعتبار لزعمكم بأنه السحر والشعر والكهانة، فأين عقولكم المبصرة المتدبرة؟!

فقل لهم يا محمد بأنه لو كان مع الله تعالى آلهة أخرى لطلبوا منازعة وقتالاً كما تفعل ملوك الأرض للوصول إليه سبحانه وإزالة ملكه لأنهم شركاؤه، أو أنهم تقربوا إليه لأنهم دونه، وعندها يكونون محتاجين إليه تعالى فيفقدون صفة أنهم آلهة، الأمر الذي يفرض عليهم تنزيهه سبحانه كما ينزه نفسه، وتقديسه وتمجيده وتعظيمه بما يليق به، ذلك لأن السموات السبع والأرض، ومن فيهن كلهن، يفعلون ذلك التسبيح والتقديس، فأين أنتم من عظم ذلك كله؟! وأن شيئاً مما فيهن إلا ويقوم بذلك سواء كان حياً أو جامداً أو سائلاً أو غازياً، فأين أنتم من هذا الخلق الهائل؟! وتأكدوا أنه لولا حلمه تعالى على ذنوبكم في الدنيا لهلكتم فيها قبل الآخرة حيث لا يغفر إلا ذنوب المؤمنين منكم فقط فهلموا إلى ذلك.

وتواصل السورة مخاطبة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بشأن قراءته للقرآن وحال الكفار إن استمعوا إليه فتقول:

﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ
قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ﴿٤٦﴾
نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا
مَّسۡحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا
وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ ۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي

صُدُورِكُمْۚ فَسَيَقُولُونَ من يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾

مخبرة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن زوجة أبي لهب أم جميل بنت حرب التي همت بعد نزول سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ بإيقاع الأذى بك يا محمد ما كانت لتصل إليك هي أو غيرها من البشر، وقد قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم مطمئناً أبا بكر «إنه سيحال بيني وبينها» وهكذا كان فلم تره عليه وآله وصحبه السلام، وأن الأمر لا يقف عند حمايته عليه وآله وصحبه السلام من أذى أولئك المشركين وإنما يصيب عقولهم بالحجب عن فهم ما يصلها، إذا وصلها مع ثقل سمعهم لإصرارهم على الإعراض والنفور حتى من مجرد أن يسمعوا ذكر الله تعالى وتوحيده وبيان قدرته وعلمه.

فتأكد يا محمد أن الله تعالى يعلم ما يستمعونه من القرآن ونفورهم منه بحجة زعمهم أنك ساحر ومسحور، ويعلم ما يتناجون به فيما بينهم من أنك مجنون وساحر وناقل للأساطير، ويعلم أن ما يردده أبو جهل والوليد بن المغيرة وأمثالهما من أنك مطبوب خبلك السحر فاختلط عليك الأمر لينفّروا عنك الناس.

فانظر يا محمد إلى تضارب أقوالهم وعجيب صنعهم وهم يزعمون تارة أنك ساحر وتارة مجنون وتارة شاعر! إنهم يحاولون التفنّن في ابتداع الحيل لصد الناس عنك ولكنهم يقعون في الضلال عن الحق فلا يجدون مخرجاً من تناقض أقوالهم.

وانظر إليهم وهم يتناجون منكرين البعث بأنك لو لم تكن مسحوراً مخدوعاً لما قلت بأنهم بعد أن تتحول أجسادهم إلى عظام وتراب يبعثون ثانية.. فقل لهم لتكونوا حجارة أو حديداً إن قدرتم لتروا أن الله تعالى قادر على إعادتكم كما بدأكم، أو لتكونوا أكبر من ذلك كالسموات والأرض والجبال فإن الله يميتكم ثم يبعثكم، وعندها ستراهم وهم يحركون رؤوسهم استهزاء مستبعدين حصول البعث ﴿مَتَىٰ هُوَۖ﴾ فأعلمهم بأن ذلك واقع حتماً مهما طال في تقديرهم.. وذلك عندما يدعون للخروج من قبورهم للحشر بالصيحة الثانية بعد أن مات الخلق بالصيحة الأولى، وعندها لا يملكون إلا الاستجابة والخروج وألسنتهم تردد حمد الله تعالى وهم يظنون أن الفترة بين الصيحتين كانت قصيرة لأنها أربعون عاماً مرت وهم نيام دون عذاب.

وتنتقل السورة مخاطبة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بشأن المؤمنين ثم المشركين، وتنبيه أولئك لعبث الشيطان وتحذير هؤلاء من الشرك بالرحمن.. فتقول:

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا
﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ
أَعۡلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ
زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ
رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن
قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا
﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ
وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ﴿٥٩﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِىٓ
أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِى ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٠﴾﴾

فقل للمؤمنين من عبادي، من أمثال عمر بن الخطاب الذي نزلت فيه الآية عندما شتمه رجل فهمّ بقتله، أو غيره من المسلمين عامة أن يتجنبوا ما هموا به لأنه من دوافع الشيطان الذي يسعى لإيقاع الفتنة بينهم، وأن يقولوا للكافر عند الشطط: هداك الله! يرحمك الله! وذلك قبل الأمر بالجهاد، وأن يأمروا بما أمر الله به وينهوا عما نهى الله عنه، وليذكروا أن غواية الشيطان وإثارته الفتنة فيما بينهم نابعة من عداوته الشديدة لهم.

واذكروا أيها المشركون أن الله قادر على فرض الإيمان عليكم وبالتالي رحمته بكم، كما هو قادر على إيقاع العذاب بكم لشرككم فوراً ولكنه سبحانه وتعالى قد خلقكم قادرين على الاختيار بين الإيمان والكفر، وأن محمداً لم يرسل وكيلاً عليكم ليمنعكم من الكفر ولا ليجعلكم مؤمنين بل إن ذلك لكم.

واعلم يا محمد بأن ربك محيط بعلمه بكل من في السموات والأرض من المخلوقات، وبمدى استجابتهم للإيمان والطاعات، وإن خلقهم مختلفين في صورهم وأعمالهم، وأنه كذلك فضل النبيين بعضهم على بعض وهو عالم بحال كل منهم، وأنه أنزل على كل منهم من الوعظ والتحميد والتمجيد، كما هو كتاب الزبور لداود، ومن أحكام الحلال والحرام والفرائض والحدود، كما هوكتاب القرآن إليك، وأن عليهم ألا ينكروا ذلك أبداً فلا يقولوا أنزل الزبور ولم ينزل القرآن لأن القادر على ذاك قادر على هذا، وهو أعلم بخلقه ومصالحهم ومنافعهم.

وقل يا محمد لمشركي قريش ممن ابتلي بالقحط واشتكوا إليك ذلك أن يدعوا

معبوداتهم من دون الله تعالى لتكشف عنهم هذا الضر الذي نزل بهم، وسيرون أنهم لا يملكون ذلك كما لا يقدرون على نقلهم وتحويلهم من الفقر إلى الغنى ولا من السقم إلى الصحة.. كيف لا ومعبوداتهم هذه تبتغي القربة إلى ربهم، وتخشى من عذاب الله الواقع بكل تأكيد بمن يستحقه.

وأعلمهم بأن الله تعالى قد قضى في خلقه أن يهلك كل قوم أو أمة قبل مجيء يوم القيامة أو أن ينزل بهم العذاب الشديد، فالأمة الصالحة يأتيها الموت والأمة الطالحة يأتيها العذاب، فلينظروا شأنهم وما ينتظرهم.. وليعلموا بأن الله تعالى يؤخر عليهم العذاب وهو قادر على إهلاكهم كما أهلك من كان قبلهم، وها هي ثمود وقد جاءهم بالناقة بطلبهم فكانت آية واضحة أمام أعينهم ولكنهم أصروا على ضلالهم وباطلهم فعقروها فظلموا أنفسهم بفعلتهم فأخذتهم الصيحة، فهّلا اعتبروا وخافوا من مثل هذه الآية واستجابوا لدعوتك؟!

واذكر يا محمد ما أخبرك به ربك بأنه سيهلك أهل مكة لكفرهم وتعنتهم، وأنه عصمك من أذاهم، فاستمر في تبليغهم الرسالة ولا تخف منهم، واطمئن إلى أن آية الإسراء التي رأيتها رؤيا العين قد اختبرت إيمان المؤمنين فظهر من كان إيمانه ضعيفاً إذ ارتد عنه عندما أخبرتهم بذلك، فلا تأبه بذلك وامض في دعوتك.

واذكر يا محمد أن الشجرة الملعونة في القرآن هي فتنة للناس أيضاً عندما أخذ مشركو العرب يسخرون منها بأنهم لا يعرفون الزقوم إلا أنه التمر والزبد حتى قال ابن الزبعري منهم: كثر الله من الزقوم في داركم! فافتتن الضعفاء بها كما افتتنوا برؤيا الإسراء، وانظر إلى أقوياء الإيمان، من أمثال أبي بكر، وهو يرد عليهم: أين عقولكم؟ أنا أصدقه بخبر السماء، فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس، والسماء أبعد منها بكثير؟! واسمعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وهو يقول لأبي بكر وهو يصدقه على كل وصف لبيت المقدس ويقول: صدقت، أشهد إنك رسول الله، «وأنت يا أبا بكر الصديق» وأنه من يومئذ سماه الصديق.

وتنقلنا السورة بعدها إلى خبر رأس الفتنة، إلى إبليس الذي استكبر على طاعة الله بالسجود لآدم وتخبرنا بمن يستطيع فتنتهم.. فتقول:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ
أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾
قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم

بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

واذكر يا محمد تمادي هؤلاء المشركين وعتوهم على ربهم بقصة إبليس حين عصى ربه وأبى السجود لآدم عليه السلام بحجة أنه خلق من نار وأن آدم خلق من طين، ظناً منه أن النار خير من الطين، وكلها سواء عند الله، و قال بأنه سيضل ذرية آدم ويسيطر عليهم إلا القليل منهم إذا أجل تعالى موته إلى آخر الحياة الدنيا، وذلك لأنه ظن وعلم ما في طبع البشر من ميول وشهوات ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ بناء على قول الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ ووسوس لآدم عليه السلام فوجده ضعيفاً.

واذكر بأن الله تعالى قد أعطاه ما طلب بأن أنظره، وأنه توعده ومن أطاعه من ذرية آدم بجهنم جزاء لهم معداً بانتظارهم، ومنحه فرصة استثارة بني آدم بكل ما يستطيع من الوسائل والأساليب بدعوتهم إلى معصية الله تعالى بتزيين الشهوات لهم بكل ما لديه من الوسوسة والمكائد ليصطاد كل راكب وماش في معصيته تعالى وليجعل لنفسه شركة في أموالهم فيجمعوها بالحرام وينفقوها في الحرام، وفي أولادهم فيأتوهم بالزنى وغيره، من مثل أن ينسيهم التسمية عند الجماع فيجامع معهم، كما قال مجاهد مشيراً إلى قوله تعالى ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ وإلى حديث الرسول عليه وآله وصحبه السلام «إن فيكم لمغرّبين» فسألت عائشة: يا رسول الله، وما المغرّبون؟ قال «الذين يشترك فيهم الجن» فيدخل فيهم عنصر غريب.. كما أعطي فرصة أن يعدهم ويمنّيهم الأماني الكاذبة أنه لا قيامة ولا حساب، وأنكم أولى بالجنة من غيركم إذا وجدت.. فيأتيه يا محمد جواب ربك بأنه لا سلطان ولا تأثير له على عباد الله المخلصين الصادقين المؤمنين، وأنه تعالى حافظ لرسوله وللمؤمنين معه من كيد إبليس وسوء مكره.

ثم تشير السورة إلى بعض الحقائق من قدرة الله تعالى في البحر وما يليه من البر، وما يعدهم تعالى ويتوعدهم فيهما.. فتقول:

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ

وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ
بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي
الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

فانظروا أيها المشركون إلى ما أنعم به عليكم ربكم في البحر إذ يسَّر لكم قيادة السفن بأنواعها وأحجامها عبر البحار والمحيطات طلباً لأصناف كثيرة من المصالح والتجارات، في السلم والحرب، وأنه سبحانه جعلكم تلمسون بذلك لطفه ورحمته بكم.

وانظروا ما يحصل معكم عندما يحيط بكم الضر وتوشكون على الغرق في البحر فإنكم لا تلجأون إلى أصنامكم التي تعرفون أنها لا تعينكم أبداً بشيء في الشدائد وإنما تعودون إلى ربكم حيث انقطعت بكم الحيل، ولكنكم ما أن ينجيكم ربكم من الغرق وتصلوا إلى البر سالمين حتى تعرضوا عن الإخلاص والشكر لربكم الحق وتعودوا إلى كفركم به وإنكار فضله عليكم.

فهل قصّرت عقولكم عن فهم أين خيركم ونفعكم، وهل اطمأنت نفوسكم إلى أن من نجاكم من الغرق والهلاك في البحر بالأمس لا يخسف شاطئ البحر الذي صعدتم عليه سالمين، أو أن يرسل عليكم الريح الشديدة التي تحصبكم بالحصى فتهلككم ولا تستطيعون النجاة بغير عون الله وإنقاذه لكم؟! وهل غابت عنكم الذاكرة أنكم متى عدتم ثانية إلى البحر فإن الله قد يرسل عليكم الريح العاصفة القاصفة فتغرقكم أنتم وسفنكم وتجاراتكم جزاء كفركم وتلاعبكم، وعندها لن تجدوا من ينقذكم ولا من يطالب بدمكم؟!

وهلا تذكرتم نعم الله تعالى عليكم يا بني آدم بما منحكم به من الفضل في البر والبحر والحمل والتنقل في ربوعهما وأقطارهما، وبما رزقكم به من المطاعم والمشارب والملابس وغيرها، وبما فضلكم به على كثير من خلقه تعالى سواء في الصورة أو الميزات من نطق وتمييز، فجعلكم أفضل من البهائم والطيور وغيرها من الدواب بغلبتكم عليها وتسخيرها لكم، وبالثواب والجزاء والجنة والنار لكم دون غيركم.. وأن ذلك كله يظهر جلياً عندما تدعى كل أمة يوم القيامة بكتابها وبرسولها، فتجدون الأمة المؤمنة التي يتناول أفرادها كتبهم بأيمانهم هم الذين يقبلون عليها فرحين مستبشرين بوعد ربهم بنعيم الجنة ودون أن ينتقص من ذلك شيء مهما قل بل يجدوا «مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» في الجنة كما قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم من النعم والخيرات.

وأما من يأخذون كتبهم بشمائلهم فإنهم قد أصروا على عدم رؤية الحق والإيمان في الدنيا، فحكموا على أنفسهم بالعمى، فحق عليهم الجزاء يوم الدين بالعمى وعدم رؤية الجنة ونعيمها وبالضلال عن طريقها ليسيروا إلى طريق جهنم.

وتنقلنا السورة بعدها إلى كيد كفار قريش ضد الرسول عليه وآله وصحبه السلام وذكر ما حاولوه من الفتنة والخروج من مكة، وحماية الله تعالى له، فتقول:

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

مشيرة إلى محاولة قريش أن تمنعه عليه وآله وصحبه السلام من استلام الحجر الأسود إلا أن يُلم بآلهتهم، فهمّ بذلك فأبى عليه تعالى ذلك، فسواء كان هذا أو غيره من مثل طلب زعمائهم طرد ضعاف المسلمين من حوله ليجلسوا هم معه ويسمعوا منه، فإن الله تعالى قد منعه من ذلك الخروج عن حكم القرآن وإعطائهم ما طلبوه مخالفاً لحكم القرآن، والوقوع في الاختلاق على الله تعالى غير ما أوحى به إليه، وأنه لو فعل ما طلبوه منه لاتخذوه خليلاً لهم ووالوه وصافوه.

ولكن ماذا حصل؟ لقد ثبّته تعالى على الحق وعصمه من موافقتهم على طلبهم وإلا فقد أوشك أن يميل لذلك ولو ميلاً قليلاً ولذلك قال عندها عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين»، وأن في ذلك إشارة إلى أمة الإسلام لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين في شيء مخالفاً أحكام الله تعالى وشرائعه، لأنها كأمة لو فعلت ذلك، وقد فعلت وما زالت، لأذاقها تعالى مثلي عذاب الدنيا ومثلي عذاب الآخرة، وما تعيشه الأمة من العذاب بجميع أصنافه من الضعف والهوان والتشتت والتمزق واستخفاف أذل الخلق اليهود بهم لأكبر وأوضح دليل على ذلك، ناهيك عن غطرسة الصليبيين ونهبهم لخيرات البلاد الإسلامية ومكرهم بهم حتى لا تقوم لهم قائمة بحجة الإرهاب والتشدد والأصولية!!

وإلا فماذا يفرض علينا القرآن هنا غير الحذر كل الحذر من البعد عن الوحي الإلهي ولو بعداً قليلاً، وأننا لو فعلنا ذلك لأذاقنا الله مثلي عذاب هذه الحياة الدنيا

الفانية ومثلي عذاب تلك الأخرى الخالدة!! ومن يقدر على تحمل ذلك يا من تتولون أمور المسلمين وتتعاونون مع أعدائهم ضدهم؟!

وتشير إلى محاولة أهل مكة أيضاً أن يخرجوا الرسول عليه وآله وصحبه السلام من مكة، وهو الأرجح، وإن قيل بأنهم اليهود عندما عرضوا على الرسول عليه وآله وصحبه السلام التصديق والإيمان إذا التحق بأرض الشام بحجة أنها أرض النبوات، وهذا احتمال لا يقوى أمام السابق لأن الله تعالى تهددهم بأنهم لو أخرجوه من مكة لما أمهلهم بعذابه، وأنه تعالى أمره بالهجرة عن مكة إلى يثرب فخرج.. وأن إيقاع العذاب بهم كان مع إخراجه عليه وآله وصحبه السلام متطابقاً مع سنته تعالى في حق الأمم السابقة، وأن هذه السنة ما كانت لتتغير ولا لتتخلف في وعده سبحانه.

وذكرت السورة تلوها أمره تعالى لنبيه عليه وآله وصحبه السلام بالصبر والصلاة وطلب النصر على الأعداء.. فتقول:

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴿٨٠﴾ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴿٨١﴾﴾

فعليك يا محمد بالصبر على مكائد المشركين والمحافظة على الصلاة ولا سيما أن فيها طلب النصر على الأعداء، فبالصلوات الخمس المفروضة مما يشمل الدلوك وهو زوال الشمس عن قبة السماء صلاتي الظهر والعصر، ويشمل غسق الليل صلاتي المغرب والعشاء، ويفصح قرآن الفجر عن صلاة الفجر التي خصت بذكر القرآن لاحتمال طول ما يقرأ فيها من القرآن المجهور به والمشهود من الملائكة بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام «تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار».

كما عليك يا محمد بالتهجد في الليل بأن تقوم بعد نوم في الليل وتصلي، وأن صلاة التهجد هذه هي نافلة لك زائدة على الفروض عامة، وأن في التزامك بها مع الفروض وعد من ربك أن يعطيك مقاماً محموداً، وهو على الأصح الشفاعة للناس يوم القيامة، وإن كان للرسول عليه وآله وصحبه السلام شفاعات عدة تندمج في ثلاث هي الشفاعة لعامة الناس ليعجل حسابهم ويراحوا من هول الموقف، والشفاعة الخاصة في

المذنبين بأنواعهم من أهل الإيمان، والشفاعة بدخول الجنة دون حساب وقبل غيرهم وزيادة درجاتهم.. فماذا يستدعي ذلك من كل مسلم؟

إنه يستدعي على كل مسلم أن يسأل شفاعة النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ورغبته فيها، وقد علمنا عليه وآله وصحبه السلام سبيلاً من سبل ذلك فقال «من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً ـ صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ـ الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة».

وقل يا محمد إنك يا رب كما أمتني إماتة صدق ابعثني يوم القيامة مبعث صدق، فأدخلني في المأمور وأخرجني من المنهي، وأخرجني من مكة بأمن وأمان وأدخلني فيها فاتحاً آمناً، وأعطني منك العز والنصر وإظهار الدين على الدين كله، فوعد بملك فارس والروم.

وقل وأنت تدخل مكة فاتحاً ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ وأنه عليه وآله وصحبه السلام قد قال ذلك وكسر الأصنام الثلاثمائة وستين التي كانت حول الكعبة، مما يدل على كسر نصب المشركين وأوثانهم متى غلب عليهم، لأن في ذلك إعلاناً للإسلام والقرآن فوق غيره وإبطالاً للشرك والباطل بعد تعاليه لأنه لا بقاء له وإنما الثبات للحق وحده.

وتنقلنا السورة لذكر القرآن ومعجزته كنعمة على البشرية كلها بما ورد فيه من الشفاء والرحمة، وبعجز البشر كلهم عن الإتيان بمثله، وبأمرهم بالإيمان به ولا يكونون كقوم فرعون وتكذيبهم لكل ما جاء به موسى من الآيات، بل يركعون ويسجدون لله تعالى ويبكون ويدعون.. فتقول:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا
عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ﴿٨٣﴾ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ
بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴿٨٤﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا
﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن
رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا
ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن
كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٨٩﴾ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا

﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ
كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي
ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا
﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ
فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ
بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن
يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ
جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا
وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ
أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ
خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ
بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ
عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ
أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ
فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾
وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟
ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا
﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ
ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي
لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

مبينة مع خاتمتها بأن المولى عز وجل ينزّل القرآن ليكون شفاء وحجة للمؤمنين به، والمطبقين لشريعته، والمحتكمين لحكمه، وأما من يكفر به أو يعيش على غير أحكامه وتشريعاته فلن يعرف الشفاء من الأمراض النفسية والمجتمعية ولا الرحمة بالقوانين والتشريعات الوضعية التي لا تزيد الفرد والمجتمع إلا شقاء على شقاء.

صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم يقول «شفاء أمتي في

ثلاث: آية من كتاب الله أو لعقة من عسل أو شرطة من محجم» فإن هذا في ميدان الفرد وشفائه النفسي بآية من القرآن، وشفائه المرضي العادي بالعسل منفرداً أو مع غيره، وشفائه المستعصي المرضي بشرطة من محجم أو بجراحة مناسبة لذاك المرض، مما يشير إلى الأمراض المتعددة وبأنواعها المختلفة، ولكن أين شفاء المجتمع بكل أفراده وتجمعاته، وأين الرحمة التي تشمل المجتمع بكل أفراده وفئاته والحديث الشريف يذكر شفاء الأمة؟

إنها بتطبيق التشريعات الإسلامية كاملة غير منقوصة على أساس الإيمان بها بأنها أوامر الله ونواهيه الواجبة الالتزام.. وتكون النتيجة أن من يعرض عن هذا القرآن إيماناً وتطبيقاً، سواء كان الوليد بن المغيرة أو غيره ممن لا يحصى عددهم في زماننا وإن تسموا بأسماء المسلمين، فإنه يكون قد كفر بالإسلام وبنعمة القرآن وينتهي به المطاف إلى عدم تحمل صدمات الحياة الكثيرة والانغماس في اليأس لا لشيء إلا لأنه لا يثق بفضل الله تعالى.

ولذلك فإن لكل فرد وكل مجتمع أن يتحمل مسئولية العمل وفقاً لما يؤمن به ويراه أولى بالحق والصواب.. والله وحده يعلم بالمؤمن الحق من الكافر بحق، وأعلم بمصير كل فرد وكل مجتمع ومدى التزامه أو تفلته من الإيمان والطاعات، ولا حاجه لأحد أو مجتمع أن يدّعي الإيمان أو الطاعة وأعماله شاهدة عليه إن كان صريحاً، وهو نفسه خير شاهد على نفسه إن كان باطنياً.

واذكروا إذ سأل اليهود المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم عن الروح، كما سألوه عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، مباشرة أو بواسطة قريش، ليعرفوا صدق رسالته، فأجابهم عليها كما يعلمون فهل آمنوا؟ إنه مجرد الاختبار والتعجيز لا غير إذ أعلمهم القرآن بأن الروح التي هي سر الحياة لا يعلمها إلا الله تعالى، وأما أصحاب الكهف وذو القرنين فقد وضحت سورة الكهف أمرهما.

واذكروا كيف توعدكم ربكم وهو يتهدد رسوله عليه وآله وصحبه السلام وأنتم المعنيون بذلك أيها المسلمون، بأنه تعالى قادر على أن يأخذ منكم الإسلام وأحكامه كلها التي أنزلها على رسوله، ولكنه سبحانه وهو العالم بأن أحداً لن يستطيع منعه من ذلك لا يفعل ذلك من باب رحمته بعباده، إذ منع عنهم العذاب المهلك لهم كأمة، وعن البشرية كلها بعد نزول القرآن وإنما هي الابتلاءات المحدودة بهذا الشكل أو ذاك، وفي هذا المكان أو الزمان أو ذاك، وما ذلك إلا لأن فضل الله كبير على رسوله وعلى أمته وعلى البشرية جمعاء.

ولذلك قل لهم يا محمد بأن الإنس والجن لو تعاونوا فيما بينهم ليأتوا بمثيل لهذا القرآن لغة وأحكاماً ومواعظ وقصص.. فلا يمكن أن يتحقق لهم ذلك مهما تساندوا على ذلك، مما يلزمهم الحجة ويفرض عليهم الإيمان به والتزام أحكامه أمراً ونهياً.. وانظروا إليه وقد أنزل المولى عز وجل فيه من الآيات والعبر والترغيب والترهيب، والأوامر والنواهي، وقصص الأولين، والجنة والنار والقيامة، ما يفرض الاعتبار والإيمان والالتزام.. فهل استجاب الناس لذلك؟ بل أعرض أكثرهم وكفروا بهذه النعمة الجامعة المانعة.

وانظروا إلى رؤساء قريش، ومن على شاكلتهم في كل زمان ومكان، وهم يرفضون الإيمان بهذا القرآن حتى تُفجر لهم العيون والينابيع في مكة وحولها، أو يكون للرسول عليه وآله وصحبه السلام بستان من النخيل والعنب وفيه الأنهر ليتميز عنهم بالغنى بدلاً من هذا الفقر الذي يعيشه، أو أن يسقط ربه عليهم قطعاً من السماء كعذاب مما يتهددهم به، أو أن يأتي بالله سبحانه وتعالى مع الملائكة ليروهم رؤيا العين، أو أن يكون له بيت مزدان بالزخارف والنقوش بدلاً من هذا البيت البسيط الذي لا يتميز على بيوتهم بشيء، أو أن يصعد إلى السماء وينزل معه كتاباً يدل على أنه رسوله.

فقل لهم يا محمد بأنك تنزه الله تعالى عن العجز من فعل شيء من ذلك لو قضى به وحكم، ولكن لو حصل من ذلك شيء ولم تؤمنوا فقد حل عليكم الهلاك، وهذا قد رفع بنزول القرآن، وقل أنك لست بأكثر من بشر منهم مرسل إليهم برسالة القرآن، فقال لهم عليه وآله وصحبه السلام «ذلك إلى الله عز وجل إن شاء أن يفعله بكم فعل».

وتأكد يا محمد أن الناس من قبلك لم يؤمنوا عندما جاءتهم الرسل والكتب من عند الله بالدعوة إليه إلا بعد أن قالوا جهلاً منهم بأن الله أجلّ من أن يكون رسوله من البشر، وكل ذلك من فرط عنادهم وليس تفكيراً في القرآن أو في الكتب السابقة، ولا اعتباراً بما فيها.

فقل لقومك يا محمد الذين يرددون نفس المقولة بأن الله تعالى لا يرسل الملك إلا إلى الملائكة، وأما لو أرسله إلى البشر فإنهم لن يستطيعوا رؤيته على هيئته، وأما الأنبياء فهم الذين أقدرهم الله على ذلك بما خلقه فيهم من الميزات الخاصة بهم، وأنه لو أنزل عليهم ملكاً وكفروا لقضي عليهم.

ورد عليهم يا محمد طلب الشهادة لك بأنك رسول الله بالقول بأن الله تعالى يكفيك شاهداً بينك وبينهم لأنه الخبير بخلقه البصير بكل أقوالهم وأفعالهم.

واعلم يا محمد، وليعلم كل إنسان إلى يوم القيامة، أن من ينزل الله عز وجل لهم

الهداية فهم المهتدون، إذا آمنوا بها والتزموها، وأما إذا أعرضوا ورفضوها فهم الضالون الذين لن يجدوا لهم عوناً من غير الله، والذين سيعجل بهم إلى جهنم، والذين قضوا حياتهم عمياً عما يسرهم، بكماً عن التكلم بحجة، صماً عما ينفعهم، والذين يخلدون في نار جهنم مستقراً لهم يوم القيامة حيث تسعر عليهم باطراد جزاء كفرهم بآيات الله وإنكارهم للبعث وكأنهم لم يدركوا أن الله تعالى خالق للسموات والأرض قادر على خلق مثلهم بعد أن خلقهم وحدد لهم أجلاً لا ريب فيه.

وقل لهم يا محمد بأنه لو كانت خزائن الأرزاق والنعم في ملكهم لبخلوا عن الإنفاق منها لخوفهم من الفقر.

واسأل يا محمد بني إسرائيل عما قاله فرعون لموسى عندما جاءهم بالآيات التسع، لقد كذبه وقال له بأنه ساحر، فرد عليه موسى بأنها من الله تعالى للدلالة على قدرته ووحدانيته، وأن عقلك يا فرعون لم يدركها رغم وضوحها، وأنك هالك لا محالة لإنكارك لها وطغيانك، فأراد فرعون أن يخرج موسى وقومه من أرض مصر بالقتل أو الإبعاد فأهلكه الله عز وجل بالغرق وأسكن بني إسرائيل أرض الشام ومصر، ومتى جاء يوم القيامة تبعثون أيها المشركون من قبوركم مختلطين المؤمن بالكافر من كل موضع.

فأخبر قومك يا محمد والبشرية جمعاء أن القرآن الذي أنزلناه عليك بالحق قد أنزلناه نحن بالحق، وأنك تبشرهم بالجنة والنعيم للمؤمنين الطائعين وتنذرهم بالنار والعذاب للكافرين العاصين، وأن هذا القرآن قد أنزلناه لتبينه وتوضحه للناس، كل الناس، على مهل ليستوعبوا أحكامه ويلتزموا بها وليس لمجرد أن يسمعوها ويعلموها.

وقل لهم بأنهم إن آمنوا بالقرآن أو لم يؤمنوا فذلك لهم ويتحملون مسئولية ذلك، ولعلهم أن يذكروا أن أصحاب العلم السابقين الصادقين مع الله ما أن يسمعوه حتى يدركوه ولا يترددوا في السجود لله إيماناً وإذعاناً وهم يرددون التسبيح لله والبكاء خوفاً وخشوعاً له.

وقل للمشركين منهم بأنهم سواء دعوا الله أو الرحمن فهما إسمان لمسمّى واحد هو الله تعالى الذي له الأسماء الحسنى كلها، وأن عليك يا محمد أن تتوسط في رفع صوتك لتسمعه ويسمعه من معك في صلاتك حتى لا يسمعه أولئك المشركون الحاقدون فيسبونك ويطعنون في دينك.. وقل لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ومعهم مشركو العرب أن الله تعالى واحد لا شريك له في ملكه وفي عبادته، وأنه سبحانه لا يذل فيحتاج إلى ولي أو ناصر لعزته وكبريائه، وعظمه عظمة تامة..

دليل سورة الإسراء ـ ١٧

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ١١١ آية.

- تبدأ السورة بالإشارة لحادثة الإسراء في ليلة ٢٧ من ربيع الآخرة قبل الهجرة بسنة واحدة، ولم تتحدث عن المعراج وإن أشارت إليه سورة النجم والأحاديث الكثيرة.

- ثم تذكر إفساد اليهود في فلسطين مرتين فقضى عليهم بختنصر البابلي بعد المرة الأولى، وقضى عليهم قيصر ملك الروم في المرة الثانية، وتوعدهم المولى بالعقاب إن عادوا ثالثة، وبالفعل عادوا فقضى عليهم الإسلام وانقذ البشرية من شرورهم طيلة هذه القرون الأربعة عشر الماضية.. وما زال التهديد بالعقاب قائماً ضدهم كلما عادوا للفساد.

- التحذير من تعجل العبادة والدعاء على النفس أو الولد فيقع الإنسان في الكفر أو الندم.

- التأكيد مكرراً على أن كل إنسان محاسب على أعماله هو سواء كان فرداً أو أمة فليحذر من طلب الدنيا على حساب الآخرة.

- التحذير من حجز البر بالوالدين ولما بعد كبرهما وعجزهما، ومن البخل في الإنفاق بحق، ومن الزنا والقتل وأكل مال اليتيم دون حق.

- إثارة العقول للوحدانية بدليل التنازع بين الآلهة لو تعددوا.

- تكرار الطعن بالرسول عليه وآله وصحبه السلام بأنه ساحر ومجنون من باب الكذب والإصرار على الباطل.

- تأكيد بعث الموتى يوم القيامة مهما تحولت جثثهم.

- أمر المؤمنين برد الشتم والأذى باللطف، وهذا هو شأن المرحلة المكية.

- تأكيد خلق كل المخلوقات بشكل مختلف في الصور والأرزاق والآجال وتفضيل الأنبياء بعضهم على بعض.

- الإشارة إلى أن رؤية العين ليلة الإسراء كانت اختباراً، وأن زعم إبليس بأفضلية النار على التراب إفتراء وتضليل مردودين لأن الخالق أعلم بخلقه.

- إلزام المسلمين بجميع أحكام الإسلام عندما منع الرسول عليه وآله وصحبه السلام من مسايرة المشركين في قليل من طلباتهم بحجة الإستجابة لدعوته.

- نفي قدرة البشر على الإتيان بمثل القرآن حتى لو ظاهرهم الجن كلهم، مما يدل على المعجزة رغم التكذيب لها.

- تأكيد إنزال القرآن بالحق والصدق واليقين ما يفرض على البشرية جمعاء الإيمان به والتزام أحكامه.

فتبرز الأمور التالية :

١ ـ مباركة بلاد الشام جميعها ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ وليس القدس وحدها.

٢ ـ الإسراء تم بالجسم والروح ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾.

٣ ـ التأكيد على أن التهديد لليهود قائم بالتشريد والقضاء عليهم كلما أفسدوا مهما تعدد إفسادهم ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ﴾.

٤ ـ التحذير من التعجل في الدعاء ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ﴾.

٥ ـ لا حساب لفرد أو أمة حتى تصل إليهم رسالة الإسلام بشكل مبين ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾.

٦ ـ التأكيد على تعذيب الأمة إذا سكتت عن فسق حكامها وظلمهم ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً﴾.

٧ ـ تحريم التبذير بالإنفاق في الحرام مهما قل وأما في الحلال فخير ﴿وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾.

٨ ـ إن الآيات من ٢٣-٣٩ تتحدث عن عناصر تكوين الشخصية الإسلامية من النفسية والعقلية الإسلاميتين وهي: العقيدة والعبادات والأخلاق والمعاملات الخاصة بالفرد.

٩ ـ إن عباد الله المخلصين لا يصل إبليس للنجاح في الغواية لهم ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ﴾.

١٠ ـ إن القرآن معجزة لا يأتي بمثله الإنس والجن ﴿لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ﴾.

١١ ـ إن الإيمان بالقرآن أو عدم الإيمان هو اختيار الإنسان ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ﴾.

سورة الكهف (١٨)

التقديم

سورة الكهف مكية، في مائة وعشر آيات، وروي في فضلها أن رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم قال: «ألا أدلكم على سورة شيعها سبعون ألف ملك ملأ عظمها ما بين السماء والأرض لتاليها مثل ذلك» قالوا: بلى يا رسول الله؟ قال: «سورة أصحاب الكهف، من قرأها يوم الجمعة غفر له إلى الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام، وأعطي نوراً يبلغ السماء، ووقي فتنة الدجال»، وتشتمل على الأمور التالية:

تبدأ بالحمد والثناء على الله تعالى الذي أنزل القرآن على عبده محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لإنذار الكافرين وتبشير المؤمنين، إنذار الكافرين الذين زعموا أن الله تعالى قد اتخذ ولداً من خلقه، وتنبه النبي المصطفى عليه وآله وصحبه السلام لكي لا يحزن لعدم إيمانهم ولا يهلك نفسه، وتذكّر بأنه تعالى قد جعل كل ما على وجه الأرض زينة يسر بها الإنسان وتجذبه إليها اختباراً له: فإما أن يختارها ويركن إليها بكل متعه وشهواته وينسى آخرته وإما أن يحرص على آخرته ويعد لها أحسن الأعمال.

ثم تتحدث عن أصحاب الكهف والرقيم، وأنهم ليسوا بقصتهم بأعجب من آيات الله تعالى الأخرى، لأنهم فتية من خلق الله الأحياء الذين اختاروا الإيمان على الكفر، ولجأوا إلى الكهف هرباً بإيمانهم، وأن الله تعالى قد ألقى عليهم النوم لسنين عديدة ثم أيقظهم من نومهم ليطمئنوا لقدرة الله تعالى على الإحياء هم ومن بعثوا في زمنهم، وأنها قصة حقيقية تصور كيف اضطر أولئك الفتية للفرار بإيمانهم من قومهم عبدة الأصنام فاعتزلوهم واختفوا في كهف رجوا أن يرحمهم ربهم فيه ويهيء لهم المخرج المناسب.

فناموا والشمس تميل عن الكهف يميناً وشمالاً دون أن تعرضهم للتآكل وهم في فجوة متسعة منه، وهم يتقلبون في نومهم مرة إلى اليمين ومرة إلى الشمال، وكلبهم راقد بمدخل الكهف، ومنظرهم يستثير الرعب.. ومع يقظتهم تساءلوا فيما بينهم عن مدة بقائهم التي مضت عليهم فظنوها يوماً أو أقل لأنهم كانوا على حالهم الأولى، مما جعلهم يرغبون لشعورهم بالجوع لأحدهم أن يقصد المدينة ليحضر لهم الطعام المناسب دون أن يلفت نظر أحد حتى لا يكتشفوا فيتعرضوا من قومهم الكفار، كما ظنوا، إما للرجم بالحجارة وإما بإلزامهم بالردة إلى دينهم الكافر، وأنه بهذا عثر أهل المدينة عليهم

واطمأن المتشككون بالبعث لذلك بعد تنازع فيما بينهم حول ذلك، وبنوا عليهم مسجداً بعد أن رأوهم عادوا إلى حالهم في الكهف.

وتشير السورة إلى اختلاف أهل الكتاب من اليهود والنصارى بشأن عددهم: فمرة ثلاثة وأخرى خمسة وثالثة سبعة وكلبهم بالطبع معهم، وكيف أن الله تعالى قد أمر رسوله عليه وآله وصحبه السلام بعدم الخوض في ذلك، وبعدم الوعد لأحد من أن يأتيه بجواب سؤاله دون أن يربط ذلك بمشيئة الله تعالى، وأن يذكر ربه عندما يتذكر من نسيان.

ويخبره المولى عز وجل بأن الفتية قد مكثوا في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين، وأن عليه أن يتلو القرآن على الناس وهو مطمئن بصحة ما أخبره به ربه من قصة أصحاب الكهف، ومن توعده بكلماته للعصاة والمخالفين لكتابه، وأن يلتزم صحبة أولئك النفر المؤمنين من قومه مهما كانوا ضعفاء وفقراء ولا يستجيب لمطلب عتاة قومه بطرد أولئك عنه ليجالسوه هم بدلاً منهم ويستمعوا له، وليقل لهم بصريح العبارة بأن هذا هو الحق الذي تبلغهم إياه، وليختاروا الإيمان إذا شاءوا أو الكفر إذا رفضوا الحق، وليتحملوا مسئولية اختيارهم، وليعلموا أن من اختار الكفر منهم فإن نار جهنم بانتظاره بما فيها من عذاب متعدد الأصناف، كما ليعلموا أن من اختار الإيمان والطاعات فإن جنة عدن بانتظاره بما فيها من نعم كثيرة الأنواع.

ثم تطلب السورة من الرسول عليه وآله وصحبه السلام أن يورد لأولئك المغترين بالدنيا والمستنكفين عن مجالسة المؤمنين مثلاً بأخوين أحدهما مؤمن والآخر كافر، وقد رزق الله تعالى هذا الكافر بستانين من العنب المحاط بالنخل والمزروع بين أشجاره بالزرع والثمار الشهية والنهر الجاري خلالهما، وكيف أن هذا الكافر قد أغرته الدنيا بمتاعها فكفر بأنعم الله وأنكر القيامة وظن أنه نفسه أولى بالجنة لو وجدت حسب قوله من أخيه المؤمن الفقير، فحذره أخوه هذا من بطره وتعاليه من خسف بستانه ولكنه لم ينتصح فكان الخسف والندم، ولات ساعة مندم، فهّلا أدركتم ذلك يا عتاة قريش ومن على شاكلتهم؟!

ثم تعقب السورة بدعوة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن يضرب لهم بالحياة الدنيا كلها مثلاً وهم يرونها تشبه الماء النازل من السماء والمختلط به ما نبت من نبات الأرض اختلاطاً هاج معه وماج حتى ظهر على غاية ما يكون عليه البهجة والزينة، ولكنه ما أن جاء وقت حصاده حتى اجتاحته جائحة فتقصف وتكسر يابساً، وأخذت الرياح تعصف به يميناً وشمالاً.. فهّلا فكروا بذلك واعتبروا؟! وهلّا ذكروا أن ما لديهم من مال

وأولاد ليسوا بأكثر من زينة هذه الدنيا الفانية وأن ما عند الله تعالى من جزاء عظيم على الأعمال الصالحة والإيمان الصادق لهو خير وأفضل من ذلك كله؟!

وذكّرهم يا محمد بيوم القيامة عندما يزيل الله تعالى الجبال وتظهر الأرض جرداء من كل شيء ويحشرون هم وغيرهم للحساب حين يعرضون صفوفاً على حالهم الأولى: حفاة عراة كما خلقوا بداية، فذكّرهم بذلك وكيف أنهم يستولي عليهم الفزع وهم يرون أن كتاب أعمال كل منهم لا يغيب منه أدق عمل عملوه فيعبرون عن الرعب مما سيحل بهم جزاء ظلمهم لأنفسهم.

وذكّرهم بأنهم يتخذون ذرية إبليس الجني الأصل الذي عصى أمر الله تعالى بالسجود لآدم أولياء بينما كان الأولى بهم أن يعادوهم ولا يتخذوهم بدلاً عن الله تعالى بأي حال من الأحوال.. فأين هي عقولهم التي تخدعها الدنيا بمظاهرها الفانية؟! فعليهم، وعلى أمثالهم، ممن أغرتهم كثرة الأموال والأبناء، أن يتذكروا أن ذلك ليس بأكثر من جانب من متاع الحياة الدنيا، وأنه متاع زائل بزوال هذه الدنيا، وأن ما عند الله تعالى من النعيم المقيم جزاء الإيمان والأعمال الصالحات لهو المفروض أن يختاروه ولا يجعلوا كل ما في هذه الدنيا أكثر من طريق أو جسر إلى تلك الحياة الأخرى.

ثم تشير السورة إلى إبليس وذريته تبعاً لما ورد في الآيات السابقة، وأنه تعالى لم يستشرهم في خلق السموات والأرض ولا حتى خلق أنفسهم ولا اتخذ أحداً من الضالين المضلين أتباع إبليس معيناً له في ذلك سبحانه فكيف توالونهم يا ذوي الألباب؟! ثم يؤكد لهؤلاء المشركين عجز شركائهم يوم القيامة عن معونتهم سواء عند الحساب أو عند السوق إلى النار.. فكيف يصرون على شركهم؟!

وتشير السورة بعدها إلى مواقف المشركين من الجدال في الباطل، والهزء بآيات الله تعالى، والإعراض عند التذكير، وترك وتجاهل أعمالهم المنكرة.. ثم تعقب على ذلك بقوله تعالى بأنه لو عاقبهم على أعمالهم لعجّل لهم العذاب في الدنيا قبل الآخرة ولكن قضاءه قد جاء بتأخيرهم ليوم القيامة... فليتدبروا وليعتبروا بخاصة أن ما أدى إليه كفر وتعنت السابقين ما زال ماثلاً معروفاً لديهم!

وبعدها تقص علينا السورة قصة موسى عليه السلام وفتاه في اللقاء بالرجل الصالح الذي رآه جمهور المفسرين بأنه الخضر والأصح أن نصفه بالعبد الصالح، وكيف أن موسى لم يصبر على ما رآه منكراً من ذاك الرجل خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار دون أجرة دون أن يتدخل مخالفاً ما وعد به الرجل وتصدياً منه للمنكر مما جعل الرجل الصالح يذكّره بما التزم به ويفسر له هذه الوقائع الثلاث ثم يفارقه مبيناً له أن الله

تعالى فوق كل ذي علم عليم وأن على العالم أن يتواضع لله رب العالمين مهما أوتي من العلم.

ثم تنقلنا السورة إلى قصة أخرى هي قصة ذي القرنين ليجيب على سؤال من سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم عنها، وأن ذا القرنين رجل صالح، مكّنه الله في الأرض حتى سيطر عليها من شرقها إلى غربها، وأنه قد ساعد أولئك القوم على بناء سد يفصل بينهم وبين قوم يأجوج ومأجوج، وأن هذا السد سيدك تماماً كأي عمارة يوم القيامة، وفي ذلك تذكير للمشركين بقدرة الله تعالى وعظمته ودعوته لهم لإعادة النظر بشركهم وفقاً لحقائق الكون والإنسان والحياة بين أيديهم.

وتنتهي السورة بالتذكير لذوي العقول بالفرق بين الكافرين المستهزئين بآيات الله ورسوله، وما ينتظرهم من جحيم العذاب جزاء ذلك مهما ظنوا بأعمالهم خيراً، وبين المؤمنين الصالحين، وما ينتظرهم من نعيم الفردوس جزاء إيمانهم وأعمالهم، وأن ذلك كله شيء من أوامر الله تعالى وكلماته التي قضاها في خلقه، كما أن محمداً عليه وآله وصحبه السلام المبلغ لهم ذلك ليس إلا بشراً مثلهم ولكنه يوحي إليه ربه بوحدانية المعبود للخلق جميعاً مما يفرض عليهم إفراده في العبادة والإخلاص له في الأعمال.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ
وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾
وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ
مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا
ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ
مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾

منبهة بلزوم حمده تعالى والثناء عليه إذ أنزل على رسوله المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم القرآن كتاباً مستقيم المعاني والحجج والأحكام، فلا عيب ولا تناقض فيه مما يجعله أقوى نذير للبشر عند كفرهم وبشير لهم عند إيمانهم، وأنهم

يخلدون إما في جحيم الكفر أو نعيم الإيمان، كما ينذر أولئك المفترين على الله تعالى بأن له ولداً سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين عندما قال اليهود بأن العزير ابن الله، وقالت النصارى بأن المسيح ابن الله، وقال المشركون بأن الملائكة بنات الله، وأن قولهم هذا كله لايستند إلى علم يقيني لا عندهم ولا عند آبائهم وإنما هو مجرد التقليد الباطل الذي لا يتجاوز أكثر من كذب وهم يتشدقون به.

ثم تدعو السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام حتى لا يعرض نفسه للهلاك حزناً بسبب إعراضهم عنه ورفضهم الإيمان بالقرآن، وليذكّرهم بأن كل ما على هذه الأرض من النعم والأرزاق ليست بأكثر من زينة يتزين بها الإنسان لوقته ثم تمر، وأنها مجرد اختبار وامتحان لأهلها، فإذا تدبر ذلك من تدبر وآمن فقد نجح في الاختبار، وإذا أعرض وكفر فقد فشل في هذا الاختبار المصيري، فلا يزعجّنك يا محمد كفرهم، فغداً سيجدون الجزاء الأوفى بانتظارهم.

ولذلك قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: «إن الدنيا خضرة حلوة والله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون» وقال: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا» ولاسيما، أن هذه الأرض تستحيل جرداء لا نبات فيها ولا أي شيء من عمارتها يوم القيامة مما يجعلها لا تستحق أن يحال بينها وبين إغراء زينتها ومتعها.

ثم تباشر السورة عرض مختصر لقصة أهل الكهف فتقول:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ
فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ
سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم
بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن
دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ
ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ
أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ
ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن
تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم

بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾

فيبدأ المولى عز وجل القصة بلفت نظر رسوله عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام إلى أن قصة أهل الكهف ليست بهذا العظم الذي صوره له السائلون عنها من الكفرة لأن سائر آيات الله أعظم من قصتهم وأعجب، فاعلم يا محمد بأن أصحاب الكهف والرقيم ليسوا بعجب من آيات الله بل هناك ما هو أعجب من خبرهم من مثل خلق السموات والأرض وحادثة الإسراء والمعراج وغيرها.

وتشير السورة إلى أنهم ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾ دون توضيح بشيء عن الرقيم مما اختلف فيه بين الوادي الذي كان فيه الكهف، والصخرة التي كانت فوق الكهف، واللوح الذي كتبت فيه قصتهم، وغير ذلك، مما لا يؤثر على قصة أهل الكهف وبأنها ليست بأعجب آيات الله كما صورها السائلون سواء كانوا اليهود مباشرة أو كفار مكة بدافع من اليهود عندما سألوا عنها وعن ذي القرنين وعن الروح.

ثم تأخذ السورة في سردها قائلة بأنهم شباب فتية لجأوا للكهف هرباً بإيمانهم ورجاء التخلص من ظلم الحاكم الذي كان يفرض على الناس عبادة الأصنام أو القتل،

وتبعهم ذلك الكلب الذي يرجح أنه كان لأحدهم، ودعوا الله تعالى المغفرة والرزق والتوفيق لمخرج من هذا الغار بالسلامة.

وتذكر كيف أن الله تعالى قد ألقى عليهم النوم لسنين طويلة ثم أيقظهم من نومهم ليظهر مدى دقة معرفتهم أو معرفة أهل المدينة القريبة منهم لفترة مكوثهم في الكهف.. ثم تخبر الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأنها قصة حقيقية يخبر بها المولى عز وجل رسوله، وأنهم كانوا فتية مؤمنين مهديين، وأن الله تعالى قد قوى عزائمهم أمام قومهم الكفار فأعلنوا إيمانهم برب السموات والأرض ورفض كل الآلهة غيره سبحانه ليكونوا على الحق لا خارجين عنه قيد أنملة، كيف لا وقومهم قد تعبدوا آلهة أخرى غير الله سبحانه دون حاجة ولا أي دليل مقنع مما أوقعهم في ظلم الشرك والافتراء على الله تعالى.

ثم تذكر كيف أنهم اعتزلوا قومهم وعبادتهم للأصنام ولجأوا للكهف طلباً لرحمة الله تعالى وتيسير المخرج المناسب من هذا المأزق الذي كانوا فيه.

ثم تصف السورة كيف أن الشمس كانت لا تؤذيهم لا في شروقها ولا في غروبها إذ تميل عنهم لكي لا يتعرضوا للتآكل والتلاشي لا هم ولا ملابسهم، فكانوا كالمتيقظين في نومهم وسط الكهف وهم يتقلبون من اليمين إلى الشمال وكلبهم راقد بمدخل الكهف وتحيط بهم هالة من الرعب والهيبة تصيب كل من ينظر إليهم.

ثم تذكر كيف أن الله تعالى قد أيقظهم من نومهم على ما كانوا عليه من هيئاتهم في ثيابهم وأحوالهم، مما جعلهم يختلفون فيما بينهم عن مدة نومهم حتى قال بعضهم أنها يوم أو أقل من اليوم، فرد عليهم الآخرون بأن ذلك أعلم به الله منهم، وطلبوا إلى من يذهب منهم إلى المدينة القريبة ليحضر لهم الطعام المناسب أن يحذر حتى لا ينكشف أمرهم وإلا فإنهم سيتعرضون للموت رجماً بالحجارة أو يردونهم إلى الكفر، ظناً منهم أنهم ما زالوا في عهد أولئك الكفار.

ثم تذكر السورة بأن الله تعالى قد أطلع عليهم وأظهرهم لسكان تلك المدينة التي كانت قد أصبحت مسلمة عندما انكشفوا بدراهمهم القديمة، وذلك لكي يطمئن ملكها ورعيته بأن القيامة حق والبعث حق بعد أن كانوا يرتابون في ذلك، فما كان من بعضهم إلا أن رأوا إقامة بنيان على الكهف ولكن الأكثرية رأوا بناء المسجد فكان كما أرادوا، مما يدل على جواز بناء المسجد فوق القبر على ألا يصلى باتجاه القبر، بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام «لاتصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها» وقوله «اشتد غضب الله على

قوم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد» وهذا ما جعل المسلمين يفصلون قبر الرسول عليه وآله وصحبه السلام وصاحبيه بحاجز عن المصلين.

وتواصل السورة عرض القصة فتذكر بأن أهل الكتاب من يهود ونصارى وغيرهم قد اختلفوا في عدد أصحاب الكهف فمنهم من قال أنهم ثلاثة والكلب رابعهم، ومنهم من قال أنهم خمسة والكلب سادسهم، ومنهم من قال أنهم سبعة والكلب ثامنهم، وكل ذلك من باب الظن والله وحده أعلم بعددهم، والقليل من الناس ممن يعلم ذلك، ولذلك دعت السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام لكي لا يجادل أحداً في ذلك ولا يسأل أحداً من أولئك المختلفين عنهم، مما يدل على منع مراجعة أهل الكتاب في شيء من العلم.. فهلّا تنبهتم إلى ذلك أيها المسلمون؟؟

وبالنظر لأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام كان قد وعد السائلين عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح أن يجيبهم غداً ولكن دون أن يربط قوله بمشيئة الله تعالى فقد عاتبه سبحانه هنا على ذلك، واحتبس عنه الوحي خمسة عشر يوماً حتى شق عليه وأرجف به الكفار، فنزلت السورة وأمر بتعليق عزمه على أي فعل بمشيئة الله عز وجل حتى يتجنب تحقق حكم الخبر، بمعنى الكذب عند عدم وقوع الأمر، وأمره تعالى عند النسيان بقوله ﴿عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾ ككفارة لنسيان الاستثناء وللدعاء عامة، حتى قال ابن عباس لو استثنى بعد سنة إذا نسي فإنه لم يحنث بيمينه، وفي قول آخر لو كان بعد سنتين.

وتنهي السورة القصة بذكر المدة التي قضوها في الكهف حتى انكشف أمرهم بأنها كانت ثلاثمائة وتسع سنين، وهذا هو اليقين بعلم الله تعالى المحيط بكل غيب في السموات والأرض، والعالم بالمدة التي مضت عليهم منذ موتهم حتى نزول القرآن فيهم، لأنه لا أحد أبصر ولا أسمع من الله تعالى، وليعلم أولئك المختلفون في مدة لبثهم بأنه لا يوجد لهم ولي يتولى من دون الله تدبير أمرهم مما يستحيل معه أن يكونوا أعلم منه سبحانه، ومما يلزمهم بالتعلم منه سبحانه لا من غيره في أمور الغيب كلها، وما ذلك إلا لأنه عز وجل ﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ فلا أحد من البشر يعلم بحق خلقه وغيبه وبالتالي يعلم الحكم اللازم المناسب لذلك غيره.

وتأمر السورة بعدها الرسول عليه وآله وصحبه السلام بالتزام تبليغ القرآن ومصاحبة المؤمنين من دون الكافرين، وتبين له مصير كل منهم، فتقول:

﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ٢٧

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ
زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ
مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن
يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ
الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى
الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

داعية له عليه وآله وصحبه السلام أن يواصل اتباع وتبليغ القرآن، وأنه لا مبدل لكلمات الله تعالى التي يوحيها إليه، ولا خلف فيما أخبر به من قصة أصحاب الكهف، ولا مغيّر لما توعد به تعالى العصاة والمخالفين لكتابه، ومنبهة له عليه وآله وصحبه السلام لينبه المؤمنين معه ومن بعده بأن أحداً لن يجد ملجأً من دون الله تعالى إن خالف القرآن ولم يتبعه.

وداعية له عليه وآله وصحبه السلام أن يلتزم صحبة المؤمنين من أتباعه مهما كانوا ضعفاء وفقراء من أمثال سلمان الفارسي وأبي ذر وعمار ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ استرضاء لعيينة بن حصن والأقرع بن حابس وأمثالهما من عتاة مكة الذين طلبوا طردهم ليجالسوه بدلاً منهم ويستمعوا إليه، فألزمه المولى سبحانه الحرص على مصاحبتهم ومجالستهم رغماً عن أولئك العتاة، وتجنب التزين بمجالسة أولئك الأقوياء الأغنياء لأنهم غفلوا عن ذكر الله واتبعوا أهواءهم وفرطوا في أمور دنياهم قبل أخراهم بجهلهم لحقيقة الحياة بينما أولئك الضعفاء الفقراء يعيشون مع طاعة ربهم وذكره صباح مساء ابتغاء رضوانه، فالفرق كبير والبون شاسع بين الطرفين.

وقل لأولئك الرؤساء بأن الحق كل الحق من ربكم وحده، وهو الذي نزل القرآن بذلك، وعليكم أن تؤمنوا به لتسعدوا وأما إذا اخترتم الكفر بدلاً من الإيمان فاعلموا بأن الله تعالى قد أعد للكافرين الظالمين لأنفسهم باختيار الشرك على الإيمان ناراً تحيط بهم من كل جانب كالسرادق، وأنهم لن يجدوا عند الاستغاثة من لهيب تلك النار إلا الماء الحار يشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم.. فهل تريدون مثل هذا المصير؟!

واعلموا أنكم عندما تختارون الإيمان فقد أعد الله تعالى للمؤمنين الصالحين الأجر الطيب بإدخالهم جنات عدن التي تجري من تحت أشجارها الأنهار، والتي

يرتدون فيها أساور الذهب وثياب السندس والاستبرق من الحرير الناعم والثخين باللون الأخضر المريح للعيون، والتي يجلسون فيها على الأرائك متقابلين حيث ينعمون بأفضل وأروع نعم.. فهلّا أحسنتم الاختيار بين الكفر وعذابه والإيمان ونعمه؟!

ثم تدعو السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام ليضرب لأولئك الرؤساء ومن على شاكلتهم مثلاً برجلين أحدهما كافر غني والآخر مؤمن فقير وهما يتحاوران في شأنهما فتقول:

﴿۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢
كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ
وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن
تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦
قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ٣٧ لَّٰكِنَّا۠
هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ
إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ٤٠ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ٤١ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ
فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢ وَلَمۡ
تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ٤٣ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ
عُقۡبٗا ٤٤﴾

أنظروا أيها الزعماء الذين تتمسكون بالدنيا وتأنفون مجالسة المؤمنين في هذا المثل الذي يضربه الله عز وجل لكم في أخوين أحدهما مؤمن ولكنه فقير والآخر كافر ولكنه غني، ولدى الغني بستانان محاط كل منهما بنخل وبين أعنابه المثمرة الزروع الكثيرة، وعلى أشجاره العناقيد الطيبة الشهية، وتحتها يجري نهر تستقي منه دون انقطاع، فكان منظراً جذاباً استولى على عقل صاحبه حتى سلبه إياه فتفاخر به على أخيه المؤمن لكثرة ماله وأولاده، فكان هذا مثالاً لعيينة بن حصن وأصحابه، وكان ذاك مثالاً لسلمان وصهيب وأصحابهما.

ووصل به الحال إلى أن أخذ بيد أخيه المؤمن وهو يطيف به في بستانه ويريه إياه والشرك يملأ نفسه وهو يردد إنكاره بزوال الدنيا وما فيها كما يظن من مثل بستانه،

وإنكاره بمجيء يوم القيامة، وزعمه بأنه إن كان هناك بعث فإنه سيعطى فيه أفضل من الدنيا لكرامته، فيرد عليه أخوه مستنكراً عليه كفره بالذي خلقه من تراب عندما خلق أبانا آدم منه ثم من نطفة عندما خلق كل فرد كذلك من أفراد ذريته ثم جعله رجلاً سوياً، وما كفره بالله تعالى إلا لأنه رد عليه بيانه القطعي بمجيء يوم القيامة.

ثم تذكر السورة كيف أكمل أخوه المؤمن رده عليه قائلاً بأنه هو يؤمن أن الله تعالى هو ربه، وأنه لا يشرك به أحداً كما يفعل أخوه المشرك العابد لغير الله سبحانه، وأنه يدعوه ليقول عندما يدخل بستانه ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ معبراً عن اعترافه بالله وبقدرته على كل شيء ليحفظ عليه هذا الرزق الذي رزقه، بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام «من رأى شيئاً فأعجبه فقال ما شاء الله لا قوة إلا الله لم يضره عين»، وأن تفاخره عليه لقلة ماله وولده لن ينفعه أمام قدرة الله تعالى على إنزال صاعقة على بستانه تحيله إلى أرض زلقة وقاع جدب وماء غائر بينما يعطيه هو ما هو خير من ذلك.

وبالفعل فإن وقتاً طويلاً لم يمر حتى هلك بستانه كله إذ لم يستمع إلى إنذار أخيه، وأصبح يضرب إحدى يديه على الأخرى ندماً وهو ينظر إلى بستانه المحطم الأشجار بفعل الصاعقة وهو يردد: يا ليتني عرفت نعم الله عليّ، وعرفت أنها كانت بقدرة الله ولم أكفر به... فكان ندماً حين لا ينفع الندم إذ حل به جزاء بغيه دون أن يجد أحداً يستطيع دفع قضاء الله وحكمه في حقه، ودون أن يقدر هو على دفع ذلك عن نفسه، وعندها رآى أن الولاية والقدرة حق لله وحده وأنه تعالى يعطي خير الثواب في الدنيا والآخرة لمن آمن به وأطاعه.. فهّلا أدرك ذلك الرؤساء قبل الرعية؟!

ثم تدعو السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام لضرب مثل آخر بالماء للحياة الدنيا وما فيها من مال وبنين، ومآل ذلك يوم الحشر فتقول:

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾ وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ

ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾

انظروا أيها المتكبرون الذين تريدون طرد المؤمنين، فإنكم ستجدون الحياة الدنيا كلها تشبه الماء النازل من السماء، فتكاثر النبات واختلط بعضه ببعض لخصوبته، ولكن الماء لم يستقر في موضعه، ولا استقام على حال واحدة، ولا استمر دون نفاذ بالجري والتسرب والتبخر، ولا خاض فيه أحد دون أن يبتل، ولا استمر نفعه إذا تحول إلى فيضان أو طوفان.

وكذلك الحياة الدنيا فهي كما قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «ذر الدنيا وخذ منها كالماء الراكد فإن القليل منها يكفي والكثير منها يُطغي»، وانظروا إلى تلك النباتات التي تكسرت بعد أن جفت بانقطاع الماء عنها فأصبحت تتطاير هنا وهناك بفعل الرياح، هذه هي الحياة الدنيا وهذا هو نباتها فماذا تنتظرون منها! تأكدوا أن أمتع شيء فيها وهو المال والأولاد ليس بأكثر من زينة سريعة التغير، فلا تفتخر يا عيينة بن حصن وأمثالك بما بين يديك من الغنى والشرف والمكانة، فهذا غرور ما أسرع ما يزول ولا يبقى منه شيء كالهشيم تذروه الرياح، وتأكدوا يا عقلاء أن الباقيات الصالحات من الطاعات التي يأتي بها أمثال سلمان وصهيب وعمار هي أفضل أملاً من ذي المال والبنين دون عمل صالح.

إن جمهور العلماء قد قالوا بأن «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» هي الباقيات الصالحات ولكن العموم في الطاعات أولى من التخصيص.

ولذلك اذكروا أيها الرؤساء بخاصة والناس بعامة يوم القيامة عندما تزول الجبال وتظهر الأرض جرداء من كل شجر وبنيان ويحشر الخلق جميعاً للحساب، يوم يعرض الجميع للحساب بين يدي الله وهم في صفوف وحالهم كما خلقوا أطفالاً «يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً» كما قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، فلا مال ولا ولد مع أي منهم، فأين زعمكم أنكم لن تبعثوا ولن يكون هناك موعد للبعث؟!

واذكروا وقد تسلم كل مجرم كافر متكبر كتاب أعماله وهو يرتجف خوفاً مما يجد فيه ويصرخ بالويل والهلاك لنفسه لأن كتابه لم يغب عنه أدق أعماله مما دون الشرك وما فوقه، ولأنه وجد جزاء ذلك كله حاضراً دون أدنى ظلم.

واذكروا ما فعله إبليس الجني عندما أمر بالسجود لآدم فرفض وعصى أمر الله فنال

عنف الطرد وبانتظاره أشد العذاب.. فكيف تتبعونه في الكفر بالله وعصيانه وتسيرون خلف ذريته وأتباعه من شياطين الإنس والجن وأنتم تعرفونهم أنهم أعداء لكم؟ فهل هذا البديل عن طاعة الله والإيمان به والخضوع لأمره ونهيه إلا أسوأ بديل يا عتاة كل زمان ومكان؟!

﴿۞مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾
وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا
ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾

موضحة أن الله تعالى لم يشاور إبليس وذريته الذين اتبعوهم من دون الله تعالى في خلق السموات والأرض ولا في خلق أنفسهم ولم يستعنهم في شيء من ذلك، كما لم يفعل من ذلك شيئاً في خلق المشركين أنفسهم، فكيف يتخذونهم أولياء من دونه تعالى؟! فيا لقبح ما يفعلونه وهم يشركون مع الله تعالى القادر على كل شيء من هو عاجز عن ذلك كله؟!

ثم تدعوهم السورة أن انظروا ماذا يحصل معكم عندما يطلب منكم يوم الحساب أن تأتوا بشركائكم المزعومين فلا يستجيب لكم منهم أحد، وكيف يستجيبون وهم منشغلون عنكم في حسابهم وعذابهم؟! ثم انظروا والمجرمون الكفار منكم يرون النار من بعيد فيتأكدون يقيناً أنهم سائرون إليها وملقون فيها ولا مهرب لهم منها ولا قدرة لأصنامهم لإبعادها عنهم.

وتنبه السورة بعدها لمواقف المشركين من القرآن وآياته، وتهددهم بعذاب الله تعالى يوم القيامة.. فتقول:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ
ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ
ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ
لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا
وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى
ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ

ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

مبينة أن ما ذكره القرآن لهم من العبر والأمم السابقة، وما وضحه لهم من دلائل الربوبية يشمل جميع الجوانب المقنعة لكل صاحب عقل نزيه لا تعميه التقاليد والأهواء، ولكن الإنسان الكافر المتعنت كالنضر بن الحارث كثير الجدال في القرآن وكأنه يظن بذلك الحق والنجاة، وما هو إلا العناد والمكابرة!

وانظروا إلى ما منع الناس من الإيمان بالقرآن والإسلام وبمحمد عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام، ومن طلب المغفرة لشركهم السابق ومنكر أعمالهم، إنه أن تأتيهم سنة الله تعالى في إهلاكهم كما أهلك السابقين من الأمم، أو أن يأتيهم العذاب عياناً متفرقاً يتلو بعضه بعضاً.. فهل هذا ما تريدونه أيها المشركون؟!

وانظروا في حال المرسلين الذين أرسلهم تعالى منذ بدء الخليقة؟ إنهم لم يكونوا إلامبشرين لمن أرسلوا إليهم بالجنة لمن آمن، ومنذرين مخوفين بالعذاب من كفر، وانظروا إلى الكفار في جميع الأمم السابقة وهم يجادلون الرسل بالباطل ظناً منهم أن حججهم تزيل الحق وتلغيه، وأن هزءهم وسخريتهم بآيات الله في السابق، وبالقرآن الآن، وبما أنذرهم به الرسل من الوعيد سيؤدي إلى أكثر من مزيد العذاب لهم.. كيف لا وأنه لا يوجد أكثر ظلماً لنفسه ممن يوعظ بآيات ربه ويذكّر بها ولكنه يتهاون بها ويعرض عن قبولها ويتجاهل كفره ويترك معاصيه دون أن يتوب من ذلك كله ويقبل على الإيمان والطاعات!! وليعلم أن من يفعل ذلك قد أقفل عقله وأصم أذنيه عن فهم الحق وسماعه، وأنه بالتالي لن يستجيب لنداء الإيمان ما دام كذلك عندما يدعى إليه مطلقاً.

وليعلموا أن من يقبل على الإيمان فإنه سيجد مغفرة ربه ورحمته بانتظاره، ويكفيه أن يعلم أن الله تعالى لو أراد أن يحاسبه وأمثاله على أعماله الكافرة والمنكرة لعاجلهم بالعذاب ولكنه سبحانه يمهلهم ويؤجلهم إلى أجل مقدر يؤخرون إليه بحيث إذا حل لم يتأخر عنهم إما في الدنيا وإما في الآخرة، وعندها لن يجدوا ملجأ ينجيهم منه.. وله ولأمثاله عبرة في قصص القرآن التي ذكرها من عاد وثمود ومدين وقوم لوط وما حل بهم من هلاك عندما ظلموا وكفروا فحل بهم في وقت معلوم لم يتجاوزه أي منها.. فهلّا تذكرتم ذلك وأعدتم حساباتكم وعدتم إلى العقول بأحكامها السليمة؟!

وتأتي السورة بعدها لقصة موسى عليه السلام وفتاه مع العبد الصالح فتقول:

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا
مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ
لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا
ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا
قَصَصٗا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ
مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٦٧﴾ وَكَيۡفَ
تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴿٦٩﴾ قَالَ
فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ
خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا
﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ
قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ﴿٧٤﴾ ۞قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ
صَبۡرٗا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ
أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ
لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ
صَبۡرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ
كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ﴿٨٠﴾
فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي
ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا
كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴿٨٢﴾﴾

واذكروا وقائع قصة موسى بن عمران عليه السلام وفتاه (يوشع بن نون) كما يقال عندما قال لبني إسرائيل بأنه أعلم الناس دون أن يرد ذلك لوحي الله إليه فأمره الله تعالى باللقاء مع عبده الصالح الخضر كما يرجح المفسرون، والأصح أن يقال العبد الصالح تجنباً للقصص الإسرائيلية، ليتعلم منه ويعرف أن هناك من هو أعلم منه مما علمه الله زيادة عما علمه، وليعلموا إحاطة الله تعالى بهم وبأعمالهم وبكل شيء وأنه قادر على إيقاع ما يتهددهم به يوم الحساب بعد هذه الدنيا.

اذكروا أن موسى قال لفتاه بأنه يريد أن يواصل المسير حتى يلتقي عند نقطة لقاء البحرين بحر فارس وبحر الروم، وهما شعبتا البحر الأحمر الآن اللتان تنتهي إحداهما بميناء العقبة والأخرى بخليج السويس وقناة السويس إلى البحر المتوسط، يلتقي هناك بالعبد الصالح، وأن فتاه قد حمل سمكة في قفة وسارا باتجاه الموقع المحدد، وأن السمكة قد أعاد الله إليها الحياة وتسربت من وعائها إلى البحر دون أن يخبر الفتى موسى بذلك إلا بعد أن جاوزا المكان وجاعا وتعبا فطلب منه الطعام فأخبره، وعندها طلب موسى من فتاه أن يرجعا لنفس المكان بالضبط، فوجدا هناك العبد الصالح الذي شمله الله برحمته وأعطاه من علم الغيب مما لا يعلمه موسى الذي أعطي علم الأحكام والحكم بظاهر أقوال الناس وأفعالهم.

وعندها طلب موسى منه بأدب جم أن يتبعه ليتعلم مما علّمه الله تعالى ما يرشده للخير، وأصر على ذلك مستعداً للصبر على كل أمر لا علم ولا خبرة له به من قبل، وأنه لن يعصيه في كل أمر من أوامره، فأمره ألّا يسأله عن أي شيء يراه منه حتى هو يوضحه له.. ولكنه وهو الرسول الذي لا يجوز له أن يسكت على المنكر، حسب الظاهر، هل استطاع الصبر على غرائب ما رأى؟ رأى العبد الصالح قد قابل المعروف عندما أركبهم أصحاب السفينة دون أجرة بالمنكر إذ خرق لهم السفينة، فاستنكر عليه ذلك فنبهه إلى ما أمره به بالصبر وعدم السؤال، فاعتذر عن ذلك ولو كان قد وقع منه السؤال بسبب النسيان، ورآه ثانية وهو يقتل غلاماً فيستنكر عليه القتل لأنه كما رآه ليس مقابل اعتداء على نفس أخرى، فيعود العبد الصالح ويذكره بما أمره به من الصبر، وعندها يشعر موسى بأنه أوشك على انتهاء العذر له فسأله إياه ثانية وأخيراً، ولكنه ما أن رآه ثالثة يقيم الجدار الذي أوشك على السقوط ودون أجرة في تلك القرية التي بخل أهلها عليهم بالضيافة حتى بادر باستغراب فعلته.

وهنا انتهى الإعذار وحل الفراق بينهما ولكن بعد أن يبين له معنى كل واقعة من الوقائع الثلاثة، فقال بأن السفينة كانت لمساكين فأعابها لينقذها من الملك الذي ما إن يراها صالحة حتى يستولي عليها، وأما الغلام فكان كافراً مفسداً، وكان أبواه مؤمنين، فأراد الله بقضائه أن ينقذهما منه ويستبدلهما عنه بخير منه، وأما الجدار فكان لغلامين صغيرين يتيمين في تلك المدينة، وكانت لهما تركة وفيرة كالكنز فيه، وكان أبوهما رجلاً صالحاً فكافأهما المولى عز وجل بصلاح والدهما بالإبقاء على الكنز حتى يكبرا ويستخرجا الكنز من الجدار.. فهلّا أدركتم العبر والعظات من هذه القصة أيها الناس،

مسلمكم وكافركم، فالتزم المؤمن إيمانه دون تقصير، وعاد الكافر إلى الإيمان دون تأخير؟!

ثم تنقلنا السورة لقصة أخرى، قصة ذي القرنين.. فتقول:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن
كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا
قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ
يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا
يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا
سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن
دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ
نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ
آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن
رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾

مجيبة للرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام على سؤال مشركي العرب الذين سألوه عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين، ومبينة أن ذا القرنين كان عبداً صالحاً مؤمناً، وأن الله تعالى قد مكّن له في الأرض فبسط عليها سيطرته من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها، وأنه ما أن وصل بجيشه إلى أبعد نقطة تغرب بعدها الشمس في الأفق، كانت منطقة طينية سوداء كأنها شاطئ البحر، حتى وجد هناك قوماً أمر أن يعذبهم أو يحسن إليهم، فقال بحكم الله فيهم بأن الظالم منهم سواء بكفره وشركه أو منكر أعماله فإنه سيعذبه ما يناسبه من العذاب الدنيوي ثم يعذبه الله تعالى يوم القيامة بما يراه في حقه من العذاب اللازم، وأما المؤمن الصالح فإنه سيجازيه خير الجزاء في الدنيا ويجد الجنة بانتظاره في الآخرة.

ثم تخبرنا السورة بأن الرجل بعد أن انتهى من المغرب عاد واتجه إلى المشرق ليجد عند آخر نقطة رآى فيها شروق الشمس قوماً لا يستترون منها عند طلوعها، فلا يوجد جبل ولا كهف ولا بيت يكنهم منها.

ثم تخبرنا السورة بأن الرجل قد اتجه إلى السدين وهما جبلان بين أرمينية وأذربيجان، كما روي عن ابن عباس، وهنا وجد قوماً لا يمكن التفاهم معهم من باب اللغة، ولكن الله تعالى مكّن ذا القرنين من فهم لغتهم عندما طلبوا منه أن يبني بينهم وبين أرض يأجوج ومأجوج المفسدين في الأرض سداً مقابل أجرة معينة، فاعتذر منهم عن الأجرة وطلب مساعدتهم البدنية لإنجاز ردم بدلاً من السد لأنه أكثر منه قوة، وبالفعل ملأ بين الجبلين بقطع من الحديد واشعلوا تحتها النيران حتى أصبحت حمراء من شدة الحرارة ثم أفرغوا عليها النحاس المذاب فالتحم بفعل الحرارة مع الحديد ليصبح مركباً شديد القوة مما حال بينهم وبين القوم الآخرين بالرغم من كل محاولاتهم لنقبه وفتح ثغرة فيه، فأكد لهم مع تمامه بهذه القوة بأنه أنجز بفضل الله ورحمته بهم، ولكنه متى جاء يوم القيامة يدك دكاً كغيره من البنيان، ليصبح مسوى بتسوية الأرض التي ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ في ذلك اليوم مما يؤكد أن قدرة الله تعالى فوق كل قدرة.

وتنتهي السورة بوصف مقارن للكافرين والمؤمنين يوم القيامة، وأمره تعالى للناس كافة بالتوحيد.. وتقول:

﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

مبينة أن قوم يأجوج ومأجوج يظهرون قبيل يوم القيامة، وأنهم يظهرون لكثرتهم كأنهم أمواج البحر الهائج، وذلك قبيل النفخة الأولى التي تجري بعدها تسوية الأرض بذاك السد وبكل السدود والجبال، وبعدها ما أن ينفخ في الصور النفخة الثانية، نفخة الإحياء والبعث والحشر، حتى يجتمعوا مع بقية الإنس والجن في عرصات القيامة،

وعندها يُبرز المولى عز وجل جهنم لهم ولأولئك الكفار ليروها بأعينهم بعد أن كانوا لشدة تعنتهم وإصرارهم على الكفر بالبعث كمن هو بمنزلة من عينه مغطاة فلا ينظر إلى دلائل الله تعالى، ولا يطيقون أن يسمعوا كلام الله تعالى، فهم بمنزلة الصم.. فهل ظن أولئك الكفار أن يتخذوا من عيسى والعزير والملائكة، وهم عباد الله تعالى، أولياء لهم ينتصرون بهم من دون الله سبحانه ولا ينزل تعالى عقابه بهم جزاء كفرهم هذا؟! فليعلموا أن ذلك لن ينفعهم في شيء لأن الله تعالى قد أعد لهم مقاماً خالداً في جهنم.

واسألهم يا محمد عما إذا كانوا يعرفون الخاسرين بأعمالهم، وأخبرهم أنهم من يعمل العمل من الناس ويظن أنه محسن، مع أنه قد حبط سعيه بسبب فساد اعتقاده أو المراءاة، وبذلك فقد ضاع عليهم سعيهم في الحياة الدنيا وهم يظنون أنهم يحسنون الأعمال بعبادة غير الله تعالى، وبكفرهم بآيات الله وبالبعث والحساب من أمثال مشركي مكة عبدة الأوثان، وأنهم نتيجة ذلك لا قيمة لهم عند الله تعالى لا هم أنفسهم ولا أعمالهم، وأن جزاءهم يوم القيامة الخلود في جهنم بسبب كفرهم وسخريتهم بالقرآن وما فيه من آيات الله وأحكامه وبالرسول محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.. هذا بينما بالمقابل ينال المؤمنون الصالحون الخلود في جنات الفردوس ذوات المكانة العالية بين الجنان حيث لعظم نعيمها لا يطلبون التحول عنها إلى غيرها.

وقل يا محمد للناس بعامة وللمشركين بخاصة بأن البحر لو تحول إلى مداد تكتب به كلمات الله تعالى وعلمه المحيط بكل ما يعلم ومالا يعلم لانتهى هذا الحبر قبل أن تنتهي تلك الكلمات حتى لو ضوعفت البحار عدداً ووزناً لأنها أي الكلمات كناية عن علم الله تعالى الذي لا تحده حدود.

وقل يا محمد للناس بعامة والمشركين بخاصة بأنك إنسان مثلهم ولكن يوحى إليك برسالة من ربك، وأنك لا تعلم إلا مما يعلمكه الله تعالى، وأنك مأمور بتبليغ أن الله واحد لا شريك له، وأن من يرجو ثواب الله ويخشى عقابه فعليه بالعمل الصالح المبني على الإيمان الخالص والبعيد عن كل رياء، بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام «إن الله طيب ولا يقبل إلا الطيب ولا يقبل ما شورك فيه».

دليل سورة الكهف ـ ١٨

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ١١٠ آيات ولقارئها يوم الجمعة أجر عظيم.

- بعد الثناء على الله تعالى تدعو السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام ألا

يهلك نفسه حزناً لعدم إيمان مشركي قومه لأن الأمر كله إلى اختيارهم كمن يختار ما يسره من هذه الدنيا أو ما يحزنه.

- ثم تبدأ بالحديث عن أهل الكهف وأنهم مجموعة من الشباب الذين هربوا بإيمانهم إلى كهف خوفا من الاضطهاد فاختاروا هذا الحبس الضيق للحفاظ على إيمانهم.

- وبعدها تشير إلى موقفهم بإرسال أحدهم عندما استيقظوا بعد ٣٠٩ سنين لأقرب مدينة ليحضر لهم الطعام وكأنهم بإدراكهم البشري المحدود لم يستوعبوا مدة غيابهم نائمين.

- ثم تنبه الرسول عليه وآله وصحبه السلام ألا يعد أحداً بشيء دون أن يربط ذلك بالمشيئة الإلهية.

- ثم تدعوه لصحبة المؤمنين الدعاة لتوحيد ربهم ورجاء توفيقه ومغفرته ورضوانه.. وليقل للبشر جميعاً بأن الحق في ما يدعوهم إليه من الإيمان والإسلام.. فمن أراد أن يختاره فذلك إليه ومن أراد رفضه فذلك إليه وعليه.

- وبعدها تضرب مثلاً لطلاب الدنيا ومتاعها بأخوين أحدهما مؤمن قليل الرزق في المال والولد والآخر كافر كثير المال والولد، وكيف أن الله الرزاق قد أتى على بستان الكافر ليعرف هو وكل من تغره الدنيا بمتاعها وزينتها بأنها فانية بينما ما عند الله هو الباقي.

- ثم تشير ليوم القيامة وبعث الناس فيه للحساب وشعور الكفار بالرعب عندها وهم يرون هول ما ساقوا أنفسهم إليه من ظلم الكفر والمعصية بإتباع الشيطان دون الرحمن.

- ثم تستنكر على المشركين جدالهم بالباطل مع أنه بين أيديهم الفرصة لاختيار الحق والسير عليه.

- ثم تبين من قصة موسى مع العبد الصالح في خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار كيف يقصرعقل الإنسان عن إدراك أمور كثيرة حتى من واقع دنياه فكيف بالغيب الذي يدعى للإيمان به، فعليه أن يدرك وجوب التواضع لله رب العالمين العالم بكل شيء.

- ثم تؤكد للبشر من قصة ذي القرنين، الرجل الصالح المؤمن، بأن مصير الدنيا بسدودها إلى زوال وأن على الناس جميعاً التزام الإيمان وطاعة الرحمن.

- و تنتهي السورة بإعطاء صورة تميز بين المؤمن والكافر، ومصير كل منهما.

فتبرز الأمور التالية :

١ ـ ضرورة حرص كل من تصدى لدعوة الحق والإيمان على تبليغها للناس دون أن يهلك نفسه في الحزن على من يرفض دعوته ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾.

٢ ـ ضرورة المقارنة دائماً أثناء حمل الدعوة بين الحق والباطل، بين المؤمن والكافر، كأسلوب يرسم الخط الصحيح بجانب الأعوج لأهمية هذا الأسلوب في حمل الدعوة.

٣ ـ ضرورة تقديم الإيمان ومتطلباته على كل أشكال الاضطهاد من سجن ونفي.

٤ ـ ضرورة الحرص على صحبة الأخيار وتجنب صحبة الأشرار ولو كان يلتقي حامل الدعوة بهم جميعاً.

٥ ـ ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ تؤكد أن للإنسان الاختيار في الإيمان أو عدمه، فلا يملك أحد إلا عرض الحق على الناس بشكل مثير للعقول والنفوس على رجاء الاستجابة بمحض الإرادة، وأما ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ فإنها قد توحي بالتناقض مع الآية السابقة بأن الهداية والضلال بالإكراه من الله تعالى، وأن أحداً لن يستطيع أن يتدخل في ذلك غير الله تعالى، ولاشك بعدم صحة تصور هذا التناقض لأن الآية الأولى تخبر بأن الحق والهدى يأتيان من الله بإنزالهما للبشر بواسطة الوحي أو غيره من الوسائط، وأن للإنسان أن يأخذ بهما أو يرفض ذلك بكامل إرادته واختياره، بينما الآية التالية لا تتحدث عن مصدر الهدى والضلال كالأولى وإنما عمن يضع الهدى بين أيدي البشر ويدعوهم للأخذ به، وأنه إذا لم يضعه فإنهم سيضلون ولن يجدوا غير الله تعالى يفعل ذلك، فالآيتان بنفس المعنى وإن اختلف أسلوب التعبير.

٦ ـ ضرورة الحرص على الإكثار من المقارنات أثناء الدعوة وضرب الأمثلة التي تجعل السامع يحس بالمعاني والأفكار كأنها واقع محسوس فيقبل عليها.

٧ ـ ضرورة تذكر قصور الإدراك البشري للحقائق مما يستدعي اتهام المسلم لنفسه بأنه لم يحسن توصيل الفكر بالأسلوب الكامل لغيره، كما يستدعي الصبر في التبليغ مهما تطاول الزمن، وليذكر أن المرحلة المكية، وهذه السورة مكية، هي مرحلة الدعوة قبل الدولة، وأنها مرحلة الصراع الفكري والكفاح السياسي، وأنها غير المرحلة المدنية، مرحلة الدولة التي تتجلى بالتطبيق العملي المادي للشريعة والجهاد المادي بأشكاله المتنوعة بعد الدولة.

سورة مريم (١٩)

التقديم

سورة مريم مكية، وتقع في ثمان وتسعين آية، ويروى أنها السورة التي قرأها جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه على النجاشي وأساقفته، فبكوا حتى اخضلت لحاهم لسماعها، فرفض على أثر ذلك تسليم المسلمين المهاجرين إلى الحبشة، جعفر وصحبه، إلى قريش ليقتلوهم ثأراً بقتلى بدر.. وهي تشتمل على الأمور التالية:

تبدأ السورة بعرض قصة زكريا عليه السلام الذي دعا ربه وهو شايب وامرأته عاقر أن يهب له ولداً فاستجيبت دعوته ووهب له ربه يحيى وجعل له آية وهي ألا يكلم الناس ثلاثة أيام فكان يدعو قومه لطاعة الله تعالى بالإشارة أثناء ذلك.

ثم تنتقل لعرض قصة مريم عليها السلام وحملها وولادتها بعيسى عليه السلام دون زوج وجعل الصوم نذراً لها حتى لا تكلم أحداً عند السؤال عن ذلك فيجيب الطفل من مهده على تساؤلاتهم المستنكرة ذلك بأنه عبد الله وأنه مبارك من الله تعالى وأنه مأمور منه بالصلاة والزكاة والبر بوالدته طيلة حياته، وأن أحزاب بني إسرائيل قد اختلفت في شأنه بعد أن رفع إلى السماء فينبه اليهود الذين رموا أمه بالزنى، والنسطورية النصارى الذين رأوه بأنه ابن الله سبحانه، والملكانية النصارى بأنه ثالث ثلاثة، واليعقوبية بأنه الله سبحانه ليكفوا عن ذلك.. ودعا المولى عز وجل في نهاية القصة رسوله محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أن يوجه إنذاراً لهم جميعاً إذا لم يتوقفوا عن ذلك كله ويعودوا لقول الحق بأن عيسى هو عبد الله ورسوله وإلّا فإنهم سيندمون يوم القيامة أشد الندم ويخلدون بكفرهم في النار.

ثم تأتي السورة إلى عرض جانب من قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه، وبالذات مع والده، وكيف دعاه لترك عبادة الشيطان الذي يحسّن لهم عبادة الأصنام فيطيعونه، ولكنه أي والده بدلاً من الاستجابة لابنه نجده يتهدده بالرجم بالحجارة إن استمر على دعوته، فيترحم به ويعده بالاستغفار له بأمل أن يؤمن قبل أن يموت، واضطر بعد أن عرّضه قومه للهلاك بالإلقاء في النار لتركهم والهجرة عنهم ليهبه ربه إسماعيل عليه السلام من هاجر، ثم إسحاق من سارة، ومن إسحاق يعقوب عليهم جميعاً السلام.

ثم تمر بعدها السورة سريعاً بالإشارة إلى قصة موسى عليه السلام وما وهبه تعالى من أخيه هارون نبياً معيناً له في تبليغ رسالته إلى بني إسرائيل، ثم الإشارة إلى قصة إسماعيل عليه السلام النبي الرسول الذي بعثه الله تعالى إلى قبيلة جرهم، ثم الإشارة إلى

إدريس عليه السلام النبي الذي رفعه الله عز وجل إلى السماء الرابعة حيث قبض ملك الموت روحه ودفنت جثته، وأن هؤلاء الأنبياء من ذرية آدم، ومن بقايا من حملوا في سفينة نوح، ومن ذرية إبراهيم ويعقوب عليهما السلام، فكانوا ممن اختارهم الله تعالى لتبليغ هديه وعبادته هو وحده دون غيره.

ولكن هل اتبعهم أقوامهم على الإيمان والطاعة لله تعالى؟ لقد خلفهم من أولادهم من كفروا وتركوا الطاعة واتبعوا شهواتهم، فلن يروا الجنة ولن يشموا ريحها إلا من يتوب منهم عن ذلك ويقبل على التزام الطاعات فإنه يدخل الجنة حيث لا يتناولون إلا وجبتين من الطعام في الصباح والمساء.

وبعدها تتعرض السورة إلى أمور عديدة تتتابع على النحو التالي:

فمن تنبيه الرسول عليه وآله وصحبه السلام إلى أن جبريل عليه السلام لو تأخر عنه أو نزل فإنه لا يفعل من ذلك شيئاً إلا بأمر الله تعالى، وأن عليه وآله وصحبه السلام أن يصبر على عبادته ولا يحزن لتأخير الوحي عنه.

إلى الإشارة لإنكار بعض الناس البعث، وأن الله تعالى يبدأ بحساب عتاة كل قوم وإن كان البشر كلهم سيردون النار ولكن الله ينجي منها الأتقياء ويبقي المشركين.

إلى ذكر مكابرة الكفار وزعمهم أنهم أفضل من المؤمنين، وأنهم لم يعتبروا بمن قبلهم وما حل بهم، وأنهم ما أن يروا عذاب الدنيا أو الآخرة حتى يروا مكانتهم وأنهم أضعف من المؤمنين وأسوأ مكانة بينما يختلف عنهم المؤمنون بثباتهم على الهدى ومكانتهم الطيبة الكريمة.

إلى تنبيه الرسول عليه وآله وصحبه السلام بذاك الرجل الذي يزعم بأنه سيعطيه الله تعالى في الجنة، إذا وجدت كما يجدف، المال والأولاد رغم كفره وكأنه يعلم الغيب أو له عهد مع الله تعالى في ذلك، وأن عليه أن يعلم أن الله تعالى عالم بكفره وأنه يستدرجه بالمزيد من عطاء الدنيا مع انتظار المزيد من العذاب، وأنه سيقف بين يدي الله فريداً وحيداً للحساب يوم القيامة بلا مال ولا ولد ولا نصير.. فليكف هو وأمثاله من مشركي قريش عن عبادة غير الله سبحانه من أصنام وغيرها مما سينطقهم الله يوم القيامة فينكرون عبادتهم لهم ويقفون ضدهم في كفرهم بالله.

إلى تكرار التنبيه للرسول عليه وآله وصحبه السلام إلى ما يفعله الكافرون استجابة لشياطينهم من ارتكاب المعاصي والمنكرات، وأن عليه عليه وآله وصحبه السلام ألا يطلب لهم العذاب لأن موعده محدد الوقت سواء في ما يحل بهم من القتل وغيره في الدنيا أو العذاب في الآخرة.. في ذلك اليوم الذي يساق المؤمنون إلى جنة الرحمن

ويساق المجرمون إلى نار جهنم حيث لا يجدون من يشفع لهم باستثناء المؤمنين العصاة فلهم الشفاعة بإيمانهم.

إلى ذكر نمط آخر من أنماط الكفر، إنه الزعم بأن للرحمن ولداً، سواء كانوا من أهل الكتاب أو غيرهم، دون أن يدركوا أن بزعمهم هذا يرتكبون أفظع أنواع الكفر، كيف لا والرحمن سبحانه يعبده كل من السموات والأرض فكيف ينسبون له الشريك والولد؟! وسيرون يوم الدين حقيقة زعمهم وهم يساقون إلى جهنم كل منهم لا ناصر له ولا مال معه ينفعه.. ولينظروا إلى المؤمنين الصالحين وهم يجدون في الدنيا حب عباد الله تعالى وفي الآخرة صحبتهم في الجنان.

إلى التذكير بأن الله تعالى قد يسر فهم القرآن لكي يبشر المتقين بنعيم الجنان في الآخرة مهما تعرضوا من ابتلاءات في الدنيا، وينذر الكافرين بخلود النيران في الآخرة مهما تمتعوا وتقلبوا في مسرات الدنيا.. وأن على هؤلاء الكافرين أن يعتبروا مما حصل من إهلاك السابقين من أمثالهم من الكفار حتى عفّى عليهم الزمن.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ
رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ
ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ
يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ
سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا
﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ
ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ
ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ
صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾
وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾

فبعد افتتاحيتها وتسميتها بهذه الحروف ﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾﴾ مجتمعة تذكر السورة

رحمة الله تعالى على عبده زكريا عليه السلام عندما توجه إلى ربه بالدعاء الخفي في نفسه مفضلاً له على المسموع، مما يلتقي مع قوله عليه وآله وصحبه السلام «إن خير الذكر الخفي وخير الرزق ما يكفي» وإن كان في الجهر أحياناً كما فعل عليه السلام ما هو أفضل.

فبدأ زكريا دعاءه لربه بذكر حاله العالم بها ربه، وأن عظمه قد ضعف كناية عن ضعف جسمه كله بسبب تقدم السن وشيب الرأس، ثم ذكر خوفه من أن يرثه في الدين والمال غير الولد من أقاربه، ثم ذكر عقم زوجته (إيشاع) أخت (حنة) أم مريم كما يقال، مما يدل عليه قوله عليه وآله وصحبه السلام في حديث الإسراء «فلقيت ابني الخالة يحيى وعيسى»، ثم طلب من ربه أن يهب له ولياً مما يشمل الولد وغيره وإن فهم أنه يقصد الولد، بالرغم من أنه قد تجاوز السبعين أو التسعين، ولكنه اعتاد على استجابة ربه له دائماً كلما دعاه، فسأل الولد ليرثه في الدين إذ ذكر وراثته لآل يعقوب، وأن يكون مرضياً عند ربه.

وتذكر السورة بعدها أن الله تعالى قد استجاب دعاءه وبشره بولد حدد له اسمه بيحيى لم يسبق إليه أحد، وأنه عليه السلام قد تعجب من قدرة الله تعالى أن يأتي ولد من امرأة عاقر وشيخ كبير، فطمأنه الملك بأن ذلك هين على الله إذ خلقه هو قبل أن يخلق ابنه يحيى، فلا عجب ولا استغراب.. وعندها سأل زكريا ربه أن يتمم نعمته عليه بأن يجعل له آية على نعمة الولد فأمره بألا يكلم الناس ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾ وبالفعل خرج من محرابه وأشرف على قومه من مصلاه وأشار إليهم إيماء وكتابة أن يعبدوا الله صباحاً ومساءً بمعنى أن يلتزموا طاعته دائماً.

ثم توجهت السورة بالخطاب إلى يحيى عليه السلام، هذا المولود المبارك، وأمره المولى عز وجل بأن يلتزم كتاب التوراة بكل جد واجتهاد بعد أن منحه تعالى معرفة الأحكام وهو صبي لم يتجاوز السنين الثلاثة، كما قال قتادة ومقاتل، كما منحه الشفقة والرحمة والمحبة، والطهر والبركة، فكان تقياً طائعاً لله تعالى كما كان باراً بوالديه وبعيداً عن الكبر والتعالي على الناس، فاستحق الأمان من ربه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث يوم القيامة.

وتأتي السورة بعدها بشيء من التفصيل إلى قصة مريم عليها السلام وولادتها لعيسى عليه السلام فتقول وهي تعقب عليها محذرة منذرة من وصفه بالولد لله سبحانه:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا

فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨)
قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى
بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ
وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ
ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ
رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى
عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦)
فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا (٢٧) يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ
سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّى
عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ
وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ
وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا
كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ
فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦) فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ
(٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٣٨) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ
قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠)

فتدعو الرسول محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بأن يعرّف أهل الكتاب بقصة مريم ليعرفوا كمال قدرته تعالى، وذلك عندما ابتعدت عن أهلها ممن كان معها لتعبد الله تعالى في محرابها من الجانب الشرقي منه، مما يشير إلى سبب اتخاذ النصارى المشرق قبلة لهم، وأن الله تعالى قد أرسل إليها وهي مستغرقة في عبادتها جبريل عليه السلام الذي ظهر أمامها بصورة رجل سوي الخلقة، مما جعلها تستعيذ بالرحمن منه ليبتعد عنها ولا يؤذيها إذا كان في ذكر الرحمن ما يخوفه إذا كان مؤمناً تقياً.. فطمأنها جبريل عليه السلام بأنه مرسل إليها من الله تعالى ليهب لها ولداً مباركاً، فاستفهمت منه عن طريق ذلك وهي غير متزوجة ولا زانية وكانت فتاة صغيرة، فأكد لها مذكراً بقدرة الله تعالى على ذلك وأنه تعالى يريده معجزة للناس إذ يجيء من أم دون والد، ويكون رحمة لمن آمن به، وأن ذلك مما قضاه الله تعالى وقدره، ولا راد لذلك.

ثم تصور السورة لحظات وضعها له عليه السلام فتقول بأن مريم تنحَّت بالحمل بعيداً عن الناس، لأن الوضع جاء بعد الحمل في الحال، وألجأها المخاض إلى الجلوس بجانب جذع نخلة لتستند إليه، فدعت إلى ربها بأنها لو ماتت قبل هذا الوضع خوفاً من الفضيحة على نفسها، ومن الهلاك لمن يتهمها بالزنى، وعندها ناداها جبريل عليه السلام من موقع أدنى من مجلسها بألا تحزن بولادتها لأن الله تعالى قد رزقها ولداً، وأن عليها أن تهز يدها جذع النخلة لتجد الرطب الشهي يسقط عليها وقد أنبته الله تعالى سريعاً على النخلة بعد أن كانت مجرد جذع أجرد من الورق والثمر، وأن تأكل منه وتشرب من الجدول الصغير الجاري بجانبها، مما يشير إلى أن الرطب أفضل ما تأكله الوالدة المرضعة، كما يدل على سنة الله في خلقه بلزوم السعي طلباً للرزق، وإن كان من الممكن أن يأتي معجزة دون سعي. ثم يأمرها الملك جبريل عليه السلام بأن تلزم الصمت أمام أسئلة أهلها والناس جميعاً عندما تعود إليهم بولدها، وأن ذلك نذر منها.

وبالفعل عندما استنكر قومها ما ظنوه سوءاً بها، وأنها بفعلها المزعوم جاءت أمراً عظيماً، وأن والديها كانا طاهرين من الدنس كما كان جدها الأول هارون عليه السلام كذلك، فعندما استنكروا ذلك أشارت إلى وليدها مما جعلهم يستنكرون دعوتها لهم بالكلام مع طفل وليد، ولكنهم فوجئوا بهذا الوليد وهو يجيب على استفساراتهم بأنه عبد الله الذي يقر بعبوديته لله تعالى ويرد على من غلا من بعده في شأنه، وأنه قد حكم له بقضائه بإيتاء الكتاب والنبوة متى كبر، وجعله مباركاً في الدين والدنيا، وأوصاه بأداء الصلاة والزكاة والبر بوالدته طيلة حياته، ولم يجعله متكبراً يقتل ويضرب على الغضب ولا خائباً من الخير عاصياً لربه، وأن نطقه هذا في المهد لم يدم بعد ذلك حتى جاء في وقته مع الكبر، وأنه قد ألقى عليه السلامة ربه تعالى يوم ولادته وطيلة عيشه، ويوم موته وبقائه في القبر، ويوم بعثه في الآخرة.

وتعقب السورة على هذه القصة فتقول بأن هذا الذي ذكره الله تعالى فيها هو عيسى ابن مريم حقاً وصدقاً وليس كما تقول اليهود أنه ابن يوسف النجار بالزنى، ولا كما تقول النصارى بأنه إله أو إبن إله أو ثالث ثلاثة، إنه عبد الله ورسوله وروح منه وكلمته كما قال المسلمون من بني إسرائيل، وهم الذين تعرضوا للغلبة من الآخرين والفناء.

ثم تحذر السورة من القول بأن الله سبحانه له ولد، وأنه القادر بقضائه وحكمه على تحقيق أي أمر بمجرد أن يقول له ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، ولأنه سبحانه هو ربك يا محمد

ورب كل الخلق فعليهم جميعاً أن يؤمنوا بذلك ويعبدوه وحده لا شريك له، وأن ذلك هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه.

وتواصل السورة التعقيب فتشير إلى ما وقع بين فرق بني اسرائيل في أمر عيسى عليه السلام بعد أن رفعه الله تعالى إلى السماء، فتذكر أن الخلاف قد دب بينهم، فاليهود قد اتهموه بالسحر ورموه بالمجيء من الزنا، والنصارى النسطورية رأوه ابن الله سبحانه، والنصارى الملكانية رأوه ثالث ثلاثة: أي أن الله إله وعيسى إله وأمه إله، والنصارى اليعقوبية رأوه أنه الله سبحانه، فأفرطت النصارى وغلت، وفرّطت اليهود وقصّرت.

ثم تقول السورة: الويل والهلاك لهؤلاء الكافرين من شهود وحضور يوم الحشر على إجماعهم على الكفر بالله بعد التشاور والانتهاء إلى القول: إن الله ثالث ثلاثة (الأب والابن وروح القدس)! ثم تقول بأنه لا أحد اسمع منهم يوم القيامة ولا أبصر حين يسأل عيسى ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] فيكذبهم في زعمهم وكفرهم هذا، ولكنهم سيبقون سادرين في غيّهم وضلالهم طيلة الحياة الدنيا، وأي ضلال أوضح من أن يعتقد المرء في شخص مثله حملته الرحم، وأكل وشرب، وأحدث واحتاج.. أنه إله؟!! إنّ أمرأ مثل هذا لهو الأصم الأعمى في الدنيا ولكنه المبصر السامع في الآخرة وذلك إذا رآى العذاب، وهيهات أن ينفعه ذلك!!

وتنهي السورة تعقيبها بدعوة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بإنذارهم بما ينتظرهم يوم الحساب من فظيع العذاب عندما تستولي عليهم الحسرة وهم يدركون ضياع الجنة عليهم بكفرهم، وبعد أن يقفوا للحساب يوم القيامة وقد بعثوا من موتهم لينال كل منهم جزاء عمله.

ثم تقف السورة مع قصة إبراهيم عليه السلام في حواره مع أبيه، واعتزاله لقومه بعد إعراضهم عنه، ونعمة الله تعالى عليه جزاء صدقه وصبره فتقول:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا
يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا
سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ
عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ
لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾

داعية الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام أن يذكر في نفسه ويذكّر غيره بقصة إبراهيم عليه السلام التي يخبره بها ربه في القرآن، وذلك بعد أن عرفوا أنهم من ولده، وأنه كان حنيفاً مسلماً ولم يكن يتخذ الأنداد ليكفوا عن اتخاذها تبعاً لملة أبيهم إبراهيم وإلا كانوا من السفهاء ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾[البقرة: ١٣٠]. وأخبرهم يا محمد بالحوار الذي دار بينه وبين أبيه آزر عندما استنكر عليه بأدب جم وهو يخاطبه بـ «يا أبتي» عبادة الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع بشيء، ودعاه لأن يتبعه بتوحيد الله وعبادته لأن الله تعالى قد أبلغه من علم اليقين والمعرفة به تعالى، وما يكون بعد الموت، وما ينتظر من يعبد غير الله من العذاب، وأن في اتباعه على ذلك الاهتداء إلى الدين المستقيم الذي لا نجاة في غيره، وأن في عبادة غيره من الأصنام وغيرها اتباع للشيطان العاصي للرحمن، وأن في ذلك النزول تحت عذابه تعالى إذا مات على كفره فيكون قريناً في النار للشيطان.

ولكن والده بدلاً من الاستجابة لدعوته الحانية العطوفة الشفوقة تهدده بالرجم بالحجارة إن لم يكف عن تلك الدعوة، مصوراً مدى الإصرار على الباطل وهو يدعوه ليهجر أباه طويلاً ليأمن على نفسه المعرة، كما يتخيل موقف قومه.. فلم يملك إبراهيم العطوف الحليم إلا الرد الكريم على أبيه ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ﴾ أي سأتركك وشأنك، ولكنني سأطلب لك المغفرة من ربي البار اللطيف بي، قالها برجاء إيمان أبيه قبل موته مما يدل على جواز الدعاء بالهداية والمغفرة للكافر ما دام حياً.

ثم أخبر والده بأنهم وقد اعرضوا بهذا الشكل عن دعوته حتى ألقوه في النار اضطروه لمفارقتهم، كما مر في سور عديدة، وأنه سيهاجر عنهم بزوجتيه سارة وهاجر وكله رجاء إلى الله تعالى أن يهب له أهلاً وولداً يتقوى بهم حتى لايستوحش بالانعزال عن قومه، وأن المولى عز وجل وهبه إسحق من سارة بعد أن كان قد وهبه إسماعيل من هاجر، وبذلك أنس وحشته بولد، وجعل لإبراهيم وأولاده إسحاق ومنه يعقوب وإسماعيل ثناء حسناً تذكرهم به جميع الملل مدى الزمان.

أين أنتم يا أهل الكتاب من إبراهيم عليه السلام الذي كان حنيفاً مسلماً ولم يكن من المشركين، وكل منكم يزعم أنه كان على هديه هو، اليهود يرونه يهودياً والنصارى

يرونه نصرانياً وهو عليه السلام ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾؟!!

وتذكر السورة بعدها إشارات إلى قصص موسى وإسماعيل وإدريس، ثم تعقب على القصص كلها بنوعية من تبعهم فتقول:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾

إقرأ يا محمد عليهم قصة موسى الذي كان مخلصاً غير مرائي في عبادته، والذي كلمه ربه ليلة الجمعة من الجانب الأيمن من جبل الطور بسيناء حين أقبل من مدين إلى مصر، وكلمه ربه من غير وحي، ووهب له حين سأل ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾﴾ [طه: ٢٩ ـ ٣٠] أخاه هارون نبياً وسنداً في تبليغ رسالته.

كما وإقرأ يا محمد عليهم قصة إسماعيل عليه السلام، إسماعيل الذي سمي أبو العرب ابن إبراهيم، الذين كان صادق الوعد لوالده إبراهيم عندما وعده بالصبر على طلبه له بالذبح فصبر حتى فدي، وكان رسولاً نبياً إلى قبيلة جُرهم، وكان يأمر أمته وأهله بالصلاة والزكاة، وكان راضياً زاكياً صالحاً.

كما وإقرأ عليهم يا محمد قصة إدريس عليه السلام، الذي سمي إدريس لكثرة درسه لكتاب الله تعالى إذ أنزل عليه ثلاثون صحيفة، كما يروي أبو ذر، وأن الله تعالى قد رفعه إلى السماء الرابعة، بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام «لما عرج بي إلى السماء أتيت على إدريس في السماء الرابعة» وأنه عليه السلام توفي هناك ودفنت جثته فيها.

وتعقب السورة على هذه القصص الثلاث، وعلى ما سبقها، فتشير إلى إدريس وحده من ذرية آدم، وإلى إبراهيم وحده ممن حمل مع نوح، وإلى إسماعيل وإسحاق ويعقوب من ذرية إبراهيم، وإلى موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى من ذرية إسرائيل (يعقوب)، وإلى كل من اهتدى بالإسلام وسار على الإيمان، وأنهم يتصفون بالخشوع لله والبكاء متأثرين بما يعونه ويسمعونه من آيات الله تعالى.

هذا هو حال أولئك النبّيين وأما من خلفهم وجاء بعدهم فقد خلفهم أولاد سوء، انتهى حالهم إلى أبناء الأمة الإسلامية جنباً إلى جنب مع غيرهم من أهل الكتاب وغيرهم ممن اختاروا الشرك، فكان من المسلمين من أضاع الصلاة كفراً وجحوداً أو تفريطاً وإهمالاً، وكان منهم من اتبع الشهوات والأهواء من الأفكار والمذاهب الملحدة مادية وغير مادية مما جعلهم يستحقون ما ينتظرهم من العذاب الشديد اللهم إلا من تاب عما هو فيه من الكفر أو المعصية وأقبل على الإيمان وطاعة الرحمن، وعندها يدخل الجنة دون انتقاص من أعماله بأدنى شيء، تلك الجنة الموعود بها دون أن يراها، تلك الجنة التي ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥ ـ ٢٦]، والتي يتناول فيها أصحابها وجبتين فقط في الصباح والمساء، مما يشير إلى عدد الوجبات اللازمة للإنسان الصالح، تلك الجنة التي يورثها المولى عز وجل لعباده الأتقياء الصالحين.

وتتناول السورة مع اقترابها من نهايتها العديد من الأمور فتبدأ برد جبريل عليه السلام على الرسول عليه وآله وصحبه السلام بشأن إبطائه عنه فتقول:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾

مبينة قدرة المولى عز وجل وتدبيره لخلقه ليس فقط في جانب محاسبتهم ومجازاتهم، كما مر، وإنما أيضاً في جانب ما ينزل به الملك جبريل عليه السلام على رسل الله تعالى، ومتى ينزل، وأن شيئاً من ذلك لا يحصل إلا بأمره تعالى، ولذلك نزلت هذه الآية تجيب على سؤاله عليه وآله وصحبه السلام لجبريل عليه السلام «ما منعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟» وذلك بعد أن أبطأ عليه بعد أن سأله قومه عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح ولم يجد ما يجيبهم، وطال الإبطاء لخمسة عشر يوماً، أو حوالي ذلك، وأضاف الملك في جوابه معللاً بطأه بأن كل ما سبق وما لحق وما بين ذلك هو لله تعالى، علماً وتدبيراً بسننه في خلقه، وأنه سبحانه لا ينسى أن يرسله هو أي الملك متى أراد ولا ينسى رسوله محمد عليه وآله وصحبه السلام وإن تأخر عنه

الوحي، وأنه عز وجل خالق ومدبر السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات، فلا أزمان تخرج عن إطار تدبيره ولا أعيان.

وأن ما عليك يا محمد إلا أن توحده سبحانه وتعالى بالعبادة والخضوع والطاعة، وأن تصبر كل الصبر على هذه العبادة والطاعة ولا تحزن لتأخير الوحي عنك بل عليك أن تستمر في الاشتغال بما أمرت به، واذكر يا محمد أنك تعلم أنه لا ولد له سبحانه ولا نظير ولا مثيل أو شبيه يستحق اسم الرحمن.

ثم تأتي السورة إلى أمر آخر من دلالات قدرته تعالى في خلقه من حيث البعث والحشر فتقول:

﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ
شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ
شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا
وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا
تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴿٧٣﴾ وَكَمۡ
أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ﴿٧٤﴾ قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا
رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ
ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾

وانظر يا محمد إلى أبي بن خلف، وأمثاله في كل زمان ومكان، وهو يتهجم على قولك بالبعث بعد الموت، فيستبعده، ويرى أنه من المستحيل أن يبعث حياً بعد أن يموت ويتحول إلى عظام بالية مفتتة، فتذكّره السورة بما كان عليه قبل الحياة، وأنه لم يكن له وجود فأوجده الله تعالى وهو القادر على بعثه إذ الإحياء أهون من الإيجاد ابتداءً.

ثم يتهدده المولى سبحانه بأنه سيحشره بعد أن يبعثه مع الشياطين التي زينت له هذا الكفر، ويقسم تعالى على ذلك، فيكون في جهنم مع قرينه الشيطان الذي أغواه بعد أن يجلبوا جميعاً وهم على رُكبهم لعجزهم عن القيام من هول ما هم فيه، يجلبوا حول جهنم ثم إلى داخلها، وعندها يستخرج المولى عز وجل من كل أمة وأهل دين الأشد عتياً على الرحمن فالأعتى، وينزل بهم التعذيب بالتتالي، وينتهون بعدها إلى الاستقرار في حريق النار حسب أحقيتهم في ذلك تبعاً لكفرهم وشناعة أعمالهم.

ثم تعلق السورة مشيرة إلى الناس كافة، مؤمنهم وكافرهم، وأنهم جميعاً يردون جهنم ﴿حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ بما يفسره صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «الورود الدخول، لا يبقى برٌّ ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم» ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ ويصدرون عنها كما يوضحه الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام «يرد الناس النار ثم يصدرون منها بأعمالهم، فأولهم كلمح العين ثم كالريح ثم كحفر الفرس، ثم كالراكب المجد في رحله، ثم كشد الرجل في مشيته»، ولذلك فسرت آية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] أي عن العذاب فيها والإحراق بها وليس عن دخولها، وبقية الآية ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ يؤكد أنهم جميعاً في داخلها فيصدر أو يخرج المؤمنون ويبقى الكافرون فيها وهم جثاة على ركبهم، وسواء قيل عن الورود أنه جواز الصراط أو رؤية النار من بعيد أو الدخول مع السلامة فإن النار لا تمس المؤمنين، ويبقى الورود قضاء حتمياً من الله تعالى لا يرده شيء، وأن من هذا القضاء الرباني تخليص ونجاة المؤمنين بعد ورودها وترك الظالمين المشركين فيها.

ثم تعود السورة لتشير إلى المشركين المنكرين للبعث، والذين سيبقون في جهنم بعد أن يخرج منها المؤمنون، فتذكر بأنهم يتعززون بالدنيا إذا قرئ عليهم القرآن وهم يرون في كثرة أموالهم وأولادهم دليل حق لهم وهم يسعون بمخاطبة المؤمنين بذلك لإثارة الشبهة في المستضعفين منهم وإيهامهم بأن كثرة الأموال والأولاد دليل المُحِقِّ في دينه، وكأنه لا يوجد كافر فقير ولا مسلم غني.

وانظر إليهم يا محمد ومشركو قريش من أمثال النضر بن الحارث وأصحابه يقولون لفقراء أصحابك بأنهم في حالهم الرثّة لا يمكن أن يكونوا الأحق منهم وهم في حالهم المنعّمة، وأن موضعهم ومكانتهم أفضل منهما للصحابة، فليذكروا كم من الأمم والجماعات السابقة كانت أحسن منهم منظراً وأكثر متاعاً ولكن الله تعالى قد أهلكهم بكفرهم وغطرستهم على طاعة ربهم.

وقل لهم يا محمد بأن من اختار منهم الكفر والضلال وأصر عليها فإن الرحمن يدعه في طغيان جهله وكفره فيطول اغتراره ويزيد عذابه سواء عندما يرون ما ينتظرهم من العذاب بنصر المؤمنين عليهم وأخذهم بالسيف والأسر أو عندما تقوم الساعة فيصيرون إلى النار وبئس القرار فتنكشف لهم حينئذ الحقائق ويرون بأم أعينهم أيهم صاحب المقر الأشد سوءاً وأيهم الأضعف جنداً. فليكفوا عن الاغترار بالمال والولد والدنيا كلها!!

ولينظروا إلى الذين اختاروا الهدى، وكيف أن الله تعالى ينصرهم في الدنيا وينتهون بأعمالهم الصالحات إلى جزاء الجنة مما هي خير من دنياهم ومصيرهم.

ثم تأتي السورة إلى أمر آخر يتعلق بالتفاخر بالأموال والأولاد من مشركين رأوا في الكفر عزاً لهم فتقول لهم مذكرة بمصيرهم والفرق الشاسع بينه وبين مصير المتقين:

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ
عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا
﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ
ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ
عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ
ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾

مخاطبة الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بشأن العاص بن وائل وقوله لخباب رضي الله عنه وقد جاءه يتقاضاه في حق له عنده فقال له: لن أقضيك حتى تكفر بمحمد، فرد عليه خباب: لن أكفر به حتى تموت ثم تبعث، فقال: وإني لمبعوث بعد الموت؟! مستنكراً ذلك ومستبعداً، وأضاف: فسوف أقضيك إذا رجعت إلى مال وولد.

فنزلت الآية تقول للرسول عليه وآله وصحبه السلام أن انظر إلى هذا وأمثاله الذين يرون أنفسهم أحق بالجنة ونعيمها لبطرهم بما بين أيديهم من الأموال والأولاد في الدنيا، فهل علموا الغيب حتى يعلموا أفي الجنة هم أم لا؟! وهل لدى أي منهم عهد من إيمان وعمل صالح يدخلهم الجنة؟! إن شيئاً من ذلك لا يملكونه، وكل ما يقولونه محسوب عليهم ليجازوا به في الآخرة، وسنزيدهم عذاباً فوق عذاب ونسلبهم ما أعطيناهم في الدنيا من أموال وأولاد، ونحشرهم كل بمفرده دون شيء منها بعد شديد الحساب.

وانظر إليهم وهم لشدة تعنتهم يتخذون من أصنامهم آلهة يرون فيها عزاً ومنعة من عذاب الله تعالى ليقول لهم سبحانه بأن الأمر ليس كذلك وإنما هو الظن والوهم الذي أوقعهم في الكفر بعبادتهم وشركهم، وتكون معبوداتهم ضدهم يوم القيامة وهي تكذبهم.

وانظر إليهم وهم يصحبون شياطينهم بالسير على غوايتهم وشرهم وإغرائهم بالمعاصي، ولا تطلب لهم العذاب لأن ربك يؤخرهم بكفرهم وطغيانهم ليزدادوا إثماً.

وانظر إلى المتقين وهم يحشرون بالمقابل في وفود وجماعات كريمة إلى جنة

الرحمن، ودار كرامته بينما يساق أولئك المجرمون المتكبرون وهم مشاة عطاش إلى جهنم.. فشتان بين الفريقين! شتان بين هؤلاء الكفار الذين لا يملكون الشفاعة لأحد وبين المسلمين الذين يملكون الشفاعة بقدر إيمانهم وصالح أعمالهم.

وتبقى الشفاعة في العصاة لله تعالى وحده بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام «لا أزال أشفع حتى أقول يا رب شفعني فيمن قال لا إله إلا الله محمد رسول الله فيقول يا محمد إنها ليست لك ولكنها لي»، فلا تقبل شفاعة عبدة الأصنام لأحد، ولاشفاعة الأصنام لأحد، ولا يملكون شفاعة أحد لهم.. فهّلا استعد بإيمانه وأعماله كل مؤمن للشفاعة!!

ثم تأتي السورة إلى نوع آخر من الشرك، إنه شرك القول بنسبة الولد إلى الله سبحانه، فتبين مدى عظم شناعته.. فتقول:

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾

وانظروا إلى أولئك اليهود والنصارى، ومن زعم أن الملائكة بنات الله من مشركي مكة، وهم يزعمون أن لله سبحانه ولداً، فيأتون بمنكر عظيم وقول فظيع تكاد السموات يتشققن منه ويتصدعن، وتنشق معهن الأرض وتتساقط الجبال محدثة صوتاً عالياً. وفي الحديث «اللهم إني أعوذ بك من الهّد والهدّة» أي الهدم والخسف.. وكل هذا بسبب زعمهم أن للرحمن سبحانه ولداً هو العزير أو المسيح أو الملائكة.

وصدق القاضي ابن العربي إذ قال: ولولا أن الباري تبارك وتعالى لايضعه كفر الكافر، ولا يرفعه إيمان المؤمن، ولايزيد هذا في ملكه، كما لا ينقص ذلك من ملكه، لما جرى شيء من هذا على الألسنة، ولكنه القدوس الحكيم الحليم، فلم يبال بعد ذلك بما يقوله المبطلون. والحقيقة أنهم باختيارهم لباطلهم إنما يجنون على أنفسهم، كيف لا والرحمن سبحانه ينزه نفسه عن هذا الشرك لأن الولد يقتضي المشابهة في الجنسية والحدوث مما لا يليق وصفه سبحانه به ولا يجوز نسبته إليه، لأنه لا يكون ولد إلا من والد، والوالد له والد وأصل، والله سبحانه يتعالى ويتقدس عن ذلك.

وانظروا وأنتم ترون أن كل المخلوقات في السموات والأرض وهي آتية يوم

القيامة للحساب مقرة له بالعبودية، خاضعة ذليله ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧] أي صاغرين أذلاء، فالخلق كلهم عبيده، فكيف يكون واحد منهم ولداً له عز وجل؟! تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.

والرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام يقول «يقول الله تبارك وتعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن لي كفواً أحد».

واعلموا أن الله تعالى قد علم عددهم فلا يخفى عليه منهم أحد، فقد أقروا له بالعبودية، وشهدوا له بالربوبية، وأنهم كلهم آتون للحساب بين يدي الله تعالى كالفرد الواحد الذي لا ناصر له ولا مال معه ينفعه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩] فعمله فقط هو الذي ينفعه وقلبه العامر بالإيمان هو الذي ينفعه.

وانظروا إلى المولى عز وجل وهو يوبخهم إذ كيف لا يرضون لأنفسهم باستعباد أولادهم، والكل عبيده، ويرضون له سبحانه ما لا يرضون لأنفسهم؟!

وتأتي السورة أخيراً إلى الإشارة لعاقبة المؤمنين والمشركين والدليل على ذلك من السابقين.. فتقول:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾

مبينة مدى ما يضع الرحمن من حب للمؤمنين الصالحين في قلوب عباده، بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام «إذا أحب الله عبداً نادى جبريل إني قد أحببت فلاناً فأحبه ـ قال ـ فينادي في السماء ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض، فذلك قوله تعالى ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾، وإذا أبغض الله عبداً نادى جبريل إني أبغضت فلاناً فينادي في السماء ثم تنزل البغضاء في الأرض»، فإذا كان محبوباً في الدنيا فهو محبوب في الآخرة لأنه مؤمن تقي خالص نقي.

وانظروا إلى القرآن وقد يسر المولى عز وجل فهمه وإدراك معانيه بإنزاله بالعربية

ليسهل عليه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وعلى أتباعه من المؤمنين نقل البُشرى بالجنة للمتقين، والإنذار بالعذاب للكفار المخاصمين المجادلين في الباطل.

فمن هم الذين يكفيهم ما حل في الأمم والجماعات السابقة من هلاك العبرة والخوف الشديدين بعد أن لم يبق منهم أحد وعفى الزمن على آثارهم.. فهلّا اعتبرتم وتفكرتم وتدبرتم يا من على شاكلتهم؟!!

دليل سورة مريم ـ ١٩

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٩٨ آية، وهي نفس السورة التي تلاها رئيس جماعة المهاجرين إلى الحبشة جعفر بن أبي طالب على النجاشي وأساقفته فأثرت فيهم فرفض تسليمهم لوفد مشركي مكة.

- تؤكد أن الأولاد هبة ورزق من الله تعالى لزكريا عليه السلام ولكل البشر.. فليقبلوا على طاعته والدعاء له.

- تبين أن قدرة الله تعالى مطلقة فلا يعجزه سبحانه ولادة مثل عيسى عليه السلام من أم دون أب، وقد خلق آدم دون أب ولا أم، وخلق حواء من أب دون أم.

- وتذكر كيف تجلت قدرته تعالى في إنقاذ إبراهيم عليه السلام من نار النمروذ فترك موطنه بالعراق وهاجر إلى بلاد الشام.

- وتذكّر المرتد بمظاهر قدرته تعالى المطلقة في إنقاذ موسى وقومه من فرعون، وفي رعاية إسماعيل وأمه في أرض كانت مهجورة، وفي رفع إدريس إلى السماء.

- وتؤكد أن على الإنسان أن يجد في تلك الأحداث ما يجعله يؤمن لو أحسن التفكير والاعتبار وتطلع إلى الآخرة ونعيمها بدلاً من الدنيا ومتاعها.

- وتؤكد للناس كافة أن فهم القرآن ميسر لهم فلا حجة لهم بالجهل بالإسلام ورسالته.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ الاطمئنان إلى أن استجابة الله القادر على كل شيء لزكريا وأم مريم متحققة لكل صادق مخلص في عمله ودعوته.

٢ ـ الاطمئنان إلى أن الرزاق الكريم لمريم بفاكهة الصيف في موسم الشتاء قادر على أن يرزق النصر لطلابه متى استحقوه وجاء موعده.

٣ ـ الاطمئنان إلى أن قدرة الله تعالى مع مريم وهي في غاية ضعفها عند وضع وليدها إذ بمجرد الإشارة لجذع النخلة بحركة يتساقط عنها الرطب، وأن هذه القدرة

كفيلة بإسقاط الأرزاق على البشر ولا يلزمهم إلا اتخاذ الأسباب البشرية ولو بحركتهم الضعيفة.

٤ ـ ضرورة الحرص على الوالدين بالذات والأقارب عموماً في دعوتهم إلى الله مهما كانوا بعيدين أو معارضين وذلك أعتباراً بقصة إبراهيم مع أبيه.

٥ ـ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ تحمل نداء حاراً لكل مسلم بأن لا يكتفي بالعبادة الآمنة المطمئنة السهلة الميسورة بل يتعداها لتحمل المشقات والصبر الكثير الكثير عليها، وليذكر أن سلعة الله غالية، وسلعته هي الجنة التي تستحق الصبر والإصطبار.

٦ ـ ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ تؤكد المزيد من توفيق المولى سبحانه في طاعته لمن أخذ بها وسار عليها، وأما من يأخذ بالضلال ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ فإن الله تعالى يعطيه فرصة التفكير والتدبر وبالتالي الاختيار بين الاستمرار في الضلال أو تركه والأخذ بالهدى. وعندها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ فسيجدون مودة الله تصحبهم في السماء والأرض.

وبهذا انتهى الجزء الثاني من المجلد الأول

من دراسة تفسير جامع الأحكام للإمام القرطبي

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ومولانا

محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

سورة الأعراف (٧) **٣**
التقديم ٣
التفسير ١٦
دليل سورة الأعراف ٥٠
سورة الأنفال (٨) **٥٣**
التقديم ٥٣
التفسير ٥٨
دليل سورة الأنفال ٧٧
سورة التوبة (٩) **٨٠**
التقديم ٨٠
التفسير ٨٨
دليل سورة التوبة ١٢٠
سورة يونس (١٠) **١٢٢**
التقديم ١٢٢
التفسير ١٢٨
دليل سورة يونس ١٤٦
سورة هود (١١) **١٤٨**
التقديم ١٤٨
التفسير ١٥٠
دليل سورة هود ١٧٠
سورة يوسف (١٢) **١٧٢**
التقديم ١٧٢
التفسير ١٨٠
دليل سورة يوسف ١٩٨

سورة الرعد (١٣) ١٩٩
التقديم ١٩٩
التفسير ٢٠٤
دليل سورة الرعد ٢١٤
سورة إبراهيم (١٤) ٢١٦
التقديم ٢١٦
التفسير ٢١٩
دليل سورة إبراهيم ٢٣١
سورة الحجر (١٥) ٢٣٢
التقديم ٢٣٢
التفسير ٢٣٦
دليل سورة الحجر ٢٤٧
سورة النحل (١٦) ٢٤٩
التقديم ٢٤٩
التفسير ٢٥٧
دليل سورة النحل ٢٨٠
سورة الإسراء (١٧) ٢٨١
التقديم ٢٨١
التفسير ٢٩٠
دليل سورة الإسراء ٣١٢
سورة الكهف (١٨) ٣١٤
التقديم ٣١٤
التفسير ٣١٧
دليل سورة الكهف ٣٣٢
سورة مريم (١٩) ٣٣٥
التقديم ٣٣٥
التفسير ٣٣٧
دليل سورة مريم ٣٥٠